

الدكتور القصبي محمود زلط

القرطبي

ومنهجه في التفسير



إهداء 2005

أ.د. / محمد عثمان نيادي

القاهرة

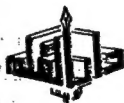
القرطبي

ومنهجه في النفس

تأليف

الدكتور القسبي محمد زكريا
الأستاذ المساعد
بجامعة الأزهر وقطر

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية



حقوق الطبع محفوظة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

دار القلم - الكويت - شارع السور - عمارة السور
ص. ب. ٢٠١٤٦ - هاتف ٤٢٥١٦٠ - برقية توزيعكو

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله سيد الخلق أجمعين.
« وبعد » .

فإن القرآن مادة^(١) لا يشبع منها القراء والدارسون مهما تناولوا منها وأطالوا الجلوس حولها . بل كلما تناولوا واقتطفوا من نماذجها فتحت شهيقهم وتجددت عندهم الرغبة في الاستزادة . ولا عجب فالقرآن مادة الله وكلامه الذي لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد . ومن هنا كثرت الدراسات حول كتاب الله وتشعبت على مر العصور فظهر من المداين تناول إعرابه وظهر منهم تناول أحكامه وظهر منهم تناول أسباب نزوله ، وظهر منهم تناول تفسيره .

وفي القرن السابع الهجري نبغ في التفسير عدد من المفسرين كان من بينهم « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي » ولقد اخترته لرسالتي لأنني أعجبت بالقرطبي منذ كنت طالبا : أعجبتني فيه أنه لا يتناول في تفسيره مسألة علمية . ولا يطرق بحثا ولا يعقد مناقشة إلا أجاد في كل ذلك ووفى . وأعجبتني فيه أن مسائله وبحوثه ومناقشاته — في كثير من الأحيان —

(١) مادة باء : المصنوع يصنعه الانسان فيدهو إليه الناس فكان القرآن صنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع .
انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ٥ وما بعدها .

لا تخرج بتفسيره إلى حد الاستطراد الملل ، بل تنير الطريق لمن يريد أن يستكشف ألفاظ القرآن ويعرف معانيها . وكنت كلما تقدمت في السن أأس هذه الحقيقة وأحس أن الكتاب موسوعة هدية رائعة . فلما وفقني الله في الدراسات العليا ، وآن لي أن أكتب بحثاً قفز إلى ذهني ذلك الإعجاب الذي شب معي « بالقرطبي » فلم أتردد أن يكون موضوع هذه الرسالة « القرطبي ومنهجه في التفسير » ومما قوى ذلك في نفسي أنني وجدت هذا الموضوع بكراً لم يتناوله أحد ولم يكتب عنه باحث .

ولقد قسمت هذه الرسالة إلى ثلاثة أبواب وخاتمة . أما الباب الأول فقد جعلته لدراسة « القرطبي وبيئته » ويتكون هذا الباب من خمسة فصول . ترجمت في الفصل الأول « للقرطبي » وشيوخه ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن أخلاق القرطبي وثقافته ، وفي الفصل الثالث تحدثت عن عقيدته ، وفي الفصل الرابع تناولت الحركة العلمية في عصر « القرطبي » ثم تناولت في الفصل الخامس الأحوال السياسية في عصره أيضاً .

وأما الباب الثاني : فقد عقدته لبيان المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره ، ولدراسة منهجه ، والأسس التي قام عليها ذلك المنهج ، ثم لبيان القيمة العلمية لتفسيره وتأثر المفسرين به ، وجاء هذا الباب في « أحمد هشر فصلاً » .

تحدثت في الفصل الأول عن مصادره ، وفي الفصل الثاني تحدثت عن موقف « القرطبي » من قضية التفسير المأثور والتفسير بالرأى ، ثم تحدثت عن منهجه في التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين .

وفي الفصل الثالث بينت موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة وطريقته في كل منهما ، وفي الفصل الرابع تناولت بعض المباحث الفئوية التي استخدمها القرطبي في تفسيره وبينت أنه أبرز كثيراً من مسائل النحويين وآرائهم ، واعتمد عليها في توضيح الآيات ، ثم تحدث عن استشهاده بالشعر في مجال النحو والألفاظ الغريبة ، وبينت موقفه من الشعر المصنوع والمجهول الذي لا يعرف قائله ، وأخيراً تحدثت عن استشهاده بالحديث في هذا المجال وموقفه من هذه القضية .

وفي الفصل الخامس تناولت موقف القرطبي من البلاغة وبينت أنه كان لا يتوسع في الأسرار البلاغية .

وفي الفصل السادس تحدثت عن التفسير الرمزي ، وموقفه من التفسير الرمزي الذي استعملته الصوفية ، وموقفه من التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية ، ثم تحدثت عن أشهر مصادره من التفسير الصوفي .

وفي الفصل السابع تناولت الأحكام في تفسير القرطبي — فتحدثت عن موقف القرطبي من الفقه المالكي ، ومن الفقه المقارن ، ثم من الفقه المبنى على أحاديث الخلاف — وبينت أن القرطبي لم ينصب لمنهجه ولم يلتزم بأداة الخصم . بل كان يناصر ما يراه حقاً ، وفي الفصل الثامن بينت أن القرطبي أبرز في تفسيره كثيراً من قواعد الأصول ولكنه لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل عرض لها في صورة تساعد على فهم الأحكام وتوضيحها .

وفي الفصل التاسع تحدثت عن منهج القرطبي في الحديث ، فتناولت موقفه من تخرج الأحاديث ، وموقفه من تصحيح الأحاديث وتضمينها ، وموقفه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة .

وفي الفصل العاشر تحدث عن موقف القرطبي من الاسرائيليات .
وفي الفصل الحادي عشر تناول القيمة العلمية لتفدير القرطبي وتأثر
المفسرين به .

أما الباب الثالث والأخير : فقد عقدته لبيان مدى تأثير القرطبي بالقاضى
أبى محمد عبد الحق بن عطية ، وناقشت ما أثير حول هذه القضية .
وأما الخاتمة فقد ذكرت فيها ما توصلت إليه من نتائج ، وما ناقشته من
آراء وأثرته من احتمالات .

ولعلنى أكون قد قدمت بهذا البحث المتواضع للمكتبة الإسلامية شيئاً
جديداً .. وأسأل الله تبارك وتعالى أن ينعم به ، وأن يفر لى خطائى وتقصيرى
إنه أهل التقوى وأهل المغفرة .

د . القصبي محمود زلط

الباب الأول

الفرطى ويسته

الفصل الأول

نشأة القرطبي وشيوخه

لم تشر للراجع التاريخية إلى السنة التي ولد فيها « أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر ابن فرح » (١) .. الأنصارى الخزرجى القرطبي « ولكنها تنفق جميعا على السنة التي مات فيها ، بل وتحديد يوم وفاته وأنه كان ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ ، ولقد بحثت كثيرا في كتب التراجم والطبقات على أكثر على ترجمة مفصلة له حتى أكون منها حلقة كاملة من حياته ولكنني وجدتني لا تشير إلى أسرته ولا ترجم لأبيه ولا تنقح صاحبنا في مراحل حياته بل لم تلق إلا بصيصا من ضوء على حياته كلها لا يمكن أن أفقد من خلاله إلى تكوين هذه الحلقة .

وكنيت أسائل نفسي : هل نشأ القرطبي في بيت هز ونمة أم في بيت فقر ومتربة؟ وهل نشأ في كنف أبويه أم تربى يتيما أشرف عليه في يتمه بعض أقاربه ؟

وعلى فرض أن القرطبي نشأ في كنف أبويه . فهل كان أبوه من العلماء فأشرف بنفسه على تربيته في السنين الأولى من حياته وسقاه من معينه ووجهه هذه الوجهة العلمية أم كان من العامة فأسلمه إلى الأساتذة والمعلمين ؟ ؟

كنت أسائل نفسي كل هذه التساؤلات فأتابع البحث ولكنني أهود بخفي حنين . وبينما أنا أقرأ في تفسيره وقع لي فيه عند قوله تعالى « ولا تحسبن

(١) فرح يفتح الفاء وسكون الراء وحاء مهملة .

الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون^(١) » أنه قال في المسألة الخامسة :

« المدو إذا أصبح قوما في منازلهم ولم يملوا به فقتل منهم ، فهل يكون حكمه حكم قتيل للمترك أو حكم سائر للوتى . وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله . أغار المدو — قصمه الله — صبيحة الثالث من رمضان للمظم سنة سبع وعشرين وستائة والناس في أجرائهم على غفلة فقتل وأسر وكان من جملة من قتل والذي رحمه الله . فسألت شيخنا للقرى الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال : غلّه وصل عليه فإن أباك لم يقتل في المترك بين العفنين : ثم سألت شيخنا ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن وبيع بن أبي فقال : إن حكمه حكم القتلى في المترك . ثم سألت أضى الجماعة أبا الحسن هل بين قتال واحد وجهامة من الغنم فقالوا : غلّه وكفنه وصل عليه ، ففعلت . ثم بعد ذلك وفتت على المسألة في « التبصرة لأبي الحسن القضى » وغيرها ولو كان ذلك قبل ذلك ما غفلت وكنت دفتته بدمه في ثيابه^(٢) .

وأقوى ما يؤخذ من هذا النص أن « القرطبي » نشأ في كنف أبيه ورعايته وأن أباه كان يشتغل بالزراعة وكان يباشر حصاد أحد المحاصيل يوم قتل مع غيره من المسلمين على يد النصارى بقرطبة سنة ٦٢٧ هـ .

ولقد كانت « قرطبة » في ذلك الوقت تدين بالطاعة لزعيمها « محمد بن يوسف بن هود » « ت سنة ٦٣٥ هـ » الذى استطاع أن يخضع طاعة الموحد بن

(١) آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٢) تهذيب القرطبي ج ٤ ص ٢٧٢ دار الكتاب العربي .

وأن يدهو لنفسه منسنة ٦٧٥ هـ فبايعته « مرسية وماردة وبطايوس وقرطبة » ورأى النصرارى فى « ابن هود » عندما توالى طاعة التواهد الأندلسية له خطرا يهددم فأكثروا من الفزوات على أملاكه حتى يحملوا قوته قبل أن تستفعل ، فاستولى ألفونسو التاسع ملك « ليون » على « ماردة وبطليوس » سنة ٦٧٧ هـ وخرج ابنه فرناندو الثالث فى نفس السنة من « قشتالة » بقواته وأنجه جنوبا حتى « فحس غرناطة » وهو أينما صار يغرب القرى وينسف الزروع ويسبي القوية . فلعل الغارة التى أشار إليها القرطبي كانت على يد الفشتاليين عندما أنجبوا إلى الجنوب فإن قرطبة تتاخم حدودهم وتقع فى طريقهم (١) .

وأن هذا النص رغم أنه أعطانا شيئا فإن النموذ لا يزال يكتنف حياة « القرطبي » ، ولكننى أستطيع أن أقول أن القرطبي — وقد فى همر الموحدين فإذا فرضنا أنه وقد فى الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجرى أو قبل ذلك بقليل ، فإنه يكون قد وقد فى عهد الخليفة « يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن » (٥٨٥ — ٥٩٥ هـ) .

وعندما بلغ القرطبي من العمر حدا يسمح له بتلقى التعليم تعلم العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن . وهذه طريقة فى التعليم افرد بها أهل

(١) راجع (الاحاطة فى أخبار غرناطة) لسان الدين بن الخطيب ج ٢ ص ٩٢ . وانظر همر الرابطين واللوحدين فى الغرب والاندلس الاستاذ محمد عبد الله هنان ص ٣٩٩ وما بعدها . وانظر خريطة تبين تفكك الدولة للوحدية والدول التى قامت مكانها فى نفس الراجح ص ٥٦٩ وخريطة تبين انهيار الاندلس وماكسبته للممالك الاسبانية النصرانية ص ٤٩١ . وأن القرطبي بوقته الصريح — من أن قتيل الكفار الذى أخذ على حافة لا يسل — يتفق مع كثير من الفقهاء والائمة .

الأندلس وم في هذا يخالفون سائر الأمصار الإسلامية الأخرى حيث يتلم الصبيان القرآن وحده أولاً دون سائر العلوم .

ولقد انتقد طريقة الأندلسيين القاضي « أبو بكر بن العربي » ، د ٥٤٣ هـ ، ودعا إلى تعليم الصبيان اللغة والشعر أولاً ثم القرآن الكريم لأنه بهذا يسهل عليهم القرآن .

وامتدح « ابن خلدون » طريقة « ابن العربي » ولكنه ما د فبين أن الصبي إذا اقتصر على اللغة والشعر حتى يكبر قد يحول بينه وبين تعلم القرآن حائل أو تكثر عليه مشاغل الحياة فينقطع عن المـسلم وما يفوته تعلم القرآن (١) .

ثم واصل « القرطبي » تعليمه وترقى فيه فننقل بين حلقات العلم في قرطبة إلى أن غادرها ، ولقد كانت حلقات العلم منشرة بجميع المدن الأندلسية وكانت المساجد أما كن هذه الحلقات وتماثلنا « كتب التراجم » بمجموعة من الأسانيد تصدروا للتدريس في المساجد وعلى سبيل المثال في ترجمة « عبد الله ابن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصي » فبين ابن « الأبار » أنه نشأ في بلنسية (٢) . وكانت له رحلات علمية إلى « إشبيلية (٣) » وإلى فاس (٤) ، التقى فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ثم عاد إلى بلنسية وتصدر للتدريس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٨ .

(٢) بلنسية : بفتح الباء واللام وسكون النون وكسر اللين وفتح الياء .
مدينة مشهورة بالأندلس تقع شرق قرطبة .

(٣) إشبيلية : بكسر الهزة وسكون الشين وكسر الباء للوحدة وباء ساكنة ولام وياء خفيفة مدينة عظيمة بالأندلس هربى قرطبة .

(٤) فاس : بالسين المهملة مدينة مشهورة من مدن المغرب .

بالمسجد الجامع وكانت وفاته في شعبان سنة ٦٢٢ هـ (١).

ويبدو أنه إلى جانب هذه الحلقات كان يوجد بعض الماهد العلمية وكلامها يشبه التعليم الجامعي، ولذلك لم يظهر في المدن . أما القرى فكان يقتصر فيها على المدارس التي تشبه التعليم الابتدائي والثانوي في عصرنا، وكان هذا أيضا إلى جانب الحلقات والماهد في مدن الأندلس: يقول صاحب « الإسلام والحضارة العربية » .

« أنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس وخزائن الكتب وأقاموا في المواسم الجامعات التي كانت وحدها مواطن العلم في أوريانمناطويلا » (٢).

ويؤيد الدكتور « جودت الركابي » ذلك فيقول : « وازدهرت الماهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس وكانت الماهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ تجمع العلوم والمعارف ومقصد الطلاب من كل فج » (٣).

ويشير القرطبي إلى بعض شيوخه الذين تلقى عليهم بقرطبة في حادثة مقتل أبيه ويبدو أنه في هذا الوقت لم يكن قد استكمل دراسته فإنه أخذ يسأل ويستفتي . ولكنه أخذ السير وتابعه في هذا الطريق . فقد كانت للأندلسيين هزيمة وثابة تحجزهم على ذلك في صبر وجلد ، فقد سئل أحد الأندلسيين عن كلمة لغوية فعجز عن مضاعفها أمام من يجادل بمحضته فأقسم أن يقيد وجليه

(١) انظر (التكملة) لابي عبد الله محمد بن أبي بكر النضاعي الشهير بابن الأبارح ج ٢ ص ١٣ .

(٢) الإسلام والحضارة العربية للاستاذ محمد كركد على ص ٢٦٠ ح ١

(٣) في الأدب الأندلسي للدكتور جودت الركابي ص ٧

بقيد حديد ولا يتره حتى يحفظ (الفريب المصنف)^(١) فاتفق أن دخلت هاية
أمة في تلك الحال فارتاحت فقال :

ريعت عجوزى أن رأتنى لابسا حلق الحديد ومثل ذلك بروع
قالت جنتت قللت بل هى همة هى هنصر العلياى والينيوغ
من الفرزدق سنة فتبعتهما إلى لماسن الكرام تبوع^(٢)
وقريب من هذا ما حكى عن (ابن حزم) فإنه لم ينصرف إلى الفقه
انصرفا فاكليا في صدر حياته بل كان يدرس الحديث والأدب والأخبار وبعض
العلوم العقلية والفلسفية ومع ذلك كان يناظر فيه ويجادل ولقد نقل « الذهبي »
في « تذكرة الحفاظ » عن بعض معاصريه أنه قال : بينما نحن بيلفسية ندرس
المذهب — أى مذهب مالك — إذا بأبى حزم يسمعننا وينعجب ، ثم سأل
الحاضرين عن شيء من الفقه أجيب عنه فاهترض فيه . فقال له بعض
الحاضرين : هذا ليس من منتحلانك . فنأثر ودخل منزله فاعتكف فيه فترة .
وما كان بعد أشهر حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر فيه أحسن مناظرة . قال
فيها : أنا أتبع الحق وأجتهد ولا أتقيد بمذهب^(٣) .

وبهذه العزيمة القوية أخذ القرطابى يثقى طريق العلم ويسير فى دروبه ، ومن
هنا وقعت له المسألة التى استغنى فيها شيوخه ، فى كتاب « التبريرة » وغيرها .
والنص السابق يوضح لنا أن من جملة شيوخه الذين تلمذ عليهم بقرطبة :

(١) كتاب لغوى « لايى هيد القاسم بن سلام » للتوفى سنة ٢٢٢ هـ
(٢) نفع العايب « للغرى » ج ٢ ص ٢٨٦ . والفرزدق هو الذى سن ذلك حيث
قيد رجليه وأقسم ألا يترهما حتى يحفظ القرآن الكريم .
(٣) « ابن حزم » لاستاذنا الشيخ محمد أبوزهرة ص ٣٥

« أبو جعفر أحمد ، المعروف بأبي حجة » ، « وربيح بن عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع بن أبي » أما الأول فهو : أحمد بن محمد بن القيس ويعرف بابن أبي حجة لا بأبي حجة . — فلعل التحريف وقع من النسخ — وهو من أهل قرطبة امتدحه ابن الأبار بأنه كان عالما بالعربية وعلوم القرآن ، ثم ذكر له عدة مؤلفات وبين أن له اختصارا على الصحيحين . ولما سقطت « قرطبة » في أيدي النصارى سنة ٦٣٣ هـ غادرها إلى « إشبيلية » وسكن بها حينئذ اتجه إلى ميورقة^(١) فأمرته الروم وامنحن بالتمذيب وتوفى على أثر ذلك بميورقة سنة ٦٤٣ هـ^(٢) ،

ولقد تها هذا الشيخ جملة من الاساتذة الاجلاء منهم : « أبو القاسم خلف ابن بشكوال »^(٣) المتوفى سنة ٥٧٨ هـ والقي ألف حسين تأليف في أنواع مختلفة . ومنهم « ابن مضاء أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء » المتوفى سنة ٥٩٢ هـ كان من أهل قرطبة وكان بارعا في القراءات والحديث عارفا بالفقه والأصول عتق مافي علم الكلام والعربية وصفه « صاحب الديباج »^(٤) ، فقال : « كان كريم الأخلاق حسن القاء جميل العشرة لم ينطوق قط على إحنة لمسلم عفيف ، اللسان صادق اللمحة نزيه المهمة كامل المروعة حسن المشاركة في العلوم على تفاريها » .

(١) ميورقة : بالفتح ثم الضم وسكون الواو والراء جزيرة ، في شرق الاندلس .
أظهر مجيم البلدان .
(٢) حضر الرباطين وللوحدين في الغرب والاندلس ، القسم الثاني من ٦٧٥ نفلا من التسكة لابن الأبار وانظر ابن الجوزي المحدث . رسالة دكتوراه لزميل « أبو اللا على أبو اللا » نسخة خطية بكتبة أصول الدين .
(٣) ضبط هذه الكلية بعض المؤرخين بضم الباء والكاف وضبطها بعضهم بفتح الباء وضم الكاف وادعى « ابن فرحون » أن « ابن خلكان » ضبطها بضم الباء والكاف ولكن « ابن خلكان » ضبطها بفتح الباء وضم الكاف . انظر الديباج للذهب لابن فرحون ص ١١٤ وانظر التسكة « لابن الأبار » ص ٥٣ ح ١ وانظر « وفيات لامهان » لابن خلكان ج ٢ ص ١٤ .
(٤) الديباج للذهب ص ٤٧ وما بعدها .

أما الشيخ الثاني فهو : « ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعري » من أهل قرطبة وقاضيا يكنى أبا سليمان يقول عنه « ابن الأبار » « وكان رجلا صالحا عدلا في أحكامه نبهه القدر والبيت » ثم بين أنه كانت له مشاركة في علم الحديث وتحدث بعد ذلك عن خروجه من قرطبة فقال « وخرج من وطنه لما استولى الروم عليه يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال سنة ٦٣٣ هـ فنزل إشبيلية وبها توفي فيها بلفنى حل إثر ذلك » (١).

ولقد توفرت لهذا الشيخ أيضا جملة من الاساندة الممدودين في العلم والفضل منهم : « أبو محمد بن حوط الله » وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر حوط الله الأنصاري « برز في الحديث والفقه والقراءات والنحو والأدب والشعر . وكان من العلماء العاملين سنيا مجانبيا لأهل البدع والأهواء وتوفي سنة ٦١٧ هـ بقرطبة وأصله من بلنسية ثم قتل إلى « مالقة » ودفن بها . (٢)

ولم تشر المراجع التي ترجعت لقرطبة إلى هذين الشيخين .

وفي قوله تعالى « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون » ذكر « القرطبي » أقوال بعض الصحابة بسند أحد شيوخه فقال في المسألة الأولى :

ولما نزلت هذه الآية بأمر أبو المحدث إلى التصديق بماله ابتغاء ثواب ربه، ثم قال :

(١) الشبكة لابن الأبار ج ١ ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) للرجع السابق ج ٢ ص ٥٠٦ وما بعدها وانظر الديباج ص ١٤٧ ومصر الرباطين وللوحيدين القسم الثاني ص ٦٥٧ .

« أخبرنا الشيخ الفقيه الامام المحدث القاضي أبو عامر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعري نسباً ومذهباً بقرطبة أهداها الله في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وصنائة قراءة منى عليه قال : أخبرنا أبي إجازة قال قرأت على أبي بكر عبد العزيز بن خلف ابن مدين الأزدي عن أبي عبد الله بن سعدون سماها عليه قال حدثنا أبو الحسن علي بن مهران قال حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابوري سنتين وستين وثلاثمائة قال أنبأنا يحيى أبو زكريا يحيى بن زكريا قال حدثنا محمد بن معاوية بن صالح قال حدثنا خلف ابن خليفة عن حميد الأهرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال :

لما نزلت « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » قال « أبو الدحداح » يارسول الله أو إن الله تعالى يريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح ، قال : أرني ذلك . قال : فقلوه . قال : فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة ، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وهيائه فناداها : يا أم الدحداح قالت : ليك ، قال : أخرجي فقد أقرضت ربى هز وجل حائطاً فيه ستمائة نخلة^(١) .

في هذا النص يذكر القرطبي أحد شيوخه ويذكر أنه أخبره — قراءة منه عليه — بسبب نزول الآية . والقراءة طريق من طرق الرواية ولا خلاف أنها رواية صحيحة سواء كنت أنت القارئ أو غيرك وأنت تسمع أو قرأت في كتاب أو من حفظ أو كان الشيخ يحفظ ما يقرأ عليه أو يمسك أصله . وأكثر المحدثين يسمون القراءة « هرصاً » لأن القارئ يمرض ما يقرؤه على الشيخ كما يمرض القرآن على إمامه .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٧ آية ٢٤٥ من سورة البقرة .

واختلف العلماء في القراءة والسماع أيهما أقوى؟ فذهب فريق إلى التوسية بينهما وذهب فريق آخر إلى ترجيح السماع على القراءة وهذا مذهب الجمهور. أما المذهب الثالث فهو ترجيح القراءة على السماع.

وشرط بعض المحدثين وبعض الظاهرية في صحة الرواية بالقراءة باقرار الشيخ عند تمام السماع بأنه كما قرأ عليه ، والصحيح أن هذا شرط غير لازم كما قال جمهور المحدثين والفقهاء ، ولقد أنكر مالك رضي الله عنه على من طلب منه التصريح بالإقرار ولم يجبه إلى طلبه.

قال يحيى بن عبد الله بن بكير : لما عرضنا الموطأ على مالك بن أنس رحمه الله قال له رجل من المغرب : يا أبا عبد الله أحدث به هنك ؟ قال : نعم ، قال : حدثنا مالك ؟ قال : نعم أما رأيته فرقت نفسي لكم وتمت عرضكم ، وأقت صقطة وزلة ، فمن حدثكم غيري ؟ نعم حدثوا به حتى وقولوا حدثنا مالك .

ومن صيغ القراءة : « أخبرنا » ولكن هذا اللفظ إذا استعمل مطلقاً فهو من صيغ السماع فإذا استعمل في الرواية بالقراءة فالأحوط أن يستعمل مقيداً . كأن يقول الراوى : أخبرنا بقراءة أو قراءة عليه وأنا أسمع^(١) وهذا يتفق مع ما ذكره القرطبي ، أما الشيخ الذي ذكر أنه قرأ عليه فإن المراجع لم تذكره في جملة شيوخه ، ولم أتهر على ترجمة بهذا الاسم وإنما وقع لي في كتاب « الديباج المذهب » ترجمة لشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن

(١) راجع «الامام القاضي عياض» بتحقيق الاستاذ سيد صقر ص ٧٠ وما بعدها ومعرفة السنن والآثار لابن أبي عمير بتحقيق الاستاذ سيد صقر ص ٥٨ وتدريب الراوى للسيوطي ص ١٣٦ وفهرست ابن خیر ص ١٣ .

ربيع الأشعري « ويكنى « أبا حامر » قال : « ابن فرحون » في ترجمته : العالم الجليل المحدث الحافظ واحد عصره وفريد دهره ، كان رحمه الله تعالى عالماً من أعلام الأندلس ناصراً للسنّة رادعاً لأهل الأهواء متكلاً دقيق النظر شديد البحث سهل للناظرة شديد التواضع ، ثم ذكر صاحب الديباج « أنه ولي قضاء الجماعة بقرطبة وخرناطة » وذكر جملة من شيوخه ، وأنه حدث عن والده العالم المحدث أبي الحسين عبد الرحيم بن ربيع ، وشك في وفاته فقال « وتوفي سنة سبع أو ثمان وثلاثين وستائة » .

ووقع لي في « التكملة » « لابن الأبار » ترجمة لشيخ يسمى « يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن ابن ربيع الأشعري القرطبي » ويكنى أيضاً « بأبي حامر » قال ابن الأبار وهو يتحدث عنه « سمع من أبيه أبي الحسين » وكان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه نواظراً عليه في كتب أبي المالبي الجويني : « الشامل والارشاد » وغير ذلك ثم قال « . . . وولي قضاء بلده إلى أن أخذها الروم في سنة ثلاث وثلاثين وستائة فخرج منها فولى قضاء خرناطة وتوفي بمالقة مصروفاً بقالج أصابه وأقعد سنة ٦٤٠ هـ وقيل توفي في ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وستائة وولد سنة ٥٥٣ هـ . »

وقال صاحب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » عن ابن الأبار أ كثر ما ذكره في ترجمة هذا الشيخ (١)

ويبدو أن « ابن فرحون » « صاحب الديباج » قد ذكر سهواً أن والد هذا الشيخ يسمى « عبد الرحيم » والأصح أن والده يسمى « عبد الرحمن » (٢)

(١) انظر نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، هل حاش الديباج المذهب ص ٢٥٥

(٢) انظر في ترجمة والد هذا الشيخ « التكملة » ج ٢ ص ٥٦٦

وهل كل فإن بين ترجمة هذا الشيخ وبين ما ذكره «القرطبي» تشابها كبيرا
فقد قال القرطبي :

« أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي أبو حامد يحيى بن حامد بن
أحمد بن منيع الأشمري » فلعل الشيخ الذي ترجمته له هو ما عناه القرطبي
وأنه « يحيى بن عبد الرحمن » لا « يحيى بن حامد » وأن التحريف وقع من
النساخت كما وقع في لفظ « منيع » بالأصح أنه « ربيع » فلقد ذكر محقق تفسير
القرطبي أن كثيرا من النسخ الخطية يوجد بها « ربيع » بلاء لا بالميم، ويبدو
أن هذا الشيخ شقيق شيخ القرطبي السابق ذكره وهو « ربيع بن عبد الرحمن
ابن أحمد بن ربيع بن أبي » فلقد قال « ابن الأثير » في ترجمة « عبد الرحمن بن
أحمد بن ربيع » « من أهل قرطبة ويعرف بابن أبي » ونرى القرطبي ينسب
شيخه « ربيع ابن عبد الرحمن » إلى هذه الشهرة كما تقدم . وهذا يصح أن يرجع
أن هذا الشيخ الذي ترجمته له : هو ما عناه القرطبي ، وأن والده يسمى
« عبد الرحمن بن أحمد ابن ربيع » وأن عبد الرحمن هذا هو الشجرة التي تفرع
منها ربيع ، ويحيى فتتلمذ عليهما القرطبي .

ومن الواضح أنه تتلمذ على كل هؤلاء الشيوخ بقرطبة ، وإلى جانب ذلك
تتلمذ القرطبي على ما أنتجته قرائح العلماء من مؤلفات في العلوم الدينية ، وعلوم
الفقه والنحو والتاريخ والأدب . ونحن إذا تصفحنا « فهرسة ابن خبير » وشيوخ
ابن عطية ورسالة ابن حزم وتذيلاتها « طالعنا عدد هائل من هذه المؤلفات ،
واستطعنا أيضاً أن نضع أيدينا على نوعية الثقافة التي كانت شائعة بالاندلس ،
لا في ذلك العصر وحده بل وفي أكثر عصور المسلمين هناك . وأن هذه
الثقافة كانت تنبج إلى العلوم الدينية ، وعلوم الفقه والنحو والتاريخ والأدب .

واستمر القرطبي يدرس ويدرس إلى أن قدم إلى مصر وهو على درجة كبيرة من الثقافة والعلم . يقول الدكتور « أحمد بدوي » في مجلة الرسالة في مقال له عن القرطبي : « ولد بقرطبة من بلاد الأندلس ، وتلقى بها ثقافة واسعة في الفقه ، والنحو ، والقراءات . . . ودرس البلاغة وعلوم القرآن واللغة . . . ثم قدم إلى مصر » .

ومن حقنا أن نتساءل : متى قدم القرطبي إلى مصر ؟

لم تشر كتب التراجم والمطبوعات أدنى إشارة يمكن على ضوءها أن نجيب على هذا التساؤل . ولقد قال الدكتور « أحمد بدوي » في مقاله الذي أشرت إليه سابقا « ثم قدم — أي القرطبي — إلى مصر ، ولست أدري متى قدم إلى مصر » (١) .

ولكن قد وقع لي في تفسير القرطبي عند قوله تعالى « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجبا مستورا » وقع لي أن القرطبي يقول في تفسير هذه الآية : « عن أسماء بنت أبي بكر رضى الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « ثبت بدا أبي لمب » أقبلت الموراء أم جميل بفت حوب ولما ولوة وفي يدها فهر — أي حجر — وهي تقول :

مذمما ههينا • وأمره أيتنا • ودينه قلينا

والنبي ﷺ قاعد في المسجد وسمه أبو بكر رضى الله عنه ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله لقد أقيأت وأنا أخاف أن تراك ، قال رسول الله

ﷺ : « إنما إن تراني ، وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال ، وقرأ : » وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجبا مستورا ، فوقفت على أبي بكر رضى الله عنه ولم تر رسول الله ﷺ فقالت : يا أبا بكر ، أخبرني أن صاحبك هجاني ، فقال : لا ورب هذا البيت ما هجاك . قال : فقلت وهي تقول : قد علمت قریش أني ابنة سيدها . ثم أخذ القرطبي يذكر بعض الآيات التي اعتصم بها رسول الله ﷺ من المشركين ثم قال :

« قلت ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بمحصن منشور من أعمال قرطبة مثل هذا ، وذلك أني هربت أمام العدو وانحزت إلى ناحية عنه ، فلم ألبث أن خرج في طلبي طردان وأنا في فضاء من الأرض فاهد ليس يستبرئ عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ، فمبها على ثم رجعا من حيث جاءا وأحدما يقول الآخر : هذا ديبه (١) يعضون شيطاننا . وأمر الله عز وجل أبصارهم فلم يروى واخذ الله حمدا كثيرا على ذلك (٢) . »

وهذا النص يوضح لنا أن القرطبي هرب أمام العدو ونجاه الله . ولم يحدد لنا القرطبي تاريخ هذه الحادثة . وحاولت كثيرا أن أنف على حصن يسمى « منشور » متى وقع في يد الأعداء . وفي أي سنة أغار العدو عليه ؟ فلم أهنر على شيء من ذلك . وأخيرا وجدت دائرة المعارف البريطانية تتحدث عن حصن يقع شمال شرق مدينة قرطبة يسمى Montoro « مونتورو » ولكنها لم تقدم لنا شيئا تاريخيا عنه (٣) .

(١) لفظة فرنسية معناها جنى ، ولله كذلك في لغة اللاتين .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٩ وما بعدها .

(3) Encyclopaedia Britannica vol . 25 , Atlas, map No 47 . (Andalusia)

وكذلك قال القاموس الجغرافي العالمي إلا أنه تحدث عن هدد السكان
وعن الفواكه التي تزرع بهذا البلده ولم يقدم لنا أيضا شيئا تاريخيا عنه (١).

ولعل هذا الحصن هو ما هناء القرطبي غير أنه يبقى أماننا كثير من
التساؤلات . متى سقط هذا الحصن، ومتى أغار المدوعلية، ولماذا ذهب إليه
القرطبي؟ كل هذه التساؤلات لا أستطيع أن أفصل القول في الإجابة عنها .
وكل ما أستطيع أن أقوله أن أغلب الحصون التي تقع حول قرطبة استولى
النصارى الأسبانيون عليها . وذلك ليسهل عليهم اسقاط قرطبة . فلعل هذا
الحصن قد سقط مع هذه الحصون في سنة ٦٣٢ هـ . أو قبل ذلك بقليل (٢).

ولقد كان القرطبي داخل هذا الحصن أثناء حصار النصارى له لأمر ما .
للمقاومة بعض الشيوخ والتقى عنهم، أو لقضاء حاجة، أو لزيارة قريب . أو نحو
ذلك . ولما أراد أن يخرج أثناء الحصار تلقى بعض الأعداء، فذبحه الله
وعاد إلى قرطبة سالما . وعندما سقطت قرطبة في يوم الأحد الثالث والعشرين
من شهر شوال سنة ٦٣٣ هـ، غادر أهلها مدينتهم العزيزة بقلوب تفيض حزنا
وألما، وغادروها معهم ما جئنا «أبو عبد الله القرطبي» لكن إلى أين توجه القرطبي
بعد أن غادر قرطبة؟ هل قدم إلى الفيحاء المصرية مباشرة أم ذهب إلى إشبيلية
واستقر بها إلى أن سقطت هي الأخرى في سنة ٦٤٩ هـ؟ أم ذهب إلى بلنسية
أو غيرها من القواعد الأندلسية؟ لا نستطيع أن نحدد ذلك، وكل ما نستطيع
أن نقوله هو أن القرطبي قسم إلى الاسكندرية بعد خروجه من الأندلس عامة،
وأقام بها فترة من الزمن قبل أن يستقر بالمصيد .

(١) Grand dictionnaire de Géographie universelle ancienne
et moderne . Paris . vol . 3- P- 860 -

(٢) انظر «ستوطنة» في كتاب «عصر المرابطون والموحدين» القسم الثاني ص ٤١١ .

وذلك لأن الاسكندرية تقع في طريق من يقصد صعيد مصر أو يقصد القاهرة من الأندلسيين . سواء جاءوا عن طريق البر أو عن طريق البحر . (١)

ولستطيع أيضاً قول إن القرطبي جاء إلى الاسكندرية قبل سنة ٦٤٨ هـ . وذلك لأن المراجع التاريخي تبين أنه تلمذ على الأمام المحدث أبو محمد عبد الوهاب بن رواج ، وكانت وفاة هذا الشيخ في ١٨ ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ .

ولقد تلقى القرطبي أثناء مقامه بالاسكندرية ألوانا من الثقافة الإسلامية بمض الشيوخ الذين تخرجوا في مدرسة الطرطوشي وابن عوف والحافظ السلفي . فإن المراجع التاريخي تضع أيدينا على أنه في أواخر القرن الخامس الهجري وحوالي سنة ٦٩٥ هـ قدم الاسكندرية عالم علماء الأندلس وبقية من أكبر فقهاء المالكية ذلك هو « أبو بكر الطرطوشي محمد بن الوليد النوفى سنة ٨٥٠ هـ » ولقد وصفه صاحب الديباج بقوله « وكان إماما عالما هاديا زاهدا ورعا دينا متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها وتقدم في الفقه مذهبنا وخلافا » .

وكانت الإسكندرية عند قدوم « الطرطوشي » تعيش في حالة رعب وخوف ، والشعائر الدينية مهتلة ، وعداؤها مضطهدون لا يستطيعون الجهر بالعلم ، لأن العالوية العظمى منهم يتبعون المذهب المالكي ، والمذهب الشيعي

(١) الطريق من الأندلس إلى الاسكندرية بمرأ . عن طريق البحر الأبيض وبرا بمخاض الساحل الشمالى إلى الاسكندرية ثم يسير المسافر في النيل إلى الدامرة ثم إلى الصعيد الأهل حتى مدينة قوص ومن أود الحج يسير في الصحراء الشرقية متجها شرقا صوب هينذاب على شاطئ البحر الأحمر ومن هينذاب يركب المراكب إلى جنة ثم إلى مكة فالمدينة .

هو المذهب الرسمي للدولة في ذلك الوقت . ولكن الطرطوشى لم يخف من الفاطميين ، ولم يهرب جانبهم فبدأ يدرس وينشر العلم على مذهب مالك (١) .

ومن تلامذة الطرطوشى : « الطاهر بن هوف اسماعيل بن مكى للتوفى سنة ٥٨٩ هـ . قال السيوطى « إنه تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه وتخرج به الأصحاب » وبين صاحب الديباج أنه جمع مع العلم الورع والزهد وكثرة العبادة والتواضع ونزاهة النفس .

وابن هوف أول أستاذ لأول مدرسة هرقتها الإسكندرية نسبت إليه فسميت بالمدرسة العوفية . وكانت علوم الشريعة مواد الدراسة بها .

كذلك من تلامذة الطرطوشى : « الحافظ السلى وهو أبو الطاهر أحمد ابن محمد بن ابراهيم سلفه الأصهبانى الشافعى للتوفى سنة ٥٧٦ هـ . أصله من أصبهان ورحل كثيراً فى طلب العلم ثم قدم الاسكندرية سنة ٥١١ هـ فتتلمذ على الطرطوشى تسع سنوات ، وكان السلى من أئمة الحديث والفقه والفتنة ، درس بمساجد الاسكندرية أكثر من عشرين سنة ، فقصده العلماء من للشرق وللغرب ونزاحم عليه الناس ، فابتنى له « أبو الحسن على بن السلا » مدرسة فى سنة ٥٤٦ هـ عرفت هذه المدرسة باسم للمدرسة السلفية ، وظل يدرس بها حتى آخر لحظة من حياته . قال السبكى « ولم يزل يقرأ عليه الحديث إلى أن غربت الشمس من يوم وفاته وهو يرد على القارىء الحسن الخلقى ، وصلى يوم الجمعة الصبح عند انفجار الفجر وتوفى عقيب غداة . ووافق هذا اليوم الخامس من شهر ربيع الأول »

(١) انظر الديباج للذهب ص ٢٢٦ طبع الاداءة وانظر اعلام الاسكندرية لادبوتو
جال الدين للشهاب ص ٢٠ .

وبقدم لنا السلفي في مجله أنه كان إلى جانب تدريس الحديث يقوم بتدريس الفقه والتفسير والتاريخ . ولقد وصفه «ابن خلكان» بكلمة جامعة فقال بعد أن تحدث عن قنومه إلى الاسكندرية « وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسيموا عليه وانتفخوا به ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله (١) » .

في هذا الجو العلمي وفي تلك البيئة الثقافية تخرج أكثر شيوخ القرطبي الذين تلمذ عليهم بمصر، فكان لذلك أثره في حياته العلمية، ومن هؤلاء الشيخ الذين تخرجوا في مدرسة الاسكندرية :

« ابن رواج » كان من أئمة الحديث والفقه . قال الذهبي في مفتتح ترجمته « الشيخ الإمام الحديث مسند الاسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن رواج واسمه ظافر بن هلي ابن فتوح الأزدي الإسكندراني المالكي . ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة » ثم بين الذهبي أنه من خريجي مدرسة السلفي وابن هوف فقال « كتب لنفسه فأكثر من السلفي وسمع من أبي الطاهر بن هوف » ثم عاد فامتدحه بقوله « وكان فقيها فطنا دينيا متواضعا صحيح السماع انقطع بموته شيء كثير، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين وستمائة في الثامن عشر من ذي القعدة (٢) » .

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٨٧ وأعلام الاسكندرية . ويلاحظ أن الدكتور الشبال قد ذكر ابن « ابن السائر » قد بنى له مدرسته سنة ٥٤٤ هـ . ولكن « ابن خلكان » حدد تلك السنة بأنها سنة ٥٤٦ هـ وسلفه نسبة إلى جده ابراهيم سلفه . بكسر السين وفتح اللام والفاء وفي آخره الهاء وهو لفظ هجوي منناه بالمرعى ثلاث شفاة لأن شته الواحدة كانت مشدودة فصارت مثل شقين هير الاخرى الاصاية .

(٢) سير أعلام النبلاء .

ومنهم « ابن الجيزي » (١) وهو العلامة بهاء الدين أبو الحسن علي بن هبة الله ابن سلامة ابن السلم بن أحمد بن علي الغنوي اللصري الشافعي . كان من أعلام الحديث والفقه والقراءات . وكانت له رحلات علمية النقي فيها بكثير من العلماء وأخذ عنهم ، فسمع بمشق من أبي القاسم بن هساكر (٢) صحيح البخاري ، وقرأ القراءات المشر على ابن عسرون (٣) كما درس عليه الفقه وأخذ عنه الوسيط والوجيز للواحدى ، وكان ذلك بالشام ، وسمع الحديث ببغداد من شهدة الكتانية (٤) ثم عاد إلى وطنه فتعلم بالاسكندرية على السلفي وابن هوى ، وعصر على ابن برى النحوى .

ولقد امتدح الذهبي مشيخته في الحديث . وبين أنه تلقى الحديث على أكابر الحديث وفضلائهم

ولقد امتدحه المؤرخون وأثنوا على أخلاقه وعله فقال السبكي « وكان الفقيه بهاء الدين خطيب الجامع بالقاهرة ومدرس الديار المصرية وشيخها ورئيس العلماء بها ، درس وأفتى دهرًا ، وكان كبير القدر رفيع الجاه وأفر الحرمة . معظمًا هند الخالص والعام » .

ووصفه الذهبي بأنه شيخ الديار المصرية وأنه كان مسدد الفتاوى وأفر الجلالة مستند زمانه . وأثنى عليه أستاذه ابن أبي عسرون وألبسه العليسان

(١) الجيزي نسبة إلى الجيز وهو الشجر والاروف بضم الجيم ونجح اليم للشدة وسكون الياء .

(٢) هو أبو القاسم علي بن أبي محمد بن هبة الله بن عبد الله التتوي سنة ٥٧١ هـ

(٣) هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن أبي عسرون التتوي سنة ٥٨٥ هـ .

(٤) هي شهدة بنت أبي نصر بن عمر الأبري نسبة إلى الأبرة ، وفيت سنة ٥٧٢ هـ

تشریفاته علی أقرانه، حدث بذلك ابن الجوزی فقال «ألبسني شيخی ابن أبي
مصرور الطليسان وشرفني علی الأفران، وكتب لی بخطه : لما ثبت هندی
علم الولد الفقيه الإمام بهاء الدين أبي الحسن علی ابن أبي الفضل وقته الله
تعالی، ودينه وعذالته رأيت تميزه من بين أبناء جنسه وتشریفه بالطليسان
والله يرزقه النيام بحقه». وكانت وفاته يوم الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجة
سنة تسع وأربعين ومائة. ووصف بعض العلماء جنازته فقال : حضرت دفنه
وكان مشهدا عظيما قل أن يشهد مثله. وكان هناك قارى يعرف بابن أبي البركات
حسن الصوت جيد القراءة فقرأ عند قبر الفقيه بهاء الدين بمد تسوية التراب
عليه «إن هو إلا هيد أنمنا عليه» الآيات التي في سورة الزخرف. وقرأ
بالشاذ في قوله «وإنه لعل لساعة» بفتح العين واللام، والله لكان الآيات
نزلت فيه لما مثله الناس من أن موت العلماء من أعلام الساعة وأشراطها فبکی
الناس كثيرا وكثيرا (١).

وإذا كان ابن الجوزی من أعلام الحديث والفقه والقراءات وكانت له
مشاركة في التفسير كما يؤخذ من كلام المؤرخين. فإن القرطبي قد أخذ منه
ونهل من علمه، لكن هل تلمذ القرطبي عليه في الفقه.

إن ابن الجوزی كان شافعي المذهب، وكان القرطبي مالکیا، ومع هذا
فمن الجائز أن القرطبي تلمذ عليه في فقه الشافعية، فالطروشی وهو الفقيه
المالکی عندما دخل بغداد تلمذ علی كثير من فقهاء الشافعية (٢).

(١) راجع فی ترجمة ابن الجوزی سير أعلام النبلاء الذهبي ج ١٢ ب لوحة ٢٨٤ .
طبقات السبکی ج ٥ ص ١٢٧، عنرات الذهب لابن العماد ح ٥ ص ٢٤٦، ويلاحظ أن
السبکی جبل وفاته فی الرابع عشر من ذي الحجة سنة ٦٤٩ هـ مع أن كل المؤرخين جعلوا
وفاته فی الرابع والعشرين من هذا الشهر.

(٢) انظر أعلام الاسكندرية ص ٦٠ .

وبين المقرئ أن خواص الفقهاء بالأندلس لم يقتصرُوا على دراسة مذهب مالك بل كانوا يدرسون سائر المذاهب (١) وعلى هذا فلا يستبعد تلمذة القرطبي لابن الجيزي في الفقه الشافعي .

ومنهم : « أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم المالكي القرطبي » ، وقد برتبة وسمع الكثير هناك ، ثم قدم الاسكندرية فأقام بها وتلمذ على شيوخها . وبعد أن استوى هودى تولى تدريس الحديث والفقه ، فطار صيته وانتفع الناس به . وهو وإن لم يتلمذ على السلفي وابن هوف . فإنه عاش في تلك البيئة الثقافية التي أوجدتها مدرسة ابن هوف والسلفي بالاسكندرية . قال صاحب الشنرات في ترجمته : « وكان من كبار الأئمة » . وقال صاحب النفع هـ « وكان بارعا في الفقه والعربية ، عارفا بالحديث » ووصفه تلميذه شرف الدين الديلملي فقال : « وكان إماما عالما جامعا لمرفة الحديث والفقه والعربية وغيرها » . أما صاحب الديباج فقد قال في حقه « كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والنظم في علم الحديث ، وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب » . ومن مؤلفاته : المغفم في شرح مسلم . ولقد امتدح المقرئ هذا الكتاب فقال : « وهو من أجل الكتب ويكفيه شرفا اعتماد الإمام للنووي رحمه الله في كثير من المواضع » وفيه أشياء حسنة مفيدة » .

وأخطأ صاحب معجم المؤلفين عندما نسب إليه كتاب « التذكرة » . فإن « التذكرة » ليست من مؤلفاته وإنما هي من مؤلفات صاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » . وتوفي أبوسو العباس القرطبي في ربيع ذى القعدة سنة

(١) انظر فتح الطيب ج ١ ص ١٠٢ ، وليل « ابن الجيزي » هو صاحب كتاب التبريرة .

٦٥٦هـ^(١)، وكانت ولادته سنة ٥٧٨ هـ كذلك كان من شيوخ القرطبي :
 «الحسن البكري» — ٥٧٤ — ٦٥٦ هـ وهو الحسن ابن محمد بن محمد بن
 عمروك النيمي النيسابوري ثم الدمشقي أبو علي صدر الدين البكري . ولد
 بدمشق وكان كثير الرحلات في طلب العلم حتى أخلق عليه المؤرخون «الرحال» .
 فقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ، وفي «تذكرة الحفاظ» في صدر ترجمته
 الشيخ الإمام المحدث المفيد الرحال «وكذلك قال السيوطي في : طبقات
 الحفاظ» كما بين للأرخون أن «البكري» كان له اشتغال بالتاريخ وأنه شرع
 في عمل ذيل لتاريخ ابن عساكر ، ولقد اتهم البكري بالجون والتخليط . قال
 الذهبي في حقه : «وليس هو بالقوى ، ضعفه عمر بن الحاجب فقال : كان إماما
 عالما لسانا فصيحاً ، مليح الشكل ، أحد الرحالين ، إلا أنه كان كثير الغشوى»
 هندسه مدهية ومجون . داخل الأمراء وجدد مظالم . سألت الحفاظ ابن هبد
 الواحد عنه فقال : بلغني أنه كان يقرأ على الشيوخ فإذا أتى على كلمة مشككة ،
 تركها ولم يبينها . وسألت الزكي البرزالي عنه فقال : كان كثير التخليط . ثم
 أصيب هذا الشيخ بالفالج في أخريات حياته ، وكان قد صلح حاله ، فتحول إلى
 مصر ومات بها في ذي الحجة سنة ٦٥٦هـ^(٢) .

واننى لا أدري هل صلحت أحواله من الناحية الأخلاقية والعملية أم من
 الناحية الأخلاقية فقط ؟ إن تملق الذهبي على وصفه «البكري» ، ووصف ابن

(١) راجع في ترجمة أبي العباس القرطبي الديباج الذهب ص ٦٨ ، ونفع الطبيب ح ٢
 ص ٥ ومرتة الجنان لياضى ج ٤ ص ١٣٨ والبداية والنهاية لابن كثير ح ١٣ ص ٢١٣
 وشذرات الذهب ح ٥ ص ٢٧٣ ومجموع المؤلفين ح ٢ ص ٢٧ والاعلام ح ١ ص ١٧٨ .
 وحسن المحاضرة ح ١ ص ١٩٤ . شجرة النور الزكية .

(٢) راجع في ترجمة البكري سير أعلام النبلاء ١٣ ب ، تذكرة الحفاظ ٤
 ص ١٤٤ ودول الاسلام الذهبي ح ٢ ص ١٢٣ ، الاعلام ح ٢ ص ٢٣٢ .

الحاجب له يدلنا على أنه قد صلح حاله من الناحيتين الأخلاقية والعلمية فإنه قد عقب بقوله « قلت ثم في الآخر صلح حاله وابنى بالفالج قبل موته بسنوات ثم تحول في آخر عمره إلى مصر فأت بها في ذى الحجة سنة ست وخمسين ومئته » كما يدلنا أيضا على أنه لم يقدم إلى مصر إلا بعد أن صلح حاله . ولعل عبارة السيوطي توضح لنا ذلك أكثر ، فإنه قد قال : « وكان إماما عالما أحد الزهادين ، وجدد مظالم ثم في الآخر صلح حاله وحصل له فالج فتحول إلى مصر فأت بها في آخر ذى الحجة سنة ٦٦٥ هـ . »

فهلالة القرطبي عليه كانت إذن بعد صلاح أحواله من الناحيتين ، وأغلب ظنى أن القرطبي قد تعلم على شيخه أبي العباس القرطبي ، وابن رواج بالإسكندرية . وإن كان هذا الظن يشهد أمام عبارة شرف الدين الديلمى فإنه قد قال في حق شيخه أبي العباس القرطبي « أخذت عنه وأجزى لي منهفاته رحمه الله تعالى ، وحدث بالإسكندرية وغيرها » ويتبدد أيضا أمام ما دونه الذهبي من تراجم في كتابه « تاريخ الإسلام » لتلاميذ ابن رواج ، فإن فيها عبارات كثيرة تدلنا على أن ابن رواج حدث بنير الإسكندرية . فثلا في ترجمة « إبراهيم بن يحيى بن يوسف بن طرخان الفقيه برهان الدين الكنتاني المسقلاني الحنبلي المعروف في مصر بالفراوى ، ٦٢٣ — ٦٩٩ هـ . »

يقول الذهبي في ترجمته « وله بغزة . . واشتغل بالقاهرة وسمع بها من عبد الوهاب بن رواج (١) » ولكنني رغم هذا أقول لعل القرطبي لم ينتقل من الإسكندرية من وقت أن نزل بها إلى أن غادرها متجها إلى الصعيد ، وفي تلك المدة التقى بشيخيه وأخذ عنهما ، وإذا كان هذين الشيخين رحلات داخل

(١) تاريخ الإسلام، حوادث سنة ٦٩٦، ورقة ٢١٦

الديار المصرية بقصد التدريس ونشر العلم ، فلما كانت رحلات قصيرة يمدان
بمسدها إلى الاسكندرية ، مقامهما مستقرهما . فإن للسراج كلها تبين أن أبا
«أبا المباس القرطبي» كان نزيل الاسكندرية ، وأن « ابن رواج » كان اسكندريا
والله أعلم . كما أن أغلب الظن هندي أن القرطبي تنفذ إلى « ابن الجيزي
والبكري » بالقاهرة قبل أن يذهب إلى الصعيد ، فإن القاهرة تقع في طريق
من يريد السفر إلى الصعيد من الإسكندرية ، فلعل القرطبي بعد خروجه من
الإسكندرية وبعد وصوله إلى القاهرة مكث بها فترة ليتلقى بشيوخها وعلمائها ،
فالتقى « ابن الجيزي والبكري » ، وبقوى هذا الظن هندي أن « ابن الجيزي »
كما يقول « السبكي » كان خطيب الجامع بالقاهرة ، وأن « البكري » قدم في
آخر أيام حياته إلى القاهرة واستوطنها بعد طول تجول ، وما كان لشيخ « ريش
بالفالج أن ينتقل بعد أن حط رحاله واستقر ، والله أعلم .



هؤلاء هم شيوخ القرطبي الذين التقى بهم وأخذ عنهم ، شيوخ برزوا في
نواح متعددة من فقه وحديث وتفسير وقراءات ولغة وأدب ، فانعكس ذلك
على القرطبي وكان له أثر كبير في نمجه وتكوينه ، ولقد أشارت كتب الطبقات
إلى هؤلاء الشيوخ وهي ترجم للقرطبي فقال الداودي « سمع من ابن رواج
ومن ابن الجيزي ، والشيخ أبي المباس أحمد بن عمر القرطبي شارح مسلم بعضه
وأبي علي الحسن بن محمد البكري الخافظ » وقال ابن فرحون مختصرا هذا
العدد « سمع من الشيخ أبي المباس أحمد بن عمر القرطبي مؤلف للمقام في
شرح صحيح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن بن محمد بن محمد
البكري » أما صاحب النفع ، فإنه وإن اختصر هذا العدد لكنه أتى
بشيخ لم يذكره غيره فقال « سمع من الشيخ أبي المباس أحمد بن عمر القرطبي

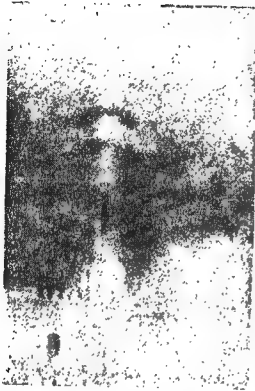
صاحب الفهم في شرح مسلم بعض هذا الشرح ، وحدث عن أبي الحسن على ابن محمد بن علي بن حفص اليحصبي وعن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وغيرهما ، ولم أهنر على ترجمة لأبي الحسن اليحصبي .

وبعد هذا ، وبعد أن استقر القرطبي بالإسكندرية فترة من الزمان ، وبعد أن استقر بمصر أيضا فترة لا ندرى مقدارها بعد هذا خرج القرطبي من مصر القاهرة ، واتجه إلى (منية بني خصيب^(١)) — للنيل — واستقر بها إلى أن توفي سنة ٦٧١ هـ في ليلة الاثنين التاسع من شوال . ولا أدري لماذا اختار القرطبي للنيل سكنا له ومستقرا^(٢) .

والقرطبي قبر بزار وبترك به « بالنيل » بشرق النيل . وقد تم في سنة ١٩٧١ م بناء مسجد كبير يحمل اسم القرطبي بمكان يسمى « أرض سلطان بالنيل » وبضم هذا المسجد ضريحها نقلت رفات القرطبي إليه من الضريح القديم ، ولقد قمت بتصوير قبره القديم ، وتصوير مسجده وضريحه الجديدين .

(١) منية بضم الميم وسكول النون وباء مفتوحة وهاء مدنية مشهورة بالصعيد الأدنى تقع في شمال أسبوط . وهي نسبة لرجل يسمى « الحصب أو ابن الحصب » وكان حاكما لها من قبل بعض الخلفاء الباسيين ، ولهذا قيل في تسميتها منية بني الحصب ومنية أبي الحصب . المخطوط التوثيقية ج ١٦ ص ٥١ .

(٢) راجع في ترجمة القرطبي « طبقات الداودي » ص ٢١٣ ، تاريخ الاسلام . وراودت سنة ٦٧١ ميلادية ، وطبقات المفسرين ترجمة رقم ٨٨ للسيوطي ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٢٥ الديباج للذهب ص ٣١٧ ، ونفتح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ . والاعلام ج ٦ ص ٢١٧ ، مجمع المؤلفين ج ٨ ص ٢٤٠ ، وهدية العارفين ج ٢ ص ٢٢٩ . شجرة النور الزكية .



مسجد القرمطي و بجواره ضريحه الجديد



القبر القديم

الفصل الثاني

اخلاقه وثقافته

لقد أثنى المؤرخون على القرطبي وامتدحوه من الناحية الاخلاقية . فوصفه الداودي بقوله : « كان من عباده الصالحين والمجاهدين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما ينهيم من أمور الآخرة ، أوقاته مملوءة ما بين توجه وعبادة ، وتعنيف » ثم هرب الداودي عن عدم تكلفه فقال : « وكان طارح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية » وأجمع كل من كتب عنه على ذلك .

وإني أحب أن أقف هنا قليلا لأقول . . إن زهد القرطبي ليس معناه أنه قد حرم الطيبات على نفسه وعاش كما يعيش بعض المتصوفين . لا ، لم يكن زهد القرطبي من هذا النوع . وإنما كان بمعنى أنه لم يجعل تحصيل الطيبات والذات هدفا وغاية له في حياته . فالشيخ قد انحصر تفكيره في الآخرة فلم يجعل الدنيا سلطانا عليه ، وفرق بين من يأكل ليمش وبين من يعيش ليأكل .

وإذا كان بعض المتصوفة قد فهم أن التمتع بالطيبات يناق الزهد فإن القرطبي قد حاجهم في تفسيره ولم يرتض هذا المذهب فقال في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تهرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تصدوا إن الله لا يحب للمتدين » (١) .

قال هلاؤنا راحة الله عليهم في هذه الآية وما شايها والأحاديث الواردة في معناها ، ردا على غلاة التزهدين وعلى أهل البطالة من المنصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه . قال الطبري : لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم ولللباس وللناسج إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنف والمشقة . ولذلك رد النبي ﷺ التبذل على ابن مظنون (١) . فثبت أنه لأفضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله ﷺ ومنه لأمنه وأتبعه على منهاج الأئمة الراشدين . إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ ، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس للشعر والاصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله . وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرا من مراض الحاجة إلى النساء . قال الطبري : فإن ظن ظان أن الخير في غير الذي أقرنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ وذلك أن الأولى بالإنسان إصلاح نفسه وهو نه لها على طاعة ربها ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدوائه التي جعلها الله سبباً إلى طاعته (٢) .

وفي قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » .

(١) أخرجه البخاري عن سعد بن أبي ، تاس ج ١٥٥ كتاب الزكاح باب « ما يكره من الثقل والمصاء » — انظر البخاري ح ٣ من ١٥٥ محاشية السندی طبع الصنانيه .

(٢) تفسير القرطبي ح ٦ من ٢٦٢ .

بين أن الآية تدل على لباس الرفيع من الثياب والتجمل بها عند لقاء الناس وازاورة الإخوان . ثم قال بعد أن استدلل ببعض الأحاديث على ذلك « فأين هذا من يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من السكتان والصوف من الثياب ويقول : ولباس التقوى ذلك خير . هيهات أترى من ذكرنا — يقصد رسول الله ﷺ والصحابة — تركوا لباس التقوى . لا والله بل هم أهل التقوى ، وأولو المعرفة والنهي وغيرهم أهل دهوى وقلوبهم خالية من التقوى .. ثم استعرض القرطبي موقف ابن الجوزى ، ممن يؤثر لباس الخشن والرفعات . ثم هتب في النهاية بقوله :

قلت وقد ذكره بعض الصوفية أكل الطيبات واحتج بقول عمر رضي الله عنه « إياكم والحم فإن له ضراوة (١) كضراوة الحجر » والجواب أن هذا من عمر قول خرج على من خشي منه إثبات التنعم في الدنيا والمداومة على الشهوات وشقاء النفس من اللذات ونسيان الآخرة والاقبال على الدنيا ، وذلك كان يكتب عمر إلى عماله « إياكم والتنعم وزى أهل المعجم وأخشوا » ولم يرد على الله عنه تحريم شيء أحله الله ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه وقول الله عز وجل « أولى ما امثل واعتمد عليه » (٢) .

وبهذا كله يتضح ما أردت أن أقوله من زهد القرطبي لكن هل ما ذكره القرطبي من أن التجمل بالثياب عند لقاء الناس لا ينافي الزهد وأن لباس الرفعات إنما هو مسلك للزهادين . هل هذا يتفق مع ما ذكره المؤرخون عنه

(١) أى أنه قد حبب الانسان من أسكته شره وشهوة إليه لا يستطيع التخلص منها كما فعل الحجر بشاربها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٩٦ وما بعدها آية ٣٢ من سورة الاحراف .

من أنه كان طارح التكلف يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية؟؟ وماذا تنفى.
هذه العبارة وهل هدم نهاية الرجل بمظهره عمل يمسح عليه ؟؟

لقد حيرتني هذه العبارة مع ما فهمت من موقف القرطبي في الآيتين السابقتين.
ولكنني وقفت على نص يزيل هذا التوضيح والخيرة . يقول « المقرئ » : « وأهل
الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما
يتعلق بهم، ومنهم من لا يكون هنده ما يقوته يومه فيطويه صائماً ويتنازع صابوناً
ينسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين هنها » . (١)

فهذا النص يصور لنا الأندلسي رجلاً يبالغ في العناية بمظهره بمبالغة تجعله
يطوى النهار صائماً وطويلاً في بيته ولا يخرج على الناس بهيئة مستقبحة .

أما القرطبي فقد ملكت عليه الآخرة أقطار نفسه فكان يعنى بمظهره.
ولكنه لم يكن يبالغ في ذلك على هذه الصورة كما هي عادة الأندلسيين ومن هنا
قال المؤرخون عنه « وكان طارح التكلف » فهذه العبارة — في أغلب
ظنى — لا تعنى سوى ذلك ولا تعنى أبداً أنه كان يثلب الهيئة مهمل للثياب،
فإن هذا ليس من الدين في شيء كما تقدم .

وإن موقف القرطبي من الزهد لا يخالف موقف علماء المتصوفة بل يتفق
معه فقد قل عن « أيوب السخيتاني » وهو من هو في منزلته ومساكنه علماء
وزهداً — أنه قال لتلاميذه : « الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء أحبها إلى الله
وأعلامها عند الله وأعطى ثواباً عند الله تعالى ، الزهد في عبادة من عبد من
دون الله من كل ذلك وجنم وجبر وذن . ثم الزهد فيما حرم الله تعالى —

(١) تلحح الطيب المقرئ ج ١ ص ١٠٤ .

ثم يقبل على أصحابه ويقول أما زهدكم هذا يا معشر القراء فهو والله أخسه
هنا الله الزهد في حلال الله عز وجل « (١) » .

وإذا كان للزورخون قد وصفوا القرطبي بالورع فقد يقول قائل : كيف ينق
هنا مع ما قل عنه من أنه أباح أكل جوائز الملوك والأمراء وأن الورع يقتضى
ترك ذلك ؟ ؟

إن الإفتاء يجوز قبول هدايا الملوك والأمراء شيء آخر غير ما نحن بصدد
على أن « ابن عبد البر القرطبي » الذى نقل القرطبي — صاحبنا —
عنه هذه الفتوى قد بين أن قبول الهدايا نفسه لا يناق الورع وإذا كان القرطبي
قد ارتضى هذه الفتوى فلا حرج عليه . يقول للقرى فى كتابه « فتح المصيب »
نقلًا عن القرطبي فى كتابه « فتح الحرس بالزهد والقناعة » « روينّا أن الإمام
أبا عمر بن عبد البر بلغه وهو « بشاطبة » أن أقوامًا عابوه بأكل طعام السلطان
وقبول جوائزه فقال :

قل لمن ينسكو أكل طعام الأمراء

أنت من جهلك هذا فى محل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين
من السلف للامضى هو ملاك الدين . فقد كان زيد بن ثابت — وكان من الراسخين
فى العلم — يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل
هدايا صهره المختارين هبيل ويأكل طعامه ويقبل جوائزه . وقال عبد الله بن مسعود
وكان قد مله هذا لرجل سأله : إن لى جلوا يسل باليا ولا يجتنب فى مكسبه الحرم

يدهوني إلى طعامه أفاجيبه ؟ قال : نعم لك المهنأ وعلية للأنم ما لم تعلم الشيء بعينه
حراما . وكان الشعيء وهو من كبار التابعين وعلماهم ، يؤدب بنى عبد الملك
ابن مروان ويقبل جوائزهم ويأكل طعامه .

وكان إراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري مع زهده
وورعه وسائر علماء البصرة وأبو سلمة بن عبد الرحمن وأن بن هبان والفقهاء
السبعة بالمدينة^(١) حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان ، وكان ابن شهاب
يقبلها ويتقلب في جوائزهم وكانت أكثر كسبه وكان مالك وأبو يورف
والشافعي وغيرهم من فقهاء الخجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء
وكان سفيان الثوري مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلاطين أحب لى من صلة
الإخوان لأن الإخوان يمتنون والسلطان لا يمن . ومثل هذا من العلماء والفضلاء
كثير ثم يقول : وما أعلم من علماء التابعين أحدا تورع عن جوائز
السلطان إلا سعيد بن المسيب بالمدينة ومحمد بن سيرين بالبصرة وها قد ذهبنا
مثلا في التورع ويبالغ ابن عبد البر في فتواه — اللق ارتضاها القرطبي —
في ذم من طاب عليه فيقول : والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل ولا يحل لمن
وفقه الله تعالى وزهدها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها ، والمجب من أهل زماننا
يعيبون الشجاعت وهم يستحلون ، الحرمات ومثلهم هندي كالذين سألوا عبد الله
ابن عمر رضى الله عنهما عن الحرم فقتل القراء فقال للسائلين : من أنتم ؟
فقالوا : من أهل الكوفة . فقال : تسألونى عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن على رضى
الله تعالى عنهما .

(١) الفقهاء السبعة هم : سعيد بن المسيب للتوفى سنة ٩٣ هـ ، عروة بن الزبير بن العوام
للتوفى سنة ٩٤ هـ ، أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث للتوفى سنة ٩٤ هـ ، الثمام بن محمد
ابن أبى بكر للتوفى سنة ١٠٨ هـ ، عبيد الله بن عبد الله بن هبة بن مسعود للتوفى سنة
٩٨ هـ ، سليمان بن يسار للتوفى سنة ١٠٠ هـ ، خزيمة بن زيد بن ثابت للتوفى سنة ١٠٠ هـ .

وكما أثنى المؤرخون على أخلاقه أثنوا على ثقافته الواسعة ، فقال عنه الذهبي
« إمام متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله »
وبعد أن ذكر بعض مؤلفاته قال : « وله أشياء أخرى تدل على إمامته وذكائه » .
وقال عنه ابن الباد : « كان إماماً علماً من الفراءيين على مائتي الحديث
حسن التصنيف جيد النقل » .

ونقل صاحب النفع عن ابن شاكر الكتبي أنه قال في حقه « كان شيخنا
فاضلاً وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور علمه » .

وغضب بعض تلامذته من ترجمة « الكتبي » له وعلق عليها بقوله :
« قد أجبف المصنف في ترجمته جداً وكان متفنناً متبحراً في العلم » .

وحاول بعض التلامذة أن يدافع عن الكتبي بأن الذهبي قد وفاه حقه في
تاريخ الإسلام وأنه لا داعي لمهاجمة الكتبي فقال « مشاحة شيخنا المصنف في
هذه العبارة لما لمة فائدة فإن «الذهبي» قال في تاريخ الإسلام « العلامة أبو عبد الله
محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ، الإمام القرطبي إمام متفنن متبحر في العلم له
تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله » .

ولكن ذلك الدافع لم يسبب تلييناً ثالثاً فانتقد الذهبي والكتبي وما ورد
ذلك الدافع فقال : « إذا كان الذهبي ترجمه بما ذكرت وهو والله فوق ذلك
فكيف تقول أن مشاحة شيخك لا فائدة فيها ونسب الأجب ممة وتقول أن
كلامه لا فائدة فيه فافقه يتر عليك » .

ويبدو أن هذا التعليق المثبت في أحد مؤلفات « الكتبي » (١) على

(١) لعل هذا الكتاب هو : « هيون التواريخ » ويوجد منه الجزء الثاني حفر
والجزء العشرون في مجلدين خطيين برقم ١٣٧ تاريخ تيدور . ولقد بحثت ههنا كثيراً
فقليل لي لهما بصوران .

هامس ترجمته للقرطبي كان لتلاميذه أخذوا عن القرطبي ولسوا عقله وفننه
وذكاءه ومكانته العلمية فكانت شهادة رؤية وسامية دللت على ثقافته القرطبي
الواسعة .

وأغلب ظني أن هؤلاء التلاميذ لم يوقموا أثر ما كتبوه فكثيراً ما شاهدت
في الكتب المحطوطة زيادات وتبويضات خالية من التوقيع والإمضاء . ولا شك
أن القرطبي تتلذذ عليه أضعاف هذا العدد ولكن المؤرخين سكتوا فلم ينسكلم
هـنـم أحد . وبهذا بقيت التلمذة عليه سجلاً مطوياً لا يعلمه إلا الله .

نعم قد أشار كلهم إلى أنه أجاز لولده « شهاب الدين أبي العباس أحمد » .

ووقعت لي ترجمة للشيخ يسمى : « أبا العباس أحمد بن فرح الاشبيلي » قال
صاحب طبقات الشافعية عنه : « ولد سنة خمس وثمانين وصنائة وأسرته المدو
ونعماء الله تعالى » .

ولم يبين لنا كيف ولا متى أسر ؟ ولقد أوضح « ابن شاکر الكنجي » بعض
ذلك فقال : « وأسرته المدو سنة ست وأربعين وصنائة » .

وهذا التاريخ هو التاريخ الذي سقطت فيه إشبيلية في يد النصارى
القسطنطينيين عندما حاصروها بقيادة « فرناندو الثالث » ملك قشتالة (١) .
ولكننا نتساءل : هل وقع الشيخ في الأسر بعد أن سقطت المدينة ؟ هذا ما لا
يمكن أن يحدث . وإذا كانت إشبيلية قد فتحت أبوابها للمحاصرين فأى وجه
لاستعمال العنف والقوة مع أهلها الذين رفعوا راية الأمان ؟

(١) قشتالة بالفتح إقيم هـنـم بالانـدلس .

وفوق هذا فإن المراجع التاريخية قد أثبتت أن آلافا كثيرة من سكان
أشبيلية خرجوا بعد سقوطها في أمن وطمأنينة بل أثبتت المراجع :
أن ملك قشتالة كان يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين حتى
لا يتعرضوا لأي اعتداء . إذن فتحى وقع « ابن فرح » في الأسر ؟
يبدو أنه وقع في الأسر أثناء حصار النصارى لأشبيلية قبل أن تسقط ولقد
بدأ هذا الحصار في جماد الأولى سنة ٦٤٥ هـ أغسطس سنة ١٢٤٧ م . واستمر
خمس عشرة شهرا ولما طال الحصار ونفذت القوات وبدأ شبح الجوع يخيم على
المدينة اضطر الأشبيليون إلى التسليم في ٥ شعبان سنة ٦٤٦ هـ ٢٣ نوفمبر سنة
١٢٤٨ م (١) .

فلعل أبا العباس أراد أن يخرج من أشبيلية أثناء حصارها فوق أسير آ في
يد الأعداء ثم نجاه الله، ويقوى هذا أن بعض المراجع أثبتت : « أنا وقع في
الأسر بتاريخ ٢٩ أبريل سنة ١٢٤٨ م (٢) » فإذا كانت للمدينة قد سقطت في
٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م . فإن هذا لا يدع مجالاً للشك في أنه : وقع في الأسر
قبل أن تسقط للمدينة وقبل أن يسلمها الاشبيليون ، وبعد أن نجاه الله تعالى من
أيدي الأعداء ذهب إلى مصر فقتل على كبار شيوخها . ثم ذهب إلى دمشق
واستقر بها . ونبغ في الحديث ، بقول المؤرخون : « وأخذ يدرس بالجامع الأموى
لما كانت له من المكانة في هذا العلم ولقد عرضت عليه مشيخة دار الحديث
النورية (٣) فأبأها . وكانت وفاته في التاسع من جمادى الآخرة سنة ٦٩٩ هـ »

(١) راجع سقوط « أشبيلية » في عصر المرابطين وللوحيد بن القسم الثاني ص ٤٦٥ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) نسبة إلى مؤسسها « نور الدين عمود » للتوفى سنة ٥٦٩ هـ . وراجع في ترجمة

ابن فرح « طبقات السبكي ج ٥ ص ١٢ وفوات الوفيات لابن شاذكر الكنجي ج ٢
وتذكرة الحفاظ ترجمة رقم ٤٦٧ الجزء الرابع طبعة ٢١ .

ولقد استلقت نظري هذه الترجمة فوقفت عندها وقلت في نفسي : ألا يكون صاحبها هو ولد « القرطبي المفسر » وتابعت البحث هاني أثر على خيط يزبل هذا الشك فوجدت « دائرة المعارف الاسلامية » تبين : ان مثل ما وقع في نفسي قاله « السيوطي » في كتابه « طبقات المفسرين » ثم وجدت « دائرة المعارف » تخطئ « السيوطي » في ذلك، تقول الدائرة : « وذكر السيوطي خطأ في كتابه طبقات المفسرين رقم ٨٨^(١) : ان ابن فرح هو ابن مصنف الكتاب المشهور « التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » وكتاب التفسير الكبير المسمى « جامع أحكام القرآن » محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح المالكي القرطبي المتوفى في التاسع من شوال، عام ٦٧١ ٢٩٨ أبريل ١٢٧٣ م » ورجعت إلى كتاب « طبقات المفسرين » « السيوطي » فلم أجد أثراً لهذا القول . بل وجدت السيوطي في الترجمة رقم ٨٨ يتحدث عن القرطبي صاحب « التذكرة » و « جامع أحكام القرآن » ولم يذكر ما نقلته دائرة المعارف . فقلت لعل هذا القول في غير « طبقات المفسرين » من مؤلفات السيوطي فبحثت في « طبقات الحفاظ » وفي « ذيل تذكرة الحفاظ » وفي « ... » الخاضرة « فلم أر « السيوطي » هذا القول .

وعلى كل فإن تحفظة دائرة المعارف « السيوطي » دعوى بلا دليل . ومن هنا فإن هذا الاحتمال الذي وقع في نفسي والذي نسبته دائرة المعارف للسيوطي — على فرض أنه قاله — لا يزال قائماً . وقد يقول قائل : كيف يتفق ذلك مع أن « ابن فرح » هذا « لإشبيل » أما أبوه فهو « قرطبي » ؟

(١) أي ترجمة رقم ٨٨ .

الأمر في ذلك سهل . فلعل « القرطبي » عندما خرج من قرطبة استقر بأشبيلية إلى أن سقطت فثأ ولده في أشبيلية فنسب إليها . ويقوى ذلك أن عمره يوم انتقل مع أبيه من قرطبة إلى أشبيلية - إذا صح أنه أبوه وأنهما انتقلا معاً إليها - كان : ثمانية أهوام . فقد حدد « السبكي » في طبقاته سنة ميلاده فقال « ولد سنة خمس وعشرين وستمائة » ومن المعلوم أن قرطبة سقطت في سنة ٦٢٣ هـ .

وقد يقول قائل آخر : كيف يتفق ذلك مع أن « القرطبي » المنسب أنصارى خرزجى أى أنه : ينسب إلى الخرزوجة^(١) الذين سكنوا الأندلس أما ابن فرح فيقال له : « الأحمى »^(٢) أى : أنه : ينسب إلى « غنى بن هدى » وشتان بين النسبتين ؟ ؟

هذا كلام قويم . ولكن لم لا يرد على ذلك : بأن كثير من سكان أشبيلية ينسب إلى غنى بن هدى . فلعل « ابن فرح » نسب إلى هذه النسبة خطأ .

وعلى كل أيضاً : فإنى لا أجزم بأن « ابن فرح » ولد « القرطبي » المنسب . وإنما أثرت احتمالاً وقع في نفسى وجدته منسوباً إلى أحد العلماء ولعل بعض الباحثين ممن يأتون بعدنا يكشف حقيقة ذلك .

وإذا كانت التلمذة على « القرطبي » رمزاً لثقافته وعلمه فإن ما أتجه من

(١) ينسب الخرزج إلى سعد بن عبادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الخرزج الذين سكنوا الأندلس^١ « أبو عبادة بن عبد الله بن ماء السباء » صاحب اللوغعات انظر : فتح الطيب ج ١ ص ١٢٦ .

(٢) الأحمى ينتسب إلى الام وسكون الحاء المعجمة ويدها ميم نسبة إلى « غنى بن هدى » واسمه مالك وهو أخو جذام واسم جذام عمرو بن هدى وكانا قد تشابرا فلحق عمرو مالك أى لحقه فحضر مالك عمراً بمدة فخدم يده ، أى قطعها فسمى مالك لحاً وسمى عمرو جذاماً لهذا السبب « انظر وفيات الأعيان » ج ١ ترجمة رقم ٦٥ .

مؤلفات دلل على هذا بصورة أقوى وأعمق . فلقد ألف القرطبي كتابا كبيرا في التفسير وضع له اسما بنفسه وبين القاص الذي حدا به إلى تأليفه فقال في مقدمته : فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والقرآن ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض رأيت أن أشتغل به مدى عمرى وأستفرغ فيه مني^(١) بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتنا من التفسير واللغات والإعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلالات وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعا بين معانيهما ومبينها ما أشكل منهما . بأقوال السلف ومن تبعهم من اختلف . وعلمته تذكرة لنفسى وذخيرة ليوم رمسى . وعلا صالحا بعد موتى . قال الله تعالى « ينبأ الإنسان يومئذ^(٢) بما قام وأخر » . وقال رسول الله صلى عليه وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث . صدقة جارية أو علم ينتفع به . أو ولد صالح يدعو له^(٣) » ثم قال « سمعته » بالجامع لأحكام القرآن وللبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان « جعله الله خالصا لوجهه وأن ينفعني به ووالدي ومن أراد به منه إنه سمع الدعاء » .

ولكن متى بدأ القرطبي في تأليف هذا التفسير ؟

إنني استبعد أن « القرطبي » بدأ تأليف تفسيره بقرطبة فإن حادثة مقتل أبيه توضح أنه لم يكن قد استوى هوده بعد . ولعله بدأ في تأليفه بعد ذلك عندما خرج من قرطبة ثم أكله عندما استقر بالصعيد ، ويقوى ذلك أنه قال ،

(١) اللثة هي التتوة ، وهي من الاضداد إذ تطلق على الضمف أيضا .

(٢) آية ١٢ من سورة القيامة .

(٣) الحديث أخرجه مسلم « في كتاب الوصية » من أبي هريرة باب « ما بين الإنسان من النوايا بعد وفاته » ج ٥ ص ٨٢ طبع التحرير .

في حادثة مقتل أبيه: « وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله » فهو يهكي هذه الحادثة بعيداً عن قرطبة ويطلب من الله أن يعيدها .

وقد ذكر المؤرخون « للقرطبي » غير كتابه « الجامع لأحكام القرآن » عدة مؤلفات منها : « التذكرة في أحوال اللوني وأمور الآخرة » وهو كتاب مطبوع متداول تناول فيه « القرطبي » الموت وأحوال الموتي والقيامة والجنة والنار . ونقل كل ذلك كما يقول : « من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة » وكتب « القرطبي » هل كل باب بفصل أو فصول ذكر فيه ما يحتاج إليه من بيان غريب أو فقه في حديث أو إيضاح مشكل لتكمل فائدته (١) .

ولقد اختصر هذا الكتاب « الإمام عبد الله الشمراني » للنفوس سنة ٩٧٣ هـ واختصاره مطبوع متداول ولقد شكك بعض العلماء في نسبة هذا المختصر إلى الإمام الشمراني ويبدو أنه كذلك . فإن صاحب « كشف الظنون » عندما تحدث عن « تذكرة القرطبي » قال « وهي مختصرة لبعض العلماء (٢) » وعندما تحدث عن المكتب التي تحمل اسم « مختصر » لم يذكر للإمام الشمراني شيئاً منها . ومنها كتاب « التذكار في أفضل الأذكار » وهو كتاب مطبوع متداول .

بين القرطبي في مقدمته : أن قراءة القرآن أفضل الأعمال وأسمى المقامات والأحوال وأشرف الأذكار والأقوال . وهذا هو السبب الذي دفعه

(١) راجع هذه الحادثة في تفسير القرطبي ص ٢٧٢ وفي فصل « نبذة القرطبي » من الرسالة .

(٢) مقدمة كتاب التذكرة في أحوال اللوني وأمور الآخرة مطابع مذكور وأولاده صححه وعلق عليه أحمد عيسى .

(٣) كشف الظنون ج ١ ص ٢٧٥

إلى تأليف هذا الكتاب . يوضح « القرطبي » ذلك ويسرد بعض أبواب الكتاب باختصار فيقول : « فرأيت أن أكتب في ذلك كتابا وجيزا يحوى على فضل القرآن وقارته ومستمعه والعامل به وحرمة القرآن وكيفية تلاوته والبكاء عنده . . . » ، وضم من قرأه رياء وهجبا ، إلى غير ذلك مما يضمنه الكتاب .

ثم يوضح « القرطبي » أن مقصده الأول كان : في تخريج أربعين حديثا نبوية ولكنه لما وجد كثيرا من العلماء قد سبقوه إلى ذلك أتبعه إلى وضع هذا الكتاب وجعله في أربعين بابا . يقول القرطبي :

« وكان المقصد الأول تخريج أربعين حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم لما رواه يحيى بن عبد الله بن بكير قال : حدثنا مالك بن أنس عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حفظ على أمي أربعين حديثا من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعا . أو شهيدا يوم القيامة » قال أبو عمر : هذا أحسن إسناد جاء به هذا الحديث . ولكنه غير محفوظ ولا يعرف من حديث مالك (١) . وقال أبو هلى بن السكن وليس يروى هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجه ثابت . ثم عقب القرطبي بقوله :

قلت : ولكنه من أجلها (٢) بإثر طلاب الخير الراغبون في اكتساب

(١) وما رواه عن مالك فقد أخطأ عليه وأضاف ما ليس من روايته إليه . وتسام كلام ابن عبد البر « في جامع بيان العلم » ولم يبين هلته ولا سبب ضعفه . وهله : أنه من رواية « يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم السفيلاني » وهو كذاب انتهى . « الإلهي » في اليزان « والحافظ هلى لسانه » بوضع أحاديث . منها : هذا الحديث انظر تمايق « العلامة السيد أحمد بن محمد بن الصديق العمادى » ص ٣ في كتاب التذكار في أفضل الأذكار .

(٢) أى من أجل تخريج الأربعين حديثا . وما ورد في فضلها وهم ضعفه .

الأجر إلى تخريجها فرأيت من سبق من أئمتنا العلماء والسادة الفضلاء رضوان الله عليهم قد خرجوا من ذلك كثير آ في المبادات وفضل الجهاد وقضايا الحاجات وفضل الصلاة من "بي ربي ﷺ"، إلى غير ذلك من الترهيب والترهيب، والأحاديث للسبلات. فاستخرت الله سبحانه في ذلك وسألته التيسير على في ذلك. فيسر لي فخرج أربعين بابا في فضل كتابه العزيز وقارنه ومستمه والعالم به وبميتته: كتاب «التذكار في أفضل الأذكار» (١).

ومنها: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى (٢).

ومنها: شرح التقي (٣) ولم أحرر على هذين الكتابين.

ومنها: الاعلام بما في دين النعماني من المصالح والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام. ولقد أشار «البندادي» إلى هذا الكتاب، «في هدية العارفين»

(١) انظر مقدمة «التذكار» طبع الحانبي.

(٢) قال صاحب «كشف الظنون» من هذا الكتاب يمد أن نسيه إلى القرطبي ذكر في أوله واحدا وأربعين فصلا في ذكر ما يتعلق بها من الأحكام وذكر يمد تماشيا شرح أسماء الله الحسنى أربعة أجزاء رد على المجسة وأصحاب التشبيه . . . وهذا الشرح كبير ومفيد . كشف الظنون ج ٢ ص ١٥

(٣) شرح التقي لابن عبد البر القرطبي كتاب يسمى «المليحة لما في الموطأ من للماني والأمانيد» ولقد اختصره ابن عبد الله في كتاب سماه «التقي في الحديث النبوي».

وذكر كارل بروكلمان: أن القرطبي قد اختصر كتاب التقي. فتلته أيضا
قد شرح كتاب التقي لابن عبد البر وسماه شرح التقي.
انظر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ج ٣ ص ٢٧٦ دار المعارف.

وحدد كارل بروكلمان مكان هذا الكتاب فذكر في كتابه « تاريخ الأدب العربي » أنه يوجد منه نسختان خطيتان بمكتبة « كوبرلي » بتركيا تحت رقم ٧٩٤ — ٨١٤ .

ومنها : « قم الحرص بالزهد والقناعة » ولقد ذكر « كارل بروكلمان » أنه يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية « بيرلين » تحت رقم ٨٧٨٧ ونسخة بمكتبة « الفاتح » باستنبول برقم ٢٧٣٧ .
وذكر كارول بروكلمان للقرطبي عدة مؤلفات أخرى :

ومنها : رسالة في ألقاب الحديث . وبين أنها توجد بمكتبة « الجزائر » برقم ٣٧٧ .

ومنها : الأقضية . وقال « كارل بروكلمان » عند ذكر هذا الكتاب : انظر فهرس مكتبة « آسيفيا » ح ٩ ص ٦٥٨ . وهذه للمكتبة « بيجيدو آباد بالهند » .

ومنها : المصباح « في الجمع بين الأنفال والصالح » وهو كتاب لنوى . اختصر فيه القرطبي كتاب « الأنفال » لأبي القاسم هلى ابن جعفر بن القطاع المتوفى سنة ٥١٥ هـ . وكتاب « الصالح » للجمهورى ويوجد « بمكتبة بريل بليين » بولندا برقم ٤٨٣ (١) .

ولقد أشار القرطبي في تفسيره إلى مؤلفات لم أذكر عليها ولم أرها منسوبة إليه عند أحد من المؤرخين . ومن هذه المؤلفات :

« المتقرب في شرح موطأ مالك بن أنس » ولقد أشار « القرطبي » إلى هذا الكتاب في قوله تعالى : « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه » في المسألة الثامنة (١) ، وقوله تعالى « إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » يقول القرطبي : وسئل سفيان عن عبيد بن أبي ليلى أحدهما فصير ، وأنعم على الآخر فشكر فقال : كلاما سواه ، لأن الله تعالى أتى على عبيد ، أحدهما صابر والآخر شاكر ثناء واحدا ، فقال في وصف أيوب : « نعم العبد أنه أواب » وقال في وصف سليمان : « نعم العبد إنه أواب » وناقش القرطبي بعض العلماء الذين لا يرضون هذا القول ، وأشار إلى بعض تأليفه فقال :

قلت : وقد رد هذا الكلام صاحب « الفتوح » واستدل بقصة أيوب في تفضيل الفقير على الغني وذكر كلاما كثيرا أسند به كلامه ، وقد ذكرنا ، في غير هذا الموضع من كتاب « منهج العباد ومحبة السالكين والزهاد » وخفي عليه أن أيوب عليه السلام كان أحد الأغنياء من الأنبياء قبل البلاء وبمده ، وإنما ابتلى بذهاب ماله وولده وهظيم الهداء في جسده ، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا . فأيوب عليه السلام دخل في البلاء على صفة فخرج منه كما دخل فيه وما تغير منه حال ولا مقال ، فقد اجتمع (٢) مع أيوب في المعنى المقصود ، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضا . وبهذا الاعتبار يكون النفي الشاكر والفقير الصابر سواء وهو كما قال سفيان (٣) .

وفي قوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » وإن من

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٩ آية ٢٠٢ من سورة البقرة .

(٢) الضمير يعود على سليمان عليه السلام .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢١٥ وما بعدها آية ٤٤ من سورة « س »

شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون سييئهم » بين أن هذا التسييح على الحقيقة . ثم تعرض لمعجزات رسول الله ﷺ الحسية ، فذكر بعضاً منها ثم قال وقد أتينا على جملة منها في «اللمع الأولوية في شرح العشرينات النبوية» (١) ولعلنا بهذا نكون قد كشفنا شيئاً من أخلاق القرطبي وثقافته ، ذلكم الرجل الذي قال عنه الذهبي في تاريخ الإسلام : « إمام متقن متبحر في العلم له تهانيف مقيمة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله » (٢) .

(١) نفسه القرطبي ج ١٠ ص ٢٦٨ إبه ٤٤ - ٤٥ : انظر اد .

(٢) راجع في ترجمة القرطبي : طبقات القسرين « أدودي » نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٦٨ تاريخ طبقات القسرين « أربعة دقم ٨٨ » « تاريخ الإسلام الذهبي » نسخة خطية ، حوادث سنة ٦٧١ ص ١٦٦ . « نوات الذهب » لابن السمان « ج ٥ ص ٢٣٥ » « مجمع المؤلفين » لسكاحه « ج ٨ ص ٢٤ » « هدية المارفين » لابن بادى « ج ٢ ص ١٢٩ » « الديباج للذهب » لابن فرحون « ص ٢١٧ » « نصح الطبيب » للقرى « ج ٢ ص ٤٢٨ » « الاعلام » لابن ركني « ج ٦ ص ٢١٧ » .

الفصل الثالث

عقيدة القرطبي

ذهب بعض المؤرخين إلى « إن أن عقيدة أهل المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي سلفية » وأن الأمر استمر على ذلك إلى أن جاء « محمد بن تومرت » مؤسس دولة الموحدين فنقلهم إلى الأشعرية حيث رحل إلى المشرق وأخذ عن علماء مذهب الشيخ « أبي الحسن » ومتأخري أصحابه من الجزم بعقيدة السلف مع تأويل المتشابه من الكتاب والسنة ، وتغريبه على ما عرف في كلام العرب من فنون مجازاتها وضروب بلاغاتها مما يوافق هاية النقل والشرع ويسلمه العقل واللبس . وعندما عاد دعا الناس إلى سلوك هذه الطريقة وجزم بتفضيل من خالفها بل بتكفيره وسمى أتباعه « الموحدين » تعريضا بأن من خالف طريقته ليس بموحد ، وجعل ذلك ذريعة إلى الانزواء على ملك المغرب لكنه ما أتى بطريقة الأشعرية خالصة بل مزجها بشيء من الخارجية والشيعية حسب ما يعلم ذلك بإيمان النظر في أقواله وأحوال خلفائه من بعده (١) وتابعه على ذلك بعض الباحثين المحدثين (٢) .

ومع هذا فإن كتب التراجم والتبقيات قد ترجمت لعدد كبير من علماء

(١، ٢) الاستقصاء في أخبار دول المغرب الأقصى لابن الأثير ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها . والله يقصد من هجاءه الأخيرة أن ابن تومرت أدهى همة الإمام في مذهبه السكلاوي كما ادعته الشبهة من قبل وأنه صنف مخالفيه كما كفرهم الخوارج أيضا . راجع تاريخ الثوب الإسلامية السكارل ر وكلمان ج ١ ص ١٩١ ، والدعوة للوحدة ص ٣٠٤ وما بعدها الاستقصاء عبد الله هلام . وانظر الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم هنر تعريب أبو ريدة ج ١ ص ٣٥٠ .

الأندلس والمغرب اعتنقوا المذهب الأشعري قبل دولة الموحدين التي قامت في أوائل القرن السادس تقريبا .

و ن هؤلاء « ابن أبي زيد القيرواني » المتوفى سنة ٣٨٦ هـ . فقد توفي قبل أن يخرج « ابن تومرت » إلى الحياة بنحو قرن من الزمان وكان أشعريا يدافع عن مذهب الأشاعرة ضد المعتزلة بصدق وإيمان وله رسالة في الرد عليهم ، فقد ذكر ابن عساكر أن « ابن أبي زيد » كتب هذه الرسالة جوابا « لعل ابن أحمد بن اسماعيل البغدادي المعتزلي » حين ذكر « أبا الحسن الأشعري » رضي الله عنه ونسبه إلى ما هو برى منه مما جرت عادة المعتزلة باستعمال مثله في حقّه . فقال « ابن أبي زيد » في حق « أبي الحسن » « هو زجل مشهور أنه يرد على أهل البدع وعلى القدرية والجهمية متمسك بالسنة » (١) .

ومنهم القاضي « أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسي الباجي » : وأشمريته لا يستطيع أن ينكرها أحد ، وقد توفي سنة ٤٩٦ هـ وقبل أن يقوم « ابن تومرت » بدعوته . وذكر « ابن خبير » في فهرسة شيوخه مجموعة من كتب الأشاعرة كانت متداولة في الأندلس قبل ظهور « ابن تومرت » وتلقاها « ابن خبير » من شيوخه وكذلك فعل « ابن عطية » (٢) .

وقد ترجم « ابن الفرضي » في كتابه « علماء الأندلس » لعبد من العلماء اعتنقوا مذهب المعتزلة ومن هؤلاء :

(١) رسالة « منهج ابن عطية للفسر » الجزء . عبد الوهاب مايد ص ٢٠٢ والجمعية
فرقة نقول بلخير وتنسب إلى الجهم بن صفوان التوفى سنة ١٢٨ هـ .

(٢) راجع فهرسة ابن خبير ص ٢٥٥ وشيوخ ابن عطية نسخة مصدرة بدار الكتب
رقم ٢٦٤٩١ لوحة ٢٥ ترجمة أبو محمد عبد الوهاب ابن أبي غالب القيرواني .

« محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيح » (ت سنة ٣٩٩ هـ) كان من أهل قرطبة ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى بلاده، يقول ابن الفريسي : فأظهر نسكا وورما واكثر الناس بظاهره فاختلفوا إليه وسموا منه ثم ظهر الناس على سوء معتقده وقيح مذهبه فاقبض من كان له إدراك وعلم وتمادى في صحته آخرون غلب عليهم الجبل فدأبوا بنحلته .

ومنهم « يحيى بن يحيى » المعروف « بابن السدينة » من أهل قرطبة ، يقول ابن الفريسي « رحل إلى المشرق فال إلى الاهتزال وكان يعلن بالاستطاعة ، وتوفي سنة ٣٩٥ هـ .

ومنهم « مندر بن سعيد » (ت سنة ٣٥٥ هـ) ^(١) ولقد هاجم القرطبي في قوله تعالى « فان لم تعلموا ولن تعلموا فأنقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » حيث استدل بقوله « أعدت للكافرين » على ما يقوله أهل الحق من أن النار موجودة مخلوقة خلافا لمبتدعة في قولهم : أنها لم تخلق حتى الآن ، ثم قال : وهو القول الذي سقط فيه « منصفين سعيد البلوامي » الأندلسي . ثم قوى القرطبي مذهب أهل السنة ببعض ما روى في هذا من أحاديث .

ويؤيد ذلك « ابن حزم » الظاهري فيقول في رسالته وهو يتحدث عن علم الكلام : وأما علم الكلام فان بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصم ولا اختلفت فيها النحل فنل لذلك تصرفهم في هذا الباب ، ففى على كل حال غير حرية هنا ، وقد كان فيهم قوم ينهبون إلى الاهتزال فظار على أصوله ولم

(١) علماء الاندلس ح ٢ ص ٣٩

فيه تأليف. ثم ذكر ابن حزم بعض من اهتمق هذا المبدأ أو منهم « منفر بن سعيد، يحيى بن السمينة، ومحمد بن نجيج » (١).

ويسبق أستاذنا الشيخ « محمد أبو زهرة » على كلام « ابن حزم » فيقول: « وتبين من هذا أن الأندلس كان فيها المذهب المتزلى وقد كان أهل الأندلس كأهل المشرق يأخذون بمذهب « أبي الحسن » الأشمري في مناهجه وفي آرائه في العقائد وقد انتهى ابن حزم إلى مخالفة للفريقين » (٢). ولو قورن ذلك بما قاله « السلاوى » ومن تابعه فإن التناقض يبدو واضعاً جلياً، ولكن لعل مقصد « السلاوى » أن هامة الأندلسيين كانوا يدينون بمذهب السلف لأنه أقرب لبقولهم إلى أن جاء « ابن تومرت » فنقلهم إلى الأشعرية. أما الفقهاء والمعلماء فقد اهتمقوا مذهب الأشمري ودافعوا عنه وضيقوا الخناق على للمعتزلة حتى تواروا عن أهين الناس باعترالهم. فدعوة « ابن تومرت » لم تؤثر. هل ما أعتقد. في حقيقة العلماء والفقهاء وإنما أفسحت المجال للأشعرية في نفوس غيرهم من السكان. فلو لم تظهر دعوة « ابن تومرت » ولو لم ينشأ القرطبي بعد استقرار دولة الموحدين لنشأ أشمرياً يقتصر لمذهب « أبي الحسن الأشمري » وحقيقته ضد المعتزلة وغيرهم، ولستأني حاجة إلى سرد كثير من الأدلة لبيان حقيقة القرطبي وأنه كان يدين بمذهب الأشمري ويعتق ويدافع عنه، ونكتفي بمرض بعض النافخ من تفسيره توضح أشمريته :

في قوله تعالى « قال فيها أعزيتي لأصدق لم صراطك المستقيم » بين أن الهداية والاضلال من خلق الله وحاجم مذهب المعتزلة ودعواهم في أن القواية ليست من الله لأن ذلك يقتضى مع عدله. فقال :

(١) انظر رسالة ابن حزم في تنصع الطائيف ح ٢ ص ١٢٦

(٢) ابن حزم ص ١١٢

« مذهب أهل السنة أن الله أضحى وخلق فيه الكفر ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له صادر من إرادته تعالى . ثم قال : « وخالف الإمامية ^(١) والقتبية ^(٢) وغيرها شيخهم إبليس الذي طأوه في كل ما زينته لهم ولم يطأوه في هذه المسألة ويقولون : أخطأ إبليس . وهو أهل للخطأ حيث نسب للفنواية إلى ربه — تعالى الله عن ذلك — فيقال لهم : « وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » ^(٣) »

وقد روى أن طأوساً جاءه رجل في المسجد الحرام وكان متبهماً بالقدر وكان من الفقهاء السكارى جلس إليه فقال طأوس : تقوم أو تقام ؟ فقيل لطأوس تقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس كان أفقه ، يقول إبليس : فيما أغويتني وهذا يقول أنا أغوى نفسي ^(٤) .

وفي قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً » ^(٥) دافع القرطبي عن مذهب أهل السنة وهاجم المعتزلة فبين أن معنى الإضلال الفؤاية واستدل بالأية على مذهبه فقال :

(١) الإمامية فرقة من فرق الشيعة . نسبة إلى الإمام علي ، لانهم وكروا ككبراً من تعاليمهم حوله وكان لهم آراء تقرب من آراء المعتزلة .

(٢) تاتب للمعتزلة بالقتبية ، لانهم ينسبون أفعال الأجداد إلى قدرتهم .

(٣) آية ٢٤ من سورة هود .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١٧٥ آية ١٦ من سورة الاحراف .

(٥) آية ١٢٥ من سورة الانعام .

« وهذا رد على القدرية . ونظير هذه الآية من السنة قوله عليه السلام « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين »^(١) . أخرجه الصحيحان ، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره . والدين العبادات كما قال : « إن الدين عند الله الاسلام » ودليل خطابه أن من لم يرد الله به خيرا ضيق صدره وأبعد فيه فلم يفقهه ، والله أعلم . وروى أن عبد الله ابن مسعود قال : يا رسول الله ، وهل ينشرح الصدر ؟ فقال « نعم يدخل القلب نور » فقال : وهل لذلك من علامة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « التجافى عن دار الضرر والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد للموت »^(٢) قبل نزول الموت^(٣) .

ولقد بنى المئزلة مذهبيهم في أن الله لا يخلق أفعال العباد ولا يريد المعاصي على قاعدة العدل . وهي إحدى قواعدهم أو أصولهم التي نادوا بها . ولقد أشار إلى هذه الأصول أبو الحسن الخياط في كتابه « الانتصار » فقال : « وليس يستحق أحد اسم الاهتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإذا كملت في الإنسان هذه الخصال الخمس فهو مهتزلى »^(٤)

(١) الحديث أخرجه البخارى عن معاوية في باب العلم . ح ١ ص ١٦ انظر معني البخارى بمحاكية السندى وفتح الهدى بشرح مختصر الزبيدي ح ١ ص ٩٢

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود . انظر لائقي عن حال الاسرار في الاسفار في تخريج ما في الاحياء من الاخبار على هامش إحياء علوم الدين لقرطبي ح ١ ص ٧٧

(٣) تفسير القرطبي ح ٧ ص ٨١

(٤) نقل هذا النص الزمعي عبد الوهاب فايد من كتاب الانتصار ص ١٢٦ في رسالته ص ٢٠ وانظر « نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام » لداكتور « علي سمي النشار » ح ١ ص ٤٨٤ وما بعدها .

ونرى أن القرطبي من خلال تفسيره يحاول أن يبطل ما تمسك به للمعتزة من حجج في تقرير قاعدة العدل . فإذا قالت للمعتزة : إن الله تبارك وتعالى قد وصف نفسه بالعدل فقال : « وما ربك بظلام للعبيد »^(١) وقال : « إن الله لا يظلم الناس شيئا »^(٢) وكيف يتحقق العدل مع أن الله سبحانه — في مذهب أهل السنة — يقاب على ما أراده وفعله ؟ ترى القرطبي يبطل أدلتهم ويهاجمهم ويتضح ذلك :

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحییکم واهلوا أن الله یرل بین المرء وقلبه »^(٣) فإ تعبدین أن الآية تقتضی النص على خلق الله تعالى الكفر والایمان . حیث : الله یحول بین المرء الكافر و بین الإیمان الذى أمر به فلا یكتسبه إذا لم یرده علیه بل أقدره على ضده وهو الكفر . أما المؤمن فإنه یحول بینة و بین الكفر ثم یقول : « فبان بهذا النص أن الله تعالى خالق لجميع اكتساب العباد خیرها وشرها » و یظهر القرطبی عدل الله سبحانه فیقول : « وكان فعل الله تعالى ذلك عدلا فین أضله وخذله إذ لم ینعمهم حقا وجب علیه فتزول صفة العدل وإنما منعمهم ما كان له أن ینفضل به علیهم لا ما وجب لهم علیه »^(٤) .

وإذا قالت المعتزة كيف یناط بالمبد تکلیف وهو لا یخلق أفعله ؟

بین القرطبی من خلال تفسیره أن مناط التکلیف هو السکب .

ففى قوله تعالى « تلك أمة قد دخلت لها ما كبت ولكم ما كبتن »

(١) آية ٤٦ من سورة الشورى .

(٢) آية ٤٤ من سورة يونس .

(٣) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٩٠ آية ٣٤ من سورة الانفال

الآية . قال : « في هذا دليل على أن العبد يضاف إليه أعمال وأكساب وإن كان الله تعالى أقدره على ذلك ، إن كان خيراً فيفضله ، وإن كان شراً فيعذله ، وهذا مذهب أهل السنة . والآي في القرآن بهذا المعنى كثيرة ، فالعبد مكتسب لأفعاله على معنى أنه خلقت له قدرة مقارنة للفعل يدرك بها الفرق بين حركة الاختيار وحركة الرعدة مثلاً وذلك التحكك هو مناط التكليف (١) » .

وإن قالت كيف يأمر الله بما لا يريد وكيف ينهى عما يريد . نرى القرطبي يمرض الفرق بين الإرادة والأمر كما هو مذهب أهل السنة . ففي قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء » يقول : قوله تعالى « ويتخذ منكم شهداء » دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقول أهل السنة فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين ، حمزة وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراد فواقه آدم . ولكنه أمر إبليس بالسجود ولم يرد . فامتنع منه ، وعنه وقعت الإشارة بقوله « ولكن كره الله أن يعاظم فيشيطهم (٢) » .

وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد ، ولكنه خلق السكك والأبواب الفاطمة من المسير فقدموا (٣) .

وبنى المتزلة على قاعدة الوعد والوعيد — بمعنى أن وعد الله ووعيده لا يتخلفان — أموراً : منها أن مرتكب الكبيرة لا تناله شفاعة الرسول ﷺ إذا مات ولم يتب : وأبرز القرطبي مذهب أهل السنة في الشفاعة واتهمه له وهاجم المتزلة . وبين أن الخلود في النار ليس مصير مرتكب الكبيرة إذا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٢٩ آية ١٣٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٦ من سورة التوبة

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٩ آية ١٤٠ من سورة آل عمران .

مات ولم يقب ، فقال في قوله تعالى « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا » الآية . :

« مذهب أهل الحق أن الشفاعة حق وأنكرها المعتزلة وخطروا المؤمنين للذين الذين دخلوا النار في العذاب . والأخبار متظاهرة بأن من كان من العصاة المذنبين الموحدين من أمم النبيين ، هم الذين تنالهم شفاعته الشافعين من الملائكة والنبيين والشهداء والصالحين ، وقد تمسك القاضي - « أبو بكر الطييب » - عليهم في الرد بشيئين أحدهما : الأخبار الكثيرة التي تواترت في المعنى . والثاني : الإجماع من السلف هل تلقى هذه الأخبار بالقبول ، ولم يبد من أحد منهم في عصر من الأمصار نكير . فظهور روايتها وإطباقهم على صحتها وقبولهم لها دليل قاطع على صحة عقيدة أهل الحق وفلسفة دين المعتزلة فان قالوا : قد وردت نصوص من الكتاب بما يوجب رد هذه الأخبار مثل قوله تعالى « ما لظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (١) قالوا وأصحاب الكبار ظالمون وقال « من يعمل سوءا يجز به » (٢) « ولا يقبل منها شفاعة » قلنا ليست هذه الآيات هامة في كل ظالم ، والعموم لا صيغة له فلا تم هذه الآيات كل من يعمل سوءا وكل نفس ، وإنما المراد بها الكافرون دون المؤمنين بدليل الأخبار الواردة في ذلك . وأيضاً فان الله تعالى أثبت شفاعة لأقوام وقضاها عن أقوام فقال في صفة الكافرين « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » (٣) وقال : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » (٤) وقال « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن »

(١) آية ١٨ من سورة هافر

(٢) آية ٤٨ من سورة الدثر .

(٣) آية ٧٨ من سورة الانبياء .

(٤) آية ٢٣ من سورة سبا .

له « فعملنا بهنما جللاً لأن الشفاعة إما تنفع المؤمنين دون الكافرين . وقد أجمع المفسرون على أن للراد بقوله « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاً » — النفس الكافرة لا كل نفس ، ونحن وإن قلنا بصوم المداب لكل ظالم خاص فلا نقول إنهم مخلدون فيها بدليل الأخبار التي رويناها ، وبدليل قوله « ويقفر ما دون ذلك لمن يشاء » ^(١) وقوله « أنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ^(٢) .

فإن قالوا فقد قال تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » والفساق غير مرتضى قلنا : لم يقل لمن لا يرتضى . وإنما قال : لمن ارتضى . ومن ارتضاه الله لشفاعته الموحدون بدليل قوله « لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً » ^(٣) وقيل للنبي ﷺ : ما عهد الله مع خلقه ؟ قال : « أن يؤمنوا ولا يشركوا به شيئاً » ^(٤) وقال المفسرون : إلا من قال لا إله إلا الله . فإن قالوا : للترضى هو الثائب الذي اتخذ عند الله عهداً بالإجابة إليه بدليل أن الملائكة استغفروا لهم وقالوا « فاعفر للذين تابوا واتبعوا مبيئك » وكذلك شفاعاً الأنبياء عليهم السلام إنما هي لأهل التوبة دون أهل الكبر قلنا : ههنا يجب على الله تعالى قبول التوبة فإذا قبل الله توبة للذنب فلا يحتاج إلى الشفاعة ولا إلى الاستغفار .

وأجمع أهل التفسير على المراد بقوله « فاعفر للذين تابوا » أى من الشرك

(١) آية ٤٨ من سورة النساء

(٢) آية ٨٧ من سورة يوسف

(٣) آية ٨٧ من سورة مريم

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن صاذ بن جبيل مع اختلاف في الرواية انظر ...

« واتبعوا سبيلك » أى سبيل المؤمنين . سألوا الله تعالى أن يعفر لهم ما دون الشرك من ذنوبهم كما قال تعالى « ويعفر ما دون ذلك لمن يشاء »

فان قالوا : جميع الأمة يرغبون في شفاعته النبي ﷺ . فهو كانت لأهل الكبرياء خاصة بطل سؤالهم . قلنا : إنما يطلب كل مسلم شفاعته الرسول ويرغب إلى الله تعالى في أن تناله لاعتقاده أنه خير سالم من الذنوب ولا قائم لله سبحانه بكل ما افترض عليه ، بل كل واحد معترف على نفسه بالنقص فهو لذلك يخاف العقاب ويرجو النجاة ، وقال ﷺ « لا ينجو (١) أحد إلا برحمة الله تعالى . فقيل : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : ولا أنا إلا أن يتقمدني الله برحمته » (٢) .

وهاجم القرطبي كثيراً من الفرق غير المعتزلة . فهاجم « الكرامية » (٣) في تفسير قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » فقال : « في هذه الآية رد على الكرامية حيث قالوا : إن الإيمان قول باللسان وإن لم يستقد بالقلب ، واحتجوا بقوله تعالى « فأنا بهم الله بما قالوا » ولم يقل بما قالوا وأضمر وأيقوله عليه السلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم » (٤) وهذا منهم قصور وجود وترك نظر لما نعلق به القرآن والسنة من العمل مع القول والاعتقاد . وقد قال رسول الله ﷺ « الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان »

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة مع اختلاف بسيط . باب من يدخل أحد الجنة بماله ح ١٧ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٨٨ آية ٤٨ من سورة البقرة

(٣) الكرامية فرقة من المجسمة كما يقول الشهرستاني « تنسب إلى مؤسسها » محمد بن كرام السجستاني التوفي سنة ٢٥٥ هـ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة في باب بيان الإيمان الذي يدخل الجنة ح ١ ص ٢٠٦ انظر صحيح مسلم بشرح النووي .

أخرجه ابن ماجه في سننه، فما ذهب إليه محمد بن كرام السجستاني « وأصحابه هو التفات وعين الشقاق . ونسود بالله من الخذلان (١) .

وهاجم الإمامية والرافضة في قوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون : اخلفني في قومي وأصلح » فقد قال : « المعنى وقال موسى حين أراد المعنى للنجاة والمنيب فيها ، لأخيه هارون : كن خليفتي ، فدل على النيابة » وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لعل (حين خلفه) في بعض مغازيه « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » (٢) فاستدل بهذا الروافض (٣) والإمامية وسائر فرق الشيعة على أن النبي ﷺ استخلف عليا على جميع الأمة حتى كفروا الصحابة — فبحمهم الله — لأنهم هتدم تركوا العمل الذي هو النص على استخلاف علي واستخلفوا غيره بالاجتهاد منهم . ومنهم من كفر عليا إذ لم يتم بطلب حقه ، وهؤلاء لا شك في كفرهم وكفر من تبعهم على مخالفتهم ، ولم يعلموا أن هذا استخلاف في حياة ، كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو بموته لا يقتضي أنه متبادر بعد وفاته فينحل على هذا ما يتعلق به الإمامية وغيرهم ، وقد استخلف النبي ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وغيره ولم يلزم من ذلك استخلافه دائما بالاتفاق ، على أنه قد كان هارون شرك مع موسى في أصل الرسالة فلا يكون لم فيه على ما راموه دلالة والله الموفق للهداية (٤) .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٣ آية ٨ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب الفتن ج ١٥ ص ١٢٥ والنسوة إلى الخذلان .
على « هي غزوة تبوك » .

(٣) الرافض فرقة من الشيعة سموا بذلك لأنهم رجعوا خلافة الشيعية .

(٤) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٧٧ آية ١٤٢ من سورة الاعاء .

وفي الآيات التي يوم ظاهرها مشابهة الله تعالى للحوادث - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - عرض القرطبي آراء أهل السنة (١) وهاجم المشبهة بالجسمانية في قوله تعالى « والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » يقول :

« اختلف الناس في تأويل الوجه للمضاف إلى الله تعالى في القرآن والسنة . فقال الحناني : ذلك راجع إلى الوجود والمعبارة عنه بالوجه ، من مجاز الكلام إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً . وقال ابن فورك : قد تذكر صفة الشيء وللايراد بها للوصف توسعاً كما يقول القائل : رأيت فلان اليوم ونظرت إلى علمه ، وإنما يريد بذلك رأيت العالم ، ونظرت إلى العلم . كذلك إذا ذكر الوجه هنا والمراد من له الوجه أي الوجود . وعلى هذا يتناول قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله (٢) » لأن للراد به : الله الذي له الوجه ، وكذلك قوله : « إلا ابتغاء وجه رب الأعلى » أي الذي له الوجه . قال ابن عباس : الوجه عبارة عنه عز وجل كما قال : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقال بعض الأئمة تلك صفة ثابتة بالسمع زائدة على ما توجيهه القول من صفات القديم تعالى . قال ابن عطية وضعف أبو المعالي هذا القول . وهو كذلك ضعيف . وإنما المراد وجوده . وقيل المراد بالوجه هنا : الجهة التي وجبنا إليها أي القبلة . وقيل الوجه المقصد كما قال الشاعر .

أستغفر الله ذنباً لست بحصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

وقيل : الحق فتم رضا الله وثوابه كما قال : « إنما نطعمكم لوجه الله » أي

(١) لقد اختلف أهل السنة في مثل هذه الآيات فقال بعضهم بانتقوسه ، وقال بعضهم بتأويل الآيات على قدره الله السرية . وقال أبو بكر : بين الطيب وجماعة من التشكيكين أن الوجه والعين واليد وغير ذلك صفات زائدة على الذات ثابتة لله تعالى .

(٢) آية ٩ من سورة الانسان .

لرضاءه وطلب ثوابه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم (١) « من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة. »

ويبدو أن القرطبي كان يعيل إلى التأويل؛ فإنه كثيراً ما تعرض له ووجه الآيات على ضوءه، كما وصفه بأنه مذهب الخذاق في مفتتح كلامه.

وتستطيع أن تلح ذلك ببساطة من خلال تفسيره، وترى القرطبي يهاجم الزنادقة والقرامطة الذين يقيمون المشابهة بقصد التشكيك في القرآن وإضلال العوام، وقال عنهم « لا شك في كفرهم وأن حكم الله فيهم القتل من غير استئابة » وهاجم المجسمة الذين يعتقدون أن الباري تعالى جسم بمجسم وصورة ذات وجه ويد وهين وجنب ورجل وأصبع — تعالى الله عن ذلك — وحكم بكفرهم إذ لا فرق بينهم وبين هباد الأصنام والصور، لكنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفصل عن ارتد (٢).

من هذا العرض تبين لنا أن القرطبي كان سنياً أشعرياً، ينتصر للمذهب أهل السنة ويدافع عنه. وإن كان في تفسير الآيات التي يوم طأهرها مشابة الله لحوادث يعيل إلى التأويل، وأنه لم يقتصر على مهاجمة المعتزلة، بل تعرض للهجوم على كثير من الفرق السياسية والفيلية.

(١) الحديث أخرجه مسلم من هشام بن همام ح ٥ ص ١٤ باب فضل بناء الله. انظر تفسير القرطبي ح ٢ ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) أنظر تفسير القرطبي ح ٤ ص ١٤ والقرامطة فرقة من الزنادقة للانحادة أنبأع الفلاسفة من اللرس الذين يعتقدون نبوة زرادشت ومزدك وماني وكانوا يسمون المحرمات.

الفصل الرابع

الحركة العلمية في عصر القرطبي

لقد نشطت الحياة العلمية بالمغرب والأندلس في عصر الموحدين (١١٤٠ - ١٢٦٨ م) - وهو العصر الذي عاش فيه القرطبي فترة من حياته أيام أن كان بالأندلس -

ومما ساعد على ازدهار هذه الحياة ورواج هذه الحركة : أن « محمد ابن تومرت » مؤسس الدولة الموحدية كان من أقطاب علماء عصره . وقد أفسح في دهره للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحجاسة حتى أنه لما ألف كتابا لاتباعه بدأه بهذه الكلمة التي عرف الكتاب بها فقال :

« أهز ما يطلب وأفضل ما يكب وأنفس ما يدخر وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أهز المطالب وأفضل للكاسب وأنفس للخائر وأحسن الأعمال » (١) .

وتتابع بعده الخلفاء والأمراء فكانت لهم قدم راسخة في العلم والأدب ومشاركة للشعراء في شعرهم (٢)

ورغم الاضطرابات التي حدثت في أواخر الدولة الموحدية والتي كان من

(١) عصر الرابطين والموحدين القسم الثاني الأستاذ محمد عثمان ص ٦٤٥ .

(٢) راجع للسج في انخيس أخبار المغرب . للمراكشي فإنه يتحدث عن عبد المؤمن ابن علي « ٥٢٤ — ٥٥٨ م » ٢٦٩ . وتحدث عن يوسف بن عبد المؤمن « ٥٥٨ — ٥٨٨ م » ٢٥٦ وتحدث عن : قلوب بن يوسف « ٥٦٠ — ٥٩٥ م » ص ٢٥٦ .

جرائها أن تدهت أركانها وأخذت تسرع نحو السقوط والانهيار، فإننا نرى أن خلفاءها كانت لهم ميول ونزعات علمية وأدبية، نلقدهم وصف «ابن الخطيب» الخليفة «المأمون» — أبا العلاء إدريس «٦٢٤ — ٦٢٩ هـ» بقوله :

: كان رحمه الله شهياً شجاعاً جريئاً بميد الهمة نافذ العزيمة قوى الشكيمة ليلاً كاتباً أدبياً فصيحاً بليغاً أديباً جواداً حازماً (١).

وهنا هو «المرتضى بالله» — أبو حفص عمر «٦٤٦ — ٦٦٥ هـ» الذي تفككت على يديه الدولة الموحدية، يصنفه للورخون بأنه كان فقهاً أدبياً شاعراً. وأنه كان شغوفاً بجمع الكتب والتصانيف.

ومن قصيدة له نظمها في شهر ربيع :

واقى ربيع قد تعطر نفعه أذكرى من المسك العتيق لسيا
بولادة المختار أحمد قد بدا يزهر به فخرا وحاز عظيما

كذلك ساعد على نمو الحركة العلمية وازدهارها كثرة الكتب والمؤلفات التي كانت بالأندلس، فلقد هوى كثير من الحكام جمع الكتب واقتناءها. يحدنا «القرى» من «الحكم المستنصر بالله ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ» فيقول : «كان محبا للعلوم مكرما لأهلها جهاها للكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله» ثم يقول عنه أيضاً «وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي بأذلا فيها ما أمكن من الأموال، حتى ضانت عنها خزائنه وكان ذا هرام يباه بأثر ذلك على لثام الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته،

(١) عصر الرابطين والموحدين الجزء الثاني ص ٢٨٥ وانظر في ترجمة المرتضى نفس المصدر ص ٥٩٥.

وكن في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب أحوزيا نسيج وحده وكان ثقة
فيما ينقله» (١).

وفي عهد أبي «يعقوب يوسف بن عبد المؤمن» «٥٥٨ — ٥٨٠ هـ»
تسكنت مكتبة تضارع مكتبة «الحكم المستنصر بالله». يقول «المراكشي»
وهو يتحدث عنه: «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب
ويبحث عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع
ملك قبله من ملك المغرب» (٢).

ولم تقتصر هذه الهواية على حكم الأندلس بل كانت متصلة في نفس
الشعب الأندلسي وخاصة أهل «قرطبة». يقول «المقرئ»:

«وهي — أي قرطبة — أكثر بلاد الأندلس كتباً وأشد الناس اعتناء
بمخزائن الكتب صار عندهم ذلك من آلات التمييز والرياسة حتى أن الرئيس
منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب،
والكتاب الغلاني ليس هند أحد غيره والكتاب الذي هو بخط فلان قد
حصله وظفر به».

قال الحضرمي: أقت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أقرب فيه
وقوع كتاب كان لي يطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح،
ففرحت به أشد الفرح فجلست أزيد في ثمنه، فيرجع إلى المنادي بالزيادة على
إلى أن بلغ فوق حده فقلت له: يا هذا أرني من يزيد في الكتاب حتى يبلغه
إلى مالا يساوي. قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له:

أكرم الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بقية ولا أدرى ما فيه ولكنني أقمت خزانة كتب واحتفلت بها لأعجل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها ما يسع هذا الكتاب فلما رأته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير (١) .

هذه التزاعات المليية التي أنعم بها خلفاء للوحدين وتلك المؤلفات التي غمرت بلاد الأندلس شجعت العلماء وروجت سوق العلم ، فتعددت الهيئات العلمية في ربوع الأندلس وبين جوانبها : ونهضت العلوم الدينية كاللغة والحديث والتفسير والقراءات، كما نهضت علوم اللغة : النحو والتاريخ والأدب والشعر ، ولقد كان لهذا كله أثر كبير في التكوين العلمي لصاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » .

وفي الحديث نبغ كثير من العلماء في مقدمتهم « أبو الربيع بن سالم وهو سليمان بن موسى بن سالم الحيرى » ٥٦٥ — ٦٣٤ هـ من أهل بلنسية وصفه ابن « الأبار » بقوله : « كان إماماً في صناعة الحديث بصيراً حافظاً حافلاً صاراً بالجرح والتعديل ذا كرا للواليد والوفيات يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة فرداً في إنشاء الرسائل مجيداً في النظم خطيباً فصيحاً مفهماً » (٢) .

ويقول الأستاذ محمد هنان : وكان فوق علمه تفرير مجاهد من أولى الإقدام والبساطة وثبات الجأش ، يحضر النزوات والوقائع ويشترك بنفسه في

(١) فتح الطيب ج ١ ص ٢١٥

(٢) التكملة ج ٢ ص ٢٠٨

القتال وبيلي البلاء الحسن، وذكر أنه توفي وهو يخوض إحدى للمعارك التي دارت بين المسلمين والنصارى في ظاهر بلفسية سنة ٦٣٤ هـ (١).

وكان « يعقوب المنصور ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ » يشجع علم الحديث ويمنع من طلبته، يقول المراكشي : « ونال عنده طلبه العلم — أعنى علم الحديث — ما لم ينالوا في أيام أبيه أو جده، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوما بمحضرة كافة للوحدين يسمعون وقد بلغه حسدكم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إليهم. يا مشر للوحدين، أتم قبائل، فن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته، وهؤلاء — سنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا فنهنا ناههم أمر فأنا ملجؤهم وإلى فزعهم وإلى ينسبون. فمظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالح للوحدون في إكرامهم » (٢).

ولقد كان هذا الخليفة يستقدم كثيرا من الحديث إلى حاضرة ملكه « إشبيلية » بالأندلس أو « مراکش » بالمغرب، ليسمع هليم، وكذلك كان يفعل أبوه الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن ٥٥٨ — ٥٨٠ هـ » ففي ترجمة « محمد بن إبراهيم بن خلف بن أحد الأنصارى ٥١١ — ٥٩٠ هـ » يقول ابن « الأبار » بعد أن تحدث عن إمامته في علم الحديث « واستدعى من مالقة في أواخر حياته من الخليفة يعقوب للمنصور إلى مراکش ليسمع عليه بها فقصده إليها ولكنه توفي بها بعد قليل في شعبان سنة ٥٩٠ هـ » (٣).

ومن أهلام الحديث في عصر الموحدين :

داود بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصارى « ٥٥٢ — ٥٦٢ هـ »

(١) عصر الرابطين والوحدين، القسم الثاني ص ٦٥٨

(٢) اللبب ص ٣٥٦

(٣) عصر الرابطين والوحدين القسم الثاني ص ٦٥٢ نقلا عن التكملة وانظر التكملة

ترجمة رقم ٥٩٦ - ٢٠٨

«سكن مائة وأصله من بلنسية . وكانت له رحلات هلية داخل الأندلس وخارجها . ومن شيوخه «الظاهر بن هوف ، وأبو القاسم بن بشكوال» وكان هو وأخوه أبو محمد من أوسع أهل الأندلس رواية في وقتها لا ينافيان في ذلك ولا يداضان مع الجاهل والمغالاة» (١)

ومتهم : محمد بن محمد بن حميد البجلي « ٥٦١ — ٦٣١ هـ » من أهل جيان ، يقول ابن الأبار بعد أن تحدث عن شيوخه ورحلاته « ثم انتقل إلى قرطبة فتولى الخطبة والإمامة بجامعها الأعظم وأسمع الناس الحديث وأخذته جماعة وتوفى بها على تلك الحال عصر يوم الأربعاء الحادى والعشرين من رمضان سنة ٦٣١ هـ وتقل عن بعض اللؤرخين : إن هذا الشيخ دعا الله أن يعينه وهو ملازم الصلوات بجامع قرطبة فأجيبته دعوته (٢) .

وفي التفسير ظهر عدد من المفسرين منهم « محمد بن عبد الله بن مبيون المبردى ٥٦٧ هـ » كان عالماً في التفسير والقراءات والفقهاء وله مؤلفات في كثير من الفنون كما كان ينظم الشعر ويقولها ، ومن شعره :

توصلت ياربى بأنى مؤمن وما قلت لى سامع ومطيع
أبصلى ببحر النار هاص موحداً وأنت كريم والرسول شفيح

ومن أكابر شيوخه وأجلهم « عبد الرحمن بن هذاب انطوطي » سنة ٥٣٠ هـ وصفه صاحب الديباج بأنه كان آخر الشيوخ الجلة الأكابر بالأندلس في علو الأسناد وسعة الرواية ، وأنه كان عالماً بالقراءات السبع والفتنة ملماً بالتفسير (٣) .

(١) الشبكة ص ٦٣ وما بعدها ح ١

(٢) المصدر السابق ص ٣٤٠ ح ١ وانظر الديباج ص ١٥٠ ، ٣٠٠

(٣) المصدر السابق .

ومن المفسرين في عصر الموحدين « أبو بكر محمد بن أحمد بن أبي جرة »
ت سنة ٥٩٩ هـ . قال ابن « الأبار » عنه « إنه سمع من القاضي أبي بكر بن
أسود » ت سنة ٥٣٩ هـ « وناوله تأليفه في تفسير القرآن » (١) .

وأوجب العصر مجموعة من القراء الأكابر . منهم « أحمد بن هلى بن يحيى
ابن هون الله الأنصارى المعروف بالحصار » سكن « بلنسية » وأصله من
« دانية » درس القراءات وبرع فيها وتبوأ رياستها في عصره ولم يكن أحد
يدانيه في صناعته في الضبط والتجويد والإتقان وكان يقصده الطلاب من كل
صوب للأخذ عنه . ويعنه تلميذه « ابن الأبار » الذى تنقل عنه هذه الترجمة
بأنه كان « آخر المقرئين بشرق الأندلس وكانت وفاته ببلنسية في الثالث
من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ قبيل كارثة المقاب بأيام قلائل وقد قارب الثمانين
من عمره » (٢) .

ومهم « محمد بن حسن بن محمد بن عبد الله بن خلف الأنصارى من أهل
مالقة يعرف بابن الحاج » كان من أئمة القراءات والحديث أخذ عنه الناس
وانتفعوا به واستمر ينشر العلم إلى أن أكرمه الله بالشهادة في وقعة المقاب
سنة ٦٠٩ هـ (٣) .

أما الفقه فقد حاول مجرعة من أقطاب العلماء منهم زياد بن عبد الرحمن
الخبزى « ت سنة ٥٢٠ هـ » ، وعبد الملك بن حبيب « ت سنة ٥٣٨ هـ » ،
ويحيى بن يحيى « ت سنة ٥٣٤ هـ » .

(١) رسالة مهج ابن هطية المفسر للزملاء عبد الوهاب فايد . ص ٢٤

(٢) فهرس للرايدين والموحدين ، القسم الثانى ص ٦٥٦ وانظر التكملة ترجمته ص ٢٦١ .

(٣) الديباج ص ٣٠١ .

حاولوا نشر مذهب الإمام « مالك » بالأندلس وبذلوا في سبيل ذلك جهودا صادقة وشجع أمراء الدولة الأموية هذه الجهود التي تبذل لأفكار المذهب المالكي وكانهم يريدون مخالفة خصومهم المباسيين الذين يعتقدون المذهب الحنفي . راق ، فاستقر المذهب المالكي وزحزح غيره من المذاهب (١) .

وظل الأمر على ذلك إلى أن ظهر « محمد بن تومرت » مهدي الموحدين . وكان يكره فقهاء الدولة المرابطية ويتهمم بالتعصب والجلل ، وكان هؤلاء الفقهاء نفوذ وسطوة سجلها كثير من المؤرخين وانتقدها بعض الشعراء بقوله :

أهل الريا لبسمونا بيسمكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكنمو الدنيا بمذهب مالك وقسمتمو الأموال باين للقاسم
ووكبتوشهب القواب بأشهب (٢) وبأصعب صبفت لكم في العالم (٣)

فزاد ذلك من كراهية « ابن تومرت » لهم — ورغم أنه كان يحب المذهب المالكي — إلا أن هذه الكراهية دفنته إلى أن يضع لأتباعه دروسا قهية حتى لا يعتمد على فقه هؤلاء ، وهذه الدروس وإن كانت مأخوذة من الفقه المالكي إلا أنه لم ينسبها للإمام « مالك » بل نسبها لنفسه وضمنها كتابه « أعر ما يطلب » .

(١) راجع طبر الاسلام ج ٣ ص ٢٩ للاستاذ أحمد أمين -- قرطبة في التاريخ الاسلامي ص ٩٦ دكتور جودة هلال -- خطبة للقرنزي ج ٤ ص ١٤١ -- مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٢ في فلسفة ابن رشد دكتور بيبسار ص ١٦ - فتح الطايح ج ٢ ص ١٥٨ (٢) أشهب هو أشهب بن عبد العزيز الفقيه المالكي المصري المتوفى سنة ٢٥٤ هـ . وهو الذي تنسب موت الشافعي فقال للشافعي : تنس ورجال .. وأصعب هو أصعب بن الفرج الفقيه المالكي المصري توفي سنة ٢٢٥ هـ . وقيل في ذلك وابن القاسم فقيه مالكي مصري يسمى عبد الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ (٣) راجع المسجب ص ٣٣٥

وجاء بعده « يوسف بن عبد المؤمن » فكره النشقات والآراء الكثيرة التي توقع المقلدين في حيرة واضطراب فرغب في حل الناس على المذهب الظاهري وكذلك رغب أبوه « عبد المؤمن بن علي » (١٥٢٤ — ١٥٥٨) ولكنهم سالم به. اذ لك، يؤكد « المراكشي » هذه الحقيقة فيقول: « يشهد لذلك عندي ما أخبرني به غير واحد من لقي الحافظ أبا بكر بن الجسد « أنه أخبرهم قال: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس^(١) فقال لي: يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المشبهة التي أحدثت في دين الله. أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا فأبى هذه الأقوال هو الحق وأبها يجب أن يأخذ به المقلد؟ ففتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك. فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، وهذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان هن يمينه، أو السيف^(٢) ورغم ما في هذه العبارة من تهديد ووعيد لمن اشتغل بالفروع وترك ظاهر الكتاب والسنة إلا أن التاريخ لم يسجل له أنه نفذ وعيده وتهديده، كما سجله لولده « يعقوب المنصور ». فقد كان شديد الإعجاب بابن حزم، يعتبره منارة من منارات الاسلام، وبلغ من إعجابه أنه قال بعد أن وقف على قبره ذات يوم: هجبا لهذا الموضوع يخرج منه مثل هذا العالم .. ثم قال: كل الدماء هيال على ابن حزم. ولها حاول حمل الناس على مذهبه وإزالة مذهب مالك من المغرب والأندلس^(٣) ويصف « المراكشي » الخطرات الإيجابية التي أتخذها

(١) لبدافقة بن يونس المتوفى في حدود سنة ١٥٢٢ شرح للمدونة يبدو أنه هو. ويوجد

منه نسخة خطية في مكتبة الفرويين بناس برقم ٨١ ونسخة أخرى برقم ٨٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥

(٣) الدهوة الموحدة ص ٣٠٤

« يعقوب » لاعادة المذهب الظاهري إلى الأندلس فيبين : أنه أحرق الكتب المالكية وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي^(١) وانحوض في شيء منه، وتوجه على ذلك بالعقوبة الشديدة وأمر بجاهة ممن كان هنده من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة : الصحيحين، والترمذي، والموطاء، وسنن أبي داود، وسنن النسائي، وسنن البزار، ومسند ابن أبي شيبة، وسنن الدارقطني، وسنن البيهقي، في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة فأجابوه إلى ذلك وجمعوا ما أسرم بجمعه فكان عليه بنفسه على الناس وبأخدم بحفظه، وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب وحفظه الناس من العوام والخاصة . فكان يجعل لمن حفظه الجمل السني من السكاه والأموال . ثم يقول المراكشي « وكان قصده في الجملة نحو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهم لم يظهره وأظهره يعقوب هذا » (٢) .

وهذه المحاولات، وإن أوجبت بعض الفقهاء الذين اعتنقوا مذهب الظاهرية أو نفست عن الفقهاء القدامى الذين كانوا يدينون بهذا المذهب ، فإن ذلك لم يمت المذهب المالكي بالأندلس ، بل لعل الوضع تغير بوفاة « المنصور » سنة ٤٥٩٩م. فماد الناس إلى الفقه المالكي وحاد الفقهاء إلى دراسة المذاهب الفقهية.

(١) علم الرأي : انقسم المتكلمون في الفقه إلى قسمين: أهل الحديث وأهل الرأي. فعرف الأولون ببناء الأحكام على الأحاديث النبوية والمالكية بغير إعمال الرأي من أمور الدين والعقوبة .

وهرف الآخرون بإعمال الرأي في الأحكام وقياس بعضها على بعض والتوقف عن قبول الحديث إلا إذا كان متواترا، وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع وأطلق على المدرسة الثانية اسم مدرسة الرأي وسمى أصحابها أهل الرأي .

(٢) المعجم ص ٣٥٤ وانظر الدهوة الموحدي ص ٣٠٤ .

ويؤيد هذا أن كتب التراجم والطبقات قد ترجمت لك من الفقهاء المالكية في هذا العصر . خذ مثلاً :

(اسحاق بن إبراهيم بن يصر الجابري) من مدينة فاس درس بها ودرس كذلك بسبته . ثم رحل إلى الأندلس ودرس الفقه بمروية وولى قضاء فاس وسبته ، وكان متبحراً في الفقه المالكي حافظاً متقناً ، ويقال أنه كان يستظهر المدونة وولى قضاء بالمسيرة في أواخر حياته سنة ست وسبعمائة ثم ولى قضاء « جيان » وفقد في موقعة العقاب في شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ (١) .

بل لعل هذا الاضطهاد الذي نال الفقهاء بسبب الحزمية أو الظاهرية . أحدث رد فعل في كراهية المذهب الظاهري وقدمه . ومن الأمثلة التي تؤيد ذلك : أن الفقيه المالكي « محمد بن محمد بن سعيد الأنصاري الأشبيلي المعروف بابن زرقون » قد ترجم له المؤرخون فوسفوه : بأنه كان فقيهاً متبحراً في المذهب وأنه كان يشارك في الأدب مشاركة طيبة ثم ذكروا من مؤلفاته : « الكتاب المعلق في الرد على الحلي لابن حزم » . ويوضح صاحب « الديباج » السبب الدافع له إلى تأليف هذا الكتاب فيقول : « كان من كبار المنعبين للمذهب فأودى من جانب أبي عبد المؤمن ، ولما أبطلوا القياس وألزموه الناس بالأثر والظاهر صنف كتاب المعلق في الرد على الحلي لابن حزم . وتوفي في شوال سنة ٦٣٩ هـ » (٢) .

(١) عمر المرابطون والموحدون القسم الثاني ص ٦٥٦ ، وانظر ترجمته في الشبكة رقم ٥١٧ .

(٢) عمر المرابطون والموحدون القسم الثاني ص ٦٥٩ والديباج ص ٧٨٦ ويلاحظ أن ابن فرحون ذكر وفاته سنة ٧٢١ وهو خطأ .

أما علوم اللغة والنحو فقد خرج العصر طائفة ممتازة من اللغويين، والنحاة من أشهرهم : « محمد بن علي بن خروف » من أهل أشبيلية، قال صاحب الوفيات في ترجمته : « كان فاضلاً في علم العربية وله فيها مصنفات شملت بقضه وسعة علمه ^(١) » ويبين ابن شاكر أنه أهدى نسخة من شرحه على كتاب صيبويه للخليلة الناصر — « ٥٩٥ — ٦١٠ هـ » — فوصله الخليفة للوحدى بألف دينار من الذهب . وأنه لم يتصدر لتدريس النحو بأشبيلية وحدها بل طوف كثيراً من بلاد الأندلس لهذا الغرض . فانتفع الناس به ، وكانت وفاته سنة ٦٠٩ هـ ^(٢) ومنهم أبو علي عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي المعروف بالشلوبين ^(٣) ، درس القراءات والآداب والفنات ، وأخذ بقطع من رواية الحديث ثم تعمق في دراسة العربية حتى نبغ فيها وهد إمامها الذي لا يبارى . وتصدر لإفرائها بأشبيلية دهرًا وكانت تشد إليه الرحال من سائر الآفاق للاخذ عنه ، وتوفي بأشبيلية في أواخر صفر سنة ٦٤٥ هـ . ومنهم « عبد الله بن محمد ابن عبد العزيز بن سعدون الأزدي » من أهل بلنسية برع في اللغة والأدب وتفوق فيهما فأفاد الناس كثيراً وكانت وفاته في سنة ٦٧٢ هـ ^(٤) .

كذلك ظهر في علم التاريخ مجموعة من اللؤرخين أرخ بعضهم للأندلس وترجم آخرون لغاتها ومفكرها ومنهم :

(١) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٢

(٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٠

(٣) ضبط ابن خلكان هذا الكلمة بفتح الشين واللام وسكون الواو وحسب البناء للوحدة وسكون الياء ويدها نون نسبة إلى الشلوبين وهو بلغة الأندلس الأبيض الأشقر أنظر الوفيات ج ٣ ص ١٢٤ وأنظر عصر الرايطين والموحدين ج ٢ ص ٦٨٦

(٤) أنظر ترجمته في التكملة ج ٢ رقم ٢١١٠

« أبو عبد الله محمد المراكشي المعروف بابن حناري » ما . « البيان للغرب في تاريخ الأندلس والغرب » . وحياته هذا للزورخ مجهولة، يشير إلى ذلك الأستاذ « محمد هنان » فيقول : أما عن حياة ابن حناري وأصله ونشأته فلستأعرف عنها شيئاً ولا نعرف إلا أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع وأوائل القرن الثامن وكان حياً في سنة ٧١٢ هـ حسبما يذكر لنا ذلك في مؤلفه ، وربما توفي بعد ذلك بقليل (١) .

ومنهم ابن الأبار « أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاخي » ولم يكن « ابن الأبار » مؤرخاً فقط بل كان فقيهاً وكاتباً وشاعراً إلى جانب كونه مؤرخاً (٢) . ولقد وضع معجماً في تاريخ علماء الأندلس سماه « التسلية » ليتم به كتاب الصلة لأبي القاسم خلف بن بشكوال للتوفي سنة ٥٧٨ هـ .

وله في هذا المجال كتاب « الحلة السراء » هو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب تبدأ من السنة الأولى للهجرة حتى أوائل الثلاثة السابعة، وقد توفي ابن الأبار مقتولاً بتونس على يد حاكمها المستنصر بالله سنة ٦٥٨ هـ . لأنه تخيل منه الخروج وشق عصا الطاعة (٣) .

وجاء بعده العلامة المغربي « أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن صعيد الانصاري المراكشي » وكان فقيهاً جليلاً ومؤرخاً ثقة فوضع موسوعة من أجل موضوعات التراجم لرجال المغرب والأندلس وسماها « القيل

(١) همس للرايطين وللوحدين ، القسم الثاني ص ٧٠٩ . تلام من البيان للغرب ، القسم الثالث ص ٤٥٤ .

(٢) راجع للقوات لابن شاسكر الكتبي ص ٢٨٣ .

(٣) همس للرايطين وللوحدين ، القسم الثاني ص ٧٠٥ ، ٧٠٧ .

والتمسكة لكتابي الموصول والصلة^(١) ، استدرك فيها ما فات ابن بشكوال ، وابن الأبار ، ويشير الأستاذ عنان إلى الغموض الذى يسكتنف حياة هذا الموزع صاحب هذه الموسوعة فيقول : أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ولا نعرف إلا أنه عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وتوفى في أواخر هذا القرن وربما في أوائل القرن الثامن^(٢) .

ثم جاء من بعده « ابن عبد الملك » راوية ومؤرخ أندلسى ولد في أواخر العصر الموحدى وتوفى بقرطاجنة سنة ٧٠٨ هـ . وهو : أحمد بن إبراهيم بن الزبير ابن الحسن بن الحسين بن الزبير الشهير بابن الزبير . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها « صلة الصلة » مذبلاها على صلة ابن شكوال . وفيها كثير من التراجم لرجال العصرين المرابطى والموحدى^(٣) .

ولقد بلغ الشرف عهد الموحدين حدا كبيرا من الازدهار والقوة فقد كان خلفاء الدولة الموحدية يتذوقون الشمر ويفرقون بين جيده وورديه قد نسج الشراء قصائدهم وتباروا في مدح هؤلاء الخلفاء طمعا في عطاياهم . ولم تمنطق جندوة الشمر أيام اضطراب الأندلس بالتوراة والدين وأيام محنتها بسقوط قواعدها في أيدي النصارى بل أذكى ذلك قرائهم : فصدرت عنهم القصائد في رثاء القواعد وفي إشمال الحاسة لاستردادها ، ومن شعراء هذا العصر « محمد بن أحمد الصابونى الصدى » من أهل أشبيلية ، يقول ابن الأبار عنه : « ذهب

(١) يوجد من هذه النسخة خمسة مجلدات متناثرة بالمتحف البريطانى والكتبة الوطنية بباريس ودار الكتب المصرية .

(٢) مصر المرابطين وللوحدين ، القسم الثانى ص ٧١٠

(٣) للمصدر السابق ، القسم الثانى ص ٧٠٩

الآداب بنهايه وختمت الأندلس شعراءها به « ولقد وحل الصابوني إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية وهو يقصد مصر سنة ٦٤٠ هـ (١١) .

أما العلم العقلي كالفلسفة والمنطق وعلم الكلام . فإننا نرى أنها نشطت ولقيت رواجاً في مبدأ عصر الموحدين لأن « محمد بن تومرت » كان كما وصفه « ابن الأثير » فاضلاً عالماً بالشريعة . حافظاً للحديث عارفاً بأصول الدين والفقه متحققاً بعلم العربية (٢) وقد قدسنا أنه نبى على علماء المرابطين تمصيم وجلم ووقوفهم عند الفروع كما فعل الإمام قبل إمام الغزالي . ولهذا حلوا على المهدي كما حلوا على كتب الغزالي (٣) فاستصدروا أمراً بإحراقها يقول « الرا كشي »: وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين على بن يوسف — تقييح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين . وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد . إلى أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله . فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالشديد في نبد الخوض في شيء منه . وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها وتقديم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها واشتد الأمر في ذلك (٤) . ولم تقتصر مطاردة الفقهاء

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٩

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ٢٤١ ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٢

(٣) ومنها كتاب (الاحياء) فيه حجة على الفقهاء ووصفهم بالجوذ . ومنها (الجامع للعوام في علم الكلام) ومنها (الاقتصاد في الالتهاد)

(٤) السج ص ٢٢٦ وما بعدها .

على علم الكلام وحده بل تعدته إلى بقية العلوم الفلسفية : وفوق ما كان عليه « ابن تومرست » من تحقيق في أصول الفقه وعلم الكلام ، فإن كراهيته أيضاً لعملاء المارابيلين جعلته لا يهجر على المقول ولا يفلق أمانها أبواب البحث ، ولم يسجل التاريخ له ولا خليفته « عبد المؤمن بن علي » اضطراراً للعلوم العقلية أو للشغف بها . أما الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » فكان محبا للعلوم العقلية شغوفاً بها ، فشجّعها وقرب المشتغلين بها ، بصفه « المراكشي » بقوله : « وكان له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو ثم طمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيراً من أحرارها وبدأ من ذلك يعلم الطب » . ثم بين « المراكشي » أنه أمر بجمع كتب الفلسفة فاجتمع له منها قريب مما اجتمع « للحكم المستنصر بالله الأيوبي (١) » ولقد نال هذه « أبو بكر بن طفيل » المتوفى سنة ٥٨٩ هـ « وأبو الوليد بن رشد » « ت سنة ٥٩٤ هـ » مكانة مرموقة ومنزلة عالية رفيعة وفي عهد ولده « يعقوب المنصور » تآلق ابن رشد وسلم نجه فقربه إليه الخليفة الجديد أكثر من أبيه حتى أن ابن رشد لم يجد يقول لمن يهتبه بمنزله ومكانته : والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء به . فإن أمير المؤمنين قد قربني دفعة إلى آخر مما كنت أؤمله أو يصل رجائي إليه (٢) .

وإذا كانت الفلسفة قد ازدهرت فترة في عهد الموحدين فإنها قد ازدهرت أيضاً في عهد « الحكم المستنصر بالله » ٣٥٠ — ٣٩٦ هـ وكانت تقام لها حلقات في مساجد قرطبة (٣) .

(١) اللجب ص ٣٠٩

(٢) بين الدين والفلسفة ص ٣٣

(٣) بين الدين والفلسفة للدكتور محمد يوسف موسى ص ١٩ .

أما فيما عدا هاتين الفترتين فقد حوربت الفلسفة واضطهدت ، حاربها الأمراء وحاربها الفقهاء والعامة . ولعل محاربة الأمراء لها كانت ترضية للفريقين فبعد أن انتهى عهد الحكم وخلفه ولده « هشام المؤيد » وكان حدثا لا يتجاوز العاشرة من عمره استقل « المنصور محمد بن أبي عامر » سنة ٤٣٩٣ هـ بالسلطة وانفرد بالحكم ، ثم أراد أن يتقرب إلى الناس وأن يمحو شعور السخط والاستياء عليه من نفوسهم فأهدم كتب الفلسفة . يقول صاحب « طبقات الأمم » فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصور وهيل عليها التراب والحجارة وغيرت بضروب من التفايير ، فل ذلك نجيبا إلى هوام الأندلس وتقييها لمذهب الحكم هدم ، إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، فمسمومة بأسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهمها هدم بالخروج عن الملة ومظنوننا به الإلحاد في الشريعة (١) .

ويؤيد « المقرئ » ذلك فيقول هند استعراض حال العلوم بالأندلس « وكل العلوم لها هدم حظ واهتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لهما حظا هند خواصهم ، ولا يتظاهرها خوف العامة ، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق . فقيدت عليه أنفاسه ، فإن ذل في شبهة رجوه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان ، أو يقتله السلطان تقريبا لقلوب العامة ، وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشخص إذا وجدت ثم يقدم لنا المقرئ دليلا قويا على أن « المنصور ابن أبي عامر » فعل ما فعل تقريبا إلى الناس رغم أنه كان يشتغل بهذه العلوم في الباطن فيقول « وبهذا تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نبوضه وإن كان

(١) بين الدين والفلسفة الدكتور محمد يوسف موسى ص ٢٠ وانظر الادب والاندلس

غير خال من الاشتغال بهذه العلوم في الباطن» (١).

فهل كانت محنة ابن رشد على يد الخليفة الذي قر به وأدناه من هذا القبيل ؟ أرجع بعض المؤرخين سبب هذه المحنة إلى كفر ابن رشد وزندقته . فقد نقل عنه ألقاظ لا تصدر إلا من اللارقين من الدين . وذلك أنه حين شاع في الأندلس أن ريحا عاتية تهب في يوم كذا تهلك الناس ، وشاور إلى قرطبة العلماء ومعهم ابن رشد وكان يومئذ قاضيا « قال أحد العلماء : إن صح أمر هذه الريح فهي ثانية الريح التي أهلك الله بها قوم عاد . إذ لم تعلم ريح بعدها يوم هلاكها . فانبرى له ابن رشد ولم يتالك أن قال : والله وجود قوم عاد ما كان حقا فكيف سبب هلاكهم ، فحفظ في أيدي الحاضرين وأكبروا هذه اليلة التي لاتصير إلا من مريب الكفر والتكذيب لما جاءت به آيات القرآن» (٢) ووصل ذلك إلى الخليفة فحاكه وأبعده عن بلاطه .

ويشكك بعض الباحثين في هذا الكلام فيقول : لم لا تكون هذه إشاعة أطلقها أهداء ابن رشد . من الفلاسفة أو من الفقهاء . كان من ورائها أن أغلق للنصور الباب خوفا من شغب الناس فحاكه وطرده من قرطبة مهابا (٣) .

ولا يمننا ذلك كثيرا ، وكل ما يمننا أن الخليفة للنصور قد نجاب مع الروح السائدة في عهده ضد الفلسفة . ولم تقتصر مطاردة الخليفة للنصور . لفلسفة وحدها ، وإنما تعدتها إلى سائر العلوم العقلية فأصدر منشورا يقضي

(١) نفع العايب القرى ص ١٠٢

(٢) في فلسفة ابن رشد للدكتور بيمار ص ٤٣ .

(٣) انظر « في فلسفة ابن رشد » ص ٤٤

بتحريم الاشتغال بهاء وإذا كان علم الكلام قد طورد أيام للرابطين فلماذا طورد في أيام للموحدين وزعيمهم « محمد بن تومرت » كان جل ما يدهو عليه كما يقول « للرا كشي » « علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية » ؟ لعل العامة أيضاً كانوا يكرهون هذا المذهب كما كانوا يكرهون مذهب المعتزلة ولم يستنقوا إلا مذهب السلف .

يوضح ذلك ما قاله للرا كشي بعد أن تحدث عن عقيدة ابن تومرت وأنها أشعرية قال : « وكان أهل المغرب يتأفرون هذه العلوم ويمادون من ظهرت عليه شديداً أمرهم في ذلك » (١) . ومن هنا أغلق المنصور للباب بتحريم الاشتغال بعلم الكلام أيضاً .

وإذا كان الفقهاء والعامة قد حاربوا الفلسفة فإن لا أتصور أن الفقهاء قد حاربوا مذهب الأشعرية . فإن الأشعرية قد هرفت طريقها إلى المغرب قبل عصر الموحدين . ولقي هذا المذهب قبولا في نفوس الفقهاء ولم يقض عليه بتلك المنشورات . بل ظل بالأندلس ، وانتشر بهاء وبالمغرب .

وقدم القرطبي إلى عصر أيام الأيوبيين وعاصر الفترة الأخيرة من حكمهم ثم شاهد اغتصاب الماليك للسلطة واستمر في مصر إلى أن توفي في خلافة « الظاهر بيبرس البندقداري » الذي حكم من سنة ٦٥٨ إلى سنة ٦٧٦هـ . ولم تسكن الحياة العلمية في مصر أيام الأيوبيين بأقل منها في الأندلس أيام الموحدين ، ولعل الأسباب التي أدت إلى نشاط الحركة العلمية في الأندلس تقرب أو تنفق مع الأسباب التي أدت إلى نشاطها في مصر . فلتد وصف

المؤرخون أمراء البيت الأيوبي بالذكاء والميول العلمية والأدبية وهذه حقيقة ، فإن الباحث إذا تتبع سير هؤلاء الملوك فإنه لا يجد ملكاً أو أميراً خاملاً أو جاهلاً . وبين « صاحب الروضتين » « أن الملك الناصر « صلاح الدين الأيوبي » كان يحب العلوم الدينية وكان يصطحب أولاده ويذهب لسباع الدروس من أفواه الأئمة المشهورين ويتنقل بهم في البلاد لهذا الغرض » (١) .

وقد قدمنا أنه تعلمنا على « الطرطوشى وابن هوف » وجاء من بعده على مصر ابنه « العزيز عثمان ٥٨٩ — ٥٩٥ هـ » — فسمع الحديث بالإسكندرية من الجافظ السلفى « والفقه عن ابن هوف » وسمع بمصر النحو من « ابن برى » (٢) .

ومحدثنا المراجع التاريخية بأن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ٦١٥ — ٦٣٥ — كان يحب العلماء ويعلمهم وكنهراً ما يسألهم أسئلة عميقة تدل على ذكائه وعلمه .

يبين صاحب « البداية والنهاية » أنه اجتمع مرة بمصر من العلماء الأجلاء يسمى « أباهيد الله بن أبى الحسن اليونىقى المتوفى سنة ٦٥٨ هـ » عند أخيه « الأشرف موسى ٦٣٥ هـ » وتذاكر معه شيئاً من العلم فحزت مسألة القتل بالقتل وجرى ذكر حديث الجارية التى قتلتها اليهودى فرض رأسها بين حجرين فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله فقال الكامل : إنه لم يعترف . فقال الشيخ الفقيه : فى صحيح مسلم فاعترف . فقال الكامل : أنا اخضرت

(١) الروضتين لآبى شامة ج ٢ ص ٢١٩ بتصرف . وانظر المحرقة الفكرية فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك للدكتور عبد الطيف حمزة ص ١٤٩ وانظر مرجع السكروپ ج ٣ فقد ذكر صاحبه كثيراً من أخبار أمراء البيت الأيوبي .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢٢٨ وانظر الحركة الفكرية فى الخلفاء قد ترجم لأمراء البيت الأيوبي وبين الميول العلمية لهم .

مصحح مسلم ولم أجد هذا فيه فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصاره لمسلم . ثم بين ابن كثير أن الشيخ أخذ مجلدا ، وأخذ بعض الحاضرين مجلداً آخر ، وأن الكامل أخذ مجلداً ، فتناول الشيخ مجلده وافتتحه فوجد الحديث كما قال فأراه للكامل فتمجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه وأراد أن يأخذه معه إلى الديار المصرية فأرسله الأشرف سريعاً إلى « بمليك » وقال للكامل : إن لا يؤثر بمليك شيئاً فأرسله الكامل ذهباً كثيراً (١) . فهذه القصة لا تدلنا على علم « الكامل » وذكاية فقط بل تدلنا على حبه للعلماء وأنه لم ينفرد بهذا الحب وحده بل شاركه فيه أخوه فلقد تنازع الأخوان هالما من العلماء كل واحد منهما يريد أن يستأثر به وأن يضمه إلى بلاطه لولا أن تغلب « الأشرف » على رغبة الكامل فأفذه ، إلى « بمليك » ولقد أطلق بعض الباحثين على الملك « المعظم عيسى بن الملك العادل » ملك دمشق والشام (ت سنة ٦٢٤ هـ) مأمون بن أيوب لأنه كان يقرب العلماء ويحترمهم ويدارهم ومع شغفه بالملك كان يهوى فقيها لغويا (٢) .

كذلك كان من العوامل التي ساعدت على رواج الحركة العلمية في عهد الأيوبيين ، كثرة المدارس وانتشارها بين أرجاء مصر والشام . فلقد أكثر الأيوبيون من بناء المدارس للقضاء على التشيع ومحاربة آثاره وإمهدة الحرية للعلماء الدارسين الذين كانوا يحاربون على أيدي الفاطميين . وكانت هذه

(١) المرجع السابق ، ومبطله .

(٢) انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٣٤ . والادب في العصر الايوبي للدكتور

محمد زغلول سلام ص ٨٠ والحركة الفكرية ص ١٥٣ والدكتور أحمد بدوي تأليف هـ ن الملك للمعظم عيسى بعنوان « مأمون بن أيوب » مكتبة الانجلو . وحديث الجارية أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي واللساني . انظر التاج ج ٣ ص ٧ .

للمدارس موزعة على بينات ثلاث : الإسكندرية ، والقاهرة ، وقوس .

أما الاسكندرية فقد قدمنا أنه كان بها مدرستان للحديث والفقه وكان للذهب السني سائداً بها قبل قدوم « صلاح الدين » وقبل قيام الدولة الأيوبية ، وقد تقدم أيضاً كفاح « أبي بكر الطرطوشي » وجهاده في سبيل إعادة للذهب السني ، بالاسكندرية ، فالاسكندرية إذن : لم تكن كغيرها من البيئات بحاجة إلى مجهود تبنيها الدولة الأيوبية حتى تنخلص من تشيعها ، ومع هذا فإن « صلاح الدين » أسس بها بعض المدارس إن لم تكن لمحو المذهب الشيعي فصاحبه منه في إنعاش الحركة العلمية .

أما القاهرة : فقد كانت مقر الدعوة الفاطمية وعاصمة خلافتها ، ومن ثم احتاجت إلى جهد كبير من رجال الدولة الأيوبية الجديدة لكي يتم لهم الرجوع بهذه البيئة العظيمة من المذهب الشيعي إلى المذهب السني ، فابتنى مؤسسها « صلاح الدين » مدرستين على عهد الخليفة « العاضد » الفاطمي نفسه (ت ٥٦٧ هـ) أولهما مدرسة للشافعية بجوار الجامع العتيق وعرفت بأسماء كثيرة منها للمدرسة الناصرية والمدرسة الشريفة ومدرسة ابن زين التجير (١) والثانية مدرسة للمالكية عرفت باسم دار الفزل ثم عرفت باسم المدرسة القمحية نسبة إلى القمّح الذي كانت تحصل عليه هذه المدرسة من ضيعة ونقبتها عليها « صلاح الدين » بالفيوم . ثم مات « العاضد » الفاطمي ومضى « صلاح الدين » في ابتداء المدارس فبنى بها مدرسة ثالثة للفقهاء الحنفية أطلق عليها المدرسة السيوفية .

(١) الحركة العسكرية من ١٥٦ وراجع كتاب الانتصار لابن دقاق ج ٤ ص ٩٣ فإنه قد بين أن هذه المدرسة سميت بمدرسة ابن زين التجير نسبة إلى طالم من علماء الشافعية تسمى بهذا الاسم ودرس بها .

وإلى جانب المدارس الثلاث السابقة للشافعية والمالكية والحنفية بقي
« صلاح الدين » مدرستين آخرين له هما المذهب الشافعي خاصة وهو المذهب
الذي كان عليه أكثر أراء البيت الأيوبي نفسه . إحداهما هي المدرسة
الرابعة بمحور الإمام الشافعي والأخرى هي المدرسة الخامسة بمحور الشهيد
الحسيني (١) كما بقي صلاح الدين أيضاً مدرسة في دمشق ومدرسة بالقديس . ولقد
تحدث « ابن خلكان » عن هذه المدارس وهو يترجم لصلاح الدين ثم عقب
بقوله « ولقد فكرت في نفسي في أمر هذا الرجل وقلت إنه سيد في الدنيا
والآخرة فإنه فعل في الدنيا هذه الأعمال المشكورة من الفتوحات الكثيرة
وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة — يقصد الأوقاف التي حبسها صلاح
الدين على هذه المدارس — وليس فيها شيء منسوب إليه في الظاهر فإن
المدرسة التي بالترافة ما يسمونها إلا بالشافعي والمجاورة للشهد لا يقولون إلا
الشهد والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا مدرسة السيوفية والتي بمصر — يريد
الفسطاط — لا يقولون إلا مدرسة زين التجار . . . وهذه صدقة
السر على الحقيقة (٢) .

وبعد أن انتهى عهد « صلاح الدين » لم تفرمة خلفائه . ولم تنقاصر
عن بلوغ المجد وخدمة الدين فتوالى إنشاء المدارس في أيامهم وراجت سوق
العلم والعلماء ويكفي أن نشير إلى بعض هذه المدارس التي أحدثها خلفاء
صلاح الدين أو التي أسست في العهد الأيوبي .

المدرسة الكاملية : وهي أول دار علم أحدثت بالقاهرة وقد كانت

(١) للسفر السابق ووفيات الالهيات ح ٥ ص ٢٠٥

(٢) وفيات الالهيات ح ٥ ص ٢٠٦ بقصر

الأولى في دمشق على عهد الملك « العادل نور الدين محمود » . أسس هذه المدرسة الملك « الكامل » وفرغ من عمارتها في سنة ٦٢٩ هـ ودرس فيها جماعة من الفضلاء وتولى مشيختها أكابر العلماء (١) .

المدرسة الصالحية بناها الملك « الصالح نجم الدين أيوب » وجعلها لفتح المذاهب الأربعة وتحدث « المقرئ » عن هذه المدرسة فقال : « إنها من أجل مدارس القاهرة إلا أنه قد تقدم عهدها فرت » ولما مات الصالح أيوب دفن بناحية من مدرسته تختص بالمسكية فقال في ذلك بعض الشعراء :

بليت لأرباب العلوم مدارس لننجوها من هول يوم المهلاك
وزادت عليك الأرض لم تزل تحمل به إلا بجانب مالك (٢)

وأما بيئة قوص فلقد قال الدكتور « عبد اللطيف حزة » وهو يتحدث عن هذه البيئة : « ومعلوماتنا عن هذه البيئة في القرنين السادس والسابع أى في العهد الأيوبي نفسه قليلة الفناء غير أنه جاء في القرن الثامن الهجري من وصف لنا هذه البيئة بشيء من الإسهاب والإفاضة وهذا الذى وصفها هو « كمال الدين الأذوى المتوفى هام ٧٤٨ هـ » وكتابه الذى نشر إليه هنا هو « الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » غير أنه من السير علينا أن نعلم أن كثيرا إلى ماورد بهذا الكتاب لأن صاحبه كان مدفوعا إليه بدافع من تعصبه لهذا الإقليم ، ومع هذا فكنا به لا يمكن أن يخفى من بعض الحقائق ومنها : أن هذا الإقليم كان كثير الخيرات وقد اشتهرت فيه مدن كثيرة من أهمها : أدفو مدينة الفقه والعلم وأسنا مدينة الترف والشعر ،

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ٢ ص ١٨٤ وما بعدها يتصرف .

(٢) المصدر السابق .

فنا مدينة الزهد والنصوف . ثم منها — أى من هذه الحقائق الهامة أن النشيع كان منتشرا في هذه البيئة فاحتاج الفقهاء والمعلماء في الدولة الأيوبية إلى مجهودات كبيرة حتى يخف بها مذهب الشيعة . ثم أحصى الأدفوى مدارس قوص في القرن الثامن الهجرى فإذا هي ستة عشر مكانا للتدريس ، ولا ندري كم من هذا العدد شهد القرنان السادس والسابع . ومن الجائز أن تكون هذه الفترة التاريخية التي لشهر إليها قد شهدت أكثر من هذا العدد (١) .

ويبدو أن هذه المدارس لم تسكن في هذه البيئات وحدها كما يقول الدكتور هبة الطيف حزة وإنما هرقتها كثير من المدن في العصر الأيوبي . ولا يهنا أن نستقصى ذلك ، فلقد قال الدكتور إسلام : كان يوجد بأسسوط مدرسة بليت في عهد الفاطميين وتسمى العائزية وكان يدرس بها في القرن السابع العالم المغربي نجم الدين المغربي الأكنغ وكان يدرس بها الفقه على مذهب الشافعي والأصول والنحو وغلل بها إلى أن توفي سنة ٦٢٣ هـ .

ولقد كانت لهذه المدارس أوقاف تضمن لها البقاء وتربو لطلابها سيل المديشة الراضية ، وكان يلحق بها مكتبة تعينهم على البحث والدرس والزود من مختلف العلوم بغير زاد (٢) (ويسمى « هل بن يوسف » وقفت بكسر اللغاف بلدة بالصعيد قرب قوص) واعتقد أنه فوق هذا كان لكل عالم أو أديب مكتبة الخاصة فالقاضي « القفلى » المتوفى سنة ٦٤٦ هـ كانت له مكتبة ضخمة قدرت بمئتين ألف دينار ، وكان لا يحب من الدنيا سواها . وبما ثبت شغل العلماء بجميع الكتب واقتنائها ما يروى أن « ابن حمدون »

(١) الحركة الفكرية ص ١٦٧ .

(٢) ابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٦ .

الكاتب عندما تقاعد به الدهر وبطل عن العمل أخرج كتبه ليبيعها وحينما
نذر عن الدرع كالفارق لأهل الأعرام وللغجوع بأحبابه الأوداء . وكان معه
« ياقوت » صاحب « معجم الأدباء » فواساه فرد عليه قائلا : حبسك يابني
هذه نتيجة خمسين سنة من العمر أنفقت في تحصيلها ، وهب أن المال يتيسر
والأجل يتأخر وهيئات . فحينئذ لا أحصل من جمها بمد ذلك إلا هلى الفراق
الذى ليس بمد تلاق ، وأنشد بلسان الحال :

هب الدهر أرضاني وأهتب صرفه وأهتب بالمسنى وفك من الأمر
فن لى بأيام الشباب التى مضت ومن لى بما قد مر فى البوس من عمرى (١)

وقد يفهم البعض من كلام المؤرخين عن المدارس أنه لم يكن يدرس بها
الفقه على أحد المذاهب أو المذاهب الأربعة ، ولكن يبدو أن هذه المدارس
لم تكن تقتصر على دراسة الفقه بل كانت تضم إلى جانب ذلك بعض العلوم
الأخرى . فعندما تحدث المؤرخون عن المدرسة المنصورية التى بناها هى والقبلة
التي تجاها الملك « المنصور قلاوون الألفى المتوفى سنة ٦٨٩ » قالوا إنه رتب
بها دروسا أربعة لأصحاب المذاهب الأربعة المعروفة ودرسا للعب كما جعل
بالقبلة درسا للعديث ودرسا للتفسير (٢) .

وكانت المساجد تقوم بدورها فى إعاش الحركة العلمية وتضم كثيرا من
حلقات العلم ، وورث الماليك عن سادتهم الأيوبيين حب العلم وتشجيع
المشتغلين به واحترامهم فتألفت الحركة العلمية وازدادت نشاطا وقوة ، وإن

(١) الأدب فى العصر الأيوبي ص ٨٦ نقلا عن معجم الأدباء ج ٣ ص ٢١٠ وتاريخ
العرب مطول لليايىب حتى ج ٣ ص ١٧٠ .

(٢) الحركة الفكرية ص ٢٣٢ .

لم يحفظ التاريخ للمالك مشاركة فعلية في الحركة العلمية كما حفظ لبني أيوب، فإنه قد حفظ لهم هذا التشجيع والاحترام والإكثار من بناء المدارس حتى توافد على بلادهم، سواء في مصر أو في الشام، عدد كبير من العلماء (١). وسقطت بغداد وقتل «هولاكو» كثيراً من علمائها وأتلف مخطباتها فانتقلت الخلافة إلى مصر فازداد إقبال العلماء وتوافد عليهم وفتحت مصر أبوابها لكل طارق، ورحب بمالكها بالقاديين للفرار هربوا لهم سبل الراحة فازدادت الحركة العلمية تألقاً، ولم تقتصر حجرة العلماء بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ على مصر بل تعدتها إلى الشام أيضاً (٢).

ويحاول السيوطي في كلام طويل أن يجعل انتقال الخلافة إلى القاهرة السبب الوحيد في رواج الحركة العلمية بها، ولا يرضى أن يكون للمالك دخل في هذا ويسأل رأيه بأن العلم والإيمان يدوران مع الخلافة حينما دارت. يقول السيوطي «واهم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها وعلت فيها السنة وهفت منها البدعة وصارت محل سكن العلماء ومحط رجال الفضلاء. وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حينما كانت يكون معها الإيمان والمسلم...» ثم يقول «ولا يظن أن ذلك بسبب الملوك فقد كانت ملوك بني أيوب أجل قدراً وأهمل خطراً من ملوك جاءت بكثير ولم تكن مصر في زمنهم كبغداد». ثم يؤكد وجهة نظره بأن الخلفاء لم يكن لهم صولجان في مصر فلقد استمر المتوكل

(١) راجع طبقات الائمة في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٣.

(٢) راجع مصر سلاطين المالك للدكتور محمد رزق سليم، ج ٣ ص ١٨ وابن تيمية للدكتور محمد يوسف موسى ص ٥٧.

(المتوفى بعد سنة ٨٠٢ ويسمى محمد المتوكل على الله) في الخلافة إلى أن عزله
الظاهر برقوق (١) المتوفى سنة ٨٠١ هـ.

فالسبب يتناسى تشجيع الماليك للعلم والملاءمة وما بذلوا في سبيل ذلك .
وبصور لنا أن الديار كانت خاملة على عهد الأيوبيين ، ولا يعلم ذلك للسيوطي
فإن الحركة العلمية لم تكن خاملة أورا كعدة أيام الأيوبيين . ونستطيع أن
نقول إن انتقال الخلافة كان حاملا قويا ولم يكن سببا وحيدا . أما ما ذكره
من حاجة الإيمان وموت البهجة وظهور السنة فإنه يرجع إلى غيرة الماليك
على الدين فإنهم قد اعتبروا أنفسهم بعد زوال الأيوبيين حاة لهذا الدين
وفادة عن بلاد المسلمين فتنعوا الفساد ودافعوا التنازل والصليبيين ، من الأمة
الإسلامية . ويقاسم بعض الباحثين هل كانت هذه الثيرة عن صدق وإيمان
أم عن رياء وتقرب إلى الناس ثم يقول لا يهنا أن نبعث عن هذا (٢) .

ويكشف باحث آخر النقاب عن حقيقة هذه الثيرة فيقول « شهدت
مصر في عهد الماليك نشاطا دينيا متقطع النظير ، وقد يكون السر في هذا
النشاط الديني الكبير هو شعور الماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد
وأهلها متصنون للحكم والعرض من أصحابه الشرعيين ، ولذلك أرادوا أن
يتغنوا من الدين ورجاله ستارا يخفي هذه الحقائق عن أهين الحكوميين
ويقربهم إلى قلوب الشعب . ومادام الماليك مسلمين يؤمنون بالله ورسوله
ويعرصون حل إقامة شأئ الدين وإحياء سنن الأولين ويعمرون مساجد يذكر
فيها اسم الله كثيرا . فهم إذن حكماء صالحون ، ولا داعي للتفكير كثيرا في

(١) خزن المفاخرة ج ٢ ص ٨٦

(٢) عصر سلاطين الماليك .

أصلهم وطريقة وصولهم إلى الحكم^(١) » ومن هنا فإننا نستطيع أن نستشف مواد الدراسة في هذا العصر وأنها كانت تدور حول العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير والقراءات ، ثم علوم اللغة والأدب والتاريخ ، ولم تكن العلوم الدينية تصدر الحركة العلمية أيام المماليك وحدهم بل كانت كذلك أيام الأيوبيين ثم تليها العلوم الأخرى . فإن الصليبيين كانوا يهددون البلاد ويقتطعون من الدولة الإسلامية خير أراضيها ، فكان لا بد من تعبئة الناس تعبئة روحية لمواجهة خطر الصليبية الزاحف ولا يتم ذلك إلا بالعودة إلى الأصول الأولى للدين « القرآن والسنة » ودراسة ما كان لأسلافنا الأوائل من بطولات وأجساد^(٢) .

أمام هذا راجت العلوم الدينية وكثر في المصريين الأيوبي والمملوكي العلماء في الفقه والحديث والتفسير والقراءات ثم في النحو واللغة والأدب والتاريخ .

أما الفقه فقد اجتمع الأيوبيون — كما سبق — في إزالة المذهب الشيعي وافتتحوا المدارس لهذا الغرض ، وجاء المماليك وكان لا يزال في مصر بقية من آثاره فحاولوا القضاء عليها فأكثرُوا أيضاً من بناء المدارس » وقد لجأوا إلى استخدام العنف أحياناً لكبت الشيعة حتى أن الناس في ذلك العصر كانوا إذا أرادوا أن يكيدوا لشخص دسوا عليه من رماه بالتشيع فتصادر أملاكه ونهال عليه العقوبات والإهانات . حتى يظهر التوبة من الرافض . وفي الوقت نفسه حارب سلاطين المماليك ظاهرة التشيع عن طريق غير مباشر . فأمر

(١) مصر للماليكي في مصر والشام للدكتور حسن إبراهيم حسن س ٣٣٦

(٢) انظر أعلام الاسكندرية للدكتور الشبال س ١٣١ .

السلطان « الظاهر بيبرس » بإتباع المناهب السنية الأربعة ونحرهم ماعداها .
كما أمر ألا يولى قاض ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لاحدى وظائف
الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن مقلدا لأحد هذه للمناهب « (١) »
وقد ضمت البلاد مجموعة كبيرة من فقهاء للمناهب الأربعة يستطيع من تصفح
طبقات الفقهاء فى حسن المحاضرة أن يقف على كثير منهم بسهولة وبساطة .
ومن أشهر علماء الحديث فى هذا العصر « ابن دحية للتوفى سنة ٦٣٣ هـ »
وهو : أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسى . كان إماما حافظا بصيرا بالحديث
معتنيا به . استوطن مصر وتولى مشيخة دار الحديث الشافعية فترة من الزمان
ولقد وصفه « ابن خلكان » بقوله : « كان أبو الخطاب من أعيان العلماء
ومشاهير الفضلاء متقنا لعلم الحديث النبوى وما يتعلق به عارفا بالأنحو واللمة
وأيام العرب وأشعارها » ثم بين « ابن خلكان » أنه : أقام بمصر إلى أن
توفى بها سنة ٦٣٣ هـ ودفن بسفح المقطم (٢) .

ومنهم « الحافظ للنورى » وهو : الإمام السلامة زكى الدين عبد العظيم
ابن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة بن سعد للنورى للصوى الشافعى قال
السبكي فى ترجمته : « كان رحمه الله قد أوتى بالمسكيات الأوفى من الورع والتوى
والنصيب الأوفر من الفقه . وأما الحديث فلا مرأى فى أنه كان أحفظ أهل
زمانه وفارس أفرانه له القدم الراسخة فى معرفة صحيح الحديث من مقيمه » .
ثم نقل عن الذهبي أنه قال فى حقه « وما كان فى زمانه أحفظ منه » وبعد أن
تحدث عن شيوخه بين « أنه تولى التدريس بدار الحديث الشافعية وأنه كان
لا يخرج منها إلا لعلة الجملة حتى أنه كان له ولد فنجب محدث فاضل توفاه

(١) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٤٦ وانظر مصر سلاطين المماليك ج ٢ ص ٧٥

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢١

الله تعالى في حياته ليضاعف له في حسناته فصلى عليه الشيخ داخل المدرسة وشيعة إلى ، بإيادهم دامت ديناه وقال أودعك الله يا ولدي وفارقه . وكانت وفاته سنة ٦٥٦ هـ (١) .

ومن أشهر المفسرين في العصرين الأيوبي والمملوكي :

ابن المنير « أحمد بن محمد بن منصور المعروف بابن المنير ٦٢٠-٦٨٣ هـ » الاسكندراني المالكي كان من أئمة التفسير والعقود والآفة والقراءات، وكان كما يقول « الداودي » : علامة الاسكندرية وفاضلها وله مؤلفات كثيرة منها تفسير القرآن العظيم الذي سماه « البحر الكبير في نخب التفسير » ولقد اعترض بعض العلماء عليه في هذه التسمية وقال له إن البحر الكبير مبالغ فيه مستساغ . فأجاب : لكنه محل المجائب والدرر . ومنها الانتصاف من الكشف وكان الشيخ عز الدين بن هيد السلام يثنى عليه ويمتدحه (٢) .

ومنهم « ابن النقيب » محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين جمال الدين أبو عبد الله المقدسي الحنفي « ٦١١ - ٦٩٨ هـ » استوطن القاهرة ودرس بها فأنعم الناس به . وكان فوق علمه زاهدا متواضعا ، وكان الاكابر يأتونه ويسألونه الدماء . ويقول « ابن شاكر » أنه صنف تفسيراً كبيراً وقع في خمسين مجلدة ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والاهراء والآفات : وأنه لا تنكر لإمانته ولا ينكر فضله (٣) وبين صاحب كشف الظنون أن هذا التفسير يسمى : التحرير والتنقيب .

(١) طبقات السبكي ج ٥ ص ١٠٨

(٢) طبقات المفسرين للداودي ورقة ٢٨

(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٦٩ وانظر كشف الظنون

كذلك كان من أعلام المفسرين في هذا العصر صاحبنا « أبو عبد الله القرطبي » .

ومن النحاة والفقهاء « ابن الحارث » أبو عمر عثمان بن عمر بن أبي بكر الحارثي المالكي . كان من أئمة العربية والقراءات والتفسير . أقام بدمشق فترة طويلة وتصدر هناك لإقراء العربية والقراءات فانتفع الناس به . ثم عاد إلى القاهرة فتوافد الناس عليه وتسايقوا في الأخذ عنه . ثم انتقل إلى الإسكندرية ولم تطل حياته بها فتوفى سنة ٦٤٦ هـ ، ولقد امتدحه صاحب الروضتين بقوله « كان من أذكي الأئمة قريحة وكان ثقة حجة متواضعا كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله . نأشراه محتملاً للأذى صبوراً على البلاء » (١) .

ومنهم « ابن بري » أبو محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار المتدسي المصري ، كان عالماً في اللغة والنحو ، برزاً فيهما حق وصفه ابن خلدون بقوله : « كان علامة عصره ونادرة دهره » ، وبين السيوطي في ترجمته : « أنه انتهى إليه علم العربية واللغة في زمانه وأن كثيراً من الناس صحبوه واتفقوا به ونخرجوا عليه . ولقد دفعته هناية باللغة إلى تصحيح أغلاط الفقهاء ، فوضع حاشيتين على الصحاح للجوهري . استدرك فيهما كثيراً مما غلت الجوهري هذا من صحيح اللغة ، و صوب كثيراً مما وقع فيه من أخطاءه . وكانت هاتان الحاشيتان أحد المنايع التي اعتمد عليها « ابن منظور » في تأليف معجمه المعروف بلسان العرب » وكانت وفاته سنة ٥٨٢ هـ » (٢) .

(١) البداية والنهاية ج ١٤ ص ١٧٦ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٢
(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٩٢ والمحرر: مجلة الفلكية ص ٢١٧ وحسن الخط

وممنهم « ابن مالك » إمام العربية العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله المالكي الجبائي الشافعي النحوي صاحب الألفية . ولد بمياني (١) إحدى مدن الأندلس وطوف كثيراً وقدم إلى مصر واستقر بدمشق وتلمذ عليه خلق كثير في المغرب والشرق . ولقد امتدحه « ابن الهاد » بقوله : « وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها . وأما النحو والتصريف فكان فيه بمرآ لا يجارى وحبراً لا يسارى ، ولقد رزق ابن مالك حظوة في التأليف فلقبت ، وفاته قبولاً في نفوس الناس وكانت وقته سنة ٩٧٢ هـ .

ومن أبرز علماء القراءات « الشاطبي » أبو محمد القاسم بن فيره (٢) بن خلف ابن أحمد الأندلسي الشاطبي الضرير . قال الذهبي في مشتمل ترجمته : « الشيخ الفاضل العالم العامل القدوة سيد القراء » ثم بين أنه استوطن مصر وتصدر للإقراء شيوخاً شأنه وطارحيت ، ونقل عن السخاوي أنه قال في حقه : أقطع بأنه كان من أكاشفاً وأنه سأل الله كيف حاله . وقال السيوطي في حقه : كان إماماً معلماً كثيراً له منقطع القرنين رأساً في القراءات حافظاً للحديث بصيراً بالعربية واسع النظم . كانت وقته سنة ٥٩٠ هـ .

وممنهم « السخاوي » علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين أبو الحسن السخاوي . كان من أئمة التفسير والفقه والقراءات والنحو . اتقن كل هذه العلوم إتقاناً بليغاً ولم يكن في عصره من يلحقه فيها . خرج من مصر ورحل إلى دمشق

(١) جيان بالفتح ثم التشديد وآخره نون

(٢) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بكسر اللام وسكون الياء التثنية من تحنها وتشديد اللام ونونها ومنها بالعربية الحديد . راجع في ترجمة هذا الإمام الوفيات ج ٣ ص ٢٣٤ من المحاضرة ج ١ ص ٢١٢ وسير أعلام النبلاء ج ١٣ آ لوحة ٦٠ .

فأقرأ الناس بجامع دمشق مدة طويلة تجاوزت أربعين عاماً وتخرج عليه خلق كثير قال الذهبي : « ولا أهل أحداً من القراء في الدنيا أكثر أمحاً منه » وتوفي سنة ٦٤٣ هـ (١).

ومن المؤرخين « ابن الأثير » أبو الحسن هلى بن محمد بن محمد الشيبانى ويعرف بابن الأثير، سكن الموصل وتلمذ على أكابر العلماء ، وكانت له رحلات علمية إلى الشام والقدس . رجع بعدها إلى الموصل واستقر بها . وكان إماماً فى حفظ الحديث ومعرفة وما يتعلق به وحافظاً لتواريخ التقدمة والمناخنة . وله كتاب السكائل ابتداءً فيه من أول الزمان وانتهى إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ . وهو من خيار النوارىخ كما يقول ابن خلكان . وكانت وفاته سنة ٦٣٠ هـ (٢).

ومنهم « أبو شامة » عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم بن هثمان . الامام العلامة ذو الفنون شهاب الدين أبو شامة المقدسي الأصل الدمشقي الشافعى المقرئ النحوى المؤرخ . ولد بدمشق سنة ٥٩٦ هـ وتوفى سنة ٦٦٥ هـ وله كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » — الايوبية وللدولكية — (٣).

ومن الأدباء والشعراء : « ابن المنجم » هلى بن المنجم أبو الحسن المعمرى كان أشعر أهل زمانه وأفضل أقرانه ، وكان من أعلام أدباء مصر المشهورين مدح الملوك والوزراء وكان مولده سنة ٥٤٩ هـ وتوفى سنة ٦١٦ هـ (٤).

ومنهم « البهاء زهير » بن محمد بن هلى بن الحسن الأزدي المصري الشاعر

(١) أنظر وفيات الايام ح ٣ ص ٢٧ ومفتاح السادة لطاش كبرى زادة

ح ٢ ص ٥٢ .

(٢) وفيات الايام ح ٢ ص ٣٣ .

(٣) حسن المحاضرة ح ١ ص ٣٢٢ .

(٤) المصدر السابق ح ١ ص ٢٤٣ .

السكان ولد بمكة ونشأ بقوص وقدم القاهرة وختم الملك الصالح . مات بمصر في ذى القعدة سنة ٦٥٦ هـ (١) .

وإذا كان الأدب قد ازدهر في هذا العصر وظهرت فيه فنون جديدة كما يقول الدكتور « محمد زغلول سلام » ويؤيد ذلك الدكتور « عبد الطيف حمزة » ، ويوضح عوامل نهوض الأدب في العصرين الأيوبي والملوكي فيذكر منها : الحماسة الشديدة من أجل الدين ومن أجل مصر وذلك في محقق الحروب الصليبية والحرب المقلوبة . والتشجيع الذي لقيه الإدياء من جانب الدولتين الأيوبية والملوكية (٢) .

فإننا نرى أن العلوم الدينية مع ما ألف فيها من موضوعات علمية ضخمة لم تلق تقيداً أو ابتكاراً . وفي ذلك يقول الدكتور « محمد يوسف موسى » في كتابه « ابن تيمية » « إن هذا العصر يعتبر بحق عصر المؤلفات الطويلة والموسوعات الجامعة في علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية المختلفة . ولكنه لم يكن فيه من أصالة الفكر والتجديد والابتكار في الآراء حظ كبير يتميز به ويقناب ، ولو إلى حد ما مع كثرة ما جمع فيه من معارف وعلوم (٣) .

أما العلوم العقلية كالفلسفة والمنطق فلم تلق رواجاً ولم تصادف قبولاً في مصر أو في الشام في ذلك العصر . ولقد جعل السيوطي انتقال الخلافة إلى مصر

(١) حسن المحاضرة ج ١ صفحة ٢٤٣ .

(٢) الحركة الفكرية صفحة ٣٧٢ .

(٣) ابن تيمية صفحة ٦١ بتصرف قليل . وانظر ابن تيمية للشيخ محمد أبو زهرة

صفحة ١٥٥ .

سبباً في موت الفلاسفة بها . ولكننا نتساءل : لماذا حوربت الفلاسفة في الأندلس في وقت لم يكن للخلافة العباسية بها أثر ؟ ولماذا حوربت في الشام أيام كانت هذه الخلافة قائمة ببغداد — كما سنرى — ؟

الحقيقة أن هذه الدراسات كانت محقونة من الناس ومن أكثر الحكام ، فتعاون الجميع على مطاردتها ومعاقبة من يشتغل بها .

حدث أن صادق « السهروردي » الفيلسوف « الظاهر غازي » ملك حلب ولد السلطان « صلاح الدين » فافتن به وقربه وأحبه وخالف فيه حملة الشرع . فكتب أهل حلب إلى السلطان « صلاح الدين » أن أدرك ولده وإلا تلتف عقيدته . فكتب إليه أبوه بإبعاده فلم يبعده . فكتب بمنابرته فناخره العلماء فظفر عليهم بعبارته فقالوا : إنك قلت في بعض تصانيفك : إن الله قادر على أن يخلق نبياً وهذا مستحيل فقال : ما وجه استحالة فإن الله هو الذي لا يمنع عليه شيء . فتمصبوا عليه فأمر السلطان ولده بقتله فصلبه هن أمر والده . وكان ذلك في سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وفي عهد الأشرف موسى صاحب دمشق كان بعض الناس يشتغل بعلم الأرائيل فنأدى الملك الأشرف بالبلدان ألا يشتغل الناس بذلك وأن يشتغلوا بعلم التفسير والفقه : وكان « سيف الدين الأمدى » أحد الفلاسفة مرسماً « بالمعزية » فزله عنها وبقي ملازماً منزله حتى مات في سنة إحدى وثلاثين وستائه (٢) .

(١) الحركة الفكرية صفحة ٣٣٣ ، وخطط الشام للاستاذ محمد كرد علي ح ٤ صفحة ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ح ١٢٤ ولقد ملك الظاهر غازي حلب من سنة ٥٨٢ هـ إلى سنة ٦١٣ هـ .

هكذا كانت الدولة الأيوبية تعامل الفلسفة والمشتغلين بها لا تأخذ حكايا رحمة بهم أو شفقة عليهم حتى انتقد بعض الباحثين هذا السلوك فقال : « وعلى كثرة ما أحسن « صلاح الدين » لبلاد في سياستها أساء إلى الفلسفة بمجازاة أولئك المتعصبين الذين حملوه على قتل « السهروردي » . وربما كانت هذه الغلظة النظيفة التي هدت على « صلاح الدين » ، لأنه يقتله قتل الحكمة وهي صناعة الصنائع في هذه الديار حتى أن سيف الدين الأمدى الفيلسوف النظارة الكبير في القرن التالي لم يجرؤ أن يقرئ أحدًا شيئاً من العلوم الحسكية وبعد ذلك انقطعت الفلسفة من هذه الديار ولا قرأ إلا أشياء قليلة منها » (١)

ولقد أفتى « همام بن الصلاح » المحدث المشهور المتوفى سنة ٦٤٣ هـ بتحريم هذه الدراسات . وصدر فتواه بقساوالات عديدة فقال : هل الشارع قد أباح الاشتغال بالنطق تعلماً وتعلماً ؟ وهل يجوز أن تستعمل المصطلحات المنطقية في إثبات الأحكام الشرعية ؟ وماذا يجب على ولي الأمر فعله بإزاء شخص من أهل الفلسفة معروف بتعليمه فيها وهو مدرس بمدرسة من المدارس العامة ؟ ثم أجاب بقوله : إن الفلسفة أسيء الفقه والانحلال ومادة الخيرة والضلال ومشار الزنغ والزندقة ومن تغلف هيت بصيرته عن محاسن الشريعة المطهرة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة .

وأما المطلق فهو مدخل إلى الفلسفة ومدخل الشر شر ، وليس الاشتغال بتعليمه أو تعلمه مما أباحه الشارع ولا أحد من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين .

وأما استعمال المصطلحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية فن

للسكرات المستبشرة والرقاعات المستحدثة . وليس بالأحكام الشرعية - والحمد لله - افتقار إلى للنطق أصلاً ، فالواجب على السلطان أن يدفع عن المسلمين شر هؤلاء المشائيم ويخرجهم عن المدارس ويبعدهم ويساقب على الاشتغال بقتهم وأن يمرض من أظهر منه اعتقاد هقائد الفلاسفة على السيف أو الإسلام . ومن أوجب هذا الواجب هزل من كان مدرس مدرسة من أهل الفلسفة والتصنيف فيها والإقراء لها ثم سجنه وإلزامه منزله .

ويعلق « جولد زيهر » على هذا النص فيقول :

« وليست فتوى ابن الصلاح هذا إلا تعبيراً عن الرأي السائد في البيئات السلية في مناطق واسعة من العالم الإسلامي في ذلك العصر (١) . »

وبقي هذا السكره للفلسفة من جانب المسلمين في عهد بني أيوب إلى مجيء دولة المماليك، وظهرت آثاره واضحة في كتاب « الطالع السعيد للأدقوى » فقد عرض الأدقوى لترجمة رجل من أقربائه اسمه « هيد القادر بن مذهب ابن جعفر » فوصفه بالذكاء والجلود والتواضع ، ثم بين أنه : كان فيلسوفاً يقرأ الفلسفة ويحفظ كثيراً من كتبها ، وأنه عندما مرض لم يمهده ، وعندما مات لم يصل عليه وكانت وفاته سنة ٧٢٥ أو ٧٢٦ هـ .

ووصف الأدقوى في كتابه هذا إقليم « قوص » واختص مدينة « قنا » بالكلام في محاسنها فقال : « ولا يكاد يوجد بها أجسم ولا أبرص إلا نادرآ وفي حكم العدم . ولا شيء من الأمراض التي تعاف . ولا جسم ولا معتزلى ولا فيلسوف ولا مجوسى ولا وثنى وليس بالإقليم من اليهود إلا نحو عشرة أفسس أو أقل » فانظر إلى هذا المؤلف السبى كيف يعتبر الفيلسوف والمعتزلى كالمجسم

والوثني والمجوسي ؟ وكيف يقبس هؤلاء جميعاً بذوى العاهات للزمنة كالأحزم والأبرص ومن به أذى من جسده أو مرض تعافى النفس (١) .

وأخيراً أحب أن أقول : إن علم الكلام لم يضطهد بالمشرق في هذا العصر فإن مذهب الأشعري كان قد استقر بالشام والعراق في أواخر القرن الرابع الهجري على يد صفوة ممتازة من الأئمة وبمعاونة كثير من الملوك . ولشأ صلاح الدين الأيوبي « على هذا المذهب واعتنقه في صباه . أيام كان في خدمة الملك « الناصر نور الدين محمود بن زنكي » (المتوفى سنة ٥٦٩ هـ) بدمشق ثم أنشأ أولاده عليه فلما حكم مصر وتوالى من بعده الملوك والأمراء من أهل بيته انتصروا جميعاً للمذهب الأشعري ودافعوا عنه . وكذلك فعل المالكي من بعدهم . يقول القرطبي بعد أن تحدث عن نشأة صلاح الدين في خدمة نور الدين وتفتيته أولاده على هذا المذهب « فلذلك هتدوا الخناصر وشدوا البنان على مذهب الأشعري وحلوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه فتأدى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب ثم في أيام مواليتهم الملوك من الأتراك (٢) » .

(١) للمصدر السابق . وانظر الطالع الحميد صفحة ١٦ وما بعدها .

(٢) خطط القرطبي ح ٤ صفحة ١٨٠ تحت عنوان (عتائد أهل الاسلام) .

الفضل إلى مس

الأحوال السياسية في عصر الموحدين والأيوبيين

أسس هذه الدولة (أحمد بن عبد الله بن تومرت) (١) ولقد اختلف
للؤرخين في تاريخ ميلاده، وأطال الأستاذ محمد هنان في سرد أحوالهم فن قال:
أنه ولد سنة ٤٧٣ هـ ومن قائل أنه ولد سنة ٤٨٥ هـ ولا يهنا ذلك كثيراً .

وابن تومرت بربري الجفلس لشأ في جبل السوس في أقصى بلاد المغرب .
وطوف كثيراً في طلب العلم . فذهب إلى الأندلس والامسكتونية ، والعراق .
وبغداد ومكة ، وما إلى ذلك . ثم عاد إلى المغرب سنة ٥٠٧ هـ .
وقيل أنه التقى بالإمام الغزالي ونفى ذلك ابن الأثير (٢) ، ثم عاد إلى المغرب .
وحاول تغيير المنكر بقوة في كل بلد نزل فيه ، ولقي في سبيل ذلك أوائاً من
الأذى لم تنهه عن عزيمته ولم تصرفه عما نواه . وأخيراً استقر به اللقام في موضع
يعرف بقمينمل (٣) من جبل السوس ولعله قد اختاره موطناً لدهوته التي كان

(١) ضبط هذه الكلمة ابن خلكان بضم التاء وسكون الواو وفتح اليم وسكون الراء
بينهما باء مشددة وقال : هو اسم بربري وقيل : إن معناه الضياء الذي يوقد بالمسجد ولزم
هذا القلب والباء لانه كان يوقد للمسجد فقيل : محمد بن تومرت ونسى اسم أبيه وهو
عبد الله .

(٢) راجع ابن الأثير ج ٩٠ ص ٢٤١ وهصر الرابطين والموحدين القسم الاول
ص ٢٥٦ .

(٣) في معجم البلدان « تين ملل » اليم مفتوحة واللام الاولى مشددة مفتوحة جبال
بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر بين أولها ومراكش نحو من ثلاثة فراسخ بها
كن أول خروج محمد بن تومرت للسبي بالهدى الذي أقام البوالة للوحدة ومات فصار الأمر
لسيد المؤمن ثم لولده .

يعتزم إظهارها لمنافته ووقوعه في أحضان الزنى والتلل . ومن هذا المكان شرع « ابن تومرت » في تدريس العلم والدعاء إلى الخير . ولما تكاثر أتباعه وتوافد الناس عليه من البلاد المجاورة أعلن إمامته ومهدويته سنة ١١٤٠هـ أو سنة ٥١٠هـ . ثم دعا إلى الخروج على المرابطين وخلع طاعتهم . ووضع لأتباعه عقيدة في التوحيد تقرب من مذهب الأشعرى وبما هم بالموحدين تعريضاً بالمرابطين الذين يعدلون هن التأويل . وحاول الأمير للرابطي « علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ — ٥٣٧هـ » القبض عليه وإخماد حركته ولكنه لم يفلح في ذلك . بل على العكس نرى ابن تومرت أخذ يهدد أملاك للرابطين ويحاول اقتطاعها . ولما مات ابن تومرت سنة ٥٣٤هـ استطاع عبد المؤمن بن علي أن يحقق أهداف أستاذه فواصل انتصاراته الحربية حتى أسقط دولة المرابطين واحتل عاصمتهم « مراکش » سنة ٥٤١هـ . وزحف بعد ذلك إلى الأندلس حيث ورث للرابطين هناك كما ورثهم في الشمال الإفريقي (١) .

ولقد اشتبك للموحدين بعد أن توطد سلطانهم في كثير من المعارك الحربية مع ملوك ليون وقشتالة والبرتغال حيث كانت هذه الممالك تجاور الأندلس . وكان ملوكها يحاولون انتقاص الملكية الموحدية من أطرافها . ومن أشهر المعارك التي دارت بين الموحدين والنصارى : « معركة الأرك » (٢) وذلك هندما خرج

(١) التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية الدكتور أحمد شامي ح ٤ ص ١٤١ ، والمرابطون قوم من المغاربة من أصل بربري ، وحكروا الأندلس والحرب من سنة ٤٤٨ — ٥٤٩هـ وسوا للرابطين لانهم ألزموا أنفسهم بالربط في سبيل الله وسوا بالمتين لانهم كانوا ينفون وجوههم بالثام راجع ابن خلدون ح ١٨٣ وتاريخ الشعوب الاسلامية لسكول بروكلمان ح ٧ ص ١٨٢ .

(٢) ضابطها بعض الباحثين بكون الزاء وفتح الهزة وبهم يفتح الهزة والراء وهي محلة مشبهة من أعمال قلعة رباح شمال قرطبة .

ألفونس الثامن ملك قشتالة من بلاده . وأخذ يعيش في البلاد الأندلسية فنجحز أمير المؤمنين « يعقوب المنصور » وأعد قواته وسار بهم لقماء الطاغية . فالتقى الطرفان عند مكان يسمى الأرك شمال قرطبة ودارت معركة عنيفة بين المسلمين والنصارى في شعبان سنة ٥٩١ هـ . ويصف المراكشي نتيجة هذه المعركة فيقول: « فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفزع عليهم صهره ، ومنحهم أكتاف الروم ، وكانت الدائرة على الأذغش لعنه الله — ألفونس الثامن — وأصحابه ولم ينبج إلا هو في نحو من ثلاثين من وجوه قواده . واستشهد من المسلمين جماعة من أهبان الموحدين وغيرهم » (١) .

ورجع المنصور إلى أشبيلية حاضرة ملك الموحدين بالأندلس فتسابق الشعراء بحثوله فكان: ^{١٠} فيل :

حينك معطرة النفس	فجحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأثمهم	إن الإسلام لفي هرس
أمام الحق وناصره	ظهرت الأرض من الدس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للمتس
ورفعت منار الدين على	عبد شمس وعلى أسس (٢)

وفي عهد الخليفة محمد الناصر ولد الخليفة يعقوب المنصور وقمت بين المسلمين والنصارى معركة كانت سبباً في انهيار ملك الموحدين وتقويض أركانه . فلقد كان ألفونس الثامن شريد موقمة الأرك يتوق إلى الانتقام ويحاول أن يفصل

(١) المحجب من ٣٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٠ . وراجع ابن الأثير في الكامل ج ٩٢ ص ٥٣ .

العمار والخرزى الذى لحق به ويجنوده . ولكنه فى نفس الوقت يعلم أنه لن يستطيع مجابهة الموحدين بقوات قشتالة وحدها . فتضرع إلى البابا فى روما أن يؤلب جموع النصارى على هدمهم . وأرسل الأقباط والرهبان إلى فرنسا وإلى الأمم المجاورة لها للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى أسبانيا ومؤازرة الجيوش النصرانية فى قتالها ضد المسلمين ونجحت هذه السفارات . فأعلن البابا أنه يمنح عفوانه لكل من يشترك فى محاربة المسلمين . ولبت فرنسا والأمم المجاورة لها دعوة الأقباط والرهبان . فتوافد على قشتالة جموع كثيرة من هذه البلاد كما توافد عليها جموع وجموع من أمم أوروبا احتراماً للبابا وتقديساً له . ولم تكن قشتالة وحدها هى التى ستخوض الحرب ضد المسلمين بل كانت هناك أعداد كبيرة من البرتغال ومن أراجون وليون . وهذه البلاد تمثل أغلب الممالك الأسبانية فى ذلك الوقت . واختارت هذه الجموع العظيمة بلاد الأندلس تخرج لقماتها الموحدون من أشبيلية بجيوش عظيمة والتقى الطرفان فى يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ بموضع يعرف بالمقاب . وكانت الدائرة فيها على المسلمين فقتل منهم خلق كثير وتمزقت الجيوش الموحدية ولم تقم لها قائمة بعد ذلك وتعرف هذه الموقعة بموقعة المقاب : ولم يلبث الخليفة أن مات غماً وحزناً من آثار نكبته فى هذه الموقعة فى شعبان سنة ٦١٠ هـ .

ولقد كان لهذه الهزيمة أثر كبير فى الإسراع بالدولة الموحدية إلى السقوط والانهيار^(١) كما كان لها وقع عميق فى نفوس المسلمين فاعتبروا ذلك هقلاً من الله نزل بهم وأفصح من ذلك بعض الشعراء فقال :

(١) راجع المجلد ص ٤٠١ وهصر الراهبين والوحيدين القسم الثانى ص ٢٨٣ فإنه يتحدث بأسباب وتفصيل كبيرين عن هذه الموقعة . وراجع تفح الطيب . والمقاب مكان يقع فى جبال الشارات وهى جبال كانت تفصل بين الأندلس وأسبانيا .

وثالثة أراك تطيل فكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر في عقاب غنا سبباً للمركة العقاب
فا في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب (١)

وكان يمكن لأمرء الموحدين أن يلحوا عليهم وأن يتداركوا هذه المزمعة
وأن يتحدوا في مواجهة العدو المتربص . ولكنهم تطاحنوا وتنافسوا على
احتلاء العروش — فاشتت البلاد في فوضى واضطراب ، فبعد أن مات الخليفة
الناصر خلفه على الحكم ولده يوسف المنتصر ٦١٠ — ٦٢٠ هـ وكان فقي لم
يبلغ الحلم وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر بل إن الدول القوية
المنظمة كثيراً ما تهاجم من جراء ذلك في أهوام قليلة فما بالك بدولة قد أخذت
منذ حين تمزق وية^٢ . ثملها (٢) .

ومات المنتصر بلا عقب فقام بالأمر من بعده في مرا كش . هم أبيه
« عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن » وقام بالأندلس ابن أخيه « عبد الله
ابن يعقوب للنصور » وتلقب بالعالل ودانت له ممالك الأندلس . فأوهز إلى
ألماره وأصدقائه بالثورة على منازعه وخصمه فخلع في سنة ٦٢١ هـ . ولهذا يطلق
عليه المؤرخون لقب المخلوع . ثم قتل بعد ذلك ولم يستمر حكمه أكثر من ثمانية
أشهر . وأراد العادل أن يعيد لسلطان هيئته فحكم البلاد بقوة وشدة . ولم يرخ
قبضته لأشياخ الموحدين وأقاربه الذين كانوا ولاية على أكثر المدن الأندلسية .
بل حد من سيطرة هؤلاء وأولئك . فوقع الانفجار ورفع أقاربه على الثورة
وانتهت الثورة عقبه سنة ٦٣٤ هـ .

(١) عصر الموحدين والمرابطين القسم الثاني ص ٣٢٠ .

(٢) تاريخ المرابطين والموحدين ، يوسف أشباح ص ٤٠١ .

وتولى بعده زعيم الثورة ومدير الانقلاب أخوه « أبو العلاء إدريس الملقب بالمأمون ٦٢٤ — ٦٢٩ » وكان والياً من قبل الماحل على أشبيلية، وقرطبة . ولكنه لم يفرج بحكم أهدأ من حكم أخيه^(١) ففي هذه قامت ثورات التحرير تحاول أن تخلع حكم الموحدين فقام في مرسية محمد بن يوسف الشهير بابن هود وقاد الثورة ودعا لنفسه فبايحه أهلها سنة ٦٢٥ ثم بايسته قرطبة وأشبيلية بعد ذلك . وفي بلنسية قام « أبو جميل زيان » بثورته على الموحدين سنة ٦٢٩ هـ وطردها إليها ودخلت في طاعته بعض القواعد الاندلسية الأخرى .

وتحدث المؤرخون عن مصير أمير بلنسية في ذلك الوقت السيد « أبو زيد عبد الرحمن » الذى ينتمى إلى أسرة بنى عبد المؤمن فيذكرون أنه التجأ إلى النصراني واحتسبهم واستقر في أراجون^(٢) وكان يصحبه ابن الابار أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى ولقد أهرب ابن الابار عن أسفه لخافرة بلنسية فقال :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا مسلماً إلى أمد فمادحرباً لنا لما انقضى الأمد

وها داين الأبار إلى بلنسية هند ما ارتد الأمير الماررب عن الإسلام واعتنق النصرانية^(٣) كذلك استقل محمد بن الأحمر بحكم بعض المدن الاندلسية . واستطاع أن يؤسس مملكة إسلامية « بقرطبة »^(٤) استمرت نحو قرنين ونصف من الزمان .

(١) راجع تاريخ الرابطين والموحدين لاشياخ ص ١٠١ وما بعدها

(٢) في مجسم البلدان أرجونة بالفتح ثم السكون وجيم مضومة وواو ساكنة بلد بالاندلس .

(٣) راجع همير المرابطيين والموحدين القسم الثانى ص ٣٩٦ .

(٤) قرطبة بفتح أوله وسكون ثانية ثم نون وبعد الألف طاء مهمل .

ونستطيع أن نقول أنه في عهد العادل الموحدي تقاض سلطان الموحدين قفرياً من الأندلس . وفي عهد المأمون أيضاً تقاض حكم الموحدين من شمال أفريقيا حيث استقل بنو حفص (١) بتونس سنة ٦٢٧ هـ .

وتقدمت الدولة في عهد خلفائه إلى السقوط والانهيار فاستقل « بنو زيان » (٢) بالمغرب الأوسط واتخذوا « تلمسان » (٣) عاصمة لهم سنة ٦٣٣ هـ .

ولما ظهر بنو مرين وقوى أمرهم في المغرب الأقصى أخذوا ينتقصون ما تبقى من أطراف الدولة الموحدية . فاستقلوا مكناسة (٤) سنة ٦٤٣ هـ وطس سنة ٦٤٦ هـ وأخيراً وفي سنة ٦٦٨ هـ أسقطوا مراکش (٥) فضاغ بذلك حكم الموحدين نهائياً وزالت بذلك دولتهم من المغرب والأندلس وأفريقية (٦) . وتقسمتها هذه الدويلات .

(١) كان بنو حفص ولاية من قبل الموحدين على تونس فلما ضعف أمر الموحدين استقلوا بتونس وتبدأ دولتهم من سنة ٦٢٨ إلى سنة ٩٤١ هـ .

(٢) كان بنو زيان ولاية للجزائر من قبل الموحدين فلما ضعف الموحدون أعلن بنو زيان أيضاً استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وتبدأ دولتهم من سنة ٦٣٣ إلى سنة ٨٧٩ هـ وتلمسان ضبطها صاحب المعجم بكرتزين وسكون الميم وسين مهلة .

(٣) مدينة تقع في القسم الغربي من الجزائر بالقرب من الحدود المراكشية .

(٤) مدينة تقع في جبال الأطلس بالقرب من مدينة طس .

(٥) مدينة تقع في أقصى الغرب من بلاد المغرب وتتجه نحو المحيط الأطلس وتسمى جبال الأطلس البلاد إلى قسيتين أحدهما سهول ونجد ومراكش الأطلسية في الغرب والثاني هضاب شبه صحراوية في الشرق .

(٦) أفريقية — اسم أطلقه العرب على بلاد البربر الشرقية — أما الغربية فسميت بالمغرب وقد اختلف جغرافيو العرب في وضع حدودها وقد أوصلها بعضهم إلى إفريقيا إلى المغرب الأقصى وليبيا — شمال إفريقيا — تونس .

إفريقية الغربية تتكون من : سنغال ، موريتانيا ، ساحل العاج ، نيجيريا ، ليبيا ، داهومي .

إذا كان هذا قد حدث للدولة الموحدة من جراء تفرق أمرائها وتنافسهم على الحكم فإن الثوار لم تنفق كلمتهم ولم تنأملك جيبتهم أمام العد وقاتمت بينهم حروب أهلية هديدة ، واتهم العدو فرصة الحرب الدائرة بين الثوار من ناحية وبين الموحدين من ناحية أخرى . فبدأ حملة الاسترداد وأكثر من غزواته وحروبه حتى تساقطت في يده المدن الاندلسية تباعاً .

سقطت قرطبة في يوم الاحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٨٩٣٣ هـ .

وسقطت بلنسية في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٩٣٦ هـ .
وعاشت مرصية تدن بالعاة والجزية للنصارى من شوال سنة ٩٤٠ هـ إلى أن سقطت في أيديهم سنة ٩٦٤ هـ ، وحى في هذه الفترة تنقل من ثائر إلى ثائر .

وسقطت أشبيلية في الخامس من شعبان سنة ٩٤٦ هـ .

هذه هي الخطوط العريضة للأحوال السياسية في الاندلس في عصر الموحدين . وهو العصر الذى عاش فيه القرطبي العزة الاولى من حياته ، وقدم القرطبي مصر في عهد الايوبيين ، وكانت الأحوال السياسية فيها لا تختلف كثيراً عن الاندلس فما أكثر الحروب التى دارت في مصر والشام والى شنها الصليبيون على المسلمين .

== للغرب اسم أطلقه الجغرافيون على بلاد البربر أو إفريقيا الصغرى الشاملة ببلاد المغرب وتونس والجزائر ومراكش وكانوا يسمونه إلى المغرب الأقصى غرباً منه تلسان شرقاً وساحل الاطلس غرباً وسبتة شمالاً ومراكش جنوباً .
والمغرب الاوسط المنحصر بين وهران غرباً وحدود مقاطعة بجاية شرقاً وهو القطر الجزائرى .

وما أكثر الأيام التي عاشتها البلاد في فوضى واضطراب من جراء تنافس الأمراء وتنازعهم على السلطة .

أما من الحروب فان صلاح الدين الأيوبي « ٥٦٨ - ٥٨٩ » مؤسس الدولة الأيوبية . كان قد حل راية السكفاح ضد الصليبية التي اقتطعت بعض الامارات من الدولة الإسلامية واستقرت بها في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين . وساموا المسلمين الخسف والموان . وتناهب بعدهم للفرار والأمراء من البيت الأيوبي فقادوا حلات الجهاد ضد الصليبية في مصر والشام ونجحوا في صد هجماتهم وإيقاف زحفهم .

وتأدها من بدم الممالك . بل إن الممالك حلوا راية الجهاد ضد الصليبية والتنازع ، ورغم كثرة الحروب التي دارت بين المسلمين والصليبيين طوال قرنين من الزمان فإنه لم يقض على الصليبية نهائياً إلا في عهد الأشرف خليل ابن للنصور قلاوون سنة ٦٩٠ هـ (١) . وفي هذا يقول ابن كثير « وفيها فتحت عكا وبقيت السواحل التي كانت بأيدي الفرنج من مدد متطاولة ولم يبق لهم فيها حجر واحد وفيه الحمد » (٢) .

ومن أبرز الأمثلة على نجاح الأيوبيين في صد الصليبية عن مصر ما يحدثنا به ابن الأثير عن حصار دمياط فإنه قال في حوادث سنة ٦٩٥ هـ :

وأحاط الفرنج بدمياط وقائلوها يراً وبحراً . وعملوا عليها خندقاً يمنعهم من يريدون من المسلمين . وأداموا القتال . واشتد الأمر على أهلها وتمنرت عليهم

(١) حكم الأشرف مصر من سنة ٦٨٩ إلى ٦٩٢ وفيها مات .

(٢) نقل هذا النص الدكتور محمد يوسف موسى في كتابه ابن تيمية ص ٢١ .

الاقوات وسموا القتال وملازمته . لأن الافرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة . ومع هذا صبروا صبراً لم يسمح بثله ، وكثر القتل فيهم والجراح والموت والأمراض ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة ست هـ ثمانمائة فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ بقلتهم . وتسدر القوت هدم . فسطوا البلد إلى الفرنج في هذا التاريخ بالآمان . ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط على أصحابهم أقبلوا يرهون من كل فج عيق وأصبحت دار هجرتهم ، وفي سنة ٦١٨ هـ استطاع الملك الكامل ابن للآل العادل ٦١٥ — ٦٣٥ بمعاونة أخويه الملك للمظم هيس (صاحب دمشق) والأشرف موسى (صاحب حلب) محاصرة الفرنج في دمياط ، ودار بين الفريقين قتال عنيف فلما تيقن الصليبيون أنه قد أحيط بهم ، وأن المنايا كشرت لهم عن أنيابها . ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وذل عنهم شيطانهم وطلبوا الصلح بغير عوض وخرجوا من دمياط (١) .

ولقد تجددت الحملة على دمياط مرة أخرى . على يد لويس التاسع ملك فرنسا في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٦ — ٦٤٧ هـ . غادرت هذه الحملة باريس وتوجهت إلى قبرص وتوافدت الجيوش الصليبية إلى قبرص لمساعدة ملك فرنسا ضد المسلمين ، ولما تكامل هقد هذه الجيوش تقرر أن تكون مصر هي الهدف الذي يقصدونه لما اشتهرت به من الثروة ، ولمركزها الحربي ، ولما لسلطانها من أهمية ومكانة في الشرق الأوسط (٢) .

وسارت الحملة إلى مصر فنزلت على دمياط واستولت عليها . وكان ذلك في سنة ٦٤٧ هـ وخرج الملك الصالح رغم مرضه وآلامه . بعد أن أهد هدته وجيز

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ١٥٠ يتصرف ٢٤١.

(٢) مصر في عصر الأيوبيين للدكتور السيد الباز الريني ص ١٣١

جيشه وهسكر المنصورة . ليوقف زحف الأعداء على مصر ، ولكنه مات بعد قليل . فتولى مكانه ابنه للملك المعظم « توران شاه » بعد أن استقدمته شجرة الدر زوجة أبيه من حصن « كيفا » وأراد لويس أن يحطم القوة المصرية المثلثة في هذا الجيش الرابض عند المنصورة . حتى يسهل الاستيلاء على مصر كلها . فسار بجيشه إلى المنصورة بعد أن ترك حامية على دمياط . ودخل المنصورة فلم يلق مقاومة . ثم فوجئ بهجوم عنيف من الجيش الإسلامي . فدارت معركة رهيبة في دروب المنصورة وشوارعها رفع ما بقي من الصليبيين في نهايتها أيديهم بالتسليم . فشد المسلمون وثاقهم وأخذوهم أسرى . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن دفعوا الفداء ووقع في الأسر لويس التاسع وسجن في دار ابن لقمان . ولم يطلق سراحه إلا بعد أن اقتدى نفسه بخمسمائة ألف دينار (١) . ويتحدث ابن كثير عن هذه الحملة بإيجاز فيقول : « وفي ثالث المحرم من سنة ثمان وأربعين وستائة يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه للفرنج على نهر دمياط فقتل منهم ثلاثين وقيل مائة ألف وغنموا شيئاً كثيراً والله الجسد ، وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه » (٢) .

ولما انتصر « توران شاه » في معركة المنصورة لم يحسن قيادة الممالك ولم يسترض زوجة أبيه « شجرة الدر » فعاملها بقسوة وغلظة فتآمرت عليه مع بعض الممالك وصادف ذلك هوى في نفوسهم . فانه كان يقول المؤرخون « كان إذا سكر صف الشموع أمامه ، وتناول السيف بيده وضرب تلك الشموع المصقوفة ، ويقول : هكذا أفل بالممالك البحرية (٣) » وتم تنفيذ الدأمرة واغتيل

(١) انظر المصدر السابق ص ١٤٦

(٢) ابن كثير ج ١٣ ص ١٧٨

(٣) تاريخ ابن أبي عمير ج ١ ص ٨٨

في التاسع من الحرم سنة ٦٤٨ هـ . وبموته انتهت الدولة الأيوبية في مصر وخلفتها دولة المماليك البحرية . ولقد ابتليت الأمة الإسلامية في هدمهم إلى جانب الصليبيين بالنتار « والنتار أمم وثنية جاهلة كانت تعيش على البداوة في بلاد الصين إلى أن نجح فيهم رجل منهم قوى الشكيمة شديد البأس استطاع أن يتملك عليهم وأن يفوز بحكم العرش فيهم ، ودانت له أمم النتار جميعها ، وأخذ يقدّم من نصر إلى نصر حتى خضع لحكمهم كثير من الأمم المجاورة لهم . ذلك الرجل هو « جنكيز خان » ثم ما لبث « جنكيز خان » حتى زحف بهم كالجراد على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦ هـ ، فلكوا كثيراً من البلاد ، وقتلوا ما لا يحصى من أهلها حتى بلغوا خراسان فأنزعوها من ملكها خوارزم شاه محمد بن تكش عام ٦١٧ هـ .

« وكانت الدولة الخوارزمية تقوم بمداغة النتار وحجزهم عن بلاد الإسلام فلما طويت مملكتهم أثر هجرات النتار العنيفة المتوالية انسابوا كالفيضات المدمرة على بلاد العراق ثم على بلاد الشام . وسقطت حاضرة الخلافة بغداد في أيديهم عام ٦٥٦ هـ » (١) .

وشاء الله أن توقف مصر زحف النتار وأن تحطم الأسطورة التي رهبها الناس زماناً طويلاً . فإنه بعد أن امتلك النتار العراق وخراسان ، وغيرها من بلاد الشرق أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم إلى الشام . فبادروا إليها وهربوا الفرات وما لبثوا أن ملسكوا حلب ثم دمشق ، وجاسوا خلال الديار . ثم أرسل « هولاكو » سلطان النتار رسلاً إلى مصر بكتاب يفيض غروراً ووهيداً

(١) مصر سلاطين المماليك ح ٣ وانظر وصف ابن الاثير لما كان يرتكبه هؤلاء الناس ح ١٢ ص ١٦٤ وانظر البداية والنهاية ح ١- ص ٨٢ فإنه يتحدث عن ظهور النتار وتبع غزواتهم يتفصيل ثم يتحدث عما ارتكبه عند زولهم ببغداد ص ٢٠٠ .

وعما جاء فيه « من ملك الملوك شرقاً وغرباً » وفيه يقول : « فليكن بالمرء
وعليها الطلب فأى أرض تأويكم وأى طريق ينجيكم وأى بلاد تهيئكم فالسك
من سيفونا خلاص » (١) . وكانت مصر في ذلك الوقت أعنى سنة ٦٥٨ هـ
تحت حكم الملك المظفر « سيف الدين قطز » فلم ينخلع قلبه من هذه الرسالة
وأعد للأمر عدته وسار بجيشه إلى الشام . فبادروا قبل أن يبادروه ثم انتهى
الجمعان بالشام إلى « عين جالوت » وكان قتال شديد انتهى بنصر الإسلام
وأهله انتصاراً مبيناً . وبهزيمة التتار هزيمة شنيعة وبفراقهم . فلحق بهم الجيش
الإسلامي يقتلونهم في كل موقع ومكان . ويذكر المقرئ « أن الملك المظفر
وقد هان أن المسلمين زلزلوا زلزلاً شديداً ألقى خوذته على الأرض وصرخ بأهل
صوته « وإسلاماً » ثلاث مرات يا الله أنصر عبدك قطز على التتار وحمل بنفسه
وبين معه حملة صادقة كان بعدها نصر الله المبين » (٢) .

ورغم كثرة الحروب التي كان يقودها الصليبيون ضد المسلمين في مصر
والشام فإن التنازع بين أمراء البيت الأيوبي على الحكم كان يشتد ويتفاقم وبز
البلاد هذا هنيئاً . فعندما مات صلاح الدين الأيوبي (٣) . وقع الخلاف بين

(١) ابن تيمية ، الدكتور محمد يوسف موسى ص ١٦

(٢) المصدر السابق بصرف ، ابن كثير ص ٢١٨ ، ج ١٣ ، ص ٢٢٠

(٣) بعض الخلافات التي دارت بين أمراء البيت الأيوبي :

عندما مات صلاح الدين دارت منازعات بين الأفضل على بن صلاح الدين ملك
دمشق وبين العزيز عثمان ملك مصر ، ولكن الملك العادل تمكن من إقصاء
الأفضل عن دمشق وولاه بعض الولايات الشمالية ، واستقر الأمر للعزيز عثمان على
مصر وتولى بد ابنه الملك المنصور وكان طفلاً . فاستطاع الكامل أن يتولى حكم
مصر في سنة ٥٩٦ هـ . وبهذا ملك العادل مصر والشام . فولى ابنه الكامل على =

أبنائه حتى وثب بعضهم على بعض . ولم يتنح أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه فكانوا على حد قول القائل :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس منهم فلاح
طال وقوفى بفنا ربهم بشير نفع فالرواح الرواح (١)

وكنذك عندما مات السكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٣٥ هـ انشب خلاف بين أولاده وجرت بينهم حروب أهلية يطول بنا الحديث لو تتبعناها . ولما ابتدأت دولة للمالك البحرية تمجد الخلاف والتنافس على الحكم . ويصف الأستاذ الشيخ « محمد أبو زهرة » « حكم المالك » وما كان يحدث خلاله من فتن ومؤامرات فيقول :

« إن الحكم فى هذه الدولة كان بلا ريب حكما مطلقا ، الحاكم فيه مستبد . لا يصل إلى الحكم إلا بقوته . وقد يحوله بعد أن يتمكن فى مرشده إلى وراثة قدرته وقد يستقر الأمر لمن آل إليه الملك وراثة . ولكن سرعان ما ينقض عليه قريب أو قائد من قواده ليأخذ منه الحكم بالطريقة التى أخذ بها أبوه أو

== مصر . وولى ابنه المعظم عيسى على دمشق . وولى الأشرف موسى على حلب . وكان يتنقل بينهم .

وبعد أن مات الملك الكامل حدثت خلافات بين أبنائه وأحفاده وإخوته وبين أبناء إخوته . ومن أبرزها ما حدث بين الملك العادل الثانى ابن الكامل أيوب ، وبين الصالح نجم الدين أيوب من أحداث ووقائع للاستيلاء على ملك مصر انتهت بتأمر الصالح نجم الدين على ابن أخيه العادل والإيعاز بخنقه سرأ والاستيلاء على سرير الملك بالديار المصرية .

(١) تاريخ مصر لابن إياس ج ١ ص ٧٣ بتصرف وراجع خطط الشام ج ٢ ص ٧٣

جده . ولذلك كان بينهم تنازح مستمر على الملك يخفى أحياناً ويظهر أحياناً . فإذا كان هدو غالب من التناز أو غيرها اختفى النزاع في بعض الأحوال أو سكن . وإن كان أمن من الخارج ظهر النزاع قوياً غلباً . وقد يستعين بعضهم ببدو لافريقين في سبيل الاستمكان من خصمه لينال منه مأرباً^(١) .

وهناك أمثلة عديدة ، تؤيد ما ذهب إليه أسناذنا الشيخ « أبو زهرة » : فلقد كان أول من تولى حكم الماليك « هز الدين أبيك التركمانى » تنازلت له زوجته « شجرة الدر » عن الحكم سنة ٦٤٨ هـ فابتدأ يتخلص من الخارجين عليه . وبوطد سلطانه بمصر . ولم تـمض سنوات قليلة حتى تأمرت عليه . فأوعزت إلى بعض خدامها بقتله واغتياه . وتم ذلك سنة ٦٥٥ هـ .

وتولى بعده ولده الملك المنصور « نور الدين على » وبعد سنة من حكمه خلعه « سيف الدين قطز » وكان من مماليك أبيه واستولى على العرش سنة ٦٥٧ هـ . ولكنه لم ينعم بحكم هادى فتأمر عليه « الظاهر بيبرس البندقدارى » . وكان من مماليكه . وقتله بعد انتصاره على التتار سنة ٦٥٨ هـ . وقد هرب القرطبي عما يسود البلاد من فوضى نتيجة هذه الخلافات . وأبدى أسفه وألمه لذلك في عبارات موجزة .

ففى قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم » الآية تبين أن الله تبارك وتعالى قد أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفبه ولا يسرقه ولا يدهه يسترق... إلى غير ذلك من الطاعات . ثم

(١) ابن تيمية ص ١٤١

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٩ آية ٨٤ ، ص ٢٢ آية ٨٥ من سورة البقرة

بين أن هذا محرم على المسلمين فقال : وهذا كله محرم على المسلمين وقد وثق ذلك كله بالفتن فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وبعد أن انتهى من تفسير قوله « أفئذ منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » عقب بقوله : « قلت : ولعمركم لقد أهرضنا نحن من الجميع بالفتن فظهر بعضنا على بعض ليت بالمسلمين بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجرى عليهم حكم للشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله » .

الباب الثاني

المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره ، ودراسة منهجه
والأسس التي قام عليها ذلك المنهج ، وبيان القيمة العلمية
لتفسيره وتأثر المفسرين به . ويتكون هذا الباب من أحد
عشر فصلا .

الفصل الأول	: المصادر التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره
الفصل الثاني	: منهج القرطبي في التفسير المأثور
الفصل الثالث	: موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة
الفصل الرابع	: بعض المباحث اللغوية في تفسير القرطبي
	الإهراء والنحو في تفسير القرطبي
	استشهاده بالشعر في مجال النحو والغريب
	استشهاده بالحديث في هذا المجال
الفصل الخامس	: موقف القرطبي من البلاغة
الفصل السادس	: موقفه من التفسير الرمزي
الفصل السابع	: منهجه في عرض الأحكام الفقهية وعدم تمصيه
الفصل الثامن	: القرطبي يعرض في تفسيره كثيراً من قواعد الأصول
الفصل التاسع	: منهج القرطبي في الحديث
الفصل العاشر	: موقف القرطبي من الإسرائيليات
الفصل الحادي عشر	: القيمة العلمية في تفسير القرطبي وتأثر المفسرين به

الفصل الأول

مصادر القرطبي

هندما يطالع القارىء تفسير القرطبي . بل هندما يطالع تفسير بعض آيات من كتابه « الجامع لأحكام القرآن » يحس أنه أمام موسوعة عظيمة حوت كثيراً من العلوم . ولا شك أن للقرطبي روافد كثيرة أمدته وأمانته على أن يخرج كتابه على هذه الصورة . ولا يستطيع الباسط أن يتقصى كل هذه الروافد والمصادر . فبمن ذلك عقبات وعقبات . ولكن سأحاول في هذا الفصل أن أكشف عن بعض مصادره التي تأثر بها . سواء من كتب التفسير أو من كتب الفرائد ، أو من كتب الحديث ، أو من كتب اللغة والنحو ، أو من كتب الفقه أو من كتب التاريخ .

مصادر القرطبي من كتب التفسير:

لقد أفاد القرطبي من مؤلفات كثير من المفسرين . وكان موقفه من هؤلاء للمفسرين أن يرض آراءهم . وأحياناً يكتفى بهذا العرض . وأحياناً أخرى يتعمقها ويناقشها ويرد بعضها . ومن هنا ظهرت شخصيته في تفسيره ، ومن هذه المؤلفات : إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس . للتوفى سنة ٣٣٨ هـ . لقد تأثر القرطبي بالنحاس في إعراب القرآن ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما ذكره في قوله تعالى « ألا إنهم هم للفسدون ولكن لا يشعرون » (١) فقد قال : وكسرت « إن » لأنها مبتدأ قاله النحاس وقال علي بن سليمان : يجوز فتحها

(١) آية ١٢ من سورة البقرة .

كما أجاز سيبويه « أما أنك منطلق » على معنى حقيقاً وأما بمعنى « ألا »
« وم » يجوز أن يكون مبتدأ « والمفسدون » خبره وللمبتدأ وخبره خبر « إن »
ويجوز أن تكون « م » توكيداً للهاء والميم في « إنهم » ويجوز أن تكون
فامة ، والكوفيون يقولون عماداً . « والمفسدون » خبر « إن » . والتقدير
« ألا أنهم للمفسدون » (١) .

وفي قوله تعالى « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لمسلم تهنيدون »
يقول : « الكتاب » : التوراة باجماع من للتأولين . واختلف في الفرقان .
فقال الفراء وقطرب المعنى : آتينا موسى التوراة . ومحمداً عليه السلام للفرقان .
قال النحاس هذا خطأ في الإعراب والمعنى . أما الإعراب فان للمعطوف على
الشيء مثله . وعلى هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافاً وأما للمعنى فقد
قال تعالى « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق الزجاج : يكون
الفرقان هو الكتاب أعيد ذكره باسمه تأكيداً، وحكي عن الفراء، ومنه قول الشاعر :

وقد مت الأديم لراشيه وألنى قولها كذباً ومينا (٢)

وقال آخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعيد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٠٤ وانظر إعراب القرآن النحاس نسخة خطية بدار
الكتب رقم ٤٨ تفسير ورقة ٣ وفي العبارة غموض ولعل المعنى المراد . يجوز : « أما »
أجاز سيبويه « أما أنك منطلق » على معنى ، حقا أنك منطلق « وأما » بمعنى « ألا »
فاذا فتحت « إن » بعدها كانتا بمعنى حقا أنك ، وإذا كسرت كانتا أداتى استفتاح . راجع
كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٦٢ طبع بولاق .

(٢) الرواية المشهورة في البيت فتدوت الأديم ، ولقد القطع والأديم الجلب والراهنان
هرفان في باطن الدراع .

ففسق البعد على النأى ، والمين على الكذب ، لاختلاف اللفظين تأكيدياً
ومنه قول هنتر :

حيث من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهينم

قال النحاس : وهذا إنما يجيء في الشعر وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد
فرقانا بين الحق والباطل (١).

وهذه عبارة النحاس في كتاب « إهراب القرآن » . يقول النحاس :
« والفرقان عطف على الكتاب . قال الفراء وقطرب : يكون - أى المعنى -
وإذ آتينا موسى الكتاب « أى التوراة ومحمد الفرقان . قال أبو جعفر : هذا
خطأ في الإهراب والمعنى . أما الإهراب : فإن المعطوف على الشيء مثله . وعلى
هذا القول يكون المعطوف على الشيء خلافة ، فأما المعنى : فقد قال فيه جل
وعز « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان » قال أبو إسحاق : ويكون الفرقان
هو الكتاب أهدى ذكره وهذا أيضا بعيد . إنما يجيء في الشعر كما قال :

وألقى قولها كنديا ومينا

وأحسن ما قيل في هذا قول مجاهد فرقانا بين الحق والباطل الذى هله
إياه (٢).

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل عن النحاس : ولا يشير إليه . وكان
هذا النقل بلا تصرف أحيانا أخرى . ففي قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه
يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٩٩ .

(٢) إهراب القرآن ووقفة ٧ .

يقول القرطبي: «ياقوم» .. منادى مضاف وحذفت الياء في ياقوم لأنه موضع حذف والكسرة تدل عليها. وهي بمنزلة التنوين فحذفها كما تحذف التنوين من المفرد. ويجوز في غير القرآن إثباتها ساكنة. فنقول: «ياقومي» لأنها اسم وهي في موضع خفض. وإن شئت فنحذفها وإن شئت ألحقنا معها هاء، فقلت «ياقومي» وإن شئت أبدلت منها ألفا لأنها أخف فقلت ياقوما وإن شئت قلت «ياقوم» بمعنى يا أيها القوم. وإن جعلتهم نكرة نصبت وفوت (١).

وفي ذلك يقول النحاس في «إعراب القرآن» فحذفت الياء لأن النداء موضع حذف والكسرة تدل عليها، وهي بمنزلة التنوين فحذفها كما تحذف التنوين من المفرد. إلى آخر ما ذكره القرطبي بلا تنوير ولا تبديل (٢).

وفي قوله تعالى: «نفخر لكم خطايكم» (٣) يقول القرطبي:

«واختلف في أصل خطايا جمع خطيئة بالهمزة. فقال الخليل: الأصل في «خطايا» أن يقال: خطايه ثم قلب ف قيل: خطائي. • • • بهمزة بعدها ياء. ثم تبدل من الياء ألفا بدلا لازما فنقول: خطاء، فلما اجتمعت ألفان بينهما همزة والهمزة من جلس الألف صرت كأنك جمعت بين ثلاث أوقات فأبدلت من الهمزة ياء فقلت خطايا. وأما سيبويه فذهب أن مثل الأول خطائي ثم وجب بهذه أن تهمز الياء كما همزتها في مدائن. فنقول خطائي، ولا تجتمع همزتان في كلمة فأبدلت من الثانية ياء. فقلت خطائي ثم حملت كما حملت

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠٠

(٢) انظر إعراب القرآن ورة ٧

(٣) آية ٥٨ من سورة البقرة.

في الأول . وقال الفراء خطأيا جمع خطية بلا همزة كما تقول : هدية وهدايا . قال
الفراء ولو جمعت خطية ميموزة لتلت خطاء . وقال السكاك : لو جمعها
ميموزة أدغت الهمزة في الهمزة كما قلت دواب^(١) وهذه هبارة النحاس بلا
تغيير ، ومع هذا فلم يشر القرطبي إليه ولم يبين أنه أخذ عنه^(٢) .

معاني القرآن لأبي جعفر النحاس

أفاد القرطبي من « كتاب معاني القرآن » لأبي جعفر النحاس . وقل
عنه . ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « ومن يقتل مؤمنا متعمدا
فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما » فقد نقل القرطبي
عن بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى « ويفتر ما دون ذلك لمن
يشاء » ولم يرتض القرطبي هذا الرأي فرفضه . ثم قال : وقال النحاس في
« معاني القرآن » : القول فيه عند العلماء أهل النظر . أنه محكم وأنه
يجازيه إذا لم ينسب . فان تاب فقد بين أسره بقوله « وإني لغفار^(٣) لمن تاب »
فهذا لا يخرج عنه والخلود لا يقتضى الدوام ، قال الله تعالى : « وما جعلنا
لنُبشِرَ من قبلك الاخلد^(٤) » الآية ، وقال تعالى « يحسب أن ماله أخلده^(٥) » الآية
وقال زهير :

ولا خالدا إلا الجبال الرواسيا

وهذا كله يدل على أن الاخلد ، يماثل على غير معنى التأييد ، فإن هذا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٤

(٢) اعراب القرآن ورقة ٨

(٣) آية ٨٧ من سورة طه .

(٤) آية ٢٤ من سورة الانبياء .

(٥) آية ٣ من سورة الهنزة .

يزول يزوال الدنيا . وكذلك العرب تقول : لأخْلُن فلانا في السجن . والسجن ينقطع وبني . وكذلك المسجون ، ومثله قولهم في الدماء : خلد الله ملكه وأبد أيامه (١) .

ويوجد من (معاني القرآن) نسخة خطية بدار السكتب برقم ٣٨٥ تفسير .
التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لمعالم التنزيل . لأبي العباس
أحمد ابن عمار للهدري المتوفى بعد سنة ٤٣٠ هـ .

لقد أفاد القرطبي من هذا التفسير وتأثر به . ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى : « ويسفك الدماء » فقد قال « السفك : الصب سفكت الدم أسفك سفكا صبته . وكذلك الدمع ، حكاه ابن فارس والجوهري . والسفك الصفايح وهو القادر على الكلام قال المهدوي : ولا يستعمل السفك إلا في الدم وقد يستعمل في نشر الكلام . يقال سفك الكلام إذا نشره وواحد الدماء دم محذوف اللام وقيل : أصله دمي ، وقيل : دمي ولا يكون اسم على حرفين إلا وقد حذف منه . والمحذوف منه ياء وقد لعلق به على الأصل قال الشاعر :

فلو أنا على حجر ذبحنا جرى الدميان بالخبر اليقين (٢)

وفي قوله تعالى « الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم » نقل عن المهدوي وتعبه فقال :

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٣٥ آية ٩٣ من سورة النساء

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٥ آية ٣٠ من سورة البقرة وانظر التحصيل نسخة خطية بدار السكتب رقم ٧٨ تفسير ورقة ٣ .

الظن هنا في قول الجمهور بمعنى اليقين ومنه قوله تعالى : « إني ظننت أني ملاق حسابة » وقوله « فظنوا أنهم مواقيها » قال دريد بن الصمة .

فقلت لهم ظنوا بأني مدحج سراتهم في الفارسي المسرد (١)

وقال أبو ذؤاد :

رب م فرجته بنريم وغيوب كشفها بظنون

وقد قيل أن الظن في الآية يصح أن يكون على بابه ويضمر في الكلام بذنوبهم . فكأنهم يتوقعون لقاءه مذنبين أي ولا أمل عندهم في التوبة ، ذكره المهدوي والماوردي . ثم قال في تضعيف هذا الرأى قال ابن عطية : وهذا تعسف . (٢)

وفي قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » (٣) يقول : قال السدي وغيره من المفسرين نزلت في « الأخنس بن شريق » واسمه أي . والأخنس لقب لقب به لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من حلفائه من بني زهرة من قتال رسول الله ﷺ . وكان رجلاً حلو القول والمنظر ، فجاء بعد ذلك إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام وقال : الله يعلم أني صادق ، ثم هرب بعد ذلك فربى زرع لقوم من المسلمين وبحر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر . قال المهدوي : وفيه نزلت « لا تطع كل حلاف مهين هاز مشاء بنميم » ، ويل

(١) للمدحج : الفارسي الذي ليس سلاحه حكاة تنطى به ، والسرارة جمع سرى وهم خيار القوم من فرسانهم ، والفارسي للسرد : يعني الدروع الفارسية والسرد : المهبوك النسيج للتداعيل الخلق . يندو أخاء وقومه أنهم سوف يلقون هدوا من ذوي البأس قد استكمل أداة قتاله .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٧٥ وانظر للتحميل ورقة ١٠

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة .

لكل همزة لمزة ، ثم قال : قال ابن عطية : « ما ثبت قط أن الأخنس أسلم » .

وهذه عبارة المهدوى فى التحصيل ، يقول المهدوى فى الآية السابقة : « ذكر السدى وغيره من المفسرين أنها نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان حليفا لبني زهرة وكان قد أتى بهم إلى بدر لقتال النبي ﷺ فأشار عليهم حين وصلوا الجحفة « وضع قرب مكة » بالرجوع وترك القتال فأطأهوه ، فخنس بهم من المشركين أى رجع فسمى الأخنس لذلك . وأتى بعد ذلك إلى النبي ﷺ وحلف أنه لا يأتى إلا لرغبة فى الإسلام ثم خرج من عنده فأحرق زمر المسلمين وهقر حرا ، فنزلت الآية وفيه نزل « ولا تطع كل حلاف مهين ، هاز ، شاة بنميم » ود ويل لكل همزة لمزة » (١)

تفسير « الماوردى » وهو أبو الحسن على بن محمد الماوردى المتوفى سنة

: ٤٤٥٠ هـ

ولقد أفاد القرطبي من تفسير الماوردى ، ونقل عنه . ومن أمثلة ذلك ما ذكره فى قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أمتخذنا هزوا قال أهوذا بالله أن أكون من الجاهلين (٢) » فقد قال القرطبي فى المسألة الثالثة : « قال الماوردى : وإنما أمروا — والله أعلم — بذبح البقرة دون غيرها ، لأنها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عندهم ما كان يروونه من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من عبادته . وهذا المعنى علة فى ذبح البقرة وليس بعللة فى جواب السائل ، ولكن المعنى فيه أن

(١) تفسير المهدوى نسخة خطية رقم ٧٩ هـ مرقومة .

(٢) آية ٦٧ من سورة البقرة ،

يحيا القنيل بقتل حى . فيكون أظهر لقدرته فى اختراع الأشياء من أعضادها. (١)

وفى قوله تعالى « ثم بشناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول القرطبي : « قال الماوردى : واختلف فى بقاء تكليف من أهدى بعد موته ومما يشهد الاحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين ، أحدهما : بقاء تكليفهم لثلا يتخلل ما قبل من تمديد . الثانى : سقوط تكليفهم ليكون « التكليف » (٢) ممتنرا بالاستدلال دون الاضطراب . ثم قال القرطبي ، قلت : والقول الأول أصح فإن بنى إسرائيل قد رأوا الجبل فى الهواء ساقطاً عليهم ، والنار محيطاً بهم وذلك مما اضطرم إلى الإيمان ، وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم يونس ومحال أن يكونوا غير مكلفين » . (٣)

ومن الأمثلة التى توضح تأثير القرطبي الماوردى . ما جاء فى قوله تعالى : « لا تفرض ولا تكفر حواء بين ذلك » فقد قال القرطبي : الفراض المسنة . وقد فرضت تفرض فروضاً أى أسنت ويقال لشيء القديم : فارض . قال الراجز :

شيب أصدأخى فرأى أبيض محامل فيها رجال فرض

يعنى هرمى . وقال آخر :

لمرك قد أعطيت جارك فارضاً تساق إليه ما تقوم على رجل

... وقيل الفارض الذى قد ولدت بطونا كثيرة فيتسمع جوفها

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٤٥ وانظر تفسير الماوردى نسخة خطية بدار الكتب

رقم ١٦٦٩٣ ، ورقة ٩

(٢) زيادة فى تفسير الماوردى ورقة ٥٥

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٠٥ آية ٥٦ من سورة البقرة .

وفي قوله تعالى « وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي في المسألة السادسة: واختلف الناس في تخصيص الركوع بالذكر فقال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة ثم خلق فقال: قلت وهذا ليس مختصا بالركوع وحده فقد جعل الشرع القراءة عبارة عن الصلاة والسجود عبارة عن الركعة بأكملها فقال « وقرآن الفجر » أى صلاة الفجر، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أدرك سجدة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » وأهل الحجاز يطلقون على الركعة سجدة . وقيل لما خص الركوع بالذكر ، لأن بنى إسرائيل لم يسكن في صلاتهم ركوع^(١) . ويقول الماوردي : وفي قوله « واركعوا مع الراكعين » قولان: أحدهما أنه أراد جملة الصلاة . الثانى أنه أراد الركوع الذى فى الصلاة لأنه لم يكن فى صلاة أهل الكتاب ركوع فأمرهم بما لا يفعلونه فى صلواتهم » (٢) .

ففى قوله تعالى « لا تأخذنه سنة ولا نوم » يقول القرطبي والسنة النعاس فى قول الجليس . والنعاس ما كان فى العين فإذا صار فى القلب صار نومًا . قال هدى بن الرقاع يصف امرأة بفتور النظر :

وسنان أقصده النعاس فرقت فى عينه سنة وليس بنائم^(٣)

وفرق « المفضل » بينها فقال : السنة فى الرأس . والنعاس فى العين ، والنوم فى القلب . وقال ابن زيد : الوسنان الذى يقوم من النوم وهو لا يعقل

(١) تفسير القرطبي . ج ١ ص ٣٤٥

(٢) تفسير الماوردي ورقة ٢ .

(٣) رنى النوم فى عينيه غلطها والوسنان اللام الذى ليس بمستغرق فى النوم ومعنى أقصده أصابة ولقد فرق الشاعر هنا بين السنة والنوم .

حتى ربما جرد السيف على أهله، قال ابن عطية : وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر ، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب وقال السدي السنة ريح النوم الذي يأخذ في الوجه فينمى الإنسان ، وعلق القرطبي فقال : « قات وبالجلة فهو فتور يمتري الإنسان ولا يفقد معه عقله » (١) .

وهذه عبارة الماوردي . يقول الماوردي « والسنة النعاس في قول الجميع والنعاس ما كان في العين فإذا صار في القلب صار نوماً ، وفرق المفضل فقال : السنة في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب وماهليه الجمهور من التسوية بين السنة والنعاس أشبه قال عدي بن الرقاع .

وسنان أقصده النعاس فرقت في هينه سنة وليس بنائم (٢)

تفسير النقاش : ويسمى شفاء الصدور لأبي بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي المعروف بالنقاش المتوفى سنة ٣٥٩ هـ

لقد أفاد القرطبي من هذا التفسير وتعقب صاحبه كثيراً . سواء كان ذلك بالنقل من ابن عطية أو برأيه واجتهاده . ففي قوله تعالى « أهدنا الصراط المستقيم » يقول القرطبي أصل الصراط في كلام العرب الطريق .

قال عامر بن الطفيل :

شحنا أرضهم بالليل حتى تركناهم أذل من الصراط (٣)

(١) ، تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٢

(٢) تفسير الماوردي

(٣) يقول الاستاذ محمود شاكر في تفسير الطبري : سبه القرطبي إلى عمر بن الطفيل وليس في ديوانه .

وقال جرير :

أمير المؤمنين هل صراط إذا هوج الموارد مستقيم (١)

وقال آخر :

فعد من نهج الصراط الواضح

ثم قال: وحكى النقاش الصراط . الطويق بلغة الروم . قال ابن عطية : وهذا ضعيف جداً . (٢)

وفي قوله تعالى : « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » يقول في المسألة الخامسة قال النقاش في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ، لأنه تعالى لو ذكر الأيام لأمكن أن يستفد أنه كان يفطر بالليل . فلما نص على الأيالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوماً بليالها . ثم قوى القرطبي ذلك بما ذكره من ابن عطية فقال : قال ابن عطية : سمعت أبي يقول سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواهظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يخطب الناس في الخلوة بالله والدنو منه في الصلاة ونحوه وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ويقول : أين حال موسى في القرب من الله ووصال ثمانين من المهر من قوله حين سار إلى الخضر لغناه في بعض يوم « آتانا غداً نا » . ثم عقب القرطبي فقال : « قلت وبهذا استدلل علماء الصوفية على الوصال وأن أفضله أربعون يوماً » (٣) .

(١) البيت لجرير يمدح هشام بن عبد الملك . والموارد جمع مودة . وهي الطرق إلى الماء . يريد الطرق التي تسلكها الناس إلى أغراضهم وحاجاتهم كما يسلكون الموائد إلى الماء .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٧

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٩٦

وفي قوله تعالى : « إنما نطمعكم لو جاهد الله لاتريد منكم جزاء ولا شكورا (١) » بين القرطبي أن بعض العلماء ذهب إلى أن سبب نزول الآية أن رجلا من الأنصار أطعم في يوم واحد مسكينا وبتيما وأسيرا . وأن بعضهم ذهب إلى أن الآية نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما وجارية لهما اسمها فضة . وذكر القرطبي غير هذا من الآراء . ثم عقب بقوله : قلت والصحيح أنها نزلت في جميع الأبرار ومن فعل قولا حسنا . فهي عامة .

ثم انتقد القرطبي مقالة النقاش وغيره من المفسرين « في قصة علي وفاطمة » والقصة طويلة ومشهورة ولاداعي لمرضاها . ولكتفى بذكر موقف القرطبي منها وتقده لها .

بين القرطبي أن الحديث الذي روى في هذه القصة لا يصح ولا يثبت . ونقل عن بعض العلماء أنه قال في تقده ، هذا الحديث مزوق مزيف قد تلوّف فيه صاحبه حتى تشبه علي المستمعين . فالجاهل بهذا الحديث يسهو شفتيه تلها أيا يكون بهذه الصفة ، ولا يعلم أن صاحب هذا القمل مسموم ، وقد قال الله تعالى في تنزيهه « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (٢) ... » ، وهو الفضل الذي بفضل من نفسك وهيا لك ، وجرت الأخبار عن رسول الله متواترة « بأن خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، وأبدأ بنفسك ثم بمن تعول (٣) ... » ، وافترض الله على الأزواج نفقة أهاليهم وأولادهم وقال رسول الله ﷺ « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت (٤) » أفيحسب أن هليا جهل هذا

(١) آية ٩ من سورة الانسان

(٢) آية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب الزكاة ح ٧ ص ١٢٥

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمر بلفظ كفى بالمرء إثما أن يمحس من

ملك قوته .

الأمر حتى أجهد صبيانا صفاراً من أبناء خمس أوصت ، على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ، حتى تصوروا من الجوع ، وغارت العيون منهم بخلاء أجوافهم . حتى أبسكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بهم من الجهد ؟ هب أنه أثر على نفسه هذا السائل ، فهل كان يجوز له أن يحمل أهله على ذلك ؟ . وهب أن أهله سمحت بذلك لعل . فهل جازله أن يحمل أطفاله على جوع ثلاثة أيام ولياليهن ؟ ما بروج مثل هذا إلا على حقى جهال وأبى الله لقلوب متفتحة أن تظن يعلى مثل هذا . ولبت شعري ، من حفظ هذه الآيات — يقصد الآيات الشعرية في القصة — كل تأييد من على واطمة وإجابة كل واحد منهما صاحبه حتى أداها إلى هؤلاء الرواة فهذا وأشباهه من أحاديث أهل السجون فيما أرى . بلقنى أن قوماً يخلدون في السجون فيبقون بلا حيلة فيكتبون أحاديث في السمر وأشباهه ، ومثل هذه الأحاديث متعملة فإذا صارت إلى الجهايلة وأفرموا بها وزيفوها . وما من شيء إلا له آفة ومكيدة ، وآفة الدين وكيدته أكثر . » (١)

أحكام القرآن « لكيا الطبرى » وهو أبو الحسن علي بن محمد بن على الطبرى المعروف « بالكيا » للتوفى سنة ٤٥٤ هـ

لقد أفاد القرطبي من أحكام القرآن لسكيا الطبرى ، ومن أمثله ذلك : ما ذكره في قوله تعالى « إنا حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم » (٢) فقد قال في السأة الثانية والثلاثين :

(١) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ١٣٤ وانظر التفسير ١٣٠٠ ويوجد من تفسير التناش مجلدان خطيان بدار الكتب تحت رقم ١٤٠ هـ ، ٦٣٤ هـ تفسير .
(٢) « الكيا » يقول ابن خلكان : ولأعلم لاسم معنى قبل له : الكيا ، وهو بكسر الكاف وفتح الياء المثناة من تحتها ويدها ألف . والكيا في اللغة العجيبة هو الكبير القدر للقدم بين الناس - انظر وفيات الابهان ج ٢ ص ٤٥١ -

«واختلف العلماء إذا اقترن بضرورته معصية بقطع طريق وإخافة سيل
 فغظرها عليه مالك والشافعي في أحد قوليه ، لأجل معصيته لأن الله سبحانه
 أباح ذلك عونا والمعاصي لا يحل أن يمان . فإن أراد الأكل فليقتب وليأكل .
 وأباحها له أبو حنيفة والشافعي في القول الآخر له . وسويا في إستباحته بين
 طاعته ومعصيته ، قال ابن العربي : وعجبا ممن يبيح له ذلك مع التناهي على المعصية
 وما أظن أحدا يقول له فإن قاله فهو خطيء قطعاً . ورد القرطبي على ابن العربي
 وانتصر بما قاله أبو الحسن الطبري ، فقال : قلت : الصحيح خلاف هذا .
 فإن إتلاف المرء نفسه في سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه . قال تعالى :
 «ولا تقتلوا أنفسكم» وهذا عام ولله يتوب في ثلثي حال فتصح التوبة عنه ما كان
 وقد قال مسروق . من اضطر إلى أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل حتى
 مات دخل النار إلا أن يغفر الله عنه ، قال أبو الحسن الطبري المعروف بالكنيا
 وليس أكل الميتة عند الضرورة رخصة . بل هو هزيمة واجبة ، ولو امتنع من
 أكل الميتة كان حاصيا ، وليس تناول الميتة من رخص السفر ، أو متمتعاً بالسفر
 بل هو من نتائج الضرورة ، سراً كان أو حضراً ، وهو كالإفطار للمعاصي للقيم
 إذا كان مريضاً وكالتيمم للمعاصي المسافر عند عدم الماء . قال وهو الصحيح
 عندنا . (١)

وفي قوله تعالى : «ثم آمنوا بالصيام إلى القليل» يقول في المسألة الثانية
 والعشرين : «فإن أفطر وهو شاك في غروبها — أى الشمس — كفر مع
 القضاء ، قاله مالك ، إلا أن يكون الأغلب عليه غروبها ، ومن شك عند غروب
 طلوع الفجر لزمه الكف من الأكل مع شكه فمليه القضاء كالناس لم يختلف

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢ وانظر أحكام القرآن نسخة خطية بمكتبة الأزهر
 رقم ٩٨ ورقة ٢٣ .

في ذلك فوله ، ومن أهل العلم بالمدينة وغيرها من لا يرى عليه شيئاً حتى يتبين له طلوع الفجر ، وبه قال ابن المنذر ، وقال السكا الطبري : وقد ظن قوم أنه إذا أبيض له الفطر إلى أول الفجر فإذا أكل على ظن أن الفجر لم يطلع فقد أكل بإذن الشرع في وقت جواز الأكل فلا قضاء عليه ، كذلك قال مجاهد وجابر ابن زيد ، ولا خلاف في وجوب القضاء إذا هم عليه الهلال في أول ليلة من رمضان فأكل ثم بان أنه من رمضان ، واقتى نحن فيه مثله ، وكذلك الأسير في دار الحرب إذا أكل ظناً أنه من شعبان ثم بان خلافه (١) .

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل من « السكا الطبري » ولا يشير إلى ذلك ، فقد قال في قوله تعالى « وقالوا لن نمسنا النار إلى أياما معدودة » في هذه الآية ، رد على أبي حنيفة وأصحابه حيث استدلوا بقوله عليه السلام « دعى الصلاة أيام أقرائك » (٢) في أن مدة الحيض ما يسمي أيام الحيض وأقلها ثلاثة وأكثرها عشرة ، قالوا لأن مادون الثلاثة يسمى يوماً ويومين ، وما زاد على العشرة يقال فيه أحد عشر يوماً ، ولا يقال فيه أيام ، وإنما يقال أيام من الثلاثة إلى العشرة ، قال الله تعالى ، « فصيام ثلاثة أيام في الحج » تمتعوا في داركم ثلاثة أيام « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » فيقال لهم ، فقد قال الله تعالى في الصوم « أياما معدودات » يعني جميع الشهر « وقالوا لن نمسنا النار إلا أياما معدودات » يعني أربعين يوماً وأيضاً فإذا أضيفت الأيام إلى عارض لم يرد به تحديد العدد بل يقال أيام مشيك وسفرتك وإقامتك ، وإن كان ثلاثين وعشرين وما شئت من العدد ، ولعله أراد ما كان متنادا لها والمادة ست فخرج الكلام عليه والله أعلم (٣) ،

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٨ وانظر أحكام القرآن روضة ٤٤

(٢) أخرجه الترمذي باختلاف يسير عن هدى بن ثابت عن أبيه عن جده . في أبواب المستحاضة . انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ١ ص ٢٠٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٠ وما بعدها .

وهذا النص بعينه .مذكور في أحكام القرآن « لكيما العلوى (١) » .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من اللينات والهدى (٢) » .

يقول القرطبي في للسألة الثالثة : « قوله تعالى » من اللينات والهدى « يعم للنصوص عليه والمستنبط لشمول اسم الهدى للجميع ، وفيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله وقال « الا الذين تابوا وأصلحو (٣) » وبينوا « حكم يوقع البيان بخبرهم . فان قيل : إنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منبها عن الكتمان ، ومأمورا بالبيان ليكثر المخبرون ، ويتواتر بهم الخبر ، قلنا : هذا غلط لأنهم لم ينهوا عن الكتمان إلا وهم ممن يجوز عليهم التواطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتمان فلا يكون خبرهم موجبا للعلم والله أعلم . (٤) وهذا النص أيضا مذكور في أحكام القرآن . وليس فيه تصرف مطلقا اللهم إلا أن صاحب أحكام القرآن قال : يدل « يعم » بالمضارع « وهم ذلك المنصوص عليه والمستنبط » بصيغة الماضي (٥) » .

أحكام القرآن القاضي « أبى بكر بن العربى » للنفوس سنة ٥٤٣ هـ .

لقد أخذ القرطبي من أحكام القرآن لابن العربى . وناقشه ورد هجومه على الفقهاء والعلماء .

ففي قوله تعالى « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار » الآية « يقول

(١) انظر أحكام القرآن ورقة ٦ .

(٢) آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٣) يعنى أن الله أمر في هذه الآية كل عالم ببيان العلم وتوعد من يكتمه . واشترط في قبول تويته البيان .

(٤) تصدير القرطبي ج ٢ ص ١٨٥ وما بعدها .

(٥) انظر أحكام القرآن ورقة ١٣ .

القرطبي : « قال ابن العربي : قال لي كثير من أشيائني . إن الكافر الممين لا يجوز لعنه . لأن حاله عند الوفاة لا تعلم . وقد شرط الله تعالى في هذه الآية . في إطلاق اللعنة ، الموافقة على الكفر . وأما ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه لمن أقواما بأهليتهم من الكفار فإنما كان ذلك لعنه بما آلمهم . قال ابن العربي : والصحيح عندي جواز لعنه لظاهر حاله ، ولجواز قتله وقتاله . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : اللهم إن عمرو بن العاص هجاني وقد علم أنني لست بشاعر فآلمنه وأهجه عدد ما هجاني » فلمنه . وإن كان الإيمان والدين والاسلام ، آله . وانتصف بقوله « هدد ما هجاني » ولم يزد ليعلم العدل والانصاف .

وأضاف المبحر إلى الله تعالى في باب الجزاء ، دون الابتداء بالوصف بذلك . كما يضاف إليه المسكر والاستمراء والغدية سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . وعقب القرطبي فقال : قلت أما لمن الكفار جنة من خير تعيين فلا خلاف في ذلك . لما رواه مالك عن داود بن الحصين . أنه سمع الأهرج يقول ما أدركت الناس الا وهم يلعنون الكفرة في رمضان . قال علماؤنا وسواء كانت لهم ذمة أم لم تكن ، وليس ذلك بواجب ولكنه مباح لمن فعله لجحدهم الحق وهداوتهم للدين وأهله . وكذلك كل من جاهر بالمعاصي كشراب الخمر وأكله الربا ومن تشبه من النساء بالرجال ومن الرجال بالنساء إلى غير ذلك مما ورد في الأحاديث لعنه (١) . ومع أن القرطبي نص على نقله عن ابن العربي إلا أنه تصرف بعض التصرف في هذا النص (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٥٠ طبع هبي الحالي .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى » (١) يقول في المسألة العاشرة : « قال ابن العربي : ولقد بلغت الجاهالة بأقوام إلى أن قالوا : « يقتل الحر بعهد نفسه . ورووا في ذلك حديثنا عن الحسن بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قتل عبده قتلناه » وهو حديث ضعيف . ودليلنا قوله تعالى « ومن قتل ظلوما فقد جصلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل » والمولى هاهنا السيد . فكيف يجعل له سلطان على نفسه . وهب القرطبي فقال : قلت هذا الحديث الذي ضعفه ابن العربي وهو صحيح . أخرجه النسائي وأبو داود وتميم متنه « ومن جده جدهناه . ومن أخصاه أخصيناه » وقال البخاري عن علي بن المديني . سمع الحسن بن سمرة صحيح وأخذ بهذا الحديث وقال البخاري : وأنا أذهب إليه . فلو لم يصح الحديث لما ذهب إليه هذان الإمامان وحسبك بهما . ويقتل الحر بعهد نفسه » (٢) .

وفي قوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » يقول في المسألة العشرين .

« هذه الوفاة تلزم الحرة والأمة ، والصغيرة والكبيرة ، والتي لم تبلغ الحيض ، والتي حاضت ، واليائسة من الحيض ، والكتانية . دخل بها أو لم يدخل بها . إذا كانت غير حامل . وهذه جميعهن إلا الأمة أربعة أشهر وعشرا . أيام ، لموم الآية في قوله تعالى : « يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » وهذه الأمة المتوفى عنها زوجها شهران وخمس ليال . قال ابن

(١) آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤٨ وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٦٣ . وحديث من قتل عبده قتلناه . أخرجه أبو داود الطيالسي عن سمرة . انظر منحة المعبود ج ١ ص ٢٩٢ .

العربي : نصف عدة الحرة إجماعاً . إلا ما يحكى عن الأصم ، فإنه سوى فيها بين الحرة والأمة . وقد سبقه الإجماع . لكن لصممه لم يسمع قال الباجي « ولا نسلم في ذلك خلافاً إلا ما يروى عن ابن سيرين . وليس الثابت منه . أنه قال عدتها عدة الحرة » وناقش القرطبي ابن العربي ورد ما ذهب إليه فقال قلت : قوله الأصم صحيح من حيث النظر فإن الآيات الواردة في عدة الوفاة والطلاق ، بالأشهر والأقراء ، عامة في حق الأمة والحرة . فعدة الحرة والأمة سواء على هذا النظر . فإن العمومات لا تنصل فيها بين الحرة والأمة وكما استوت الأمة والحرة في النكاح فكذلك تستوى معها في العدة والله أعلم (١) »

ولقد لاحظت أن القرطبي كان ينقل عن ابن العربي ولا يشير إليه :
ففي قوله تعالى « فن خاف من موصى جنفاً أو إثماً » الآية : يقول القرطبي : « الخطاب بقوله » فن خاف « لجميع المسلمين . قيل لهم أن خفتم من موصى ميلاً في الوصية . وعدولاً عن الحق . ووقوعاً في إثم . ولم يخرجها بالمعروف . وذلك بأن يوصى بالمال إلى زوج ابنته أو أوصى لبعيد وتلك القريب . فبادروا إلى السعى في الإصلاح بينهم فإذا وقع الصلح سقط الأثم من المصلح والإصلاح فرض على الكفاية . فإذا قام أحدهم به ، سقط عن الباقي . وأن لم يفعلوا أثم السك . ثم قال : في هذه الآية : دليل على الحكم بالظن . لأنه إذا ظن قصد الفساد وجب السعى في الصلح وإذا تحقق الفساد لم يكن صاحبا إثمًا يكون حكماً بالظن وإبطالاً لفساد وحسمًا له (٢) » .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٣ آية ٢٣٤ من سورة البقرة وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٢١٠ .
(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها آية ١٨٢ من سورة البقرة وانظر أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٧٣ .

ولقد تصرف القرطبي في هذا النص قليلا ، فلهذا لم نأخذ النص ، لم
يشر إلى ابن العربي وإن كنت لا أعتبر بعض العبارات التي زادها تصرفا
يجوز له ذلك .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا » يقول القرطبي في
السؤال الثانية : « في هذه الآية دليلان أحدهما : على تجنب الألفاظ المحتملة
التي فيها التعميرى للتوقيص والغرض ، ويخرج من هذا فهم^(١) القذف بالتعميرى ،
وذلك يوجب الحد هندا خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا :
التعميرى محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة »^(٢)

وتكلم القرطبي على مد الدلائل في الدليل الثاني وهذه عبارة ابن العربي
يقول ابن العربي ، بعد أن بين أن اليهود كانوا يستعملون هذا اللفظ
ويقصدون به سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، « وهذا دليل على تجنب الألفاظ
المحتملة ، التي فيها التعميرى للتوقيص والغرض ، ويخرج منه فهم التعميرى
بالقذف وغيره »

وقال ههنا : إنه ملزم للحد خلافاً للشافعي وأبي حنيفة ، حيث قالوا :
أنه قول محتمل للقذف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .^(٣)

تفسير « مكي بن أبي طالب »

لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ تفسير يسمى :
« الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه » :

(١) على الإنسان أن يتعد عن الألفاظ التي تحتمل التعريض بالسب أما الألفاظ
التي يفهم منها التعميرى بالقذف فليست داخلة هنا... وقيل أنها داخلة ولا حصر فيها
(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٥٧ آية ١٠٤ من سورة البقرة .
(٣) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ ص ٣٢

أشار إليه ابن خبير في فهرسته فقال عنه : « وهو كتاب كبير يقع في سبعين جزءاً (١) » ولقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه :

ففي قوله تعالى : « واذكروا الله في أيام معدودات » يقول القرطبي في المسألة الأولى : « ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية : هي أيام منى . وهي أيام التشريق . وأن هذه الثلاثة أسماء واقعة عليها ، وهي أيام رمى الجمار وهي واقعة على الثلاثة الأيام التي يتمجل الحاج منها في يومين بعد يوم النحر قف على ذلك . وقال الثعلبي : وقال إبراهيم : الأيام المعدودات أيام عشر من ذى الحجة والمعلومات أيام النحر . ثم قال القرطبي : وكذا حكى مكى والمهدي أن الأيام المعدودات هي أيام المشرك . ولا يصح لما ذكرناه من الاجماع على ما نقله ابو عمر بن عبد البر وغيره (٢) » .

مشكل إهراب القرآن :

كذلك أفاد القرطبي من كتاب « مشكل إهراب القرآن » لمكي ابن أبي طالب . ولقد أشار القرطبي إليه ، وناقش صاحبه كما ناقشه في المثال السابق . ففي قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله » الآية يقول القرطبي : « ابتغاء » مفعول من أجله « وتديننا من أنفسهم » عطف عليه ، وقال مكى في للشكل : كلاماً مفعول من أجله ، قاله ابن عطية وهو مردود

(١) انظر فهرسة ابن خبير ص ٤٤ طبع سرسطة . ولقد قال الدكتور عبد الوهاب فايد عن هذا الكتاب : وهذا الكتاب مفقود الآن فيما أعلم . انظر منهج ابن عطية ص ٨٧ . ونقل الممرى عن ابن سيدة الذي ذيل رسالة ابن حزم أنه قال « من أجل ما صنف في التفسير : كتاب الهداية إلى بلوغ النجابة » ثم بين أنه يقع في عشر مجلدات انظر رسالة ابن حزم ونذيلها في نفع الطيب ج ٢ ص ١٢٦ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١ آية ٧٠٢ من سورة البقرة .

ولا يصح في « تثيينا » أنه مفعول من أجله . لأن الإنفاساق ليس من أجل التثيين . « وايتفاء » نصب على المصدر في موضع الحال . وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو « تثييناً » عليه (١) .

جامع البيان في تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣٩٠ هـ :

أفاد القرطبي من هذا الكتاب ونقل عنه وتأثر به والأثلة على ذلك كثيرة ونكتفي هنا ببعض منها .

في قوله تعالى « إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب . ويشترون به ثمناً قليلاً » الآية . يقول القرطبي : قوله تعالى « ولا يكلمهم الله » عبارة عن الغضب عليهم وإزالة الرضا عنهم . يقال : فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه . وقال الطبري : المعنى ولا يكلمهم بما يحبونه . وفي التنزيل « أخسأوا فيها ولا تكلمون » وقيل : المعنى ولا يرسل إليهم الملائكة بالتحية » (٢) .

وفي قوله تعالى « ... واذكر ربك كثيراً وسبح بالمشى والإبكار » يقول القرطبي : أمره بالأبكار الذكر في نفسه مع اعتقال لسانه ... وقال محمد بن كعب القرطبي : لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لذكر يا يقول الله عز وجل « ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً » ولرخص

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣١٤ آية ٢٦٥ من سورة البقرة ، ويوجد من هذا التفسير أهني (مشكل إهراب القرآن) نسخة خطية بدار الكتب تحت رقم ٢٣٢ تفسير ونسخة أخرى خطية بكتبة الأزهر تحت رقم ٢٧٧ علوم قرآن .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٥ آية ١٧٤ من سورة البقرة .

للرجل يكون في الحرب . يقول الله عز وجل « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً » وذكره الطبري (١) .

ولقد أجاد القرطبي من الطبري أكثر من التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « أو كصيب من السماء » فقد قال القرطبي : قال الطبري « أو » بمعنى الواو وقاله القراء وأشد :

وقد زعمت ليلي بأنى فاجر
لنفسى تقاها أو عليها فخورها
وقال آخر :

نال الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
أى وكانت . وقيل « أو » لتخير أى مثولهم بهذا أو بهذا . لاهل
الاقتصار على أحد الأمرين . والمعنى : أو كأصحاب صيب . والصيب المطر .
واشتقاقه من صاب يصبوب إذا نزل ، قال حلقمة :

فلا تعدلى بينى وبين مغمر (٢) سقتك روايا المزن حيث تصوب (٣)

مصادر القرطبي من كتب القراءات :

لقد أجاد القرطبي من كثير من كتب القراءات . ومنها :

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨١ آية ٤١ من آل عمران .

(٢) المغمر : الجاهل الذى لم يجرب الامور . كأن الجبل غمره وطنى عليه . وفى
السطر الثانى يدهو الشاهر لصاحبه بالخصب والنماء . والروايا جمع رواية وهى الدابة التى
تحمل مزاد الماء ، والزن : السحاب الأبيض ، شبه بالروايا لحلات الماء .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٥ . وانظر تفسير الطبري ج ١ ص ٣٣٤ طبع
دار المعارف .

« الحجة في حلال القراءات السبع » لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي
المتوفى سنة ٣٧٧ هـ .

وهذا الكتاب لا يعتبر كتاب قراءات فقط . وإنما يعتبر كتاب
تفسير فلقد كان منهج « أبي علي » أنه لا يسمد إلى اللفظ القرآني الذي وقع
فيه الاختلاف بين القراء فيتحدث عنه . محتجاً به ، بل يتناول الآية التي وقع
فيها ذلك . فيتحدث عن تفسيرها ويتقصى ما تحتمله كلماتها من معاني ثم يذكر
ما ينصل بذلك من مسائل النحو . فيذكر آراء النحاة . من أمثال « الخليل
وسيبويه والأخفش والمازني » وغيرهم ثم يعود إلى إهراب الآية . وبعد هذا
يعود فيفتح للقراءات .

ومن هنا أظن أنه المفسرون في التفسير ، والقراءات ، والنحو والإهراب .
يقول بعض الباحثين : ومن أجل ما تعرض أبو علي في كتابه الحجة إلى تفسير
كتاب الله ، ومن أجل تبحره في المواد التي بها يكون التفسير . اعتمد كثير
من المفسرين عليه . وأوردوا أقواله معتمدين بها . وقد رأيت هذا مثلاً في البحر
الحيط لأبي حيان ، في مواضع متقاربات . كما اعتمد عليه « ابن القيم » في كتابه
« البيان في أقسام القرآن » وغيرها (١) .

ولقد أظن القرطبي من كتاب الحجة ، فوق القراءات ، في مجال التفسير
والإهراب ، والشواهد وغير ذلك . ففي قوله تعالى « قال فلئلا يحرمه عليهم
أربعين سنة » (٢) يقول القرطبي :

(١) أبو علي الفارسي . للمكتوب عبد الفتاح اسماعيل من ١٧٨ ، ١٩٩ بصرف .

(٢) آية ٢٦ من سورة المائدة .

و معنى محرمة أى أنهم ممنوعون من دخولها كمال يقال حرم الله وجهك على النار . وحرمت عليك دخول النار . فهو تحريم شرع عند أكثر أهل التفسير كما قال الشاهر :

جالت لصرعى فقلت لها اقصرى أى امرئى صرعى عليك حرام

أى أنا فارس فلا يمكنك صرعى . وقال « أبو على » : يجوز أن يكون تحريم تعبد . ويقال كيف يجوز على جماعة كثيرة من العقلاء أن يسبروا فى فراسخ يسيرة فلا يبتدوا للخروج منها . فاجواب — قال أبو على : قد يكون ذلك بأن يحول الله الأرض التى هم عليها إذا ناموا . فيردم إلى المكان الذى ابتدعوا منه ، وقد يكون بنير ذلك من الأشياء ، والأسباب المانعة من الخروج عنها على طريق المجيزة الخارجة عن المادة (١) .

وقوله تعالى « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً » (٢) يقول . « والذين أى الرجال الذين يموتون منكم » ويذرون أزواجاً ، أى يتركون أزواجاً أى ولم زوجات فالزوجات يترى بصن . قال مناه الرجال واختاره النحاس . وحنف المبتدأ فى الكلام كثير كقوله تعالى « قل أغانبيكم بشر من ذلك النار » أى هو النار . وقال أبو على الفارسي : تقديره والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يترى بصن بدم . وهو كقولك . السمن متوان يدرم . أى متوان منه بدم . وقيل : التقدير وأزواج الذين يتوفون منكم يترى بصن . فجاءت للمباواة فى غاية الإيجاز » (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٣٠

(٢) آية ٢٣٤ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٧٤

فلمبتدأ محذوف في هذا التقدير أيضاً ، كما في قوله تعالى : « قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار » .

في هذا النص أفاد القرطبي من أبي علي الفارسي وجها إعرابياً ، وأنه يصح في تقدير الكلام أن يكون المتعلق هو المحذوف .

وكذلك ما ذكره في قوله « ولقد صدقكم الله وعده إذا تحسبتم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر » (١) فقد قال : « وجواب « حتى محذوف أي حتى إذا فشلتم امتحنتم ومثل هذا جائز كقوله : « فان امتطيت أن تبثني فقفا في الأرض أو سلما في السماء » فافعل وقال الفراء : وجواب « حتى » « وتنازعتم » والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وتلاه للجبين وناديناه » أي ناديناه ، وقال امرؤ القيس :

فلما أجزأ مساحة الحى واتسعى ، أى اتسعى .

وقال أبو علي : يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم وثم زائدة . والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وهصيتم صرفكم عنهم ، وقد أشد بعض التحويين في زيادتها قول الشاعر :

أرأني إذا ما بت بت على هوى فتم إذا أصبحت أصبحت ماديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة كما في قوله تعالى « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا » وقيل « حتى » بمعنى « إلى » وحينئذ لا جواب له أي صدقكم الله وعده إلى أن فشلتم . أي كان ذلك الوعد شرط الثبات « (٢) . ومن إفادة « القرطبي » من « أبي علي » في مجال القراءات ما جاء في قوله

(١) آية ١٥٢ من سورة آل عمران .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٢٦ .

تمالى : « مالك يوم الدين » فقد نقل « القرطبي » عن « أبي على الفارسي » ترجيحه لقراءة « مالك » وردته لحجة من رجح قراءة « ملك » وقال أبو على : حكى أبو بكر بن السراج عن بعض من اختار القراءة بملك أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء . بقوله : « رب العالمين » فلا فائدة في قراءة من قرأ « مالك » لأنها تكرر . قال أبو على ولا حجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة ، تقدم العام ثم ذكر الخاص كقوله « هو الله الخالق الباري المصور » فالخالق يسم ، وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة . وكأ قال تعالى « وبالأخرة » هم يوقنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يسم الآخرة ، وغيرها ولكن ذكرها لعظمتها والتنبيه على وجوب اعتقادها ، والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكأ قال « الرحمن الرحيم » فذكر الرحمن الذي هو عام ، وذكر الرحيم بعده ، لتخصيص المؤمنين به في قوله « وكان بالمؤمنين رحيماً » (١).

وإذا كان « أبو على الفارسي » . يتوسم في توجيهه للقراءات ويستلطف في كتابه « الحجة » فإن القرطبي مع أنه قد نص على نقله منه فإنه كان ينصوف . في نقله بالحنف والاختصار ، وكان ينقل بحوى توجيهه ومعناه غالباً . وللقرطبي حق في ذلك ، فشاهد « الحجة » وأدلة « أبي على » كثيرة واستلطفه طویل عمل وتستطيع أن تقارن بين هذا النص في الكتابين .

وفي قوله تعالى : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يقول القرطبي : قرأ عمر بن الخطاب وأبي بن كعب « غير المغضوب عليهم وغير الضالين »

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وانظر النص في كتاب الحجة ، بتحقيق على النجدي ناصف وآخرون ج ١ ص ١٧ وما بعدها .

وروى ههنا في الزاء . والنصب والخفض في الحرفين ، فالخفض على البدل من « الذين » أو من الماء والميم في « عليهم » أوصفة « الذين » . « والذين » مرفة ولا توصف المعارف بالنكرات ، ولا النكرات بالمعارف . إلا أن « الذين » ليس بمقصود قصدم ، فهو تام . فالكلام بمنزلة قولك : إني لأمر بمثلك فأكرمه . أو لأن « خير » تعرفت لكونها بين شيئين لا وسط بينهما كما تقول : الحى غير الميت والساكن غير المنحرك . والقائم غير القاعد . قولان الأول لفارسي والثانى . للزغشرى . والنصب في الزاء على وجهين ، على الحال من « الذين » ، أو من الماء والميم في « عليهم » كأنك قلت : أعلت عليهم لا مفضوا عليهم . أو على الاستثناء كأنك قلت : إلا المنضوب عليهم . ويجوز النصب بأهني وحكى عن الخليل (١) .

كتاب : « المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لأبي الفتح هنان بن جنى المتوفى سنة ٣١٣هـ » .

لقد أفاذ « القرطبي » من كتاب « المحتسب » ، ونقل عنه كثيراً من التوجيهات لقراءات الشاذة . وسلمشاهد ذلك في فصل القراءات ، ونكتفى الآن بذكر هذا المثال ، في قوله تعالى « غير المنضوب عليهم ولا الضالين » . يقول في المسألة السادسة والثلاثين : « الأصل في الضالين » الضالين ، حذف حركة اللام الأولى ثم أدغمت اللام في اللام فاجتمع ساكنان مدة الألف واللام المدغمة . ثم قال « وقرأ أيوب السخيتاني ولا الضالين بهمزة غير ممدودة . كأنه فر من التقاء الساكنين . وهي لغة . حكى أبو زيد قال : سمعت عمرو بن هبيد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها . وانظر المجلة ج ١ ص ١٠٦ .

يقرأ « فيومندلا يسأل عن ذنبه إلس ولا جان » فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبة وشأبة قال أبو الفتح : وعلى هذه اللفظة قول كثير :
إذا ما للموالى بالمبيط احماوت (١) .

وهذه عبارة « ابن جنى » في كتاب « المختضب » . يقول « ابن جنى » :
ذكر بعض أصحابنا أن أيوب سئل عن هذه الهمزة فقال : هي بدل من المدة
لالتقاء الساكنين . وأعلم أن أصل هذه ونحوه ، الضالين . وم الفاهلون من
ضل يضل . فكره اجتماع حرفين متحركين من جنس واحد على غير الصور
المحملة في ذلك . فأسكنت اللام الأولى وأدغمت في الآخرة . فالتقى ساكنان
الألف واللام الأولى المدغمة . فزيدت في مادة الألف ، واعتدت وطأة المد
فكان ذلك نحواً من تحريك الألف . وذلك أن الحرف يزيد صوتاً بمحركه كما
يزيد صوت الالف بشباع مدته — وحكى أبو العباس محمد بن يزيد عن أبي عثمان
عن أبي زيد قال . سمعت عمرو بن هبيد يقرأ « فيومندلا يسأل عن ذنبه إلس
ولا جان (٢) » ، قال أبو زيد فظننته قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة
ومأدة ودأبة وعليه قول كثير :

إذا ما للموالى بالمبيط احماوت

وقال :

وللأرض أما سودها فتجلت بياضاً وأما بيضها فادهامت (٣)

(١) تفسير الفرطحي ح ١ والذوالى أسنة الرماح واحدتها عالية . والمبيط الدم الضرى
واحجار واحريمتى واحد.

(٢) آية ٣٩ من سورة الرحمن .

(٣) رسالة ابن عطية للزميل عبد الوهاب فايد تتلا عن المختضب ح ١ ص ٤٦ ، ٤٧
وادهام اشتد سواده.

وسنرى كثيراً من توجهات القرطبي لقراءات الشاذة . نقلها من ابن جني
ونكتفي بذلك الآن .

كتب « أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ » :
« لأبي عمرو الداني » مؤلفات كثيرة في القراءات منها : « جامع البيان
في القراءات السبع » و « كتاب التيسير » و « كتاب المقنع في رسم مصاحف
الأمصار » .

ولقد أفاد القرطبي من أبي عمرو الداني ونقل عنه ، ونكتفي هنا بهذا
المثال : في قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة
أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة » يقول القرطبي : وقال أبو عمرو
الداني : وقرأ بعضهم مائة « بالنصب على تقدير أنبتت مائة حبة » . ثم عقب
القرطبي بقوله : قلت : وقال يعقوب الحضرمي : وقرأ بعضهم « في كل سنبلة
مائة حبة » على أنبتت مائة حبة وكذلك قرأ بعضهم « وللذين كفروا برهم
عذاب جهنم » على « وأهتدنا لهم عذاب السعير » « وأهتدنا للذين كفروا
عذاب جهنم » (١) .

مصادر القرطبي من كتب الحديث :

ذكر القرطبي في تفسيره ثروة ضخمة من الأحاديث النبوية الشريفة ،
واستشهد بها لأغراض مختلفة . وكان القرطبي يعتمد في ذلك على كثير من
المصنفات الحديثية ومن هذه المصنفات : « الجامع الصحيح » للإمام « أبي عبد الله

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٤ آية ٢٦٦ من سورة البقرة ،
والآيتان الأخيرتان من سورة الملك آية ٥ ، ٦ . ويوجد من جامع البيان نسخة
ميكروfilm بدار الكتب برقم ٦٧٦ ٤ . أما السكتان الآخران فخطوط بالقاهرة

محمد بن اسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

« المسند الصحيح » للإمام « أبى الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى

المتوفى سنة ٢٦١ هـ .

« سنن الإمام أبى داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني

المتوفى سنة ٢٧٥ هـ .

« سنن الإمام أبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى . المتوفى سنة ٢٧٩ هـ (١) »

« سنن الإمام أبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي . المتوفى سنة

٢٣٠ هـ .

« سنن الإمام أبى الحسن على بن عمر الفارقطى . المتوفى سنة ٢٣٨ هـ »

« سنن الإمام محمد بن يزيد بن ماجه القزوينى . المتوفى سنة ٢٧٣ هـ »

« مسند الإمام أحمد بن حنبل . المتوفى سنة ٢٤١ هـ »

« مسند الإمام أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الداريمى . المتوفى سنة

٢٥٥ هـ »

« مسند الإمام عثمان بن أبى شيبه المتوفى سنة ٢٣٩ هـ »

« مسند الإمام أبى بكر أحمد بن عمر البصرى البزاز . المتوفى سنة

٢٩٢ هـ »

« صحيح الإمام أبى حاتم محمد بن حبان النخعى البستي . المتوفى سنة

٣٥٤ هـ .

(١) اشتهر هذا الكتاب باسم جامع الترمذى . ويقال له السنن أيضاً . ولكن الاول هو الاكثر على ما ذكره صاحب كشف القنون ١ — ٢٨٨ . انظر الحديث والمحدثون لاستاذنا الشيخ محمد أبو ذهرة ص ٤٦٠ .

وفوق هذا أفاد القرطبي من المصنفات الحديثة التي جمعت بين الكتب
المصاحح أو بين بعضها . فقل عن كتاب : « التجريد في الجمع بين
المصاحح ^(١) للإمام أبي الحسن أحمد بن رزين العبدري . المتوفى سنة ٥٥٣٥ هـ .
ونقل عن كتاب : « الجمع بين الصحيحين للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي نصر
الحمدى الأندلسي . المتوفى سنة ٤٨٨ هـ . ونقل عن كتاب : « الجمع بين
الصحيحين للإمام محمد بن عبد الحق الأشبيلي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ^(٢) .

ولاداعي أن نستطرد في ذكر الأمثلة والشواهد التي توضح إفادته من
كل هذه المصادر . فسرى كل هذا وأكثر منه في فصول الرسالة .

مصادر القرطبي من كتب الفقه :

أفاد القرطبي من كثير من المؤلفات الفقهية في مذهب الإمام مالك
ومن هذه المؤلفات : « موطأ الإمام مالك بن أنس » . إمام دار الهجرة للنفوس
سنة ١٧٩ هـ ^(٣) . كتاب « للدونة » . لسحنون بن سعيد « للنفوس
سنة ٢٤٠ هـ . كتاب « الواضحة لمبدئ للثلاث بن حبيب الأندلسي » للنفوس
سنة ٢٣٨ هـ . كتاب « العنيدية » . لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العنبي «
للفوف سنة ٢٥٤ هـ . وتسمى أيضاً « المستخرجة » لأن مؤلفها قد استخرجها

(١) المراد بالمصاحح صحيح البخاري ومسلم . وموطأ مالك وسنن أبي داود والنسائي
والترمذي . انظر الحديث وللمحدثون ص ٤٣٠

(٢) يوجد من كتاب « الحمدى » أربعة أجزاء في أربعة مجلدات خطية بدار
الكتب رقم ٦٠٨ حديث . ويوجد من كتاب ابن عبد الحق نسخة في مجلدين رقم
٢١٣ حديث .

(٣) ليس الموطأ كتاباً حديثاً فقط وإنما هو كتاب فقه وحديث وأخطأ من قصره
على أحدهما .

من « الواضحة » . ولقد طعن في نقل « المستخرجة » لفقّه المالكي كثيرون عاصروا مؤلفها . فقد قال « محمد بن عبد الحكم » : رأيت جُلّها كذباً ومسائل لا أصول لها . وقال « ابن لبابة » : كثرت فيها الروايات المطروحة والمسائل الشاذة . وقال غيره : في المستخرجة خطأ كثير (١) .

كتاب « الموازنة » لمحمد بن إبراهيم بن زياد المعروف بابن المواز المتوفى سنة ٢٦٩ هـ . وهو كتاب جليل رجه كثير من العلماء على سائر الأمهات . لا من حيث النقل والرواية « فالمدة » لا ينازعها كتاب في ذلك وإنما من حيث ما تحويه من رد للفروع إلى أصولها التي بنيت عليها (٢) .

كتاب « التفرع في مسائل الفقه » لأبي قاسم بن جلاب المتوفى سنة ٣٧٨ هـ . كتاب « الإشراف على مذاهب أهل العلم في الاجتماع والاختلاف » لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة ٣٠٩ هـ (٣) .

ولاداعي أن نستورد أيضاً في ذكر الأمثلة والشواهد التي توضح إفادته من هذه المصادر . فسرى كل هذا وأكثر منه فيما يأتي .

كذلك أفاد القرطبي في عرضه لفقّه ومذاهب الفقهاء من كتب أحاديث الأحكام وشروح « الموطأ » ومنه « كتاب الاستدكار » . لحافظ أبي هريرة

(١) مالك . لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٥٧ . وانظر الديباج للذهب ص ٢٣٩

(٢) انظر مالك ص ٢٦٢ .

(٣) يوجد من كتاب « التفرع » نسخة خطية بدار الكتب برقم ٢٩٥ هـ مالكي . ويوجد منه كتاب الصلاة ببلدية الاسكندرية برقم ١٥ فقه مالكي . ويوجد من كتاب « الإشراف » الجزء الثالث برقم ٢٠ فقه مالكي بدار الكتب .

ابن هب البر القرطبي « للتوفى سنة ٤٦٣ هـ . فقد قال القرطبي في قوله تعالى :
« ويسألونك عن الخيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في الخيض » الآية :
« واختلفوا في الذي يأتي امرأته وهي حائض فقال مالك والشافعي وأبو حنيفة:
يستغفر الله ولا شيء عليه . وهو قول ربيعة ويحيى بن سعيد . وبه قال
داود . وروى عن محمد بن الحسن : يتصدق بنصف دينار . وقال أحمد :
ما أحسن حديث عبد الحميد عن رستم عن ابن عباس عن النبي
صلى الله عليه وسلم « يتصدق بدينار أو بنصف دينار ^(١) » أخرجه أبو داود
وقال : هكذا الرواية الصحيحة قال : دينار أو نصف دينار .

واستحب الطبري فإن لم يفضل فلا شيء عليه . وهو قول الشافعي ببغداد .
وقالت فرقة من أهل الحديث : إن وطئ في الدم فعليه دينار . وإن وطئ
في انقطاعه فعليه نصف دينار . وقال الأوزاعي : من وطئ امرأته وهي
حائض يتصدق بخمس دينار . والطرق لهذا كله في سنن أبي داود ، والدارقطني
وغيرهما . وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « إذا كان دماً أحمر فدينار وإن كان دماً أصفر فنصف دينار » ^(٢)
ثم قال القرطبي : قال أبو عمر حجة من لم يوجب عليه كفارة إلا الاستغفار
والتوبة هي اضطراب هذا الحديث عن ابن عباس ، وأن مثله لا تقوم به حجة .
وأن الأئمة على البراءة . ولا يجب أن يثبت فيها شيء لمسكين ولا غيره
إلا بدليل لا مدفع فيه ولا مطن عليه وذلك ممدوم في هذه المسألة ^(٣) .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده عن ابن عباس ح ٣ ص ١٣٢ وأخرجه
أبو داود عنه أيضاً ح ١ ص ٧٠ .

(٢) أخرجه الترمذي عن ابن عباس في باب ما جاء في كفارة إتيان الحائض ح ١

ص ٢١٨

(٣) تفسير القرطبي ح ٣ ص ٨٧ آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

ولقد نقل القرطبي هذا النص كله عن « ابن عبد البر » . ولكنه لم يحدد لنا من أى كتاب نقله عن « ابن عبد البر » . فقولنا « ابن عبد البر » كثيرة ولكننى لما رجعت إلى كتاب « الاستذكار » وجدت هذا النص بعينه مع تصرف بسيط^(١).

وفي المسألة الرابعة من الآية السابقة يقول القرطبي : « واختلف العلماء في مقدار الحيض . فقال فقهاء المدينة : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجاز أن يكون خمسة عشر يوماً فما دون . وما زاد على خمسة عشر يوماً لا يكون حيضاً . وإنما هو استحاضة . هذا مذهب مالك وأصحابه . وقد روى عن مالك أنه قال : لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء . فإنه لا يقول الأول ورجع إلى عادة النساء . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوماً . وهو اختيار أكثر البغداديين من المالكيين ، وهو قول الشافعى ، وأبى حنيفة ، وأصحابها والثوري . وهو الصحيح في الباب . لأن الله تعالى قد جعل مدة ذوات الأقران ثلاث حيض وجعل مدة من لا حيض من كبر أو صغر ثلاثة أشهر . فكان كل قرء هوذاً من شهر . والشهر يجمع الطهر والحيض . فإذا قل الحيض أكثر الطهر . وإذا أكثر الحيض قل الطهر . فلما كان أكثر الحيض خمسة عشر يوماً ، وجب أن يكون بإزائه أقل الطهر خمسة عشر يوماً . ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف في الأغلب من خيرة النساء وجبلتهن مع دلائل القرآن والسنة . وقال الشافعى أقل الحيض يوم وليلة وأكثره خمسة عشر يوماً . وقد روى عنه مثل قول

(١) راجع مخطوط الاستذكار نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٤ حديث ح ١

مالك إن ذلك مردود إلى هرق النساء . وقال أبو حنيفة وأصحابه : أقل الحيض ثلاثة أيام . وأكثره عشرة . قال « ابن عبد البر » ما قص هند هؤلاء من ثلاثة أيام فهو استحاضة . لا يمنع من الصلاة إلا عند أول ظهوره . لأنه لا يعلم مبلغ مدته . ثم على المرأة قضاء صلاة تلك الأوقات وكذلك ما زاد على عشرة أيام عند الكوفيين . وعند الحجازيين ما زاد على خمسة عشر يوماً فهو استحاضة . وما كان أقل من يوم وليلة عند الشافعي فهو استحاضة وهو قول الأوزاعي والطبري^(١) .

وهذه عبارة « ابن عبد البر » في كتاب « الاستذكار » يقول في باب المستحاضة : « وقد اختلف العلماء في ذلك — أى في مقدار الحيض — فأما فقهاء أهل المدينة فيقولون : إن الحيض لا يكون أكثر من خمسة عشر يوماً . وجائز عندهم أن يكون خمسة عشر يوماً فأدون . فإزاد على خمسة عشر يوماً فلا يكون حيضاً وإنما هو استحاضة وهو دم المرقى المنقطع . وهذا مذهب مالك وأصحابه في الجملة . وقد روى عن مالك أنه لا وقت لقليل الحيض ولا لكثيره إلا ما يوجد في النساء . وأكثر ما يلفه أنه وجد في النساء خمسة عشر يوماً . والدقيقة عنده من الدم حيض تمنع من الصلاة . ولكن الدقيقة وما كان مثلها لا تحسب قرأ في العتة . هذه رواية ابن القاسم وأكثر المصريين والمدينين عنه . وقال ابن الماجشون عنه : أقل الحيض خمسة أيام وأقل الطهر خمسة أيام وهو قول عبد الملك بن الماجشون . قال أبو عمر : أما أقل الطهر فقد اضطرب فيه قول مالك وأصحابه . فروى ابن القاسم عنه عشرة أيام وروى عنه أيضاً أقل الطهر ثمانية أيام . وهو قول سحنون . وقال

هبة الملك بن الماسجون : أقل الطهر خمسة أيام ورواه من مالك . وإلى هذه الرواية مال بهض البغداديين من المالكيين . وقال محمد بن مسلمة : أقل الطهر خمسة عشر يوما وهو اختيار أكثر^(١) البغداديين من المالكيين وهو قول الشافعي ، وأبي حنيفة ، وأصحابهما ، والثوري وهو الصحيح . لأن الله تعالى جعل عدة من لا تحيض من كبير أو صغير ثلاثة أشهر فمكأن كل قرء عوضا عن شهر ، والشهر يجمع الطهر والحيض . فإذا قل الحيض كثر الطهر ، وإذا كثر الطهر قل الحيض . فلما كفى أكثر الحيض خمسة عشر يوما وجب أن يكون الطهر خمسة عشر يوما . ليكمل في الشهر الواحد حيض وطهر وهو المتعارف في الأغلب من خلفه النساء . وجيلهن^(٢) مع دلائل القرآن والسنة على ما ذكرنا .

وقال محمد بن مسلمة : أكثره خمسة عشر يوما وأقله ثلاثة أيام وقال الشافعي : أقل الحيض يوم وليلة وأكثره^(٣) خمسة عشر يوما ، وقد روى عنه مثل قول مالك : إن ذلك مردود إلى هرف النساء ... وقال الثوري وأبو حنيفة — أقل الحيض ثلاثة أيام وأكثره^(٤) — عشرة أيام ثم قال ابن هبة البر قال أبو عمر : ما نرى هند هؤلاء من ثلاثة أيام فهو استحاضة . لا يمنع من الصلاة — إلا عند أول^(٥) — ظهوره لأنه لا يعلم مبلغ مدته ثم على المرأة قضاء تلك الأوقات — وكذلك ما زاد على^(٦) عشرة

-
- (١) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي
 (٢) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٣) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٤) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٥) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .
 (٦) بياض بالأصل والزيادة من تفسير القرطبي .

أيام هند الكوفيين . وهند الحجازيين مازاد على خمسة عشر يوما فهو استحاضة . وأما الشافعي والأوزاعي فما كان أقل من يوم ولية فهو استحاضة وهو قول الطبري (١) .

وكان القرطبي ينقل عن كتاب « الاستذكار » بدون إشارة إلى الكتاب أو المؤلف . ففي المسألة العاشرة في الآية السابقة يقول : قوله تعالى « فإذا تطهرن » يعني بالماء . وإليه ذهب مالك وجهور العلماء . وأن الطبري الذي يحل به جماع الحائض التي يذهب عنها الدم هو تطهرها بالماء كطهر الجنب ولا يجزئ من ذلك تيمم ولا غيره . وبه قال مالك ، والشافعي ، والطبري ، ومحمد بن مسلمة ، وأهل المدينة وغيرهم ، وقال يحيى بن بكير ومحمد بن كعب القرظي . إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لاماء . حلت لزوجها وإن لم تنفل ، وقال مجاهد وعكرمة وطاوس : انقطاع الدم يجعلها لزوجها ولكن بأن تنوضأ ، وقال أبو حنيفة وأبو يوسف ، ومحمد : إن انقطع دمها بعد مضى عشرة أيام جازله أن يطلأها قبل الفصل . وإن كان انقطاعه قبل عشرة لم يجوز حتى تنفل . أو يدخل عيها وقت الصلاة : وهذا تحكم لا وجه له وقد حكموا للحائض بعد انقطاع دمها بحكم الحبس في العدة وقالوا لزوجها عليها الرجة مالم تنفل من الحيضة الثالثة فعلى قياس قولهم هذا لا يجب أن توطأ حتى تنفل مع موافقة أهل المدينة (٢)

فلقد تأثر « القرطبي » في هذا النص بكتاب « الاستذكار » . وقيل عنه

(١) الاستذكار ج ١ ورقة ٥٥

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٨٨ وما يدهاها . ولعل صحة البارة لا يجوز أن توطأ حتى تنفل . فإن الخلاف في جواز الوطء قبل الفصل لا في وجوبه .

ولم يشر إليه ولا إلى صاحب هذه عبارة «الاستذكار». يقول «ابن هبذ البر»
بعد كلامه السابق: واختاف - العلماء في وطء الحائض - (١) بعد الطهر من
الحيض وقبل الاغتسال فقال مالك وأكثر أهل المدينة: إذا انقطع -
دمها لا تحل لزوجها مالم (٢) تغتسل وبه قال الشافعي، والطبري، ومحمد بن
مسلمة. وقال أبو حنيفة، وأبو يوسف ومحمد: إن انقطع دمها بعد مضى (٣)
حشرة أليم كان له أن يطأها قبل الغسل وإن كان انقطاعه قبل الحشرة لم يجوز -
حق تغتسل أو يدخل عليها وقت الصلاة (٤).

وقال أبو عمر.. وهذا تحكم لاوجه له وقد حكموا للحائض بعد -
انقطاع دمها بحكم الحبس في العدة وقالوا - (٥) لزوجها عليها الرجعة مالم
تغتسل فعلى قياس قولهم هذا - لايجب أن توطأ حق تغتسل (٦) - مع
موافقة أهل الحجاز في ذلك.

وفي قوله تعالى «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن
بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً (٧)» يقول في المسألة السابعة عشرة «ذهب مالك
والشافعي: إلى أن لا إحداد على مطلقة رجعية كانت أو يائسة. وأحسنه
أو أكثر. وهو قول ربيعة وعطاء، وذهب السكوفيون أبو حنيفة وأصحابه
والثوري، والحسن بن حي وأبو ثور، وأبو عبيد - إلى أن المطلقة ثلاثاً

(١) يباح وهذه الزيادة يقتضيها السياق

(٢) » » » » » (٢)

(٣) يباح وهذه الزيادة من تفسير القرطبي

(٤) يباح وهذه الزيادة من تفسير القرطبي.

(٥) » » » » » (٥)

(٦) » » » » » (٦)

(٧) آية ٢٢٤ من سورة البقرة

عليها الإحداد . وهو قول سعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة قال الحكم : هو عليها أو كده . وأشد منه على المتوفى عنها زوجها . ومن جهة المعنى أنها جميعاً في عدة يحفظها النسب وقال الشافعي وأحمد وإسحاق : الاحتياط أن تنق المعلقة الزينة : قال ابن المنذر وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم « لا يهل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحمد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » (١) . دليل على أن المطلقة ثلاثاً والمطلقة حتى لإحدادها (٢)

في هذا النص تأثر القرطبي « باب عبد البر » ونقل عنه عبارته . فقد قال ابن عبد البر تحت عنوان « باب ما جاء في الإحداد »

أجمع مالك وأصحابه أن لا إحداد على المطلقة . وهو قول ربيعة وعطاء والحجة لهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يهل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحمد على ميت إلا على زوج » فأخبر أن الإحداد هو على المتوفى ، والمطلق حتى فلا إحداد على امرأته . وقال أبو حنيفة ، وأصحابه ، والثوري والحسن بن حي : الإحداد على المطلقة واجب . وهي والمتوفى عنها في ذلك سواء . لأنها جميعاً في عدة يحفظ فيها النسب . وهو قول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار ، وابن سيرين ، والحكم بن عيينة ، وقال الحكم : هو عليها أو كده . وأشد منه على المتوفى عنها زوجها .

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أم حبيبة . باب وجوب الإحداد في عدة الوفاة . ج ١ ص ١١١ . والأحداد والإحداد مشتق من الحد . وهو المنع لأنها تمنع الزينة والطيب يقال أحدت المرأة تحمد إحدادا وحفت تحمد بضم الحاء وتحمد بكسر هاء حاد .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٨٢

وهذا قال أبو ثور وأبو هبید . وقال الشافعی : أحب للمطلة المبسوطة
الإحداد ولا يبين لي أن أوجب عليها (١)
كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » . لابن عبد البر
القرطبي :

لقد أفاد القرطبي من هذا الكتاب وتأثر به . ففي قوله تعالى
« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول القرطبي في
المسألة الثانية عشرة :

وقد اختلف العلماء في شهود الجماعة على قولين : فالذي عليه الجمهور
أن ذلك من السنن المؤكدة . ويجب على من أدام التخلّف عنها من غير
عذر العقوبة . وقد أوجبها بعض أهل العلم فرضاً على الكفاية : قال ابن
عبد البر . وهذا قول صحيح . لاجتماعهم على أنه لا يجوز أن يجتمع على تعطيل
للساجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة في للمسجد . فصلاة المنفرد
في بيته جائزة . يقول عليه السلام « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد (٢)
بسبع وعشرين درجة » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) ولقد نقل
القرطبي هذا النص من كتاب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد »
« لابن عبد البر القرطبي » ببعض تصرف وهذه عبارة التمهيد . يقول
ابن عبد البر :

(١) الاستذكار ج ١ ص ١٠٣

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي « باب فضل صلاة الجماعة » ج ٥ ص ١٠٢
ولقد جمع العلماء بين رواية سبع وعشرين ورواية « خمس وعشرين » بأن ذلك
الاختلاف مرجعه إلى قرب المسجد وبهذه ، وقالوا غير هذا انظر « الفتح الرباني »

ج ٥ ص ١٦٢

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٨ .

« وقد أوجبها جماعة من أهل العلم . فرضاً على الكفاية . وهو قول حسن صحيح لاجتماعهم على أنه لا يجوز تعطيل للمسجد كلها من الجماعات . فإذا قامت الجماعة في المسجد فصلاة للفرد في بيته جائزة لقوله صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة » (١)

ففي هذا الحديث جواز صلاة للفرد ، والظهر بأن صلاة الجماعة أفضل . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا وجد أحدكم الغائط فليبدأ به قبل الصلاة » (٢) وقال « إذا حضرت الصلاة والمساء فابدأوا بالمساء » (٣) وقال « ألا صلوا في الرحال في الطر » (٤) وهذه الآثار كلها تدل على أن الجماعة ليست فريضة وإنما هي فضيلة . (٥)

وفي قوله تعالى « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » (٦) .

يقول القرطبي في اللسالة السابعة :

« ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : إلى أنه لا يجوز الانتفاع

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة باختلاف يسير « باب فضل صلاة الجماعة » ج ٥ ص ١٥١ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم بمناه عن عائشة ج ٥ ص ٤٦ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم عن « أنس بن مالك » « باب مسكراة الصلاة بمحضرة الطعام » الذي يريد أكله ج ٥ ص ٤٥ .

(٤) الحديث أخرجه مسلم عن ابن عمر « باب الصلاة في الرحال في الطر » ج ٥ ص ٢٠٥ والرحان : المازل أي كانت . واجدها رحان .

(٥) التهيد نسخة خطيه رقم ٣١٥ ج ٢ ورقة ٩٥ .

(٦) آية ٨٠ من سورة النحل .

يجلود للمينة في شيء . وإن ديفت . لأنها كلحم للمينة ، والأخبار بالانتفاع بعد
الديباغ ترد قوله . واحتج بحديث عبد الله بن حكيم — رواه أبو دارد —
قال قرىء علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام
شاب « ألا تستموا من المينة بإهاب ولا عصب » وفي رواية . قبل موته
بشهر . رواه القاسم بن مخيمر عن عبد الله بن حكيم قال : حدثنا شيخنا لنا
أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب إليهم : قال داود بن علي : سألت يحيى
بن معين عن هذا الحديث فصمته . وقال ليس بشيء . إنما يقول حدثني
الأشياخ ثم قال : قال أبو عمر ولو كان ثابتاً لاحتمل أن يكون مخالفاً للحديث
المروية عن ابن عباس وعائشة وسلة بن الحقيق وغيرهم (١) لأنه جائز أن
يكون معنى حديث ابن عكيم « ألا تنتفعوا من المينة بإهاب قبل الديباغ وإذا

(١) حديث ابن عباس هو ما روى عن عبد الرحمن بن وهلة عن ابن
عباس رضي الله عنهما قال : قلت له إنما نفرو فيؤتى بالاهاب والأسقية ،
قال : ما أدرى ما أقول لك إلا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول « أيما إهاب دبغ فقططه » وهذا الحديث أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود
والنسائي وابن ماجه .

وحديث عائشة . هو ما روى عنها أنها قالت . سئل رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن جلود المينة ؟ فقال : « دباغها طهورها » وهذا الحديث أخرجه
مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والطبراني في معجمه
والبيهقي في سننه وحديث سلمة بن الحقيق . هو ما روى عن سلمة بن الحقيق
رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بيت بفناءه —
بسكر الغاء وهو المنسق أمام الدار — قرية معلقة فاستسقى : فقيل : إنها مينة =

احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجعله مخالفاً . وهائنا أن نستعمل الخبرين ما أمكن . وحديث عبد الله بن حكيم وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر . فيمكن أن تكون قصة ميمونة . وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب دبح فقد طهر » قبل موته بجمعة ، والله أعلم (١) .

ولقد نقل القرطبي هذا النص من كتاب التهيد أيضاً (٢) .

== فقال: « ذكاة الأديم دباخه » . وهذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي والبيهقي في السنن . وابن حبان .

وحديث ميمونة المشار إليه في آخر كلام القرطبي . هو ما روى عن ابن عباس عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم . أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بشاة لمولاة ميمونة ميتة فقال . « ألا خذوا إهابها فادبئوه فأنفعوا به » ؟ فقالوا : يا رسول الله إنها ميتة : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إنما حرم أكلها » وهذا الحديث أخرجه البخاري وسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه .

وسأحدث في الباب الثالث من هذه الرسالة عن حديث « عبد الله بن حكيم »

انظر الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد ابن حنبل الشهابي .
للاستاذ الساعني ح ١ ص ٢٣٠

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٥٧

(٢) راجع كتاب التهيد ح ورقة ٢٧ وما بعدها

ولقد نقل «القرطبي» عن ابن «عبد البر» . من كتاب «التهديد» .
ولم يشر إليه وتستطيع أن تلمح ذلك إذا قارنا بين ما ذكره القرطبي في قوله
تعالى «يأيتها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة .» الآية في المسألة الثانية هنرة
وبين ما ذكره ابن عبد البر . (١)

«كتاب الأحكام الصغرى»

وأفاد القرطبي من كتاب «الأحكام الصغرى» لأبي محمد عبد الحق
الاشبيلي المعروف بابن الخراط «والتوفى سنة ٥٨٢هـ»
في قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين»
يقول القرطبي وهو يتحدث عن صلاة الجماعة وآراء العلماء فيها . وقال الشافعي
لا أرخص لمن قدر على الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر . حكاه ابن المنذر ،
وروى مسلم عن أبي هريرة قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعشى فقال
يا رسول الله : إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد . فسأل رسول الله صلى الله
عليه وسلم أن يرخص له فيصلي في بيته . فرخص له . فلما ولى دماه فقال
«هل تسمع النداء بالصلاة» قال نعم ، قال «فأجب» (٢) وقال أبو داود في هذا
الحديث «لا أجذك رخصة» أخرجه ابن حديث ابن أم مكتوم وذكر أنه
كان هو السائل . وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال : قال رسول الله
الله صلى الله عليه وسلم : «من سمع النداء فلم يمنعه من إتيانه عذر قالوا وما العذر؟
قال من «خوف أو مرض لم تقبل منه الصلاة التي صلى» (٣) ثم قال القرطبي :

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٩٠ وما بعدها وانظر التهديد ج ٢ ورقة ٣ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في باب فضل صلاة الجماعة والتشديد في التغلف عنها ج ٥ ص ١٥٥ .

(٣) قال الترمذي في باب فضل صلاة الجماعة : وقد روى عن هير واحد من أصحاب
النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له . ثم قال :
وقال بعض أهل العلم هذا على التغلف والتشديد ولا رخصة لأحد في ترك الجماعة إلا من
عذر . انظر صحيح الترمذي يشرح ابن العربي ج ٢ ص ١٧ وما بعده .

« قال أبو محمد عبد الحق : هذا يرويه مفراء العبدى . والصحيح موقوف على ابن عباس » من سمع النداء فلم يأت فلا صلاة له « على أن تاسم بن أصبغ ذكره في كتابه فقال : حدثنا اسماعيل بن اسحاق القاضى قال : حدثنا شعبة عن حبيب بن أبي ثابت عن معبد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من سمع النداء فلم يجب فلا صلاة له إلا من هذر » وحسبك بهذا الإسناد صفة ، ومفراء العبدى روى عنه أبو إسحاق . وقال ابن مسعود « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق . لموم التفاق » وقال عليه السلام « يتناوبين للمنافقين شهود المتة والصبح ^(١) ولا يستطعمونهما » ^(٢)

« ولأبى محمد عبد الحق الأشبلى » ثلاثة كتب ، تناول في كل كتاب مجموعة من أحاديث الأحكام . وهذه الكتب هي :

« الأحكام الكبرى » ويوجد منها الجزء الثانى في مجلد خطى تحت رقم ٧١٣ حديث الأحكام الوسطى » ويوجد منها الجزء الثانى في مجلد خطى تحت رقم ٣٩ حديث ، بالدار ، « الأحكام الصغرى » ويوجد منها نسخة خطية بدار الكتب وتقع في مجلدين تحت رقم ١٣١٤ حديث . ولقد بحثت عن هذا النص كثيراً وأخيراً عثرت عليه في كتاب الأحكام الصغرى .

كتاب « المنتقى » : « لأبى الوليد الباجى » :

لقد أضاف القرطبي من كتاب المنتقى وتأثر به . ففي قوله تعالى « الطلاق

(١) أخرجه مسلم بمناه عن أبى هريرة باب فضل صلاة الجماعة والتشديد في التلطف
هنا ج ٥ ص ١٥٤ .

(٢) انظر الاحكام الصغرى نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٣١٤ حديث وهي نسخة
هي مرقومة .

مرتان « ذكر في المسألة الخامسة حكم الطلاق الثلاث وآراء العلماء فيه . وأن الجمهور على أنه يقع ثلاثاً . وأن بعض العلماء خاف ذلك وقالوا : إنه لا يلزم مطلقاً . وقال فريق آخر أنه يقع واحدة ثم قال : « وأما من ذهب إلى أنه واقع واحدة فاستدل بأحاديث ثلاثة . أحدها حديث ابن عباس من رواية طاوس وأبي الصبيا وعكرمة ، وثانيها حديث ابن عمر على رواية من روى أنه طلق امرأته ثلاثاً وأنه عليه السلام أمره برجمتها واحتسبت له واحدة . وثالثها : أن ركعة طلق امرأته ثلاثاً : فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمتها (١) والركعة تقتضي وقوع واحدة . والجواب عن الأحاديث ما ذكره الطحاوي أن سعيد بن جبير ومجاهد وهطاء وعمر بن دينار ومالك بن الحويرث ومحمد بن إياس بن البكير والنعمان بن أبي عباس وروا عن ابن عباس فيمن طلق امرأته ثلاثاً أنه قد همى ربه . وبانت منه امرأته . ولا ينكحها إلا بعد زوج . وفيها رواه هؤلاء الأئمة عن ابن عباس بما يوافق الجماعة ما يدل على وهد رواية طاوس وغيره . وما كان ابن عباس ليخالف الصحابة إلى رأى نفسه . قال

(١) حديث ابن عباس هو ما روى عنه أنه قال : كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . الحديث وسيأتي في هذا النص .

وهذا الحديث أخرجه مسلم بمنه في باب طلاق الثلاث ح ١٠٠ س ٧١ حديث ركعة . أخرجه أبو داود والدارقطني وقال أبو داود : هذا حديث حسن صحيح . وفي الترمذي : أن ركعة . طلق امرأته ألبتة . . وقال عنه لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال المنذرى في إسناده الزبير بن سعيد الهاشمي وقد ضمه غير واحد . وذكر الترمذي أيضاً عن البخاري أنه يضطرب : تارة قيل فيه ثلاثاً وتارة قيل فيه مرة واحدة . وأصح أنه طلقها ألبتة .

حديث ابن عمر : أخرجه مسلم عن ابن سيرين — ورغم أن الراوي مكث هجرين سنة يستفاد أن ابن عمر طلق امرأته ثلاثاً — فإنه في ذلك وأكعد أن ابن عمر طلق امرأته تطليقة واحدة وهي حائض .

انظر صحيح مسلم بفتح التووى ح ١٠٠ س ٦٢

وانظر فيما تقدم « الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني » .
كتاب الطلاق ح ١٧

ابن عبد البر : ورواية طاوس وم غلط لم يرجح عليها أحد من فقهاء الأمصار بالمجاز والشام والعراق والمشرق والمغرب . وقد قيل إن أبا الصهباء لا يعرف في موالى ابن عباس . ثم قال : قال القاضي أبو الوليد الباجي . وعندى أن الرواية من ابن طاوس بذلك صحيحة . فقد روى عنه الأئمة حمير وابن جريج وغيرهما . وابن طاوس إمام الحديث الذى يشيرون إليه هو مارواه ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وسنين من خلافة عمر بن الخطاب طلاق الثلاث واحدة . فقال عمر رضى الله عنه : إن الناس قد استجلبوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم ، فأنضاه عليهم . ومعنى الحديث أنهم كانوا يوقعون طلاقاً واحدة بدل إيقاع الناس الآن ثلاث تطليقات ، ويدل على صحة هذا التأويل أن عمر قال : إن الناس قد استجلبوا فى أمر كانت لهم فيه أناة فأنسكروا عليهم أن يحدثوا فى الطلاق استجبالاً أمر كانت لهم فيه أناة فلو كان حالم ذلك فى أول الإسلام فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم ما قاله ، ولا عاب عليهم أنهم استجلبوا فى أمر كانت لهم فيه أناة . ويدل على صحة هذا التأويل ما روى عن ابن عباس من غير طريق أنه أفتى يلزوم الطلاق الثلاث لمن أوقعها مجتمعة . فإن كان هذا معنى حديث ابن طاوس فهو الذى قلناه . وإن حل حديث ابن عباس على ما تناول فيه من لا يعبأ بقوله . فقد رجع ابن عباس إلى قول الجماعة وانتهى به الاجماع . ودليلنا من جهة القياس أن هذا الطلاق أوقعه من يملكه فوجب أن يلزمه أصل ذلك إذا أوقعه مفرداً . (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٩ آية ٢٢٩ من سورة البقرة .
 كتبه طبع كتاب « المنتقى » بالناصرة .

وفى قوله تعالى «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» الآية، يقول
القرطبي في المسألة الثالثة عشرة مبيحاكم من قبل في الصوم فأنزله. هل تجب
عليه الكفارة مع القضاء أم لا؟ يقول: لا يخلو أن يكون قبل قبلة واحدة
فأنزل. أو قبل فالتد فضاود فأنزله. فإن كان قبل قبلة واحدة أو باشر أو
لس مرة فقال أشهب وسحنون لا كفارة عليه حتى يكرر. وقال ابن القاسم
يسكر في ذلك كله إلا في النظر فلا كفارة عليه حتى يكرر. ومن قال
بوجوب الكفارة عليه إذا قبّل أو باشر أو لاهب امرأته أو جامع دون الفرج
فأمى. الحسن البصري وهطاء وابن المبارك وأبو ثور واسحاق. وهو قول
مالك في المدونة وحجة قول أشهب أن اللس والقبلة والمباشرة ليست
تفطر في نفسها. وإنما يبقى أن نزول إلى الأمر الذي يقع به الفطر. فإذا فعل
مرة واحدة لم يقصد الإنزال وإفساد الصوم فلا كفارة عليه، كالنظرة إليها
وإذا كرر ذلك فقد قصد إفساد صومه فعليه الكفارة كما لو تكرر النظر
قال الأحنى :

«واتفق جميعهم في الانزال من النظر أن لا كفارة عليه إلا أن يتابع.»
وعقب القرطبي على هذا القول بما نقله عن البايجي فقال :

«قلت : ما حكاه من الاتفاق في النظر وجهه أصلا ليس كذلك . فقد
حكى البايجي في المنتقى : فإن نظر نظرة واحدة يقصد بها الفتنه فأنزله .
فقد قال الشيخ أبو الحسن : عليه القضاء والكفارة . قال البايجي وهو
الصحيح هندی ، لأنه إذا قصد بها الاستمتاع كانت كالقبلة وغير ذلك من
أنواع الاستمتاع والله أعلم . (١)»

مصادر القرطبي من كتب اللغة والنحو :

أعاد القرطبي في تفسيره من كثير من المصادر اللغوية والنحوية . ومن المصادر اللغوية التي أعاد منها :

« كتاب المجمل لأحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ »

وكتاب مقاييس اللغة له أيضاً .

ففي قوله تعالى « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » (١) بين القرطبي أن الصبغة قد يراد بها الاغتسال . فقال : « وقيل أن الصبغة الاغتسال لمن أراد الدخول في الاملام بدلا من ممودية النصارى ذكره الماوردي ... » ثم قال القرطبي مشيراً إلى نقله عن كتاب المجمل . وقيل : إن القرية إلى الله تعالى يقال لها صبغة حكاه ابن فارس في المجمل (٢) »

وفي قوله تعالى « فان أحصرتم فا انيسر من الهدى » (٣) . بين أن ابن العربي حدد المانع في الآية بأنه المدو . وأنه قال هذا هو اختيار هلمثنا . وناقش القرطبي ابن العربي فقال : « قلت ما حكاه ابن العربي من أنه اختيار هلمثنا لم يقل به إلا أشهب وحده . وخالفه سائر أصحاب مالك في هذا . وقالوا : الاحصار إنما هو المرض . وأما المدو فلإنما يقال فيه حصر حصرا فهو محصور . قاله الباجي في المنتقى . وحكى أبو إسحاق الزجاج

(١) آية ٦٠ من سورة البقرة . وكتاب المجمل مطبوع بالقاهرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٤ وما بعدها .

(٣) آية ١٩٦ من سورة البقرة .

أنه كذلك عند جميع أهل اللغة . وقال أبو هيبنة والكسائي : أحصر بالمرض
وحصر بالمدو . »

ثم بين أن ابن فارس خالف أكثر أهل اللغة فقال : وفي المجلد لابن
فارس على المكس فحصر بالمرض وأحصر بالمدو (١) .

وفي قوله تعالى « وإذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم » (٢) يقول القرطبي
« السجود معناه في كلام العرب التذلل والخضوع » ثم قال : قال ابن فارس
سجد إذا تطامن . وكل ما سجد فقد ذل والإسجد إدامة النظر . قال
أبو عمر وأسجد إذا طأطأ رأسه . قال :

فضول أزمته أسجنت سجد النصارى لأخبارها (٣)

قال أبو هيبنة : وأشدني أهرابي من بني أسد :

وقلن له اسجد ليلي فأسجدا ..

يعني البعير إذا طأطأ رأسه (٤)

ولم يذكر القرطبي . صدره الذي نقل عنه هذا النص وهل هو « كتاب

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧١ .

(٢) آية ٣٤ من سورة البقرة

(٣) هو حميد بن ثور يصف نساء يقول : أسا ارمحن ولوين فضول أزمه جالحن
على مماسهن أسجنت أي طأطأت وأسها لهن .

(٤) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩١ آية ٣٤ من سورة البقرة وانظر معانيهم في اللغة

الجميل أم كتاب مقاييس اللغة . . . ولكنى وجدت هذا النص في كتاب
« مقاييس اللغة »

تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري : وهو أبو نصر اسماعيل بن حماد
الجوهري المتوفى سنة ٣٩٣ .

أفاد القرطبي من هذا الكتاب القوي كثيراً . ففي قوله تعالى :
« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » يقول القرطبي في المسألة العاشرة
الصلاة أصلها في اللغة الدعاء مأخوذة من صلى يصلى إذا دعا ومنه قوله عليه
السلام « إذا دعى أحدكم (١) إلى طعام فليجب فإن كان مفطراً فليطعم وإن
كان صائماً فليصل » أى فليدع . وقال بعض العلماء : إن المراد الصلاة
المعروفة فيصلى ركعتين وينصرف والأول أشهر وعليه العلماء الأكثر ، ولما
ولدت أسماء عبد الله بن الزبير أرسلته إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت
أسماء : نم مسحه وصلى عليه (٢) . أى دعا له . وقال تعالى « وصل عليهم » (٣)
أى ادع لهم وقول الأئمة :

تقول بنى وقد قربت مرتحلاً يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت لأغضبى نوما فإن لجنب المرء مضطجما

وقال الأئمة أيضاً :

وقابلها الريح في دنها وصلى على دنها وارتمى

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة « باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة »

ج ٩ ص ٢٣٦

(٢) أخرجه مسلم باب (استحباب تحنيك للولود عند ولادته) ج ١٤ ص ١٢٥

(٣) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

ارسم الرجل كبير ودعا . قاله في الصحاح^(١) . وفي قوله تعالى « قال إني أعلم ما لا تعلمون »^(٢) يقول « أعلم فيه تأويلان » قيل إنه فعل مستقبل وقيل أنه اسم بمعنى فاعل كما يقال الله أكبر بمعنى كبير وكما قال :
لسمرك ما أدري وإني لأوجل هلى أينما تعدو المنية أول^(٣)

فعل أنه فعل تكون « ما » في موضع نصب بأعلم . ويجوز إدغام الميم في الليم وإن جعلته اسماً بمعنى عالم تكون « ما » في موضع خفض بالإضافة
قال المهدوي يجوز أن تقدر التنوين في أعلم إذا قدرته بمعنى عالم . وت نصب « ما » به فيكون مثل حواج بيت الله . قال الجوهري : وسوة حواج بيت الله بالإضافة إذا كن قد حججن وإن لم يكن حججن قلت حواج بيت الله . فنصب البيت لآنك تريد التنوين في حواج^(٤) .

وفي قوله تعالى « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بك لعلمهم يرشدون »^(٥) .
يقول « والزشاد خلاف اللى . وقد رشد يرشد وشداً . ورشد « بالسكسر » يرشد رشداً لفة فيه . وأرشدته الله . والمرشد ، قاصد العرق ، والعريق الأرشد فهو الأقصـد ونقول : هو يرشده^(٦) خلاف قولك لزنية . وأم راشد ، كنية لقنارة وبنو رشدان بطن من العرب هن الجوهري وقال المروى : الرشـد والرشـد

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٨ آية ٣ من سورة البقرة وانظر صحاح الجوهري ج ٢ ص ٥٥٥ والذى واحد الذنان .

(٢) آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٣) التال هو ممن بن أوس كان له صديق وكان ممن متزوجاً بأخته فاتفق أنه طلقها وزوج غيرها فالى صديقة ألا يكله أبداً فأنشأ ممن يستعاف قلبه ويسترقه له .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٨ .

(٥) آية ١٨٦ من سورة .

(٦) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٣ وما بعدها وانظر صحيح الجوهري ج ١ ص ٢٢٧

والرشاد . الهدى والاستقامة ومنه قوله « لعلهم يرشدون » (١) .

ولقد ناقش القرطبي ابن فارس والجوهري وتعقبهما . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وإذا استنق موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر » (٢) فقد قال في المسألة الرابعة :

« وقد يعبر بالعصا عن الاجتماع والافتراق ومنه يقال في الخوارج : قد شقوا عصا المسلمين أى اجتاهم واثلافهم ، وانشتت العصا أى وقع الخلاف قال الشاعر :

إذا كانت الميحاء وانشتت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

أى يكفيك ويكفى الضحاك . وقولهم لا ترفع عصاك عن أمك يراد به الأذى ، والحجر معروف بقياس جمعه فى أدنى العدد أحجار وفى الكثير حجار ، وحجارة ، والحجارة نادر وهو كقولنا : جل وجهالة وذكر وذكر . كذا قال ابن فارس والجوهري وهقّب القرطبي على قولهما بقوله :

قلت : وفى القرآن فهمى كالحجارة « وإن من الحجارة » (٣) « قل كونوا حجارة » (٤) « ترميمهم بحجارة » (٥) « وأمطرنا عليهم حجارة » (٦) فكيف

(١) ورشدة بكسر الراء وقد تفتح ومعناه إذا كان لنكاح صحيح .

(٢) آية ٦٠ من سورة البقرة .

(٣) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٤) آية ٥٠ من سورة الاسراء .

(٥) آية ٤ من سورة الليل .

(٦) آية ٨٢ من سورة هود .

يكون نادراً إلا أن يريد أنه نادر في القياس كثير في الاستعمال نصيب والله أعلم (١) .

مصادر القرطبي من كتب النحو :

من أبرز المصادر النحوية التي اعتمد عليها القرطبي في تفسيره :

« الكتاب لسيبويه » وهو « أبو بشر عمرو بن قنبر » المتوفى سنة ١٨٨ هـ ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين » فقد قال :

« والسكاف في « كما » نعت لمصدر محذوف « وما » مصدرية أو كافة ، والمعنى : اذكروه ذكرًا سنًا كما علمكم كيف تذكرونه لا تسبلوا عنه « وإن » مخففة من الثقيلة يدل على ذلك دخول اللام في الخبر قاله سيبويه (٢) .
وفي قوله تعالى « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة » يقول :

« سميت القيامة بالساعة لسرعة الحساب فيها » ومعنى « بغتة » فجأة يقال : بغتهم الأمر يبعثهم بغتاً وبغتة . وهي نصب على الحال وهي هند سيبويه مصدر في موضع الحال كما تقول : قتلته صبراً . وتقدير الحال عند سيبويه مفاجأة فالمصدر هند سيبويه لا يكون صالحاً إلا بعد التأويل وذلك لأن حق الحال أن يكون وصفاً وهو ما دل على « حتى » وصاحبه كقائم وحسن ، شرح الأشموني ج ١ ص ٢٤٥ .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٢٧ آية ١٩٨ من سورة البقرة .

وأشد :

فلأيا بلأى ما حملنا وليدنا على ظهر محبوبك ظاء مفاصله (١)

« كتاب المنتخب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد » المتوفى سنة ٢٨٦ هـ
لقد نقل القرطبي عن « أبي العباس المبرد » وأقادمه ومن كتابه هذا .
ومن أسئلة ذلك : قوله تعالى « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أو لم
تنذرهم لا يؤمنون » فقد قال القرطبي قوله تعالى « لا يؤمنون » موضعه رفع
خبر « إن » أى إن الذين كفروا لا يؤمنون وقبله خبر إن « سواء » وما
بمده يقوم مقام المصلة ، قاله ابن كيسان . وقال محمد بن يزيد : « سواء » رفعه بالابتداء
« أأنذرتهم أم لم تنذرهم » (أى من الربط والتفصيل) الخبر والجملة خبر إن (٢) .

وفى قوله تعالى « وأخر » مشابهات « يقول القرطبي : لم تصرف « آخر »
لأنها عدلت من الألف واللام لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالذكر
والعصر فلما عدلت عن مجرى الألف واللام أى والآخر ، نعت الحرف . أبو عبيد
لم يصرفوها لأن واحدها أى أخرى لا يصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد
وقال : يجب على هذا ألا يصرف غفاب وعطش . الكسائى : لم تنصرف
لانهاصة وأنكره المبرد أيضاً وقال : إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرتان (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٢٤ آية ٣١ من سورة الانعام والبيت لزهير بن أبى سلمى
والشاهد فيه قوله « لا يبالئى » ونصبه على المصدر للوضوح فى موضع الحال والتقدير حملنا
وليدينا مبطينين . وصف فرسا بالنشاط وشدة الحلق فيقول : إذا حملنا الغلام عليه ليصيد
احتشج للنشاط فلم تمهله إلا بعد إبداء وجهه واللائى : الإبداء . والمحبوك . الشديد الحلق
والظاء هنا القافية اللحم وهو المحمود منها . وأصل الظاء العلقش .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٤ آية ٦ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٣ آية ٧ من سورة آل عمران . وكتاب المنتخب

كذلك .

وأم بها اعطف إثر همز التسوية أو همزة عن لفظ أى غنية
فغضبان مفرد غضاب وهو غير منصرف وكذلك عطشان مف. عطاش
وهو غير منصرف لأنهما مزيدان بالآف واللام . في حين أن غضاب وعطاش
مصرفان .

مصادر القرطبي من كتب التوحيد :

« كتب أبي بكر بن الطيب » :

« لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي » المتوفى سنة ٤٠٣ هـ « عدة مؤلفات
في العقيدة الأشعرية أفاد منها القرطبي . ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك .

كذلك أفاد القرطبي في التوحيد من « كتب أبي الممالى عبيد الملك
ابن عبيد الله الجويني إمام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨ هـ » ومن أمثلة ذلك : قوله
تعالى : « وإذ قال ربك الملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » فقد قال القرطبي
في المسألة السابعة عشرة : « فأما إقامة إمامين أو ثلاثة في عصر واحد وبلد
واحد فلا يجوز إجماعا . قال الإمام أبو الممالى : ذهب أصحابنا إلى منع عقد
الإمامة لشخصين في طرف العالم . ثم قالوا : لو اتفق عقد الإمامة لشخصين نزل
ذلك منزلة تزويج وليين امرأة واحدة من زوجين من غير أن يشتر أحدهما
بعقد الآخر . قال : والذي عندي فيه أن عقد الإمامة لشخصين في صقع واحد
متضايق الخطأ وللخالف^(١) غير جائز وقد حصل الإجماع عليه ، فأما إذا
بعد المدى وتخلل بين الإمامين شيوع النوى . فلاحتمال في ذلك مجال . وهو
خارج عن القواعد^(٢) .

(١) الخالف الاطراف والتواصي . الكتاب مطبوع بالناصرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٣ . آية ٣٠ من سورة البقرة .

مصادر القرطبي من كتب التواريخ :

لقد أفاد القرطبي من كثير من المراجع التاريخية ومنها : كتاب «لغزى»
لابي عبد الله محمد بن عمر الأسدي الواقدي . للتوفي سنة ٢٠٧ هـ .

وكتاب «سيرة الرسول» ﷺ لابي بكر محمد بن إسحاق بن يسار الملقب
للتوفي سنة ١٥٠ هـ . ومن الامثلة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « اذمت
طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما » .

فقد قال : « قال الواقدي : بإسناده عن نافع بن جبير . قال سمعت رجلا من
المهاجرين يقول : شهدت أحداً فنظرت إلى النبل تأتي من كل ناحية ورسول
الله ﷺ وسعها كل ذلك . يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله بن شهاب
الزهري يقول يومئذ : دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا . وإن رسول الله ﷺ
إلى جنبه . ما معه أحد . ثم جاوزوه . فعاتبه في ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته
أحلف بالله إنه منا ممنوع » .

ثم أخذ القرطبي يتحدث عما أصاب رسول الله ﷺ في ذلك اليوم وعن
مقتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه . ثم بين ما فعلته هند بنت عتبة بجثة
حمزة ، فقال : « قال ابن إسحاق : فبترت هند عن كبد حمزة فلا كتها ولم
تستطع أن تسيغها فلفظتها » ثم ذكر ما قاله عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة من
من الشعر ومنه قوله :

بكت هيني وحق لها بكاءها وما يغنى البكاء أو العويل
هل أسد الإله خداة قالوا أحزمة ذاكم الرجل القليل

أصيب المسلمون به جميعا هناك وقد أصيب به مول
ثم قال :

ألا يا هند لا تبدى شمتانا بمحمزة إن همزكم ذليل
ألا يا هند فابكى لا تملى فأنت الواله العبرى الهبول (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٤ آية ١٢٢ آل عمران ، الهبول من النساء الشكول .
وانظر سيرة ابن هشام . تحقيق الاساتذة . مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري
ومهد المحفوظ شالي ص ٩١ ، ١٦٢ ج ٢ ، وكتاب «منازى الواقدي» مطبوع بالقاهرة.

الفصل الثاني

موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأى

اختلفت أنظار العلماء في التفسير بالرأى : هل يجوز أو لا ؟ فمنه بعضهم واستدلوا على ذلك بما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث ، تهاجم من يقول في القرآن برأيه وتوهمه بالنار .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « اتقوا الحديث على إلا ما علمتم فن كذب على متعمداً فليتبوا مقعده من النار ، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوا مقعده من النار » (١) .

وروى أبو داود عن جنسب قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » (٢) وتحدث السيدة عائشة رضى الله عنها فتصنف موقف رسول الله ﷺ من تفسير القرآن فنقول : « ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا أيا بمدد علي بن أبي طالب » (٣) كما استدل « ولأه

(١) أخرجه الترمذى عن ابن عباس « باب ما جاء في الذى يفسر القرآن برأيه » ج ٤ ص ٢٦٨ انظر الجامع الصحيح مراجعة عبد الرحمن هثان طبع السلفى بالمدينة المنورة (٢) أخرجه أيضاً الترمذى عن جندب بن عبد الله وقال هذا حديث غريب وقد تكلم أهل العلم في سهيل بن أبي حزم — أحد رواة الحديث — وأخرجه أبو داود في كتاب العلم ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) أسنده الطبري إلى هشام بن عروة عن أبيه عن جده عن عائشة وقال الاستاذ أحمد شاكر رواه أبو يلى والبزار بنحوه .

المعلماء بموقف بعض الصحابة والتابعين الذين تخرجوا من القول في القرآن بأرائهم . مثل ما نقل عن أبي بكر رضى الله عنه أنه قال : « أى سماء تظلمنى وأى أرض تقلنى إذا قلت فى القرآن برأى أو بما لا أعلم » ومثل ما نقل عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال . « أنا لا أقول فى القرآن شيئاً » (١) .

وفى الجانب الآخر ترى القرطبي لا يرتضى ذلك المذهب . فيجيز التفسير بالرأى ويفتح المجال لكل من عنده مؤهلات الفهم والاستنباط . ويقول إن كتاب الله يحوى بين دفتيه آيات تحث على الاعتبار والتدبر . يقول عز وجل « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليذكر أولوا الألباب » (٢) ويقول « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون قرآنا عربيا غير ذى هرج » (٣) ويقول « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٤) فهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الله تعالى دعا عباده إلى تدبر القرآن ، والاعتبار بآياته والانتعاض بمواعظه ، وذلك لا يكون إلا بفهمه وتأويله . وهل يعقل أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ، ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا دراية لك بشأنه ، إن ذلك يكون ضربا من العبث — تعالى الله عن ذلك هولاء كبيراً —

وتأول القرطبي ما تمسك به الفريق الأول من أحاديث فبين أن حديث عائشة ليس معناه أن رسول الله ﷺ لم يكن يفسر من القرآن شيئا إلا القليل

(١) هذه الاخبار وأمثالها من كتاب الطبرى والقرطبي فى نصوص متفرقة .

(٢) آية ٢٩ من سورة ص .

(٣) آية ٢٧ من سورة الزمر .

(٤) آية ٢٤ من سورة محمد .

النادر . وإلا فأى معنى لقول الله لرسوله « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (١) وقوله « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (٢) وإنما هو محمول على مغيبات القرآن ، وتفسيره لمجمله ، ونحو ذلك مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى . وسكت القرطبي عن نقد هذا الحديث . مع أن راويه « محمد بن جعفر الزبيرى » مطعون فيه . فقد قال البخارى فى حقه لا يتابع فى حديثه . وقال هـ الطبرى : إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار .

وبين القرطبي أن حديث جندب لم تثبت صحته عند الحديثين (٣) . وعلى فرض صحته فإن معناه ومعنى حديث ابن عباس : من قال فى القرآن قولاً يعلم أن الحق خير من فليتبوأ مقعده من النار .

أما موقف بعض الصحابة والتابعين ، وإحجاءهم عن تفسير القرآن ، فهذا مسلك غير ملازم وقد بين القرطبي نفلاً عن ابن عطية : إن هذا الموقف قريب من موقف آخر لكثير من الصحابة والتابعين . كانوا منارات هدى للناس ، وتغوى أمام العقول ما استغلق عليهم من معان . ثم هدد القرطبي كثيراً من المفسرين من الصحابة والتابعين ، وذكر ما توجه إليهم من مدح وثناء . وهال القرطبي ، نفلاً عن ابن عطية أيضاً ، موقف المتحرجين عن تفسير القرآن ، بأنهم كانوا

(١) آية ٤٤ من سورة النحل .

(٢) آية ٦٤ من سورة النحل .

(٣) قال البخارى فى التاريخ الكبير ، فى حق سهيل بن أبى حزم أحد رواة هذا الحديث « ليس بالقوى عندهم » وروى ابن أبى حاتم فى المرح والتبديل عن أبيه قال « سهيل ابن أبى حزم ليس بالقوى يكتب حديثه ولا يمتحج به وحزم أخوه أتمن منه » .
انظر تفسير الطبرى ج ١ ص ٧٩ طبع دار المعارف .

يفعلون ذلك تورعا واحتياطاً لأنفسهم مع إدراكهم وتقدمهم . أو أن توقعهم ذلك كان في مشكل القرآن . خوفاً من أن تفسيرهم في تلك الحالة قد لا يوافق مراد الله عز وجل (١) . وبعد ذلك أخذ القرطبي يهاجم من يقف في حدود المأثور بأكثر مما تقدم . فقال : وقال بعض العلماء أن التفسير موقوف على السماع لقوله تعالى « فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول » (٢) . وهذا فاسد لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو : إما أن يكون المراد به الاختصار على النقل ، والمسموع ، وترك الاستنباط ، أو المراد به أمراً آخر . ويأمل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه . فإن الصحابة رضی الله عنهم قد قرأوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه . وليس كل ما قاله سمعوه من النبي ﷺ . فإن النبي ﷺ دعا لابن عباس وقال : « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » (٣) فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ، فما فائدة تخصيصه بذلك ، وهذا بين لا إشكال فيه ، وإنما النهي يحمل على أحد وجهين أحدهما : أن يكون له في الشئ رأى ، وإليه ميل من طبعه وهواه . فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه . فيحتج على تصحيح غرضه ، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لسكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وبعد أن بين القرطبي أن هذا النوع يستعمله أهل الأهواء والبدع ويستعمله أيضاً الباطنية في المقاصد الفاسدة لتفريب الناس ودهوتهم إلى مناهبهم الباطلة ، بعد هذا تكلم عن الوجه الثاني وحدد المراد به فقال : « الوجه الثاني أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية

(١) أخذت موقف القرطبي هذا من جملة ما ذكره في مقدمته في باب ما جاء من الوعيد في التفسير بالرأى .

(٢) آية ٥٩ من سورة النساء .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل عبيدة بن عباس ح ١٦ ص ٢٧ بلفظ « اللهم فقهه » والمحدث بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان والحاكم صحيح الاسناد . انظر المني عن حل الاسفار في الاسفار على هامش الاحياء ح ١ ص ٦٣ طبع الضبط .

من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بفرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المهمة والمبدلة (١) وما فيه من الاختصار والحذف ، والإخبار ، والتقديم ، والتأخير . فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأى . ثم قال : « والنقل والسماع لا بدله منه في ظاهر التفسير أولا ليعتق به ، وواضح الغلط . ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والفرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ولا معلم في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ، ألا ترى أن قوله تعالى « وآتيناهم الناقة مبصرة فظلوا بها » معناه آية مبصرة . فظلوا أنفسهم بقتلها . فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولا بدري بماذا ظلموا وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم . فهذا من الحذف والإخبار ، وأمثلة هذا في القرآن كثير . وما عدا هذين الوجهين فلا يتم طرق انتهى إليه والله أعلم . »

هذا موقف «القرطبي» . وهو مسبوق بما وصل إليه «ابن عطية» والعبري والفرزالي وغيرهم . ولقد استشهد بعض الباحثين الحديثين بموقف : «الفرزالي والقرطبي» على جواز التفسير بالرأى ، والذهوة إليه (٢) .

وأحب أن أقول لا يفهم من موقف القرطبي هنا أنه أحمل التفسير للمأثور ؟ كلا إنه دعا إليه أولا كما يفهم من عبارته « والنقل والسماع لا بد ما قاله — أي للفسر — منه في ظاهر التفسير أولا ليعتق به مواضع الغلط إلى آخر ما قاله » ويبدو أن هذا ليس دعوة إلى تفسير للمأثور فقط . وإنما هو فوق ذلك

(١) المنقولة من أصل منهاها الفوى إلى منى إسلامي متعارف كلفظ الصلاة والوضوء وغير ذلك . انظر موقف العلماء من التفسير بالرأى في تفسير الطبري ج ١ ص ٧٧ ، ٨٤ ومناهل العرفان ج ١ ص ٢٢٢ والتفسير والمفسرون ج ١ ص ٥٧٢ .

(٢) انظر تفسير التحرير الطاهر بن طشورح (١) للندوة الثالثة.

دعوة إلى عدم الانتقال إلى الاجتهاد والرأى إلا بعد صحاح أو معرفة ما قاله أئمة الدين والعربية — أى بعد توفر أسبابه ومؤهلاته — وعلى هذا فإننا نرى « القرطبي » كثيراً ما يعرض للتفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . وعن الصحابة والتابعين أثناء شرحه لآيات القرآن الكريم .

منهج القرطبي في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ :

كان منهج القرطبي في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، أنه يقف عنده ، ويقصر عليه في شرح اللفظ والآية ، ولا يستعرض غيره من آراء المفسرين لأنه لا مجال للاجتهاد والرأى مع النص ويتضح ذلك فيما يأتي :

في قوله تعالى « اليوم نقيم على أفواههم وتكلمنا أيديهم ونشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » فسر « القرطبي » هذه الآية بما ورد عن رسول الله ﷺ فقال : في صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : كنا عند رسول الله ﷺ قال : « هل تدرون مم أضحك » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال « من خاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى . فيقول فإني لا أجزى هل نفسى إلا شاهداً منى . قال فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، قال فيختم على فيه فيقال لأركانى انطأ فتنمق بأعماله . قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعداً لكن وسحقاً فتمنكن كنت أناضل . وبين القرطبي أن هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أيضاً وفيه « ثم يقال له الآن نبعث شاهداً عليك ، ويتفكر في نفسه ، من ذا الذى يشهد على » ؟ فيختم على فيه ويقال لفتنه ولحمه وعظامه : انطأ فتنمق فتنه ولحمه وعظامه بماله . وذلك ليعذر من نفسه . وذلك للنفاق وذلك

الذى يسخط الله عليه » (١) .

وفى قوله تعالى : « فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » فسر الحساب اليسير بأنه الذى لا مناقشة فيه . ثم قال « كنا روى عن النبي ﷺ من حديث عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « من حوسب يوم القيامة هنب » قالت فقلت يا رسول الله أليس قد قال الله « فأما من أوتى كتابه يمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ؟ فقال « ليس ذاك الحساب . إنما ذاك العرض . من نوقش الحساب يوم القيامة هنب » . أخرجه البخارى ومسلم والترمذى وقال حديث حسن صحيح (٢) .

وقد يستعرض القرطبي بعض آراء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ . وفى تلك الحالة نرى القرطبي يرجع الأمور عن رسول الله ﷺ ، ويقف بجواره ، ويرد ما يخالفه فى قوله تعالى « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » بقول القرطبي : « روى من حديث أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى « وزيادة » قال : « الذين أحسنوا العمل فى الدنيا لهم الجنة » . والزيادة النظر إلى وجه الله

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٢ آية ٧ ، ٨ من سورة الانشقاق . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب التفسير « باب فسوف يحاسب حساباً يسيراً » انظر صحيح البخارى بمشكاة السندى ج ٣ ص ١٣٩ وأخرجه مسلم « باب إيمان الحساب » ج ١٧ ص ٢٠٨ وأخرجه الترمذى فى « أبواب تفسير القرآن » سورة الانشقاق انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى للإمام الحافظ عبد بن عبد الرحمن المباركورى ج ٩ ص ٢٥٦ .

الكريم ، (٣) وهو قول أبي بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب في رواية ، وحذيفة ، وهبادة بن الصامت ، وكعب بن عجرة ، وأبي موسى ، وصهيب ، وابن عباس في رواية ، وهو قول جماعة من التابعين . وهو الصحيح في الباب . ثم أخذ القرطبي في سرد بعض روايات أخرى فقال : « وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » وفي رواية ثم تلا « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » وأخرجه النسائي أيضاً عن صهيب قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه الآية « الذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار » (٢) . نادى نادياً أهل الجنة . ان لكم موعداً عند الله يريد أن ينجز كموه . قالوا : ألم يبيض وجوهنا وينقل موازيننا ويمرنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه . والله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر ، ولا أقر لأعينهم » وبعد هذا ذكر القرطبي أنوالاً أخرى تختلف مع هذا التفسير ولكنه أبان عن منهجه ، وأنه يقف عند التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال في صدر كلامه : « وهو الصحيح في الباب » .

وفي قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » يقول القرطبي في المسألة الثانية « واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم على

(١) قال ابن كثير هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤١٤ .
(٢) أخرجه مسلم في باب ما جاء في رؤية الله عز وجل ج ٣ ص ١٧ وأخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن انظر الجامع الصحيح ج ٤ ص ٣٤٩ طبع السلفية بالمدينة . وانظر تفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٣٠ آية ٢٦ من سورة يونس .

مئة هشر قولاً . الأول : أنه هشر في الجنة رواء البخارى هن أس والترمذى (١) أيضاً . وروى الترمذى أيضاً هن ابن همر قال : قال رسول الله ﷺ : الكوثر هشر في الجنة حافناه من ذهب ، وهجرأ هل الدر والياقوت . ربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من المسلى وأبيض من الثلج . هنا حديث حسن صحيح .
الناى أنه : حوض النبي ﷺ فى الوقف . قاله عطاء ، وفى صحيح مسلم هن أس قال : بينا نحن هند رسول الله ، إذ أغفى إغفاء ثم رفع رأسه مبشاً . فقلنا ما أضعحك يا رسول الله ؟ قال : نزات هل آناً سورة . قرأ بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانهر إن شانك هو الأبر » ثم قال : أنذرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه هشر وهندي وهى عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أنى يوم القيامة . آيته عدد النجوم (٢) . فيختلج العبا (٣) منهم فأقول إنه من أنى . فيقال إنك لا تدرى ما أحدث بعدك .

ثم أخذ القرطبي بذكر بقية الآراء . « وأنه قيل فى الكوثر : أنه النبوة والكتاب ، وقيل فيه الإسلام ، وقيل الإشار ، وقيل الفقه فى الدين . الخ ما ذكره » . وعقب القرطبي بما يوضح منهجه فقال « قلت أصح هذه الأقوال الأول والناى لأنه ثات هن النبي ﷺ نص فى الكوثر . وسمع أس قوما يتناكرون فى الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير انظر صحيح البخارى بمحاكية السندى ح ٣ ص ١٤٣ وأخرجه الترمذى فى أبواب فسر القرآن انظر تحفه الاحوذى ح ٩ ص ٢٩١ وما بعدها . وأخرجه أيضاً حديث ابن عمر فى أبواب فسر القرآن .

(٢) أخرجه السانى فى كتاب الصلاة باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ج ٢ ص ١٢٤ وذهه هشر عليه فى صحيح مسلم .

(٣) مختلج بالناء للمجهول مستاء بسمع ويقطع .

يتأرون في الحوض . لقد تركت هجائز خلقى ما تصلى امرأة منهن إلا سألت الله
أن يسقيها من حوض النبي ﷺ . وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيكا وأنت حقاً حبيب ياريكا

هكذا كان يسير القرطبي في التفسير للمأثور عن رسول الله ﷺ يقف
عنده ، ولا يتجاوزهُ أو يتخطاه : ولكنه أحياناً كان يذكر بعض آراء المفسرين
من الصحابة والتابعين وغيرهم . إلى جانب ما ورد عن رسول الله ﷺ .
ورغم أن بعضها يختلف معه . فإتينا نراه يسكت ولا يعقب عليها . أو يعلن
دفاعه عن المأثور عن رسول الله ﷺ كما هو دأبنا دائماً . ولعله يكون قد ارتضى
هذه الآراء . إلى جانب المأثور عن رسول الله ﷺ . ففي قوله تعالى « لم
البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الآية . يقول القرطبي قوله تعالى « لم
البشرى في الحياة الدنيا » . من أبي الدرداء قال سألت رسول الله ﷺ عنها
فقال « ما سألتني أحد عنها غيرك منذ أنزلت . هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو
أو ترى » أخرجه الترمذى في جامعه (١) . وقال الزهرى وعطاء وقتادة .
هي البشارة التي تبشر بها الملائكة المؤمنين في الدنيا عند اللوت . وعن محمد
ابن كعب القرظى قال : إذا استنقمت (٢) نفس العبد المؤمن جاءه ملك الموت
فقال : السلام عليك ولى الله . الله يقرئك السلام . ثم نزع به هذه الآية
« الذين تنوam الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم (٣) » ذكره ابن المبارك
وقال قتادة والضحاك : هي أن يعلم أين هو قبل أن يموت . وقال الحسن : هي
ما يبشرهم الله تعالى في كتابه من جنته ، وكريم نوابه بقوله : « يبشرهم ربهم

(١) أخرجه للترمذى في أبوابه تفسير القرآن ج ٤ ص ٣٥٠ .

(٢) إذا اجتمعت فيه تزيد الخروج كما يستنقم للساء في قراره وأراد بالنفس الروح .

(٣) آية ٢٢ من سورة النحل .

برحة منه ورضوان^(١) » وقوله « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات^(٢) » وقوله « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون^(٣) »
ولمذا قال « لا تبديل لكلمات الله » أى لا خلف لمواعيده وذلك لأن
سواعيده بكلماته^(٤) .

نتيج القرطبي في التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين :

لم يهل القرطبي التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين . فضمن تفسيره
« الجامع لأحكام القرآن » بهذا اللون من التفسير . ولكن القرطبي كان يقرن
أقوال الصحابة والتابعين بأقوال غيرهم من المفسرين . ثم يحاول الجمع بين هذه
الآراء كلها إن أمكن .

ففى قوله تعالى « وإذا خلوا إلى شياطينهم » يقول القرطبي : واختلف
المفسرون فى المراد بالشياطين هنا فقال ابن عباس والسدى : هم رؤساء الكفرة .
وقال السكبي : هم شياطين الجن . وقال جمع من المفسرين : هم السكان . ثم
قال : ولفظ الشيطنة الذى معناه البعد عن الإيمان يتم جميع من ذكر
والله أعلم^(٥) .

فإذا تمرد الجمع لجأ القرطبي إلى المفاضلة والترجيح . فيختار من الآراء
ما تؤيده الأدلة والقرائن . سواء كان ذلك منسوبا إلى الصحابة أو إلى التابعين

(١) آية ٢٧ من سورة التوبة .

(٢) آية ٧٥ من سورة البقرة .

(٣) آية ٣٠ من سورة فصلت .

(٤) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٣٥٨ آية ٦٤ من سورة يونس .

أو إلى غيرهم من المفسرين . وقواعد الترجيح هذه تقوم إما على العموم ، وإما على الثقة ، وإما على سياق الآيات ، وإما على ما تشهد به الأحاديث ، وإما على دلالة بعض القراءات التفسيرية على صحته .

ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » يقول القرطبي في المسألة الحادية عشرة : اختلف أهل التأويل في العالمين اختلافا كثيرا فقال قتادة : العالمون جمع عالم وهو كل موجود سوى الله تعالى ، ولا واحد له من لفظه مثل قوم ورهط . وقيل أهل كل زمان عالم قاله الحسين بن الفضل لقوله تعالى « أتأتون الذكران من العالمين ^(١) » أى من الناس وقال المعراج :

فخندق ^(٢) هامة هذا العالم

وقتل من ابن عباس أنه قال : العالمون الجن والإنس . دليله قوله تعالى « ليكون للعالمين نذيرا ^(٣) » ولم يكن نذيرا للبهائم ، وقال الفراء وأبو حبيدة : العالم عبارة عن يعقل وهم أربعة أمم : الإنس ، والجن ، والملائكة ، والشياطين . ولا يقال للبهائم عالم . لأن هذا الجمل إنما هو جمع من يعقل خاصة . قال الأدهي :

ما إن سمعت بمنهم في العالمينا

(١) آية ١٦٥ من سورة الشراء .

(٢) خندق اسم قبيلة من العرب .

(٣) آية ١ من سورة الفرقان . ولقد بين الطبري اسناد هذا الحديث . وأنه عن محمد بن سنان القزاز عن أبي حاتم عن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس . ثم بين الأستاذ / أحمد شاكر أن محمد بن سنان القزاز شيخ الطبري . تكلم فيه علماء الجرح . من أجل حديث واحد . ثم قال : والحق أنه لا بأس به . وله ترجمة جيدة في تاريخ بغداد ٥٠ : ٣٤٣ ، ٣٤٦ .

ثم ذكر القرطبي أقوالاً أخرى عقب في نهايتها بقوله :

قلت والنزول الأول أصح هذه الأقوال لأنها شامل لكل مخلوق ، وما رد دليله قوله تعالى « قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما (١) » ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجد ، كذا الزجاج قال : العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة . وقال الخليل : العلم والعلامة والعلم ما دل على الشيء فالعالم دال على أن له خالقاً ومديراً وهذا واضح (٢) .

فالقرطبي قد رجح قول قتادة على قول ابن عباس وغيره من المفسرين وقام الترجيح عنده على المموم .

ويتضح هذا أيضاً في قوله تعالى « الذين يؤمنون بالنيب وقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون » (٣) . قال في المسألة الخامسة والعشرين :

واختلف العلماء في المراد بالنفقة ها هنا . فقيل : الزكاة المفروضة . روى عن ابن عباس لمفارقتها الصلاة ، وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في ربة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » وقيل : المراد صدقة التطوع روى عن الضحاك « نظراً إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المختص بها ، وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة احتملت النرض والتطوع فإذا جاءت بلفظ الإنفاق ، لم تكن إلا التطوع . » ثم قال

(١) آية ٢٣ من سورة الشعراء .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٨ وما بعدها .

(٣) آية ٢ من سورة البقرة .

القرطبي « وقيل هو عالم وهو الصحيح ، لأنه خرج مخرج للدخ في الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال . أى يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة وغيرها ، مما يمين في بعض الاحوال مع ما نذهب إليه (١) »

وفي قوله تعالى « ومنهم من يلزك في الصدقات (٢) » بين القرطبي معنى « يلزك » نقلا عن قتادة بأنه يظمن عليك ، وأن المعنى في قول الحسن « يسبك » وفي قول مجاهد للمنى بروزك (٣) ويسأك . ورجح القرطبي قول قتادة والحسن ، ورد قول مجاهد لأن اللفظة لا تشهد له . فقال : والقول هند أهل اللفظة قول قتادة والحسن . يقال لمزه يلززه إذا عابه . والدرز في اللفظة الميب في السر . قال الجوهري : المز الميب . وأصله الإشارة باليمين ونحوها وقد لمزه ويلززه وقرى بهما « ومنهم من يلزك في الصدقات » ورجل لماز ولمزة أى حيا . ثم فسر القرطبي الآية بما يتفق مع هذا (٤) .

وفي قوله تعالى « أفن زين له سوء عمله فرآه حسنا (٥) » يقول القرطبي وفي قوله « أفن زين له سوء عمله » أربعة أقوال . أحدها : أنهم اليهود والنصارى والمجوس . قال أبو قلابة ويكوت سوء عمله معاندة الرسول عليه الصلاة والسلام . الثانى : أنهم الخوارج . رواه عمر بن القاسم . فيكون سوء عمله تحريف التأويل . الثالث الشيطان قاله الحسن . ويكون سوء عمله الإغواء . الرابع : كفار

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٧٩ والحديث أخرجه مسلم باب فضل النفقة على الديار والبلوك ج ٧ ص ٨٢ .

(٢) آية ٨٨ من سورة التوبة .

(٣) الروز الامتحان والتقدير .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٦ بضمف .

(٥) آية ٨ من سورة قاطر .

قريش . قاله الكلبي . ويكون سوء عمله الشرك ثم هتب فرجح بهضر الآراء لأن كثير آمن الآيات تشبه له وكذلك السياق . فقال : « والقول بأن المراد كفار قريش أظهر الأقوال . لقوله تعالى : « ليس عليك هدام » (١) وقوله « ولا يهرك الذين يساءلون في الكفر » (٢) وقوله « فذلك بائع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » (٣) وقوله « لعلك بائع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (٤) وقوله في هذه الآية « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وهذا ظاهر بين أى لا ينفع تأسفك على كفرهم فإن الله أضلهم » (٥) .

وفي قوله تعالى « » وامرأة مؤمنة (٦) « يقول القرطبي « للمعنى وأحلامك امرأة تهب نفسها من غير صداق . وقد اختلف في هذا المعنى فروى عن ابن عباس أنه قال : لم تكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح ، أو ملك يمين فأما الهبة فلم يكن عنده ممن أحد . وقال قوم كانت عنده موهوبة . « لم رشح القرطبي القول الثاني لأن بعض الأحاديث تؤيده وتشهد به فقال : قلت : والذي في الصحيحين يقوى هذا القول ويضعفه ، روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما استحي امرأة تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى « ترجى من تشاء ممن وتؤوى إليك من تشاء » (٧) فقلت والله

(١) آية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٧٦ من سورة آل عمران .

(٣) آية ٦ من سورة الكهف .

(٤) آية ٣ من سورة الشراء .

(٥) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٦) آية ٥٠ من سورة الاحزاب .

(٧) الحديث أخرجه البخارى في كتاب التفسير ج ٣ ص ١١٥ انظر صحيح البخارى

بمحاكية السندى .

ما أرى ربك إلا يسارع في هواك ، وروى البخاري عن عائشة أنها قالت :
كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ فدل هذا
على أنهن كن غير واحدة (١)

وفي قوله تعالى « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » (٢) رجح القرطبي بعض
الآراء لأن كثيراً من قواعد الترجيح السابقة يشهد له . ولأن بعض القراءات
التفسيرية أيضاً تؤيده . يقول القرطبي في المسألة الثالثة عند قوله تعالى « وأزواجه
أمهاتهم » « واختلف الناس : هل هن — أى أزواج رسول الله ﷺ —
أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة على قولين : فروى الشعبي عن
مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة قالت لها : يا أمه . فقالت لها : لست
لك بأم إنما أنا أم رجالكم » قال ابن العربي : وهو الصحيح . قلت — والقائل
القرطبي — « لا قاعدة في اختصاص المهر في الإباحة للرجال دون النساء والذي
يظهر لى أنهم أمهات الرجال والنساء تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء
يدل عليه صدر الآية « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » وهذا يشمل الرجال
والنساء ضرورة ويدل على ذلك حديث أبي هريرة وجابر فيكون قوله
« وأزواجه أمهاتهم » عائداً إلى الجميع ، ثم إن في مصنف أبي بن كعب
« وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » — وقرأ ابن عباس « من أنفسهم وهو
أب لهم وأزواجه أمهاتهم » وهذا كله يوهن ما رواه مسروق ، وإن صح ،
من جهة الترجيح وإن لم يصح . فيسقط الاستدلال به في التخصيص وبقيتنا على
الأصل الذي هو العموم الذي يسبق إلى الفهوم (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٢٠٨ .

(٢) آية ٦ من سورة الاحزاب .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ١٢٣ .

أما حديث أبي هريرة وجابر الذي يشير إليه القرطبي فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : قال ﷺ « إنما مثلي ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والغراش يقعن فيه وأنا آخذ بمحزم وأنتم تقحمون فيه » وأخرج مثله عن جابر . وقال بدل قوله « وأنتم تقحمون فيه » « وأنتم تفلنون من يدي » (١) .

وأحياناً نرى القرطبي يمرض آراء الصحابة والتابعين ويوجهها ويكتفي بذلك ولا يعقب عليها . ولعله في تلك الحالة يرب عن رضا عنها كلها .

ففي قوله تعالى « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني » (٢) يقول : والأمانى جمع أمنية وهي للتلاوة . وأصلها أمنية على وزن أفعولة . فأدخمت الواو في الياء فانكسرت النون من أجل الياء فصارت أمنية . ومنه قوله تعالى « إلا إذا نعى أتني الشيطان في أمينته » (٣) « أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته » وقال كعب بن مالك :

نعى كتاب الله أول ليلة

وأخره لاقى حمام للقادر .

والأمانى أيضاً : الأكاذيب . ومنه قول هبان رضي الله عنه : ما نعت منذ أسلت أي ما كذبت . وقول بعض العرب لابن دأب وهو يحدث : أهذا شي مروته أم شيء نعتته ؟ أي اقتعلته . وبهذا المعنى فسر ابن عباس ومجاهد « أماني » في الآية . والأمانى أيضاً ما يتمناه الإنسان ويشتهي . قال قتادة : « إلا أماني »

(١) أخرجه مسلم في باب شقته صلى الله عليه وسلم على أمته ح ١٥ ص ٤٩

(٢) آية ٨٧ من سورة البقرة

(٣) آية ٥١ من سورة الحج

يعنى أنهم يتمنون على الله ما ليس لهم . وقيل : الأمانى التفسير يقال : أى له أى قدره ، قاله الجوهري وحكام ابن بحر وأئند:

لا تأمن وإن أسيت فى حرم حتى تلاق ما ينى لك المانى

أى يقدر لك القادر . ولم يعقب القرطبي على هذه الآراء . فلهذا قد ارتضاها كما قلت .

إذن فالقرطبي لم يكن ينتقل بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ إلى التفسير للمأثور عن الصحابة يبحث عنه ، ويقف بجواره ، ولكنه كان يذكر المأثور عن التابعين ، وآراء كثير من المفسرين إلى جواره غالباً ثم يجمع بين هذه الآراء تارة ، ويسرّضها تارة ، ويرجع بعضها ، حرة ثالثة ، وقد يخرج من آراء الصحابة والتابعين ، لأن الأدلة والقرائن لا تشهد لها ولا تؤيدها . ومن حقنا أن نتساءل كيف جاز للقرطبي أن يفاضل بين آراء الصحابة والتابعين ولماذا لم يقدم قول الصحابي على قول التابعين ؟ وكيف جاز له أن يخرج على التفسير المأثور عن الصحابة والتابعين ؟ ؟

لقد استبرأ أكثر العلماء تفسير الصحابي من قبيل الموقوف فهو رأى له وليس قولاً لرسول الله ﷺ ولهذا فهو عرضة للخطأ ، وذهب فريق آخر إلى أن أقوال الصحابة حجة يجب الأخذ بها فهو وإن كانت من قبيل الرأى والاجتهاد . فاجتهدهم أرفع شأن وأهل مقاماً . لأنهم أذكى عقولاً وأقوى فهماً واستنباطاً من سائر الناس (١) .

ورغم هذا الخلاف فقد اتفق الفريقان ، على أن تفسير الصحابي له حكم

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣ والتفسير والقرون لاستاذنا الشيخ محمد حسين التتيمى ج ١ ص ٩٦ طبع دار الكتب المجدبة.

المرفوع ، إذا كان لا يعرف بالرأى والاجتهاد . كأسباب النزول ، وأحوال يوم القيامة ، ونحوها مما لا مجال للرأى فيه . وكذلك قال أكثر العلماء في تفسير التابعين إذا كان مما لا مجال للرأى فيه « إن له حكم المرفوع » .

ولقد هبر عن ذلك ابن الصلاح فقال ، وأما قول من قال : تفسير الصحابي مرفوع . فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية كقول جابر : كانت اليهود تقول ، من أتى أمراته من دبرها في قبلها جاء الوك أحول فأُنزل الله تعالى « لساؤكم حرث لكم » الآية رواه مسلم . . أو نحوه مما لا يمكن أن يؤخذ إلا من النبي ﷺ ، ولا مدخل للرأى فيه . وغيره موقوف . وكذا يقال في التابعي إلا أن المرفوع من جهته مرسل . (١) ويقصد « ابن الصلاح » بقوله « وأما قول من قال تفسير الصحابي مرفوع » وهو الحاكم (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الحاكم النيسابوري المتوفى في سنة ٤٠٤ هـ) . فقد قال الحاكم في مستدركه « ليعلم طالب الحديث أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند »

ولقد بين السيوطي أن الحاكم قيد ما أطلقه فقال مرة ثانية في كتابه « معرفة علوم الحديث » فأما ما قوله من أن تفسير الصحابة مسند . فأما قوله في غير هذا النوع — أي ما كان من قبيل الرأى والاجتهاد — ثم أورد حديث جابر في قصة اليهود وقال : فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف . فإن للصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها

(١) تدرب الراوى بتحقيق الشيخ « عبد الوهّاب عبد اللطيف » للكتبة العلمية بالمدينة للنورة ص ١١ وما بعدها .

نزلت في كذا فإنه حديث مسند . (١)

وإذا كان أكثر العلماء قد قالوا : أن آراء الصحابة من قبيل الموقوف
لا من قبيل المرفوع فلا حرج على القرطبي إذا فاضل بين آراء التابعين
ولا حرج عليه إذا خرج عن آرائهم وأقوالهم .

لكن ما هو موقفه من آراء الصحابة والتابعين التي تنهل بأسباب
النزول أو نحوها مما لا يعلم إلا بتوقيف ؟

إن القرطبي كان يأخذ بأقوال الصحابة والتابعين في أسباب النزول إذا
نفقت . ففي قوله تعالى « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى
الله » الآية بين في المسألة الأولى سبب نزولها « قالت عائشة رضي الله عنها :
تبارك الذي وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي على
بهمة وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول : يا رسول الله أكل
شبابي ، ونزلت له بطن حتى إذا كبر صني ، وانقطع ولدي ، ظاهر مني ، اللهم
إني أشكو إليك فا برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية « قد سمع الله قول التي
تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله » . أخرجه ابن ماجه في السنن . (٢) وصاق
القرطبي كثيراً من الروايات التي أخرجه المحدثون . وذكر ما قاله ابن عباس
والحسن وغيرهما في سبب نزول الآية وكلام متقاربة . ولم يبد عليها اعتراضاً ولم
يخرج منها في تفسير الآية (٣) .

(١) تدريب الراوى للسيوطي ص ١١٦ وحديث جابر للشار إليه أخرجه البخاري في
كتاب التفسير .

انظر صحيح البخاري بحاشية السندی ح ٣ ص ٧٠

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن بلب الظاهر . انظر سنن ابن ماجه بحاشية السندی
طبع المطبعة ح ١ ص ٣٢٥

(٣) تفسير القرطبي ح ١٧ ص ٢٧٠ آية ١ من سورة المجادلة

أما إذا اختلفت آراؤهم فإتانا نرى القرطبي في بعض الأحيان يحاول الجمع بينها . ففي قوله تعالى « لا تحبين الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا » الآية يقول القرطبي في سبب النزول : « ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج النبي ﷺ إلى الفزوة تخلعوا عنه ، وفرحوا بمقدم خلاف رسول الله ﷺ فإذا قدم النبي ﷺ اعتنروا إليه ، وحلفوا ، وأحبوا أن يمدحوا بما لم يفعلوا . فزلت « لا تحبين الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا » الآية وفي الصحيحين أيضاً أن مروان (١) قال لبوايه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتي ، وأحب أن يمدح بما لم يفعل معذبا لتعذبن أجمعين . فقال ابن عباس : ما لكم ولهذا الآية . إنما أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وإذا أخذ الله ميتات الذين آتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » و « ولا تحبين الذين يفرحون بما آتوا ويعجبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا » وقال ابن عباس : سألم النبي ﷺ من شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بشيء ، فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما آتوا من كتابهم

(١) مروان هو مروان بن الحكم ابن العاص وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاوية . والحديث الأول أخرجه البخاري في كتاب التفسير وأخرج الحديث الثاني عن ابن جريج انظر صحيح البخاري بحاشية السند ح ٣ ص ٧٦ والثاني الذي سألم النبي صلى الله عليه وسلم عنه مفسراً وقوله « يفرحون بما آتوا » أي بكتابهم محمداً . واستحمدوا بفتح التاء مبنياً للفاعل أي طلبوا أن يمدحهم . وقبل أنها بصيغة المبني للمجهول من استحمد فلان عند فلان أي صار محمداً عنده والسين فيه الصيرورة . انظر تحفة الأحـوذى ح ٨ ص ٢٦٦ وما بعدها

إياه ، وما سلم منه ، ثم قال القرطبي : وقال محمد بن كعب القرظي : نزلت في
 عبادة بني إسرائيل الذين كتبوا الحق ، وآتوا ، لو حكم من العلم ما يوافقهم في
 باطنهم « واشتروا به ثمنًا قليلًا » أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا . فقال الله لنبيه
 ﷺ « لا تحسبن الذين يفرحون بما آتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا فلا
 تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا
 من الدين على عبادة الله . وذكر قريباً من هذا عن الضحاك ثم قال : والحديث
 الأول بمنقضى الحديث الثاني ، ويحتمل أن يكون نزولها على السيبين لاجتماعهما
 في زمن واحد فكانت جواباً لفريقين (١) .

والقرطبي وإن كان جمع بين ما قاله أبو سعيد الخدري في الحديث الأول
 وبين ما قاله ابن عباس في الحديث الثاني . فإن ما قاله الضحاك وما قاله محمد
 ابن كعب القرظي لا يختلف كثيراً عما قاله الصحابة . فكان القرطبي جمع بين
 آراء الصحابة والتابعين . فإذا لم يكن الجمع رجح القرطبي بعض آراء الصحابة
 أو التابعين ، وبني ترجيحه على ما يحيط بالكلام من أدلة وقرائن . وقد يخرج
 على أقوال لفريقين .

ففي قوله تعالى « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لصندوق ولنكونن
 من الصالحين » رجح القرطبي بعض آراء التابعين . لأن سياق الآية يشهد له
 ويؤيده . يقول القرطبي في المسألة الأولى : « ومنهم من عاهد الله » قال قتادة :
 هذا رجل من الأنصار قال آئن رزقني الله شيئاً لأؤدين فيه حقه ولأنصديق .
 فلما آتاه الله ذلك فعل ما نص عليه . فاحذروا الكذب فإنه يؤدي إلى الفجور .
 وروى علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهلي : أن ثعلبة بن حاطب

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٠٦ آية ١٨٨ من سورة آل عمران .

الأنصاري — فبهاء — قال النبي ﷺ : ادهوا الله أن يرزقني مالا فقال عليه السلام « ويحك يا ثعلبة قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » ثم طأود ثانيا فقال النبي ﷺ « أما ترضى أن تكون مثل نبي الله لو شئت أن يسير معي الجبال ذهباً لسارت » (١) فقال : والذي بك بالحق إن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه . فدهاله النبي ﷺ فأنخذ منها فندت كما تنسى الدود . فضافت عليه المدينة فتسعى فيها . ونزل وادياً من أوديتها . حتى جبل يصلى الظهر والمصر في جماعة وترك ما سواها . ثم تمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة . وهي تنسى (٢) حتى ترك الجمعة أيضاً . فقال رسول الله ﷺ : « يارب ثعلبة » ثلاثاً ثم نزل « خذ من أموالهم صدقة » (٣) . فبست ﷺ رجلين على الصدقة . وقال لهما : « مرا بثلثة وبقلان — رجل من بني سليم — نخنا صدقاتهما » فأتيا ثعلبة وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال : ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغنا ثم تعودا . الحديث — وهو مشهور وقيل سبب غناه ثعلبة أنه ورث ابن عم له . قال ابن هب البر : قيل أن ثعلبة

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق علي بن زيد القاسم بن عبد الرحمن وهذا إسناد ضعيف جداً . انظر الكافي للشافعي في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ بن حجر على هامش تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٩ . ولقد بين ابن حجر أن ثعلبة بن حاطب من البصريين ونقل أنه رجل آخر من المتأخرين ثم قال فعلها اثنان . وقال الأستاذ محمود شاكر هذا الخبر رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد اللساني . وهو متروك . انظر تفسير الطبري ج ١٤ ص ٣٧٣

(٢) في الصحاح نسي المال وغيره بنى بالكسر بناء بالفتح ولد . وربما جاء من باب مما . ونما الحديث إلى فلان أسند إليه ورضه . ونسى الرجل إلى أبيه نسبته وبأهبا وهي .

(٣) آية ١٠٤ من سورة التوبة .

ابن حاطب هو الذي نزل فيه « ومنهم من عاهد الله » الآية . إذ منع الزكاة
 والله أعلم .

وما جاء فيمن شهد بدرًا يعارضه قوله تعالى في الآية « فأهبطهم نفاقًا في
 قلوبهم » الآية . ثم يقول القرطبي . قلت : وذكر عن ابن عباس في سبب نزول
 الآية أن حاطب بن أبي بلتعة أبطأ عنه ماله بالشام فحلف في مجلس من
 مجالس الأنصار إن سلم ذلك لأصدق من منه ولأصل من منه فلما سلم بخل بذلك
 فترت ، ولكنه عارض الرأي وضيقه ، وأيد قول ابن عبد البر السابق واستدل
 على عدم صحة هذا الرأي بما نقله ثانيًا عن ابن عبد البر فقال : قلت وتلمبة
 بدرى أنصارى . ومن شهد الله له ورسوله بالإيمان . فاروى عنه غير صحيح ،
 قال أبو عمر : ولعل قول من قال في تلمبة إنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية
 غير صحيح والله أعلم . وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين
 « نبتل بن الحارث وجند ابن قيس ومعتب بن قشير » وارتضى القرطبي هنا
 الرأي وأبد فقال قلت وهذا أشبه بنزول الآية فيهم إلا أن قوله « فأهبطهم
 نفاقًا » يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقًا من قبل . إلا أن يكون المعنى
 زادم نفاقًا فأثبتوا عليه إلى للمات وهو قوله تعالى « إلى يوم يلقونه » (١) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس (٢) »
 خرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين . فقال في المسألة الأولى : « قال قتادة
 ومجاهد : كانوا يتنافسون في مجلس النبي ﷺ فأمروا أن يفسح بعضهم لبعض ،
 وقاله الضحك . وقال ابن عباس : المراد بذلك مجالس القتال إذا اصطفوا

(١) فضة القرطبي ج ٨ ص ٢٠٩ آية ٧٥ من سورة التوبة

(٢) آية ١١ من سورة المجادلة

للحرب. قال الحسن ويزيد بن أبي حبيب : كان النبي ﷺ إذا قاتل المشركين تشاح أصحابه على الصف الأول ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في القتال والشهادة ، فنزلت فيكون كقوله «مقاعد للقتال» (أى تصفهم وتسوى صفوفهم) وقال مقاتل : كان النبي ﷺ في الصفه وكان في المكان ضيق يوم الجمعة . وكان النبي ﷺ يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء أناس من أهل بدر فيهم ثابت بن قيس بن شماس ، وقد سبقوا في المجلس . فقاموا حيال النبي ﷺ على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم . فلم يفسحوا لهم شئ ذلك على النبي ﷺ . فقال لمن حوله من غير أهل بدر « قم يا فلان وأنت يا فلان » يمدد القائم من أهل بدر فشك ذلك على من أتى ، وعرف النبي ﷺ الكراهية في وجوههم . فغمز المنافقون وتكلموا بأن قالوا : ما أنصف هؤلاء قد أحبوا القرب من نبيهم فسبقوا إلى المكان. فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

وخرج القرطبي عن آراء الصحابة والتابعين فقال : « قلت الصحيح في الآية أنها عامة . في كل مجلس اجتمع للسلوة فيه لخير والأجر سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة . فان كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه . قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه فهو أحق به » (١) ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه . روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » (٢) وعنه عن النبي ﷺ أنه « نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس

(١) أخرجه مسلم بمناه عن أنس هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إذا قام أحدكم وفي حديث أبي هريرة من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به . انظر صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٦١

(٢) أخرجه مسلم في باب تحريم إقامة الانسان من موضعه الذى سبق إليه ج ١٤ ص ١٦٠ .

فيه آخر ولكن تفسحوا وتوسموا » وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه (١) لفظ البخاري (٢) وكذلك فعل القرطبي في قوله تعالى « لا تبين فيها أحقاباً » فقد نقل عن عمر وأبي هريرة أن الحنبل ثمانون سنة ونقل عن الحسن أنه سبعون ألف سنة . ونقل أقوالاً كثيرة . ثم عقب في نهايتها بقوله : قلت هذه أقوال متصارعة والتحديد في الآية للخلود يحتاج إلى توقف يقطع العذر وليس ذلك ثابت عن النبي ﷺ . وإعنا المني والله أعلم ما ذكرنا ، أولاً ، أي لا تبين فيها أزمانا ودهورا كلما مضى زمن يعقبه زمن ، ودهر يعقبه دهر وهكذا أبد الأبد من غير انقطاع » (٣) :

ولا حرج على القرطبي في ذلك ، لأنه رغم اختلاف مناهج الأئمة الأربعة في قول الصحابي حيث إن بعضهم يأخذ به على أنه سنة وبعضهم يأخذ به لمجرد التقليد ولم في ذلك توجيهاً كثيرة . إلا أنهم قد اتفقوا جميعاً على أن أقوال الصحابة إذا اختلفت تخيروا منها أقربها إلى رأى الجاهة ، أو أقربها إلى السنة (٤) .

وكان الأئمة يأخذون بأقوال التابعين لا على أنها حجة بل استئناساً بأرائهم . ويختارون منها بعد إعمال الرأى والاجتهاد ، وكانوا جميعاً يجوزون

(١) ولفظ مسلم لا يقيم الرجل الرجل من مقدمه ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وكان ابن عمر إذا قام له رجل من مجلسه لم يجلس فيه . انظر صحيح البخاري بمشابهة

السندى ج ٤ ص ٤٥ وانظر صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٦٠

(٢) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٩٧

(٣) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ١٧٨ وما بعدها .

(٤) انظر « مالك » ص ٣٢٣ وأبو حنيفة ص ٣٠٤ لاستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .

الخروج عنها • يقول الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه « ما جاء عن رسول الله
ﷺ فعل الرأس والعين يأتى وأمرى وليس لنا مخالفته وما جاء عن أصحابنا نختارنا
وما جاء عن غيرهم فهم رجال ونحن رجال » (١) •

(١) انظر أبو حنيفة ص ٢٧٠ وانظر الاصول ص ٢٠٧ فقد نقل الشيخ محمد أبو
زهرة وأبو الاشوكاني - مفاده أن قول الصحابي ليس بحجة مطلقاً ، ورد عليه •

الفصل الثالث

منهج القرطبي في القراءات الشاذة والمتواترة وموقفه منها

القراءات الشاذة في تفسير القرطبي :

بين « ابن الجزري » ضابط القراءات الشاذة والمتواترة فقال « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ، ووافقت أحد المصاحف المتألفة ولو احتمالا، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ، ولا يحل إنكارها . بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووجب على الناس قبولها . سواء كانت من الأئمة السبعة أم عن الدهشة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين . ووقى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة ، أطلق عليها ضميعة أو شاذة أو باطلة . سواء كانت من السبعة أم عن غيرهم ، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف .

وارتضى السيوطي « هذا الضابط وأشاده وأثنى على قائله ثناء عاترا (١) وإذا كانت الصلاة لا تجوز بالقراءة الشاذة فإن لها مجالات أخرى كثيرة . فلقد احتج بها النحويون على مناهيهم وآراءهم . فاحتج « ابن جني » بقراءة « ابن مسعود وأبي » و « باطلا ما كانوا يعملون » (٢) على جواز تقديم خير كان

(١) لانسان ح ١ ص ٩٤ وما بعدها .

(٢) الاحرف آية ١٣٩ .

عليها ، فقال ، باطلا « منصوب » « يعملون » وما زائدة للتوكيد . فكأنه قال « وباطلا كانوا يعملون » ثم قال « ففي هذه القراءة الشاذة دلالة على جواز تقديم خبر كان عليها كقولك : قائما كان زيد . ووجه الدلالة من ذلك أنه لما يجوز وقوع المفعول بحيث يجوز وقوع المفعول « وباطلا » منصوب « يعملون » والموضع إذا يعملون ، لوقوع مفعوله متقدما عليه فكأنه قال : يعملون باطلا كانوا (١) .

يجوز في اللغة أن يقدم خبر كان عليها كما تقول قائما كان زيد . فإذا كان خبر كان جملة فعلية فإنه يجوز تقديم مفعول الفعل على كان كما في قوله تعالى « وباطلا كانوا يعملون » فباطلا مفعول يعملون ويعملون جملة فعلية هي خبر كان . فكما يجوز أن تقدم يعملون على كان إذ يعملون هو الخبر يجوز أن تقدم المفعول وهو « باطلا » على كان ، لأنه يجوز وقوع المفعول بحيث يجوز وقوع المفعول العامل .

واحتج « ابن جنى » بقراءة شاذة على ترجيح بعض مذاهب النحويين واحتج بقراءة ابن مسعود « وإذا رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا » على ترجيح ما ذهب إليه البصريون من جواز حذف القول . فقال « وهذا دليل على صحة ما يذهب إليه أصحابنا — البصريون — من أن القول مراد مقدر في نحو هذه الأشياء . وأنه ليس كما ذهب إليه السكوفيون من أن الكلام محمول على معناه دون أن يكون القول مقبدا معه وذلك كقول الشاعر :

رجلان من ضبة أخبرانا أنا رأينا رجلا هرا

(١) أبو على الفارسي حياته ومكانته بين أمته العربية وآثاره في القراءات والنحو ص ٢٤٠

فهو عندنا نحن على : قالا . وعلى قولهم . لا إضمار قول هناك . لكنه لما كان «أخبرانا» في معنى « قالا لنا» صار كأنه قال : «قالا لنا» فإما على إمار « قالا » والحقيقة فلا (١) . وفصل كثير من النحاة ذلك ، ولا داعي للإضمار من الشواهد والأدلة ففي ذلك كفاية ، وجعل النحويون القراءات الشاذة مصدراً أصيلاً لمعرفة لهجات العرب ولغاتهما . ولقد أوضح كثير من الباحثين هذه الحقيقة . فالقراءة الشاذة يمكن من خلالها معرفة اللهجات العربية التي كانت سائدة قبل الإسلام (٢) . ويذكر صاحب « تفسير التحرير » في مقدمة كتابه أن القراء قد اختلفوا في وجوه النطق بالحروف والحركات وأن مزية القراءات من هذه الجهة أنها حفظت على أبناء العربية ما لم يحفظه غيرهم ، وهو تحديد كيفيات نطق العرب وبيان اختلاف اللهجات (٣) .

ثم إن الفقهاء قد احتجوا بكثير من القراءات الشاذة في نصرة بعض الآراء وللذهاب وكننا يعلم أن جماعة من الفقهاء منهم أبو حنيفة والثوري وللزنى قد استدلوا بقراءة ابن مسعود « فصيام ثلاثة أيام متتابعات » على اعتبار التتابع في صوم كفاية العين (٤) .

ولقد أبرز القرطبي في عرضه وتوجيهاته للقراءات الشاذة مثل هذه الأشياء ، أبرز بعض ما ذهب إليه النحويون على ضوء القراءة الشاذة . . . ففي قوله تعالى « يا بني إن الله اصطفى لكم الدين » (٥) يقول : قوله تعالى « يا بني » مضافاً أن

(١) للصدر السابق .

(٢) أنظر اللهجات العربية في القراءات القرآنية للدكتور عبده الراسمي دار المعارف ص ٨٧ ، وانظر تاريخ الفصل السادس (مشكلة الصاحب)

(٣) تفسير التحرير يتصرف

(٤) انظر تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٨٣

(٥) آية ١٣٢ من سورة البقرة

يا بني وكذلك هو في قراءة أبي وابن مسعود والضحاك . ثم قال : « قال الفراء
ألنيت » أن « لأن التوسية كالقول وكل كلام يرجع إلى القول جاز فيه دخول
» أن « وجاز فيه إلناؤها . قال : وقول النحويين إنما أراد » أن « ألنيت ليس
بشيء وفي قوله تعالى « ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا » (١)
قوى القرطبي وجها لإعرايها في قراءة صحيحة بما ورد في قراءة شاذة . فقال :
» قرأ ابن عمرو عامر وحجرة بالنصب عطفاً على « أن يؤتية » ويقويه أن اليهود
قالت النبي ﷺ أتريد أن تتخذك يا محمد ربا ؟ فقال الله تعالى « ما كان لبشر أن
أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة... إلى قوله ولا يأمركم » وفيه : أي على
هذا التفسير ضمير البشر « أي لا يأمركم بنبي هبسى وعزيراً » . ثم قال القرطبي
» وقرأ الباقر بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول فيه ضمير اسم
الله عز وجل أي ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوى هذه القراءة أن في
مصحف عبد الله ولن يأمركم والضمير أيضاً لله عز وجل . (٢)

كذلك يستعرض القرطبي أثناء توجيهه لقرارات الشاذة لمجات بعض
القبائل ولناها . ففي قوله تعالى « اهدنا الصراط للستقيم » يقول القرطبي
» وقرئ الصراط بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يسترط
من يسلكه ، وقرئ بين الزاى والصاد وقرئ يزأى خالصة . وحكى سلمة عن
الفراء قال الزراط بإخلاص الزاء انة لعصرة وكلب وبني القيس قال :
وهؤلاء يقولون في أصدق أزدق وقد قالوا الأزدي الأسد ولزق به
في لصق به . (٣)

(١) آية ٨٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٢٣

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٨

وفى قوله تعالى « إياك نسجد » يقول « قرأ الفضل الرقاشي إياك »
بفتح الهزة وهى لغة مشهورة وقرأ أبو السوار الغنوى « حياك » فى الموضعين
وهى لغة .. قال :

فبهاك والأمر الذى إن توسعت مؤرده ضاقت عليك مصادره
وفى قوله « وإياك نستعين » يقول وقرأ يحيى بن وثاب والاعشى
« نستعين » بكسر النون وهى لغة تميم وأسد وقيس وربيعة ليدل على أنه من
استعان فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل (١) .

وفى قول الله « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن
كنتم مؤمنين » (٢) يقول وقرأ الحسن « ما بقى » بالألف وهى لغة طى ويقولون
للجارية جارة والناسبة فاساة وقال الشاعر :

لعمرك لا أخشى التصلك ما بقى على الأرض قيسى يسوق الأبهرا (٣)

وفى قوله تعالى « فإله الثالث » يقول قرأ أهل الكوفة « فإله الثالث »
وهى لغة حكاهما سيبويه قاله السكاسى : هى لغة كثير من هوازن وهذيل ،
ولأن اللام لما كانت مكسورة وكانت متصلة بالحرف كرهوا ضمها بعد كسرة
فأبدلوا من الضمة كسرة لأنه ليس فى الكلام فعل . . ومن ضم جاء به على
الأصل ، ولأن اللام تنفصل لأنها داخلة على الاسم . قال جسيم النحاس (٤)
وفوق هذا فلأنى ألمح فى توجيه القرطبي لقراءات الشاذة — أنه كان

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٦

(٢) آية ٢٧٨ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٠

(٤) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٧٢

أحياناً يريد معنى القراءة الشاذة إلى قراءة الجاهة . ففي قوله تعالى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ولا نسال هن أصحاب الجحيم » (١) يقول « قرأ الجمهور برفع » نسال « ويكون في موضع الحال بسطفه على « بشيراً ونذيراً » والمعنى « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً خير مسئول » . ثم قال : « قرأ ابن مسعود » و « لن نسال » . « قرأ أبي » وما نسال « ومعناها موافق لقراءة الجمهور نفي أن أن يكون مسئولاً عنهم » (٢) .

وأحياناً يقوى قراءة الجاهة بما جاء في قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام » (٣) يقول « قرأ ابن محسن » ويشهد الله على ما في قلبه « بفتح الياء والهاء في « يشهد » « الله » بالرفع والمعنى يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال ، دليله قوله « والله يشهد إن للنافقين لكاذبون » وقراءة ابن عباس « والله يشهد على ما في قلبه » ثم قال وقراءة الجاهة أبلغ في الذم لأنه قوى (أى الرجل) على نفسه التزام السلام الحسن ثم ظهر من باطنه خلافة . « قرأ أبي وابن مسعود » « ويشهد الله على ما في قلبه » وهي حجة لقراءة الجاهة (٤) .

وأحياناً يقوى بعض آراء المفسرين أو يرفضها بما جاء في قراءة شاذة . ففي قوله تعالى « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير » (٥) وجه قراءة القطع فقال « قال مكي : إنه أخبر عن نفسه عندما عين من قدرة الله

(١) آية ١٩ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٩٢

(٣) آية ٢٠٤ من سورة البقرة

(٤) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٥

(٥) آية ٢٥٩ من سورة البقرة

تعالى في إحيائه الموتى فتبين ذلك بالمشاهدة فأفتر أنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، أي أعلم أنا هذا الضرب من العلم الذي لم أكن أهله من معانيته . وهذا على قراءة من قرأ « أعلم » بقطع الألف وهم الأكثر من القراء، ثم وبوجه قراءة الوصل فقال وقرأ حمزة والكسائي: بوصل الألف ويحتمل وجهين أحدهما: قال له الملك « أعلم » . والآخر: هو أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبي فالمعنى « فلما تبين له قال لنفسه : إعلمي يا نفس هذا العلم اليقين الذي لم تسكوني تعلمين معانيته » وأشدأبو علي في مثل هذا المعنى :

ودع هريرة إن الركب مهتعل

ألم تنقص عيناك ليلة أرمدا

قال ابن عطية وأتأس أبو علي في هذا المعنى يقول الشاعر :

تذكر من أتى ومن أين شربه يؤامر نفسه كذى الهجمة الأبل (١)

قال مكي : ويبعد أن يكون ذلك أمراً من الله جل ذكره له بالعلم لأنه قد أظهر إليه قدرته وأراه أمراً يقين صحته وأقر بالقدرة . فلا معنى لأن يأمره الله بعلم ذلك بل هو يأمر نفسه بذلك وهو جائز حسن . . » ثم قال القرطبي : « وفي حرف هب الله ما يدل على أنه أمر من الله تعالى له بالعلم على معنى : أزم هذا العلم للمعانيات وتبينت وذلك أن في حرفه « قيل أعلم » وأيضاً قوله موافق لما قبله من الأمر في قوله « انظر إلى ملأملك » و « انظر إلى خمارك » ، « وانظر إلى الظلام » فكذلك « وأعلم أن الله » وقد كان ابن عباس يقرؤها : « قيل أعلم » . ويقول أهو خير أم إبراهيم ؟ إذ قيل له « وأعلم أن الله عزيز حكيم »

(١) الهجمة يفتح فسكون القطعة الضخمة من الأبل ، وقيل هي ما بين الثلاثين إلى المائة ورجل أبل مكثت خلق معاملة الأبل .

فهذا يبين أنه من قول الله سبحانه له لما عين من الإحياء (١) .

وإذا كانت القراءات الشاذة ليست متواترة ولم تثبت قرآنتها ، فإذا أضيف إلى ذلك أنها ضعيفة للحنى أو ليس لها وجه في العربية فإن القرطبي كان يرفض الاستدلال بها . ففي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « الجمهور من القراء والعلماء على شد الياء من « إياك » في الموضعين . وقرأ عمرو بن واقد « إياك » بكسر الهمة وتخفيف الياء وذلك أنه كره تضييف الياء لتقلها وكون الكسرة قبلها » . ثم قال : « وهذه قراءة مرغوب عنها فإن للحنى يصير . شمسك نعبد أو ضوءك ، وإيالة الشمس بكسر الهمة ضوءها ، وقد تفتح وقال :

سقتني إيالة الشمس إلا لثانته أسف فلم تكدم عليه بأحمد (٢)

وفي قوله تعالى « قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى هذاب النار وبئس المصير (٣) » يقول : « واختلف : هل هذا القول من الله تعالى أو من إبراهيم عليه السلام . فقال أبي بن كعب وابن إسحاق وغيرهما . هو من الله تعالى وقرأوا « فأمتعه » بضم الهمة وفتح الميم وتشديد التاء « ثم أضطره » بقطع الالف وضم الزاء ، وكذلك القراء السبعة خلا ابن طاهر فإنه سكن وخفف التاء . وحكى أبو إسحاق الزجاج أن في قراءة أبي « فتمتعه قليلاً ثم اضطره »

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩٦ وما بعدها

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٦ وقال هذا البيت طرفة بين اللبد والماء في « سقته » « ولثانته » يهود على النفر وكذلك المضمر الذين في « نسب » ومعنى سقته حسنته وييسرته وأشهرته حسناً ، « وأسف » . ذو عليه « فلم تكدم عليه » أي لم تفضي عطفاً فيؤثر في نفعها .

(٣) آية ١٢٦ من سورة البقرة

بالنون . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : هذا القول من ابراهيم عليه السلام
وقرأوا « فأنتم » بفتح الهمزة وسكون الميم « ثم أضطرو » بوصل الألف وفتح
الراء فكان ابراهيم عليه السلام دماً للمؤمنين وعلى الكافرين يوهليه فيكون
الضمير في « قال » « لابراهيم » وأعيد قال لمول الكلام ، أو لوجه من
الدعاء لقوم إلى الدعاء على آخرين . والله في « قال » على قراءة الجاهة اسم
الله تعالى واختاره النحاس وجعل القراءة بفتح الهمزة وسكون الميم ووصل
الألف شاذة قال : ونسق الكلام والتفسير جميعاً يدلان على غيرها .

أما نسق الكلام : فإن الله خبر عن ابراهيم عليه السلام أنه قال « رب
اجعل هذا بلداً آمناً » ثم جاء بقوله عز وجل « وارزق أهلك من الثمرات من آمن
منهم بالله واليوم الآخر » ولم يفصل بينه « فقال » ثم قال بعد « قال ومن كفر »
فكان هذا جواباً من الله ولم يقل بعد قال ابراهيم . وأما التفسير فقد صح
عن ابن عباس وسعيد بن جبير ، ومحمد بن كعب وهذا لفظ ابن عباس « دماً
إبراهيم عليه السلام لمن آمن دون الناس خاصة فأعلم الله عز وجل أنه يرزق من كفر
كما يرزق من آمن وأنه يمتعه قليلاً ثم يضطره إلى عذاب النار . قال أبو جعفر .
وقال الله عز وجل « كلاً بعد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك » وقد جل ثناؤه
« وأمم سنمهم » قال أبو إسحاق : إنما علم إبراهيم عليه السلام أن في فرسته
كفاراً يخص المؤمنين لأن الله تعالى قال « لا ينال عهدى الظالمين (١) » .

وفي قوله تعالى « نصرهن اليك » (٢) يقول : قرأ قوم « نصرهن »
بكسر الصاد وشذ الزاء المفتوحة ومنه صيحين . من قولك صر الباب

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٣٠

(٢) آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

والفلم إذا صوت . حكاه النقاش ، ثم قال ابن جني هي قراءة غريبة وذلك أن « يقل » بكسر الميم في المضاعف التمدى قابل ، وإنما باب « يقل » بضم الميم : كشد يشد ونحوه ولكن قد جاء منه : ثم الحديث منه ، وهو الحروب : يهرها ويهرها . ومنه بيت الأدهي :

ليعتورك القول حق نهره (٢)

موقف القرطبي من القراءات المتواترة :

أما موقف القرطبي من القراءات المتواترة فإننا نراه أحياناً في هرصة وتوجيه لما يظهر ترجيح بمضاهلي بعض « فني قوله تعالى » مالك يوم الدين يقول : « اختلف العلماء أيما أبلغ ملك أو مالك ؟ والقراءتان مرويتان عن النبي (ص) وأبي بكر وعمر . ذكرهما الترمذي . فقيل : « ملك » أهم وأبلغ من « مالك » إذ كل ملك مالك وليس كل مالك ملكاً ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ما يحكى حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك قاله أبو هيبدة وللبرد ، وقيل « مالك » أبلغ لأنه يكون مالكا فتناس المالك أبلغ تصرفاً وأعظم إذ إليه إجراء قوانين للشرع ثم عنده زيادة للملك ، وقال أبو علي : حكى أبو بكر السراج عن بعض من اختار القراءة « يملك » أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله « رب العالمين » .

فلا فائدة في قراءة من قرأ « مالك » لأنها تكرار ، قال أبو علي : ولا حاجة في هذا لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة . تقدم العام ثم ذكر الخاص

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٠٧ . وغيره مناه نكرهه . وانظر القراءات القرآنية للدكتور عبد الصبور شاهين ص ٢٧٢ .

كقوله « هو الله الخالق الباري المصور » فالخلق تم وذكر المصور لما فيه من التنبيه على الصنعة ووجود الحكمة ، وكما قال تعالى « وبالأخرة هم يؤمنون » بعد قوله « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب يعم الآخرة وغيرها ولكن ذكرها لمعظمها والتنبيه على وجوب اعتقادها والرد على الكفرة الجاحدين لها . وكما قال « الرحمن الرحيم » فذكر « الرحمن » الذي هو عام . وذكر « الرحيم » بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله « وكان بالمؤمنين رحيما » وقال أبو حاتم إن « مالكا » أبلغ في مدح الخالق من « ملك » « وملك » أبلغ في مدح الخلقين من « مالك » والفرق بينهما أن للمالك من الخلقين قد يكون غير ملك وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا ، واختار هذا القول القاضي أبو بكر بن العربي وذكر ثلاثة أوجه : الوجه الأول أنك تضيفه إلى الخاص والعالم فتقول ، مالك اأمار والأرض والثوب . كما تقول مالك الملوك ، الثاني ، أنه يطلق على مالك القليل والكثير ، وإذا تأملت هذين القولين وجدتهما واحدا والثالث ، أنك تقول مالك الملك ولا تقول ملك الملك .

قال ابن الحصار ، إنما كان ذلك لأن المراد من « مالك » الإلالة على الملك بسكر الميم وهو لا يتضمن « الملك » بضم الميم . وملك يتضمن الأمرين جميعاً فهو أولى بالبالغة . ويتضمن أيضاً السكال ، ولذلك استحق الملك على من دونه ألا ترى إلى قوله تعالى « إن ا اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » ولهذا قال عليه السلام « الإمامة في قريش ^(١) » وقريش أفضل قبائل العرب والعرب أفضل من العجم وأشرف . ويتضمن الاقتدار والاختيار ، وذلك أمر ضروري في الملك ، إن لم يكن قادرا مختارا نافذا حكمه وأمره قهره عدوه وجار عليه قهره ، وأزدرته رهيته ، ويتضمن البطلش ، والأمر والنهي ،

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الخلافة والامارة عن أنس ص ١٦٤ .

والوحد والوحيد ، ألا ترى إلى قول سليمان عليه السلام « مالى لأرى الهدد
أم كانى من الفائبين لأهذبته عنابا شديداً » إلى غير ذلك من الأمور المعجبة
والعاني الشريفة التى لا توجد فى المالك .

وارضى القرطبي ذلك فقال فى تنقيبه على من قال إن مالكا أبلغ لزيادة
حروفه التى تقتضى زيادة ثوابه من قرأ به . إن «مالك» أبلغ معنى من «ملك»
يقول القرطبي « قلت : وقد احتج بعضهم على أن مالكا أبلغ لأن فيه زيادة
حرف فلنقارنه عشر حسنات زيادة عن قرأ « ملك » قلت هذا نظر إلى الصيغة
لا إلى المعنى ، وقد ثبت القراءة بملك وفيه من المعنى ما ليس فى مالك على هذا
والله أعلم ، (١) .

وفى قوله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » (٢)
يقول فى المسألة الثانية . قرأ حزة وحض « البر بالنصب » لأن « ليس »
من أخوات كان يقع بعدها المرفقان فتجعل أهما شئت الاسم أو المظير .
فلما وقع بعد « ليس » البر نصبه . وجعل « أن تولوا » الاسم وكان المصدر
أولى بأن يكون اسماً لأنه لا يتنكر والبر قد يتنكر والفعل أقوى فى التعريف
وقرأ الباكون « البر » بالرفع على أنه اسم ليس وخبره « أن تولوا » تقديره :
ليس البر توليتكم وجوهكم . وعلى الأول ليس توليتكم وجوهكم البر كقوله
« ما كان حجبتهم إلا أن قالوا » ثم كانى عاقبة الذين أساءوا السواى أن
كذبوا ، « فكان عاقبتهما أنهما فى النار » وما كان مثله ، ثم قال القرطبي
« ويقوى قراءة الرفع أن الثانى معه الباء إجماعاً فى قوله « وليس البر بأن تأتوا

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها

(٢) آية ١٧٧ من سورة البقرة .

البيوت من ظهورها « ولا يجوز فيه إلا الرفع لحمل الأول على الك أولى من مخالفتها له ، وكذلك هو في مصحف أبي البلاء « ليس البر بأن تولوا » . وكذلك في مصحف ابن مسعود أيضاً ، وعليه أكثر القراء . والقراءتان حسنتان .^١

وأحياناً تخفى من توجيهات القرطبي للقراءات للنوارة هذه الظاهرة : ففي قوله تعالى « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق » (٢) يقول : وقرأ نافهم « النبيين » بالهمز حيث وقع في القرآن إلا في موضعين في سورة الأحزاب « إن وهبت نفسها للنبي إن أراد » و « لا تدخلوا بيوت النبي إلا » فإنه قرأ بلا همز ، ولا همز ، وإنما ترك من هذين لاجتماع همزتين مكسورتين وترك الهمز في جميع تلك الباقون أما من همزه فهو عنده من أبأ إذا أخبر باسم فاعله مني ويح ع نبي أنبياء وقد جاء في جمع نبي نبياء قال الميامين مرداس السلمي يمدح النبي ﷺ :

يا خاتم النبأ إنك مرسل بالحق كل هدى السبيل هذا كما

هنا معنى قراءة الهمز ، واختلف القائلون بترك الهمز ، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز ثم سهل الهمز : ومنهم من قال : هو مشتق من نبا يلبوا إذا ظهر فالنبي من النبوة وهو الارتضاع فنزلة النبي رقيقة . والنبي بترك الهمز أيضاً المارقي ، فسمى الرسول نبياً لاهتداء الخلق به كالطريق .^٢ فالأنبياء لنا كالسبل في الأرض (٣) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٨ . وانظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٦ آية ٢١٠ من سورة البقرة ، ج ٣ ص ١٩٩ في قول الله « لا جناح عليكم إن طلتم النساء ثموهن » وفي قوله « قال لم تعملوا ماذنوا بحرب » ج ٣ ص ٢٧٠

(٢ ، ٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٣١

وفى قوله تعالى « قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم » (١) يقول : قرىء « فعميت عليكم » وهذه قراءة نافع أى عميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها ، يقال عميت من كذا وسمى على كذا أى لم أفهمه . والمعنى فعميت الرحمة . فقيل : هو مغلوب لأن الرحمة لا تعمى إنما يعمى عنها ، فهو كقولك : أدخلت في القلنسوة رأسى ، ودخل الخلف في رجل وقرأها الأعمش وحزرة والكسائي « فعميت » بضم العين وتشديد الميم على ما لم يسم فاعله أى فصلاها الله عليكم وكذا في قراءة أبى فيها « ذكره الماوردي » (٢) .

وأحب أن أقول أن توجيه القراءات يبرز كثيراً من المعانى التى يمكن أن تدل عليها ألفاظ القرآن الكريم . ولقد اهتم العلماء بتوجيه القراءات المتواترة وأنفوا في ذلك كتباً عديدة ، وجلوه أمراً محموداً .

أما الترجيح بين القراءات المتواترة . فقد أفتى بعض العلماء بأن السلامة عند أهل الدين إذا صحت القراءتان أن لا يقال : إحداهما أجود . لأنها جميعاً من النبي ﷺ فبأنهم من قال ذلك . وقال بعض آخر . إن المنع ينحصر فيما إذا رجعت إحدى القراءتين على الأخرى ترجيحاً يكاد يستطعم ، وذهب فريق ثالث إلى جواز الترجيح بين القراءات للتواترة (٣)

وإذا كان القرطبي قد رجح بعض القراءات المتواترة في توجيهاته فإنه لم ينته من الأخرى ، بل لقد امتدحها بقوله والقراءتان حسنتان . وفي الأمثلة التى أشترت إليها لازمت هذه العبارة . على أنه بعد أن عرض آراء العلماء

(١) آ ٢٨ من سورة هود

(٢) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٥

(٣) انظر الإختلاف ج ١ ص ٨٤ وتفسير التحرير مقدمة للقراءات .

وموقفهم من قراءة « مالك » و « مالك » ، جاء ترجيحه بعد أن كشف ما في القراءتين من وجود الحسن والبلاغة . ولم يسمد إلى الترجيح قبل ذلك ، أو بعد أن كشف وجود الترجيح في القراءة التي اختارها دون الأخرى . ثم إنه قال في ترجيحه بعد أن استعرض آراء العلماء : وقد ثبتت القراءة بملك وفيه من المعنى ما ليس في مالك على ما بينا والله أعلم . وليس في هذا ما يعيب القراءة الأخرى .

موقف القرطبي من بعض القراءات التي ردها النحاة :

تقدم لنا أن النحاة قد اختلفوا في مذاهبهم وأصولهم وأنهم لجأوا إلى القراءات بمحاولون أن يستخرجوا منها شواهدهم وأدلتهم ، ولكنهم مع هذا رفضوا بعض القراءات المتواترة لأنها لا تتفق مع أصولهم وقواعدهم . ففي قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام » منع النحويون قراءة الخلفض كما منعوا غيرها من القراءات المتواترة في بعض الآيات ، ومن حقنا أن نتساءل ما هو موقف القرطبي من هذا للسلك ؟

يقول القرطبي في قوله تعالى « واتقوا الله الذي تساطون به والأرحام » (١) « وقرأ إبراهيم النخعي وقتادة والأعشى وحمزة «الأرحام» بالخلفض وقد تكلم النحويون في ذلك . فأما البصريون فقال رؤسائهم : هو لحن لا يحل القراءة به . وأما الكوفيون فقالوا هو قبيح ، ولم يزدوا على هذا ولم يذكروا علة قبحه . قال النحاس فيها هلت . وقال سيدييه : لم يسلط على المضمر المخفوض ، لأنه بمنزلة التنوين والتنوين لا يسلط عليه ، وقال جماعة : هو مملوف على اللحن فيأنهم كانوا يتساهلون بها ، يقول الرجل : سألتك بالله والرحم . هكذا فسر ما الحسن

(١) آية ١ من سورة النساء .

والنخعي ومجاهد . وهو الصحيح في السألة هل ما يأتي : وضعه أقوام منهم
الزجاج وقالوا : يقيح عطف الاسم الظاهر على المضمر في الخفض إلا بإظهار
الخفض كقوله « نخفنا به وبداره الأرض » ويقيح مروت به وزيد . قال
الزجاج عن المازني : لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحمل كل واحد منهما
عمل صاحبه . فكما لا يجوز « مروت يزيد وك » . كذلك لا يجوز « مروت
بك وزيد » وأما سيويه : فهي هذه قبيحة ولا يجوز إلا في الشعر كما قال :
اليوم قربت تهجونا وتشتمنا فاذهب فابك والأيام من عجب

عطف الأيام على الكاف في « بك » بغير الباء للضرورة ثم قال : قال
الزجاج : قراءة حمزة مع ضمها وقبها في العربية خطأ عظيم في أصول أمر
الدين لأن النبي ﷺ قال « لا تخافوا بأبائكم » (١) . فإذا لم يميز الحلف بغير
الله فكيف يجوز بالرحم ؟ ورأيت اسماعيل بن اسحق يذهب إلى أن الحلف بغير
الله أمر عظيم وأنه خاص لله تعالى . قال النحاس : وقول بعضهم « والأرحام »
قسم خطأ من المعنى والإعراب لأن الحديث عن النبي ﷺ يدل على النصب ،
وروى شعبة عن هون بن أبي جحيفة عن للنضر بن جرير عن أبيه قال : كنا
عند النبي ﷺ نحقى جاء قوم من مضر حفاة عراة . فرأيت وجه رسول الله
ﷺ يتغير لما رأى من فاتهم . ثم صلى الظهر وخطب الناس فقال : « يا أيها
الناس اتقوا ربكم » إلى « والأرحام » ثم قال « تصدق رجل بديناره تصدق رجل
بدرمه تصدق رجل بصاع تمره » وذكر الحديث (٢) ففي هذا النصب . لأنه
حضمهم على صلة أرحامهم ، وأيضاً فقد صح عن النبي ﷺ « من كان حالته

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان من ابن مريج ٤ ص ١٠٢

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باختلاف يسير ج ٧ ص ١٠٢

فليحلف بالله أوليصة» (١) فهذا يرد قول من قال : المعنى أسألك بالله وبالرحم . وعلق القرطبي فقال « قلت : هذا ما وقفت عليه من القول للماء اللسان في منع قراءة « والأرحام » بالغفص واختاره ابن عطية ، ورده الإمام أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الكريم القشيري واختار المعطف فقال : ومثل هذا الكلام (أي رد النجاة للقراءة ونحو يجها على قراهم) مردود عن أئمة الدين لأن القراءات التي قرأ بها أئمة القراء ثبتت عن النبي ﷺ تواتراً يعرفه أهل الصنعة ، وإذا ثبت شيء عن النبي ﷺ فمن رد ذلك فقد رد على النبي ﷺ ، واستقبح ما قرأ به ، وهذا مقام محذور ، ولا يقد فيه أئمة الف والنحو . فإن العربية تتلقى من النبي ﷺ ، ولا يشك أحد في فصاحته ، وأما ما ذكر من الحديث ففيه نظر . لأنه عليه السلام قال لأبي العشاء « وأبيك لو طعنت في خاصرتي » (٢) . ثم النهي إنما جاء في الحلف بغير الله . وهذا توسل إلى التبريح الرحم فلانتهى فيه . قال القشيري : وقد قيل هذا إقسام بحق الرحم ، أي اتقوا الله وحق الرحم كما تقول : أفضل كذا وحق أبيك ، وقد جاء في التنزيل « والنجم » والطور » « والتين » « لمرك » وهذا تكلف . ورد القرطبي على القشيري في رفضه لهذا الرأي الأخير فقال : « قلت لا تكلف فيه فإنه لا يبعد أن يكون « والأرحام » من هذا القبيل فيكون أقسم بها كما أقسم بمخلوقاته الملائكة على وحدانيته وقدرته تأكيداً لها حتى قرنها بنفسه والله أعلم . والله أن يقسم بما شاء

(١) أخرجه البخاري عن عمر ج ٤ ص ١٠٢

(٢) أخرجه أبو داود عن أبي العشاء الدارمي عن أبيه بلفظ لو طعنت في خلفها ج ١ ص ٣٤٣ . هذا في المتروية وأخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله نبئتني ما أحق للناس مني بحسن الصحبة فقال : نعم وأبيك لتبأن . أمك : قال : نعم من قال : أبوك . ج ٢ ص ٨١ .

ويمنع ما شاء ويبيع ما شاء ، فلا يبعد أن يكون قسماً ، والعرب تقسم بالرحم .
ويصح أن تكون « الباء » مرادة فخذفها كما حذفها في قوله :

مشائم ليسوا مصاحين هشيرة ولا ناهب إلا بين خرابها

فجروا إن لم ينقسم « باء » قال ابن الفهان أبو محمد حميد ابن مبارك :
والسكوني يميز عطف الظاهر على المجرور ولا يمنع منه . واستعمل بكثير من
الشعر منها قوله :

فذهب فبا بك والأيام من حجب وقوله

فحسبك والضحاك سيف مهند وقوله

قد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقيماً

فنحن نرى أن القرطبي في هذا الموضع قد استمرض ما قاله النحويون في
منع قراءة « والأرحام » بالتلفظ وصرح في ثانياً عرضه المطف على الضمير
وقوى ذلك أخيراً بما نقله عن القشيري ، ورد رفض القشيري لمن خرج قراءة
التلفظ على أساس أنها لإقسام بالرحم ، وارتضى أن تخرج القراءة على هذا
أيضاً ، وعلى أن تكون الباء الجارة التي تجوز عطف الظاهر على المضمر —
وإن كانت محذوفة — مقدرة . ومرادة في الكلام . بل إن عطف الظاهر
على المضمر لا مانع منه عند السكونيين . وبهذا دافع القرطبي عن القراءة
المتواترة ، ولم يرفض مسلك النحاة (١) .

وإن « ابن جني » في كتابه الخصائص لم يزد في دفاعه عن هذا عندنا

(١) تنبيه القرطبي ج ٥ ص ٧ وما بعدها .

تحدث عن هذه القراءة تحت عنوان « باب في أن المحذوف إذا دلت الالة عليه كان في حكم المملوظ به » يقول ابن جنى « من ذلك أن ترى رجلا قد دد مهما نحو الفرض ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله . « أى » أبا . القرطاس . « فأصاب » الآن في حكم المملوظ به ألبنة وإن لم يوجد في اللفظ . خير أن دلالة الحال عليه ثابت مناب اللفظ به . وكذا قولهم لرجل مهو بسيف في يده : زيدا . أى « اضرب زيدا » فصارت شهادة الحال بالمثل بدلا من اللفظ . وكذلك قولهم للقادم من سفر : خير متبم . وقولك : قد مررت برجل إن بدا وإن همرا . أى إن كان زيدا أو إن كان همرا . وقولك للقادم من حجة : مبرور مأ . وكذلك قوله .

رسم دار وقت في طلاء كنت أقصى القداة من جلله

أى رب رسم دار وكان رؤية إذا قيل له كيف أصبحت يقول : خير وذاك الله . أى بخير . ويحذف الباء الالة الحال عليها يجرى المادة والعرف .. وعلى نحو من هذا تنوجه قراءة حمزة وهى قوله سبحانه « واتقوا الله الذى تسامون به والأرحام » ثم يقول : « ليست هذه القراءة هندنا من الإبعاد والفحش والشناعة والضعف على ما رآه فيها ، وذهب إليه أبو العباس لأبرد . بل الأمر فيها دون ذلك ، وأقرب وأخف ، وألطف ، وذلك أن حمزة أن يقول لأبي العباس : لأننى لم أحمل الأرحام على المعطف على المبرور بل اعتقدت أن تكون فيه « باء ثانية » حتى كأتى قلت : وبالأرحام ثم حذف الباء لتقدم ذكرها كما حذف لتقدم ذكرها فى نحو قولك : بمن تمر أمره ، وعلى من تنزل أنزل (١) .

وف، قوله تعالى «وكنفك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم
شركائهم» (١) .

دافع القرطبي عن قراءة ابن عامر «وكنفك زين لكثير من المشركين
قتل أولادهم شركائهم» بـ «يسمى قتل» ولعله «أولادهم» وجر «شركائهم»
فقال : قال النحاس : وأما أحسنه أبو حنيفة، عن ابن عامر وأهل الشام
فلا يجوز في كلام ولا في رسم إلا أن أجاز النحويون التفريق بين المضاف
والمضاف إليه بالفارغ لأنه لا ينسب بالإنشاء غير النظم فلمن قال مكي :
وهذه القراءة فيها ضعف التفريق بين المضاف والمضاف إليه لأنه إما يجوز
مثل هذا التفريق في الشعر النظمي لأنه أهم فيها وهو في المفعول به في
الشعر بعيد . فإجازه في الأثرين لأنه قال المأثور : قراءة ابن عامر هـ .
على التفرقة بين المضاف والمضاف إليه والله قول الشاعر :

فزعجتها بمزجة زج القارص أبي مزادة (٢)

يريد زج أبي مزادة القارص وأشد :

تمس على ما تستمر وقد شفت غلام عبا القيس فيها صدورها

يريد شفت عبد القيس غلام صدورها . وقال أبو ناتم أحمد بن حمدان
النحوي : قراءة ابن عامر لا تجوز في العربية : وهي زلة عالم ، وإذا زل العالم
لم يميز أتباعه . ورد قوله إلى الإجماع . وكذا لا يجب أن يرد من زل منهم أو صها إلى

(١) آية ١٢٧ من سورة الانعام .

(٢) زج هاهنا الطمن : ولزجة بكسر اللام : دمع قصير كالزاديق ، والقارص بفتح
الغاف : الفتية من النوق . يخبر أنه زج امرأته بالزجة ، كما زج أبو مزادة القارص
وابو مزادة كنيته رجل .

الإجماع . فهو أولى من الإصرار على غير الصواب . وإنما أجازوا في الضرورة
لأنهم يفرق بين المضاف والمضاف إليه بالظروف لأنه لا يفصل كما قال :

كما خط السكتاب بسكف يوما . يـ . ودى يقارب أو يزيل (١)

وقال آخر :

كان أصوات من إيفال بننا أواخر لأيس أصوات الفرائج (٢)

وقال آخر :

أ . رأيت سائديما استميرت لله در اليوم من لامها (٣)

ثم ورد الترطبي ذلك بما نقله عن القشيري : فقال : وقال القشيري : وقال
« هذا قبيح » ، وهذا مخالف ، لأنه إذا ثبتت القراءة بالمتواتر من النبي ﷺ
« لا تصيح لا القبيح » ، وقد ورد ذلك في كلام العرب ، وفي مصنفه هذان
« سر كاهم » بالياء وهذا يدل على قراءة ابن عامر . وأضيف القتل في هذه
القراءة إلى الشركاء لأن الشركاء هم الذين زينوا ذلك ودهو إليه فالفعل مضاف
أي (مسند) إلى فاعله على ما يجب في الأصل . لكنه فرق بين المضاف

(١) الشاهد في البيت إضافة السكف إلى اليهودي مع الفصل بالظرف . وصف رسوم
الدار فتميزها بالسكتاب في دقتها والاستدلال بها . ونسب اليهود لأهم أهل ككتاب ، وجعل
كتابته بصها متمازج وبعضها مفترق مثبان ، لانتفاء آثار الديار وتلك الصفة والحال .

(٢) الشاهد في البيت إضافة الأصوات إلى أواخر لأيس مع فصله بالمرور ضرورة .
ولأيس شجر تصل منه الرحال . والأطفال مرهة السير . يقول سكان أصوات أواخر لأيس
من شدة سير الأبل بننا واضطراب رحلها عليها : أصوات الفرائج .

(٣) الشاهد في البيت إضافة البر إلى من مع جواز الفصل بالظرف ضرورة إذ لم
يمكنه إضافة الدار إليه . وصف امرأة نظرت إلى « سائديما » وهو جبل بينه وبينه ديارها
ديارها فذكرت به بلادها فاستمرت شوقا إليها .

وللضاف إليه ، وقدم للفعول ، وتركه منصوباً على حاله إذ كانت متأخراً في المعنى ، وأخر المضاف وتركه مخفوضاً على حاله ، إذ كان متقدماً بعد القتل . والتقدير : وكذلك زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم أى أن قتل شركائهم أولادهم (١) .

فالقرطبي بعد أن استعرض أفعال النحويين ومن تابعهم من المفسرين في منع قراءة ابن عامر . دافع عنها ووجهها بما قلّه من التفسيرى . وبهذا أيضاً لم يرتض مسالك النحاة . ولم يوافقهم فيما ذهبوا إليه كما وافقهم بعض المفسرين . . وإذا كان القرطبي قد نص على بعض المفسرين الذين وافقوا النحاة فيما ذهبوا إليه فإن هناك عدداً من المفسرين لم يذكرهم القرطبي ووافقوا النحاة في مسلكهم أيضاً « فالطبرى » قد بين في تفسيره . حذف هذه القراءة وقبحها في العربية . وكذلك فعل « الزخشرى » . يقول الزخشرى : « وأما قراءة ابن عامر » قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجعل الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء والفصل بينهما بغير الظرف فتشبه لو كان في مكان الضرورات وهو الشعر لسكان سمجاً مردوداً كما سمح ورد

زج القلوص أبى مزادة

فكيف به في الكلام المنثور . فكيف به في القرآن للعجز بحسب نظمه
وجزائه ؛ والذي حمله على ذلك أن رأى في بعض المصاحف شركتهم مكتوباً
بالباء (٢)

ولقد دافع « أبو حيان » عن هذه القراءة وهاجم « الزخشرى » فقال :

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) تفسير الزخشرى ج ٢ ص ٥٥ « الدكتور عبد السلام ص ١٠٧ »

وأعجب لمجى ضيف في النحو يرد على هر بن صريح محض قراءة متواترة موجود نظيرها في لسان العرب في غير ما يت . وأعجب لسوء ظن الرجل بالفراء الأئمة الذين تغيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً ، وقد اعتمد المسلمون على نقلهم ، لضبطهم وفهمهم وديانتهم . ثم قال : وإذا كان قد فصلوا بين المضاف والمضاف إليه بالجلة في قول بعض العرب : هو غلام - إن شاء الله - أخيك . فالفعل بالمفرد أسهل (١) .

من هذا يتضح أن القرطبي دافع عن القراءات المتواترة ورد هجمات النحويين عليها ولم يراض مسلهم . وهذا منهج مستقيم ، فإن العقل قد يتصور أن بعض القراءات الشاذة لا توافق العربية ، ولكنه لا يتصور أن القراءات المتواترة تخالف العربية . وفي هذا يقول السيوطي : « كان قوم من النحاة المتقدمين يسيرون على عاصم ، وحزمة ، وابن عامر قراءات بعيدة في العربية ، ويلبسونها إلى المحن ، وهم مخطئون في ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا ملعن فيها ، وثبت ذلك دليل على جوازها في العربية » (٢) .

وفوق هذا فان القراءات سنة متبعة وقد أثبت القرطبي ذلك في كثير من المواضع في تفسيره (٣) وليس معنى هذا أنه يجوز القراءة بما لا يسوغ في العربية كلا ، إنما المعنى أن النحاة لم يمحطوا بكل ما ورد من العرب فكان الأولى ألا يردوا ذلك ، وأن يلتزموا تأويلها وتخريجها اعتدالاً بمن رواها من الأئمة وأن يقولوا كما قال « أبو عمرو بن العلاء » : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ولو جاءكم جاءكم علم وافر وشر كثير » (٤) .

(١) أثر القراءات في الدراسات النحوية للدكتور عبد السلام ص ١٠٧ (٢) المصدر السابق .

(٣) انظر على سبيل المثال ما ذكره في قوله وإذا قال موسى لقومه يا قوم ح ص ٤٠٠ .

(٤) أثر القراءات في الدراسات النحوية ص ١٠٨ .

الفصل الثالث

اللغة في تفسير القرطبي

حاول القرطبي أن يفسر ألفاظ القرآن الكريم ، وأن يوضحها بلغة العرب ، فبين معنى الكلمات ومدلولاتها بما قاله أئمة اللغة ، وما تناقله العلماء منهم ، وحث القرطبي بما نقله من الأحاديث والأخبار في مقدمته على البحث في ألفاظ القرآن وطلب معانيها . ومنها ما روى أن رسول الله ﷺ قال « أهرابوا القرآن واتمسوا غرائبها » وما روى عن ابن مسعود أنه قال « جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات وأهربوه فإنه هربى والله يحب أن يعرب به » وحدد السيوطي المراد بأهراب القرآن وهو يتحدث عن الحديث الأول فقال : « وليس المراد به الإهراب المصطلح عليه عند النحاة ، وهو ما يقابل الإعراب لأن القراءة مع فقدته ليست قراءة ولا ثواب فيها » (١) .

وشكك بعض الباحثين فيما روى في الحديث على إهراب القرآن من الأحاديث والآثار فقال « والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر لأن الإهراب لم يظهر مصطلحا إلا في عصر متأخر » . ويبدو أنها كذلك (٢) . ثم قال « وفي نظري أن للراد بالإهراب الإبانة والتوضيح وفهم الغريب وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يسمون هذا الغريب إهراب القرآن لأنهم يسميونه معانيه

(١) الامتنان ج ١ ص ١٤٦ بتصرف

(٢) حديث « أهربوا القرآن » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ، وسنده ضعيف . انظر رسالة ابن عطية للأميل عبد الوهاب فأبد ص ١٣٥ .

ويخلصونها^(١) والباحث مسبوق في ذلك وليس أول من حدد للراد من الإهراق
بالإبابة كما تدل عبارته .

ولقد استعرض القرطبي في تفسيره مباحث لغوية كثيرة حاول بها أن
يوضح اللفظ للقرآني وأن يبين مدلوله . ومن هذه للمباحث : الاشتقاق .

نرى القرطبي يأخذ المعنى اللغوي للكلمة . فيجمله أصلاً لما في الكلمات
التي تقرب من هذه الكلمة في حروفها . وذلك تقلاً من أئمة اللغة وما تناسله
المعنى منهم . ففي قوله تعالى « وأولئك هم المفلحون » يقول : الفلاح أصله في
الجنة الشق والقطع ، قال الشاعر :

إن الحديد بالحديد يفلح

أى يشق ، ومنه فلاحه الأرضين ، أى شقها قاله أبو عبيد . ولذلك سمي
الأكر^(٢) فلاحاً ، ويقال للذى شقت شفته السفلى : أفلح ، وهو بين الفلحة ،
فكان الفلاح قطع المصاهب حتى نال مطلوبه . وقد يستعمل في الفوز والبقاء .
وهو أصله أيضاً في الجنة . ومنه قول الرجل لامرأته : استقلعي بأمرك ، معناه
فوزي بأمرك ، وقال الشاعر :

لو كان حى مدرك الفلاح أدركه ملاعب الزمان

وقال الأضيض بن قريع السمدى :

لكل م من المهموم سمه والمسى والصبح لا فلاح معه

(١) القرآن الكريم وآثره في الدراسات النحوية للدكتور عبد السلام ص ٢٦٢

(٢) الذى يحرق الارض .

يقول ليس مع كرايل والنهار بقاء . وقال آخر :

نحل بلاداً كلها حل قبلنا ونرجو الفلاح بعد عاد وخير

أى البقاء . وقال حبيد :

أفلاح بما شئت فقد يدرك بالضره مف وقد يندفع الأريب

أى ابقى بما شئت من كيس وحق . فقد يرزق الأحمق ويحرم العاقل فعنى « وأولئك هم المملحون » أى الفائزون بالجنة والباقون فيها . وقال ابن أبى اسحاق : المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ، ونجوا من شر ما منه هربوا . والمعنى واحد . وقد استعمل الفلاح فى السحور ، ومنه الحديث « حتى كاد يفوتنا الفلاح مع رسول الله ﷺ . قلت : وما الفلاح ؟ قال : السحور » أخرجه أبو داود (١) فكان معنى الحديث أن السحور به بقاء الصوم فلهم سماه فلاحاً . ثم الفلاح فى العرف الظفر بالمطوب والنجاة من المرهوب (٢) فالقرطبي قد أخذ المعنى القدرى لكلمة (الفلح) وهى أصل اشتقاق كلمة (المفلحون) وبين أن معناها فى اللغة إما أن يكون الشق والقطع ، أو الفوز والبقاء ، ثم بين اللفظ القرآنى ووضحه على كلا المعنيين ، وجعلها أصلاً لمعنى الكلمات التى تقرب من هذه الكلمة . كالفلاحة والفلاح (بتشديد اللام) والفلاح وغيرها .

ويتضح ذلك فى قوله تعالى « والمحصنات من النساء » (٣) فقد بين أن الحياء والامتناع والنون تؤلف بناءً معناه للنم ، وأن هذا المعنى يوجد فى كل كلمة

(١) أخرجه أبو داود عن جبير بن نفير عن أبى ذر ، باب ما جاء فى صلاة التراويح . انظر منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبو داود للاستاذ الساعى ج ١ ص ١٢٠

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٣ آية ٥ من سورة البقرة .

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

تقرب من هذا البناء . ثم أخذ يوضح اللفظ القرآني هل ضوئه . فقال :
والحصن المنيع لأنه يمنع فيه ، ومنه قوله تعالى « وهلمناه صنعة لبوس لكم
لنحصنكم من بأسكم » (١) أى لنمنكم . ومنه الحصان للفرس بكسر الحاء
لأنه يمنع صاحبه من الهلاك . الحصان يفتح الحاء المرأة العفيفة لمنهها نفسها من
الهلاك وحصنت للمرأة تحصن فهي حصان مثل جنت فهي جبان . وقال حازقي
عائشة رضى الله عنها :

حصان رزان ما تزن يربية وتصبح غرثى من لحوم الفواقل (٢)

والمصدر الحصانة ، والحصن كالمسلم . فالمراد بالحصنات هاهنا ذرات
الأزواج يقال امرأة محصنة أى متزوجة ، ومحصنة أى حرة . ومنه « والحصنات
من المؤمنات والحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (٣) ومحصنة أى عفيفة .
قال الله تعالى « محصنات غير مسافحات » (٤) وقال « محصنين غير
مسافحين » (٥) ومحصنة ومحصان أى عفيفة أى بمنة من الله تعالى .
والحرية تمنع الحسرة مما يتعاطاه العبيد . قال الله تعالى « والذين يرمون
الحصنات : (٦) أى الحرائر . وكان هرف الإمام في الجاهلية الزنا . ألا
إلى قول هذا . قلت حبة فنبى ﷺ حين بايعته : وهل تزنى الحر؟ والحر
أيضاً يمنع زوجه من أن تزوج غيره . ثم قال القرطبي « فبناء « حر »

(١) آية ٨٠ من سورة الانبياء .

(٢) من تهم هرنى جائنة . والرا . أنها لا تفتاب غيرها .

(٣) آية ٥ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٥ من سورة النساء .

(٥) آية ٢٤ من سورة النساء .

(٦) آية ٤ من سورة النور .

معناه للنعم كما يننا وبستعمل الإحصان في الإسلام . لأنه حافظ وما نـم
ومنه قول الهذلي :

فليس كهمد الهار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل
. وقال الشاعر :

قالت سلم إلى الحديث قلت لا يا بني عليك الله والإسلام
ومنه قول صحيح :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا (١)

وفي قوله تعالى « ولتصني إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » (٢) بين
القرطبي أن المعنى القنوى لهذا اللفظ : الميل . فقال : وأصله الميل إلى الشيء
لغرض من الأغراض ، ثم أبرز هذا المعنى في الكلمات القريبة من اللفظ القرآني
في الآية . فقال : « ومنه صفت النجوم : أي مالت للغروب ، وفي التنزيل
« فقد صفت قلوبكم » قال أبو زيد : يقال صفوه مملك — وصفوه وصفاه
مملك ، أي ميله ، وفي الحديث « فأصنى لها الإناء » (٣) يعول للهرة . وأكرموا
فلانا في صاغتة أي في قرابته الذين يميلون إليه ويطلبون ما عنده ، وأصغت
النافقة إذا مالت رأسها إلى الرجل كأنها تستمع شيئاً حين يشد عليها الرجل .
قال ذو الرمة :

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٠ وما بعدهما .

(٢) آية ١١٣ من سورة الانعام .

(٣) الحديث أخرجه الترمذي في باب ما جاء في سؤر الهرة عن كعبشة بنت كعب
انظر فقه الاجودى ج ١ ص ٣٠٨ .

نصفى إذا شدها بالكور جانحة حتى إذا ما استوى في خرزها تمب (١)

ولقد أطلق بعض الباحثين على هذا النوع من الاشتقاق اسم الاشتقاق العام (٢) وكان القرطبي يذكر الكلمة أحياناً أكثر من أصل اشتقاق، وقد يرجح بينهما تارة، وقد يعرضها تارة أخرى بلا ترجيح أو افتراض، ولعله في تلك الحالة يكون قد ارتضى ما ذكره... ومن ذلك ما ذكره في للساعة السابعة عشرة من مسائل البسطة قد قال: «اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين فقال البصريون: هو مشتق من السور وهو الدور والرفعة. فقبل اسم لأن صاحبه بمنزلة للارتفاع به. وقيل: لأن الاسم يسمو بالمسي فيرفه من غيره. وقيل: إنما سمي الاسم اسماً لأنه هلا بقوته على قسي الكلام. الحرف والفعل. والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل. فمالوه هليم سمي اسماً فهذه ثلاثة أقوال. وقال الكوفيون: إنه مشتق من السمة وهي الملاحة. لأن الاسم علامة لمن وضع له. وأصل اسم على هذا «وسم» ثم رجح القرطبي الرأي الأول فقال: «والأول أصح لأنه يقال في التصغير: سمي وفي الجمع أسماء، والجمع والتصغير برادف الأشياء إلى أصولها. فلا يقال وسم ولا أوسام».

(١) الكور رحل الناقة بأداته. وهو كالسرج وآله للفرس قال ابن سيده وكثير من الناس يفتح الكاف وهو خطأ. وجانحة مائلة لاصقة. والغرز سير كالركاب توضع فيه الرجل عند الركوب. وصف ناقته بالفطنة وسرعان الحركة. انظر تفسير القرطبي ج ٧ ص ٦٩.

(٢) انظر فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وإلى ص ١٤٣ فلقد تحدث المؤلف عن معنى الاشتقاق العام وبين أن الاشتقاق عند علماء الصرف يتناول المشتقات فقط وهي أفعال الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول واسم الزمان واسم المكان واسم الآلة. وعلى هذا فالاشتقاق الصرفي قسم من الاشتقاق العام.

ثم انتقل القرطبي إلى بيان ثمرة الخلاف وفائدته . واستدل بها أيضاً على ترجيح الرأي الأول فقال : « وبديل على صحته أيضاً قائمة الخلاف وهي :

الثامنة عشرة : فإن من قال الاسم مشتق من المولى يقول : لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق ، وبعد وجودهم ، وعند فناءهم ، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته ، وهذا قول أهل السنة . ومن قال الاسم المشتق من السمة يقول : كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة . فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات فإذا أنعم . بقى بلا اسم ولا صفة وهذا قول المعتزلة . وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة . وهو أعظم في الخطأ من قولهم أن كلامه مخلوق ، تعالى الله عن ذلك » .

وفي مسائل البسملة أيضاً . في المسألة الحادية والعشرين . وهو يتحدث عن لفظ الجلالة يقول : « قيل : هو مشتق من وه إذا تحير ، وأوله ذهب العقل . يقال رجل واله ، وامرأة والهسة . وأوله ، وماء موله . أرسل في الصحارى : فאלله سبحانه تنحير الألباب ، أو يذهب في حقائق صفاته ، والفكر في معرفته . فعلى هذا أصل « إله » « ولله » . وأن الهمزة مبدلة من واو كما أبدلت في إشاح ووشاح . وإسادة . ووسادة وقيل أنه مشتق من « إله » الرجل . إذا تعبد وتآله إذا تنسك . ومن قوله تعالى « ويذكر وإلهاتك » (وتبدك) على هذه القراءة فإن ابن عباس وغيره قالوا . وهبادة قالوا : فاسم الله مشتق من هذا . فאלله سبحانه معناه المقصود بالمبادأة . ومنه قول الموحدين لا إله إلا الله . معناه لا معبود غير الله » (١) ولعل القرطبي قد ارتضى هذين الأصلين ولهذا لم يعترض على واحد منهما . .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠١ وما بعدها .

ونرى السيوطي يرحح أحد أصول الاشتقاق في لفظ الخلالة بل ويضع الترجيح قواعد في كتابه المزهر : فيقول « إن الكلمة إذا ترددت بين أصليين أو أكثر في الاشتقاق وطلب الترجيح . فلها الترجيح قواعد . ومن التواحد التي ذكرها . « أن يكون أحد الأصلين أشرف . لأنه أحق بالوضع له . والنفس أذكر له ، وأقبل . وذلك كدوران كلمة (١) الله عند من اشتقها . بين الاشتقاق من أله أو لوه أو وله فيقال من أله أشرف وأقرب » .

وهناك نوع آخر من الاشتقاق وجه به القرطبي اللفظ القرآني . وهو :

الاشتقاق الكبير . ويطلق عليه كثير من المحدثين اسم الاشتقاق الأكبر وأطلق عليه السيوطي اسم الإبدال . وهو أن تتعاقب الحروف فيبدل بعضها من بعض ، ويبقى المعنى بعد هذا الإبدال متقارباً . ومثال ذلك امتنع لونه وانتقم . وهدر الحام وهدل ، ورغم أن القرطبي وجه بهذا النوع من الاشتقاق اللفظ القرآني . إلا أنه قد أشار إلى أنه ليس بكثير في كلام العرب . وإلى أنه لا يقاس عليه .

ففي قوله تعالى « فادع لنا ربك » يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وتنشأ وفومها (٢) يقول : اختلف في القوم فقيل : هو النوم لأنه المشاغل البصل رواء جوهر من الضحاك . وللنساء تبدل من الفاء كما قالوا : « مغاير ومغاير » ، « وجدت وجدي » للغير ، وقرأ ابن مسعود « نومها » بالناء المثلثة وروى ذلك عن ابن عباس وقال أمية بن أبي الصلت :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرة فيها الفراديس والفومان والبصل

(١) للزهر السيوطي يتصرف ح ١ ص ٢٠٣

(٢) آية ٦١ من سورة البقرة

والفراديس واحدها فرديس وكرم فردس أى معرش وقال جسان :

وأتم أناس لثام الأصول طمامكم النوم والحوقل

يعنى النوم والبصل . وهو قول السكائى ، والنضر بن شميل . وقيل :
القوم الخنطة . روى عن ابن عباس أيضا ، وأكثر المفسرين ، واختاره النحاس
قال : وهو أولى . ومن قال به أعلی . وأما ليده صحاح . وليس جوير بنظير
لروايته . وإن كان السكائى والفراء قد اختاروا القول الأول لإبدال
العرب الفاء من التاء والإبدال لا يقاس عليه وليس ذلك بكثير فى كلام
العرب (١) .

وفى قوله تعالى « إنا خلقناهم من طيب لازب » (٢) بين القرطبي أن لفظة
« لازب » معناها « لاصق » ثم قال : ومنه قول على رضى الله عنه :

تلم فإن الله زادك بسطة وأخلاق خير كلها لك لازب

٠٠ وقال هكreme لازب لزج . سميد بن جبير : أى جيد حر يلصق
باليد . مجاهد : « لازب » لازم ، والعرب تقول طين لازب ولازم . تبدل الباء
من الميم ٠٠ واللازب الثابت . تقول : صار الشيء ضربة لازب . وهو
أفصح من لازم . وقال الأتاني : :

ولا تحسبون انظير لا شر بعده ولا تحسبون الشر ضربة لازب

وحكى الفراء عن العرب : طين لائب بمعنى لازم . واللائب : الثابت

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤٥

(٢) آية ١١ من سورة الصافات .

تقول منه : لتب يلمتب لتبا ولتوبا مثل لزب يلزب بالضم لزوبا . وأنشد
أبو الجراح في اللاتب :

: فإن بك هنا من نبيذ شربته فإني من شرب النبيذ لنائب
صداع وتوصيم العظام وفثرة وغم مع الإشراف في الجوف لاتب

ولقد أشار القرطبي في توجيحه لبعض ألفاظ القرآن الكريم إلى نوع
ثالث من الاشتقاق يسمى النحت ومعناه في أصل اللغة : البرى يقال نحت
الخشب والعود إذا برأه وهذب سطوحه ومثله في الحجارة والجبال قال الله
تعالى « أتعبدون ما تنحتون » وتنتحون من الجبال بيوتا . أما في الاصطلاح
فهو أن تهمد إلى كلمتين أو جملة فتزعم من مجموع كلماتها كلمة تدل على الجملة
نفسها . ولما كان هذا النوع يشبه النحت من الخشب والحجارة فقد سمي نحتا .
وهو في الحقيقة من قبيل الاشتقاق وليس اشتقاقا بالفعل لأن الاشتقاق أن
تزرع كلمة من كلمة والنحت أن تزرع كلمة من كلمتين أو أكثر وتسمى تلك الكلمة
المنزوعة منحوتة . وينقسم النحت إلى أقسام منها نحت كلمة من جملة ، ولقد
أشار القرطبي إلى هذا النوع من مسائل البسمة فقال : في المسألة السابعة قال
الماوردي : ويقال لمن قال بسم الله : يسمل ، وهي لغة بولصة ، وقد جاءت في
الشعر ، قال عمر بن أبي ربيعة :

لقد يسملت ليلي هدأة لقيمتها فيأحبنا ذاك الحبيب المبسمل

:

(١) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٦٨ وما بعدهاء، وانظر في معنى الإبدال .
فهذه اللغة للكتور على عبد الواحد وأبي ص ١٤٧ والتعريب والاشتقاق للاستاذ
عبد القادر بن مصطفى المغربي ص ١٢ والمزهر للسيوطي ص ٢٢٢ ح ١
والخصائص لابن جني ص ٥٣٧ ح ١ .

وتعقب القرطبي للماوردي ، وبين لنا أن لفظ بسم ليس مشهوراً في
 اللغة وإنما هناك ألفاظ أخرى أشهر منها لأنها تنوكلت من علماء اللغة . فقال :
 « قلت : المشهور من أهل اللغة : بسم ، قال يعقوب بن السكيت (المتوفى سنة
 ٢٤٣) والمطرز (هو محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٣٤٥) ، والشعالبي ،
 وغيرهم من أهل اللغة : بسم الرجل إذا قال بسم الله ، يقال ، قد أكثر من
 البسملة أى من قول بسم الله . ومثل حوكل الرجل . إذا قال لا حول ولا قوة
 إلا بالله . وهلل إذا قال : لا إله إلا الله . وسبعل إذا قال : سبحان الله . وحمل
 إذا قال . الحمد لله . وحيسل إذا قال : حى على الصلاة . وجعل إذا قال : جعلت
 فداك . وطبل إذا قال . أطال الله بقاءك . ودمز إذا قال : أدام الله عزك .
 وحيفل إذا قال : حى على الفلاح » . ثم قال القرطبي « ولم يذكر للمطرز . الحيصلة
 إذا قال : حى على الصلاة . وجعل إذا قال : جعلت فداك . وطبل إذا قال :
 أطال الله . بقاءك ودمز إذا قال : أدام الله عزك » . فالقرطبي في هذا النص قد
 ذكر تقريباً كل كلمات التى حدث فيها نحت من جملة ، وهذا النوع كما يقول :
 الدكتور على عبد الواحد وفى « لم يرد إلا فى كلمات قليلة معظمها مستحدث
 فى الاسلام ، ومن المباحث اللغوية التى استعرضها القرطبي فى تفسيره « الاشتراك »
 ومعناه أن يكون للكلمة الواحدة عدة معان تطلق على كل منها على طريق
 الحقيقة لا المجاز .

ولقد وقف علماء اللغة من هذا المبحث . موقفين متضادين . فمنهم بعضهم ،
 وأنكر وروده ، وعلى رأس هؤلاء « ابن درستويه » وذهب فريق آخر إلى
 كثرة وروده وضرب له كثيراً من الأمثلة . ومن هؤلاء الأصمعى واخليل
 وسيبويه . وابن فارس . والشعالبي . والمبرد . وغيرهم . بل أفرد بعض علماء

هذا الفريق المشترك مؤلفات على حدة (١) .

وإن القرطبي لم ينسكرك الاشتراك وإنما أشار إليه، ونقل عن العلماء الذين
اعترفوا به . ففي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » حدد
القرطبي المعنى المراد من الصلاة في الآية . ثم أشار إلى أن لفظ الصلاة من الألفاظ
المشتركة وأنها تتعلق على عدة معان فقال « الصلاة الدعاء والصلاة الرحمة »
ومنه « اللهم صل على محمد » الحديث ، والصلاة العبادة، ومنه قوله تعالى « وما
كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أى عباداتهم والصلاة النافلة ومنه
قوله تعالى « وأمر أهلك بالصلاة » (٢) والصلاة : التسبيح، لوجود التسبيح فيها
ومنه قوله تعالى « فلو لا أنه كان من المسيحين » (٣) . أى من المصلين . ومنه
صبغة الضحى ، وقيل فى تأويل « تسبح بحمديك » (٤) لصلى لك . والصلاة القراءة
ومنه قوله تعالى « ولا تجهر بصلاتك » (٥) ثم قال بعد هذا « فهى لفظ مشترك » (٦)
وفى قوله تعالى « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » (٧) يقول :

« إذا أراد الله إحكام أمر وإنفاذه — كما سبق فى هله — قال له كن

(١) انظر فقه اللغة للدكتور عبد الواحد واى، فصل الاشتراك، والمزهر السيوطى
ص ٣٦٩ طبع هيسى المجلد بتحقيق محمد أبى الفضل وآخرون .

(٢) آية ١٣٢ من سورة طه . يبدو أن المراد الفريضة لا النافلة فإن هذه الآية خطاب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويدخل فى عمومها جميع أمته وأهل بيته على التخصيص . وكان
عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلى ويقول « الصلاة »

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات .

(٤) آية ٣٠ من سورة البقرة

(٥) آية ١١٠ من سورة الاسراء

(٦) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٩

(٧) آية ١١٧ من سورة البقرة

فيكون » ثم قال: قال ابن حرفة: « قضاء الشيء إحكامه ، وإمضاؤه ، والفراغ منه . ومنه سمي القاضي ، لأنه إذا حكم فقد فرغ مما بين الخصمين . » وبعد أن حدد القرطبي المراد من لفظ « قضى » في الآية بين أنه من الألفاظ المشتركة فقال : « قال علماءنا : قضى لفظ مشترك يكون بمعنى الخلق . قال الله تعالى : « فقضاهن سبع سموات في يومين » (١) أى خلقهن ويكون بمعنى الإحلام . قال الله تعالى : « وقضينا إلى بنى إسرائيل في الكتاب (٢) . « أى أحلنا . ويكون بمعنى الأمر كقوله تعالى « وقفى وبك ألا تمبدوا (٣) إلا إياه » ويكون بمعنى الإلزام وإمضاء الأحكام ومنه سمي الحاكم قاضيا . ويكون بمعنى توفية الحق . قال الله تعالى « فلما قضى موسى الأجل » (٤) ويكون بمعنى الإرادة كقوله تعالى « فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » (٥) .

وقد تذكّر القرطبي . ههنا كثيرة لبعض الألفاظ . ولكنه لا يشير إلى الاشتراك . ورغم هذا فالاشتراك واضح في تلك الألفاظ . ففي قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » فسر في المسألة الثامنة لفظة « رب » بالمالك . ثم أخذ يذكر معانيها فقال : « والرب السيد ومنه قوله تعالى « اذكرنى هند ربك » (٦) « وفي الحديث أن نلدا الأمة وربتها » (٧) أى سيدتها ، والرب المصلح والمهبر

(١) آية ١٢ من سورة فصلت

(٢) آية ٤ من سورة الاسراء

(٣) آية ٢٣ من سورة الاسراء

(٤) آية ٢٩ من سورة القصص

(٥) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٨٨ من سورة البقرة

(٦) آية ٤٢ من سورة يوسف

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجه عن أنس بن مالك في باب أشراف الساجدة ج ٢ ص ٢٥٨

انظر سنن ابن ماجه بحاشية السندى ج ٢ ص ١٥٨ .

والعاجز والقائم « قال الهروي وغيره : يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربه ربه فهو راب له وراب ومنه سمى الربانيون . لقياسهم بالكتب ، وفي الحديث « هل لك من نعمة تربها عليه » أى تقوم بها تصالحها ، والرب المعبود تومنه قول الشاعر :

أرب يبول التملبات برأسه لقد ذل من بالت هليه التملاب (١)

للطلق والمقيد :

فرق القرطبي بين الألفاظ التى توم الترادف ، أو بمبارة القنوين فرق بين المطلق والمقيد : وتقل من هلاء اللفظة تلك التفرقة . وأرتضاها فى تقديره ولم يرتض لثل هذه الألفاظ أن تكون من قبيل للترادفات .

ففى قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة » يقول فى المسألة الثانية : وفرأ أبو جعفر ابن القعقاع : « الميتة بالتشديد » وقال جماعة من القنوين : التشديد والتخفيف فى ميت وميت لثتان . وقال أبو حاتم وغيره : ما قد مات فيقالان فيه ؛ وما لم يميت بعد فلا يقال فيه « ميت » بالتخفيف . دليلة قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » (٢) وقال الشاعر :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يميت إلا ما روى البزى عن ابن كثير « وما هو بميت » (٣) والمشهور عنه التثني . وأما قول الشاعر :

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٢٦ وما بعدها

(٢) آية ٢٠ من سورة الزمر

(٣) آية ١٧ من سورة الزهد

إذا ما مات ميت من نعيم فسرك أن يعيش فجاء بزاز
فلا أبلغ في الهجاء من أنه أراد الميت حقيقة . وقد ذهب بعض الناس إلى
أنه أراد من شارف الموت ، والأول أشهر (١) .

ويتضح ذلك أيضاً في قوله تعالى « . . والكاظمين الغيظ » فقد قال في
المسألة الثانية : كظم الغيظ رده في الجوف يقال : كظم غيظه أى سكت عليه ،
ولم يظهره مع قدرته على إبقائه بمدونه ، وكظمت السماء أى ملأته وسدتها عليه
والكظامة ما يسد به مجرى الماء . ومنه : الكظام للسير الذى يسد به فم الزق
والقربة . وكظم البعير جرفته . إذا ردها في جوفه ، وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن
يرسلها إلى فيه : كظم . حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة . إذا لم
يجترا . ومنه قول الشاعر :

فأفضن بسد كظرمين بجرة من ذى الأبقا إذا رهبن حقبلا
الحقيل موضع ، والحقيل نبت ، وقد قيل إنها تفعل ذلك عند الفزع
والجهد فلا يجتر . قال أهدى بامجلة يصف رجلاً نحاراً الإبل فهي تفزع منه :
قد تكظم الإبل منه حين تبصره حتى تقلع في أجوافها الجرد

ومنه : رجل كظيم ، ومكظوم إذا كان ممثلاً غماً وحزنًا . وفي التنزيل :
« وابتضت هيئة من الحزن فهو كظيم » (٢) « ظل وجهه مسوداً وهو
كظيم » (٣) « إذ ينادى وهو مكظوم » (٤) ثم قال : « والغيظ أصل الغضب

(١) تفسير القرطبي ٢٣ ص ٢١٦ آية ١٧٣ من سورة البقرة . وانظر منهج الزمخشري
في تفسير القرآن ص ١٦٦ .

(٢) آية ٨٤ من سورة يوسف

(٣) آية ٥٨ من سورة النحل

(٤) آية ٤٨ من سورة التلم

وكثيراً ما يتلازمان لكن فرقان ما بينهما أن الفيظ لا يظهر على الجوارح بخلاف النضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ولا بد . ولهذا جاء إسناد النضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المنضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس ، الفيظ بالنضب ، وليس بجيد والله أعلم ^(١) .

وكذلك في قوله تعالى : « ربنا أنزل علينا مائدة من السماء » ^(٢) فرق القرطبي بين المائدة والخوان فقال : « المائدة الخوان الذي عليه الطعام قال قطرب : لا تكون المائدة مائدة حتى تكون عليها طعام . فإن لم يكن قيل خوان وهي فاعلة من ماد هبده إذا أطعمه وأعطاه » ^(٣) .

وفي قوله تعالى « يطاف عليهم بكأس من معين » فرق القرطبي بين الكأس والإناء فقال : « الكأس عند أهل اللغة اسم شامل لكل إناء مع شرا به . فإن كان فارغاً فليس بكأس . قال الضحاك والسدي : كل كأس في القرآن فهو الخمر . والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر كأس ، فإن لم يكن فيه خمر قالوا : إناءً وقدح ، وتقول القرطبي عن النجاشي أنه قال : حكى من بوثق به من أهل اللغة : إن العرب تقول للقدح إذا كان فيه خمر كأس فلن لم يكن فيه خمر فهو قدح . كما يقال للخوان إذا كان عليه طعام مائدة . فإذا لم يسكن عليه طعام لم تقل له مائدة » ^(٤) .

ولقد منع من هذه التفرقة بعض علماء اللغة وقالوا : إن أمثال ذلك من

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٠٦

(٢) آية ١١٤ من سورة المائدة

(٣) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣٦٧

(٤) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ٤٨ آية ٤٥ من سورة الصافات . وانظر الصحاح في لغة اللغة لابن فارس طبع السلفية ص ٦٥ وما بعدها .

قبيل المترادفات . ولكن القرطبي أهرض عن ذلك كما رأينا في بعض الأمثلة السابقة حيث فرق بين الغضب والغضب . ورد قول من قال : إن الغضب مساو للغضب واقتصر في الأمثلة الأخرى على أقوال القائلين بالفرقة فلم يذكر آراء غيرهم ، وهو بهذا يدل على رضا بهذا المصطلك وإعراضه عن المصطلك الآخر .

احتكام القرطبي إلى اللغة :

قدمنا في التفسير المأثور أن القرطبي كان يفاضل بين الآراء ويرجع بعضها أحياناً بما تشهد له اللغة وتأييده . ومثل ذلك ما ذكره في قوله تعالى « صفراء فاقع لونها تسر الناظرين » فقد قال جمهور المفسرين : إنها صفراء اللون من الصفرة المروقة . قال يكي عن بعضهم : حتى القرن والظلف ، وقال الحسن وابن جبير : كانت صفراء القرن والظلف فقط . وعن الحسن أيضاً : صفراء منهاها سوداء . قال الشاعر :

نلك خيلي منه وتلك ركابي هن صفر أولادها كالزبيب

ولم يرتض القرطبي هذا الرأي لأن اللغة لا تؤيده . فقال : « قلت والأول أصح لأنه الظاهر وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل . قال الله تعالى : « كآله جمالة صفر » (١) وذلك أن السود من الإبل سوادها صفرة ولو أراد السواد لما أكداه بالفتوح . وذلك تمت غنص بالصفرة ، وليس يوصف السواد بذلك . تقول العرب : أسود حالك . . . وأجر قان . وأبيض ناصع ، وأخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، هكذا نص لغة اللغة عن العرب . قال الكسائي : ويقال فقع لونه يقق فتقوا إذا خلصت صفرة » (٢) .

(١) آية ٣٣ من سورة المرسلات

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤٥٠ آية ٦٩ من سورة البقرة .

ونفوق هذا فان القرطبي قد استخدم اللفظة ، وجعلها ركيزة يعتمد عليها لا في رده لبعض الآراء كما سبق بل في مواضع كثيرة . ومنها مهاجمة المعتزلة فقد قامت مهاجمة القرطبي للمعتزلة في بعض الأحيان على أساس لغوي بمعنى أنه لجأ إلى اللفظة فجعلها حكماً بين ما يذهب إليه أهل السنة وبين ما يقوله المعتزلة . ولما وجد حكومتها في صف أهل السنة انتقد مذهب للمعتزلة وما به . ففي قوله تعالى « ختم الله على . . . » يقول في المسألة الثالثة : « في هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال ، والكفر والإيمان فاعتبروا أيها السامعون ، وتمجروا أيها المفكرون من عقول القسرية القائلين بخلق الإيمان وهداهم . فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا وقد طبع الله على قلوبهم . وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة فمَنْ يَهْتَدُونَ ، أو من يَهْدِيهِمْ من بعد الله إذا أضلهم وأصمهم وأبكمهم . ومن يضل الله فاله من هاد » وكان فعل الله ذلك هدلاً فيمن أضله وخفله إذ لم يمنه حقاً وجب له فنزول صفة المسدل وإيمانهم ما كان له أن يفضل به عليهم لا ما وجب لهم .

: فان قالوا : إن معنى الختم والطبع والغطاء : التسمية والحكم والإخبار بأنهم لا يؤمنون ، لا الفعل ، قلنا : هذا فاسد لأن حقيقة الختم والطبع إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعاً غتوياً . ولا يجوز أن تكون حقيقة التسمية والحكم ، ألا ترى أنه إذا قيل : فلان طبع الكتاب وختمه كان حقيقة أنه فعل ما صار به الكتاب مطبوعاً وغتوياً ، لا التسمية والحكم . ثم قال : هذا مالا خلاف فيه بين أهل اللفظة ، ولأن الأمة مجمعة على أن الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم . كما قال تعالى « بل طبع الله عليها بكفرهم » وأجمعت الأمة على أن الختم والطبع على قلوبهم من جهة النبي

عليه السلام ، ولللائكة ، وللمؤمنين : محتسب . فلو كان الختم والطبع هو التسمية والحكم لما امتنع من ذلك الأنبياء والمؤمنون لأنهم كلهم يسمون التكفار بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم محتسبون عليها ، وأنهم في ضلال لا يؤمنون ، ويحكمون عليهم بذلك . فثبت أن الختم والطبع هو معنى غير التسمية والحكم وإنما هو معنى يخلفه الله في القلب بمنح الإيمان به ، دليله قوله تعالى « كذلك أسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به » وقال « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » أي لثلا يفقهوه وما كان مثله . (١)

وكرر مثل هذا أو قريباً منه في قوله تعالى : « يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً » حيث رجح أن هذا القول خبر من الله عز وجل ثم انتقل إلى مهاجمة للعتزة فقال : « وهايه فيكون فيه رد على من تقدم ذكرهم من المعتزلة وغيرهم في قولهم : إن الله لا يخلق الضلال ولا الهدى . علوا : ومعنى يضل به كثيراً التسمية هنا . أي يسميه ضالاً كما يقال : فسدت فلانا بمعنى سميتهم فاسداً . لأن الله تعالى لا يضل أحداً . وهذا طريقهم في الإضلال وهو خلاف أقاويل للفسرين ، وهو غير محتمل في اللغة لأنه يقال : ضلله إذا ضل ضالاً . ولا يقال أضله إذا ضل ضالاً ، ولكن معناه ما ذكره المنصورون أهل التأويل من الحق ، أنه يضل به كثيراً من الناس مجازاة لكفرهم » (٢)

واحتمك القرطبي إلى اللغة في مناصرة بعض المذاهب القمعية والرد على بعض الفقهاء :

ففي قوله تعالى : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني » .

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٦ وما بعدها آية ٧ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٧٤٤ .

يقول القرطبي في للسألة السابعة : « قال ابن العربي قال أبو حنيفة من قال : إن شرب عهدي فلان من الفرات فهو حر فلا يعتق إلا أن تكرم فيه ، والكراع : أن يشرب الرجل بفيه من النهر ، فإن شرب بيده ، أو اغترف بالإناه منه لم يعتق . لأن الله سبحانه فرق بين الكراع في النهر وبين الشرب باليد . قال — أي ابن العربي — وهذا فاسد لأن شرب الماء يطلق على كل هيئة وصفة في لسان العرب من غرق باليد أو كراع بالغمر انطلاقاً واحداً . فإذا وجد الشرب المحلوف عليه لغة وحقيقة حث ، فاعلمه . » ورد القرطبي قول ابن العربي وانتصر للمذهب أبي حنيفة محضاً إلى اللغة فقال : قلت قول أبي حنيفة أصح فإن أهل اللغة فرقوا بينهما كما فرق الكتاب والسنة . قال الجوهري وغيره : كراع في الماء كروما إذا تناوله بفيه من غير أن يشرب بكفيه . وفي لغة أخرى : كراع بكسر الراء يكرع كراما . والكراع ماء السماء . وأما السنة فذكر ابن ماجه في سننه حديثنا واصل بن عبد الأعلى حديثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد بن عامر قال : سهرنا على بركة فجعلنا نكرع فيها فقال رسول الله ﷺ « لا تكرهوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناه أطيب من اليد » وهذا نص . وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف . (١)

وفي قوله تعالى : « فزعمان مقبوضة » يقول القرطبي : « قال أبو هريرة : ولما كان الزمان بمعنى الثبوت والدوام . فمن ثم بطل الزمان عند القماء . إذا خرج من يد المزمين إلى الزمان بوجه من الوجوه . لأنه قارق مأجل باختيار

:

(١) تفسر القرطبي ح ٣ ص ٢٥٣ آية ٢٤٩ من سورة البقرة . والحديث أخرجه ابن ماجه باب الشرب بالأكف والكراع ح ٢ ص ١٧٦ انظر ابن ماجه محاشية السندی . والحديث مروى عن ابن عمر بلفظ مرونا على برصكة فجعلنا نكرع . منها فقال رسول الله ﷺ عليه وسلم لا تكرهوا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناه أطيب من اليد

للرهن له . قلت — والقائل القرطبي — هذا للمتمد هندا في أن الرهن متى رجع إلى الراهن باختيار للرهن ، بطل الرهن . وقاله أبو حنيفة غير أنه قال : إن رجع بدارية أو ودعة لم يبطل . وقال الشافعي : إن رجوعه إلى يد الراهن مطلقاً لا يبطل حكم القبض للتقدم . ولم يرتض القرطبي رأى الشافعي فرد عليه بقوله : « ودليلنا » فرهان مقبوضة « فإذا خرج عن يد القابض لم يصدق ذلك اللفظ عليه لغة فلا يصدق عليه حكماً وهذا واضح » . (١)

ونرى القرطبي يحتمل إلى اللغة في ترجيحه لبعض القراءات أو توجيهها وسنشهد ذلك كثيراً عند حديثنا عن منهجه في القراءات ونكتفي هنا بذكر هذا للنال :

في قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » يقول القرطبي : القيوم من قام . أى القائم بتدبير ما خالق ، من قتادة . وقال الحسن : القائم على كل نفس بما كسبت حتى يجازيها بمثلها من حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شيء منها . وقال ابن عباس : مناه الذى لا يحول ولا يزول . . . ثم قال « وقرأ ابن مسعود وعلقمة والأعشى والنخعي » « الحى القيوم » بالالف ، وروى ذلك عن عمر ورجح القرطبي قراءة الجماعة محتملاً إلى اللغة فقال « ولا خلاف بين أهل اللغة في أن القيوم أحرف عند العرب وأصح بناء وأثبت هـ » (٢)

النحو والإعراب في تفسير القرطبي : —

لقد تأسست في البصرة أول مدرسة نحوية . وكان لها منهج خاص في استنباط

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤١٠ آية ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٨٢ آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قواعد النحو وأصوله . وتلتها مدرسة الكوفة وكان لها أيضاً منجها . ومن طريق هاتين المدرستين تكونت مدرسة بغداد والأندلس . ورغم أن هاتين المدرستين تأثرتا بمدرسة الكوفة والبصرة . إلا أن كل واحدة منهما كانت لها قواعد نحوية جديدة . ومن هنا كثرت للتخريجات والآراء النحوية التي حاول بها كل فريق أن يبطل حجة الآخر وأدلته، وكثرت أوجه الإهراب^(١)، وتعددت الممانى، فلعل إهراب معنى . ولعل ماساقه ابن قتيبة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» يكشف ذلك . فقد قال وهو يمتدح لغة العرب « ولو أن قاتلا قال « هذا قاتل أخى » بالتثنية وقال آخر : « هذا قاتل أخى » بالإضافة . لعل للتثنية على أنه لم يقتله ، ودل حذف التثنية على أنه قد قتله .

ولو أن قاتلا قرأ فلا يحزنك قولهم أنا نعلم ما يسرون وما يعلنون » وترك طريق الابتداء بأنا وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من يلصق « أن » بالقول كما ينصبها بالظن . لقلب للمنى عن جبهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبي محزوناً عليه لقولهم « أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » وهذا كفر ممن تهمده ، وضرب من اللحن لا يجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتجاوزوا فيه . وقد قال رسول الله ﷺ « لا يقتل قرشى صبياً بعد اليوم » فن رواه جزماً أوجب ظاهر الكلام للقرشى أن لا يقتل إن ارتد ولا يقتل منه إن قتل . ومن رواه رفعاً انصرف التأويل إلى الظاهر من قریش أنه لا يرتد أحد من الإسلام فيستحق القتل » ثم ختم ابن قتيبة كلامه بقوله « أفأ ترى

(١) راجع كتاب نشأة النحو من ص ١٩ وما بعدها ، وص ١٣٥ إلى ص ١٤٠ ومن ١٤٤ إلى ١٤٩ . . وانظر كتاب القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ص ١١٩ .
٩٥-١١٢-١٢١-١٢٧-١٦٣ .

الإهراب كيف فرق بين هذين المعنيين (١) . « ويذكر ابن الانباري في كتابه «نزهة الألباء» سبب وضع أبي الأسود الدؤلي للنحو : أن ابنته قالت له ما أحسن « السماء » برفع « أحسن » وإضافة « السماء » إليها . فقال لها : نجهومها . فقالت : أتى لم أرد هذا وإنما تصحبت من حسنها فقال لها : أذن فقولى ما أحسن السماء . ووضع النحو من ساعتها وكان أول ما رسم منه باب التعجب (٢) .

ولقد التمس النحويون على اختلاف مذاهبهم ، أدلتهم وشواهدهم من القرآن الكريم فكثرت التخريجات ، وكثرت أوجه الإهراب في الآية الواحدة أو في الكلمة من الآية .

ونرى القرطبي يستعرض في تفسيره مذاهب هؤلاء النحويين وتخريجاتهم ويستعرض خلافاتهم في الإهراب ، ويهدفه كقصر أن يكشف للعق وأن يحلله .

ففي قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » (٣) يقول القرطبي « كتاب » نصب على المصدر المؤكد أى حرمت هذه النساء كتاباً من الله عليكم ومعنى « حرمت عليكم » « كتب الله عليكم »

وقال الزجاج والكوفيون : هو نصب على الإغراء أى الزموا كتاب الله أو عليكم كتاب الله . وفيه نظر على ما ذكره أبو على . فان الإغراء لا يجوز

(١) نأويل مشكل القرآن ص ١١ وانظر خصائص ابن جني ج ١ ص ٣٣٣ وكتاب الصاحبي لله اللغة لابن فارس ص ٤٧ ، وكتاب للدارس النحوية للدكتور شوقي ضيف ص ٢٠٦ فلبعض النحاة رأى يخالف إجماع العلماء في أن الإهراب ينشأ للعاني . والحديث الذى ذكره « ابن قتيبة » أخرجه مسلم في فتح مكة ج ١٢ ص ١٣٤ .

(٢) نزهة الألباء في طبقات القويين والادباء أى النحويين ص ١٢ .

(٣) آية ٢٤ من سورة النساء .

فيه تقديم المنصوب على حرف الإغراء فلا يقال : زيدا عليك أو زيدا دونك . بل يقال : عليك زيدا ودونك حرراً وهذا الذي قاله صحيح على أن يكون منصوباً بـ « عليك » وأما على تقرير حذف الفعل فيجوز . ويجوز الرفع على معنى هذا كتاب الله وفرضه (١) .

هذا ما ذكره القرطبي . ولو أردنا أن نكشف ما دار في هذه الآية من تخريجات نحوية فإننا نقول — ذهب الكوفيون — وتبهم الزجاج من مدرسة بغداد إلى أن عليك ودونك وعندك في الإغراء ، يجوز تقديم معمولاتها عليها نحو زيدا عليك ، وحرراً عندك ، وبكراً دونك ، واستدلوا بقوله « كتاب الله عليك » .

ومنع ذلك البصريون — وأبو علي الفارسي — من مدرسة بغداد أيضاً وخرجوا الآية وحملوها على أساس بأن « كتاب » الله ليس منصوباً بـ « عليك » وإنما هو منصوب لأنه مصدر والفعل فيه فعل مقدر دل عليه ما تقدمه من قوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » فإن فيها معنى « كتب » وتقدير الكلام : كتب كتاباً الله عليكم ثم أضيف المصدر إلى الفاعل كقوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله » فنصب « صنع » على المصدر بفعل مقدر ، ولم يظهر دلالة ما تقدم عليه من الكلام والتقدير فيه : صنع صنفاً الله . وحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل « (٢) » .

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) راجع الانصاف في مسائل الخلاف للكمال ابن الانباري للتوفيق سنة ٧٧٠ هـ .
يتحقق محمد محيي الدين عبد الحميد . نثر محمود توفيق الكتني ج ١ ص ١٤٠ مسألة ٢٧ .

وفي قوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) ، بين القرطبي مذاهب النحويين وموقفهم من المعطف على المضمر وتفرجات من لم يرض هذا وردم على من تمسكوا بالآية كدليل لهم . فقال :

« والذين هادوا » معارف وكذا « والصابئون » معارف على المضمر في هادوا في قول الكسائي (٢) والأخفش (٣) . قال النحاس (٤) : سمعت الزجاج يقول وقد ذكر له قول الأخفش والكسائي . هذا خطأ من جهتين إحداهما : أن للمضمر المرفوع يقبح المعطف عليه حتى يؤكد ، والجهة الأخرى أن للمعطف شريك للمعطف عليه فيصير المعنى أن الصابئين قد دخلوا في اليهودية وهذا محال . وقال الفراء (٥) وإما جاز الرفع في « والصابئون » لأن « إن » ضمنية فلا تؤثر إلا في الاسم دون الخبر « والذين » هنا لا يثبت في الإعراب فجري على جهة واحدة الأسمان — يقصد الرفع والنصب — فجاز رفع الصابئين رجوعاً إلى أصل الكلام . قال الزجاج : وسبيل ما يثبت في الإعراب وما لا يثبت في الإعراب واحد ، وقال الخليل (٦) وسيبويه : الرفع محمول على التقديم والتأخير ، . والتقديم « إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والصابئون والنصارى كذلك » وأشد سيبويه :

(١) آية ٦٩ من سورة المائدة .

(٢) من مدرسة الكوفة . وهو على بن حنيفة التتوي سنة ١٨٢ هـ .

(٣) « الأخفش » — هو الأخفش الأوسط لأنه إذا أطلق انصرف الدهن إليه وهو

سعيد بن مسعدة من مدرسة البصرة - التتوي ٢٢١ هـ .

(٤) « النحاس » — من نواة مصر - وهو أبو جابر النحاس للتتوي سنة ٢٣٨ هـ .

(٥) « الفراء » من مدرسة الكوفة - وهو يحيى بن زياد التتوي سنة ٢٠٧ هـ .

(٦) هو الخليل بن أحمد التتوي ١٦٠ هـ .

وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

وقال غليي البرجمي :

فن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

وقيل « إن » بمعنى « نعم » فالصائبون مرتفع بالابتداء وحذف الخبر لدلالة الثاني عليه . فالمطف يكون على هذا التقدير بمد تمام الكلام ، وانقضاء الاسم والخبر .

وقال قيس الرقيات :

بكر العواذل في المصباح ينسى وألوم منه

ويقلن شيئاً قد هلا وقد كبرت فقلت إنه

قال الأخفش : « إنه » بمعنى « نعم » وهذه الماه أدخلت لاسكت (١) .

وفي قوله تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً » حتى إذا جاءوها

وفتحت أبوابها (٢) بين مذاهب النحويين في زيادة « واو المطف » . فقال :

« واو هذا المطف مطف جملة على جملة والجواب مخوف » قال للبرد (٣) :

أي سمعوا وفتحت وحذف الجواب بليغ في كلام العرب وأشد :

فلو أنها نفس تموت جميعه ولكنها نفس تساقط أنفساً

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٤٦

(٢) آية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) للبرد من مدرسة البصرة . وهو أبو المباس محمد بن يزيد المثنوي سنة ٢٨٥ هـ .

فحذف جواب لو والتقدير : لكان أروح . وقال الزجاجي . حتى إذا جاءوها دخلوها وهو قريب من الأول . وقيل : « الواو » زائدة قاله الكوفيون . وهو خطأ عند البصريين . وقد قيل : إن زيادة الواو دليل على أن الأبواب فتمت لهم قبل أن يأتوا لسكراتهم على الله تعالى . والتقدير : حتى إذا جاءوها وأبوابها مفتحة بدليل قوله « جئات عدن مفتحة لهم الأبواب » وحذف الواو في قصة أهل النار . لأنهم وقفوا على النار ، وفتمت بعد وقوفهم إذ لا لا وروباً لهم . ذكره للهدوى ، وحكى معناه النحاس قبله . قال النحاس : فأما الحكمة في إثبات الواو في الثاني وحذفها من الأول . فقد تكلم فيه بعض أهل العلم بقول لا أهل إلا سبعة إليه أحد . وهو أنه لما قال الله عز وجل في أهل النار « حتى إذا جاءوها فتمت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مغلقة ، ولما قال في أهل الجنة « حتى إذا جاءوها فتمت أبوابها » دل بهذا على أنها كانت مفتحة قيل أن يمشيها والله أعلم . وقيل : أنها واو الثمانية وذلك أن من عادة قریش أنهم يعدون من الواحد فيقولون : خمسة . ستة . سبعة . وثمانية فإذا بلغوا السبعة قالوا : وثمانية : قاله أبو بكر بن هياش . قاله الله تعالى « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام » وقال « الثائبون العابدون » ثم قال « في الثامن » والناهون من السكر » وقال « ويقولون سبعة وثمانهم » وقال « ثيبات وأبكاراً » (١) .

وفي قوله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا » (٢) بين القرطبي مذاهب النحويين في إعراب ماذا فقال « اختلف النحويون في « ماذا » فقيل :

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٨٥

(٢) آ ٢٦ من سورة البقرة .

هي بئزلة اسم واحد بمعنى أى شيء أراد الله . فيكون في موضع نصب « بأراد »
قال ابن كيسان (١) وهو الجيد وقيل . « ما » اسم تام في موضع رفع ولا ابتداء .
و « ذا » بمعنى الذى وهو خبر الابتداء . ويكون التقدير : ما الذى أراد الله
بهذا مثلاً . ومعنى كلامهم هذا الإنكار بلفظ الاستفهام (٢) .

وفى قوله تعالى : « وقلن حاش لله » (٣) ذكر أيضاً مذاهب التحويين
فى إعراب « حاش » فقال : يقال : « حاش زيد » ، وحاشاً زيداً . قال
التنحاس . وسمعت على ابن سليمان (٤) يقول النصب أولى لأنه قد صح أنها
فعل . يقولون حاش لزيد والحرف لا يحذف منه . وقد قال النابتة :

ولا أحاشى من الأقوام من أحد

وقال بعضهم : حاش حرف وأحاشى فعل . ويدل على كون حاشاً فعلاً
وقوع حرف الجر بعدها . ثم ينتهى إلى أن حاش وحاشاً فى الاستثناء حرف
جر عند سيبويه ، أما عند المبرد وأبى على الفارسي (٥) فهى فعل ، لأن للمنى صار
يوصف فى حاشية وناحية مما أهم به (٦) .

ويذكر القرطبي مذاهب التحويين فى ما تلى بعض الحروف .

ففى قوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والدين من قبلكم

(١) من مدرسة بغداد سنة ٢٩٩ هـ

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٤٤

(٣) آية ٣٢ من سورة يوسف .

(٤) هو الأشعث الصغير من مدرسة بغداد سنة ٣١٥ هـ .

(٥) من مدرسة بغداد سنة ٣٧٧ هـ .

(٦) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١٨١

لملكم تنقون» ذكر معنى «لعل» عند النحويين فقال : قوله تعالى «لملكم تنقون» وما كان مثله فيها ورد في كلام الله تعالى من قوله «لملكم تنقون» «ولملكم تشكرون» ، «لملكم تذكرون» ، «لملكم تهتدون» فيه ثلاثة تأويلات . الأول : أن «لعل» على بابها من الترجى والتوقع إنما هو في حيز البشر . فكأنه قيل لهم افعلوا ذلك على الرجاء منكم ، والطمع أن تعقلوا وأن تذكروا ، وأن تنقوا . هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان . قال سيبويه في قوله هزوجل «اذعبا إلى فرعون إنه طغى» فقولا له قولنا لعل يذكروا أو يخشى قال : معناه اذعبا على طمعكم ورجاءكم أن يتذكروا أو يخشى . واختار هذا القول أبو اللعالي . الثاني : أن العرب استعملت «لعل» مجردة من الشك بمعنى لام كي . فالحق لتعقلوا ، ولتذكروا ، ولتنقوا . وعلى ذلك يدل قول الشاعر :

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلنا نكف ووثقم لنا كل موثق
فلما كففتنا الحرب كانت هزودكم كلعن سراب في اللامة ألقى

المعنى كفوا الحروب لنكف . ولو كانت «لعل» هنا شكاً لم يوثقوا لهم كل موثق . وهذا القول من قطرب^(١) والعلبري . الثالث : أن تكون «لعل» بمعنى التعرض لشيء كأنه قيل : افعلوا ذلك متعرضين لأن تعقلوا ، أو لأن تذكروا ، أو لأن تنقوا^(٢) .

وفي قوله تعالى «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون»^(٣) ذكر مناهب النحويين في معنى «أو» فقال : قال الفراء : «أو» بمعنى بل ، أي بل يزيدون وقال غيره : إنها بمعنى الواو ومنه قول الشاعر :

(١) من مدسة البصرة . وهو محمد بن السائب التميمي سنة ٢٠٦ هـ .

(٢) تفسير الترمذي ج ١ ص ٢٢٧ .

(٣) آية ١٧٤ من سورة الصافات .

فلما اشدت أمر الحرب فينا تأملنا رباحا أو رزاما

أى ورزاما ، وهذا كقوله تعالى « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » (١) وقرأ جعفر بن محمد « إلى مائة ألف ويزيدون » بشير همز . فيزيدون فى موضع رفع بأنه خبر مبتدأ محذوف أى وهم يزيدون : النحاس : ولا يصح هذان اللذان عند البصريين وأنكروا كون « أو » بمعنى بل ، وبمعنى الواو لأن بل للاخترا ب من الأول والإيجاب لما بعده وتعالى الله عز وجل عن ذلك . أو خروج من شيء إلى شيء وليس هذا موضع ذلك والواو متناه خلاف معنى أو ، فلو كان أحدهما بمعنى الآخر لبطلت للمنافى ، ولو جاز ذلك لكأن وأرسلناه إلى أكثر من مائتي ألف أخصر . وقال المبرد : المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتهم لقتلهم : هم مائة ألف أو أكثر — ومعنى قول المبرد أنها لشك هند المخاطبين ، وفى نظرم بحيث لو رأوهم لشكوا وقالوا ذلك فخطب البلاء على ما يعرفون . وقيل : هو كما تقول جاءنى زيد أو عمرو . وأنت تعرف من جاءك منهما إلا أنك أبهمت على المخاطب « فأو » للإيهام ومنه قول الله تعالى « وإنا أولياكم على هدى » (٢) أو فى ضلال مبين » (٣)

وكان القرطبي فى بعض الأحيان يرد بعض الآراء والمناهب النحوية .
لضعفها وشذوذها ، أو لإخلالها بالمعنى .

فى قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » يقول فى المسألة الثالثة : « أنت » تأكيد للضمير الذى فى الفعل ومثله « فاذهب أنت

(١) آية ٧٧ من سورة النمل .

(٢) آية ٢٤ من سورة سبأ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١٥ ص ١٣٢ بقصر ف .

وربك ، (١) ولا يجوز اسكن وزوجك ، ولا اذهب وربك . إلا في ضرورة الشر كما قال :

قلت إذ أقبلت وزهر تهادى كنماج الملا تصفن ومسلًا (٢)
« فزهر » مطوف على المضمر في « أقبلت » ولم يؤكد ذلك المضمر .
ويجوز في غير القرآن على بعد « قم وزيد » (٣) .

وفي قوله تعالى « رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً » يقول القرطبي :
« محرراً » نصب على الحال . وقيل : نعت للمفعول مخوف . وتقديره مولوداً
محرراً مثل قوله تعالى : « أن أعمل ساينات » أى دروها ساينات ، ثم يقول :
والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإهراب . أما الإهراب : فإن
إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع ، ويجوز على الجواز فى أخرى .
ويجوز حذف النعت إن لم يكن كافى قوله تعالى « يأخذ كل سفينة غصبا » .
أى كل سفينة سالحة .

يجوز حذف المنعوت وإقامة النعت مقامه في صورتين الأولى : إما أن
يكون النعت صالحاً لمباشرة المائل كما في قوله تعالى « أن أعمل ساينات » .

الثانية : أن يكون المنعوت بعض اسم مقدم مخفوض « بمن » أو « فى »
لأول كقولهم « منا ظنن ومنا أظم » أى منا فريق ظنن . . . فظنن جملتان
في موضع رفع لثلاث لمخوفين . والمنعوتان بعض اسم مقدم هو الضمير
المجروح بمن .

(١) آية ٧٤ من سورة السائدة .

(٢) قاله عمر ابن أبى ربيعة : وزهر جمع زهراء وهى البيضاء للشفرة والتهادى للوى
الرويد الساكن . والكنماج بقى الوحش « تصفن » ركنين .

(٣) تفسير القرطبي . . ح ٥٠ ص ٣٠٠ .

والثاني كما في قول الشاعر وهو الأسود الجشاق يصف امرأة .

نقلت ما في قومها لم تيمم يفضلها في حسب وميسم
أصله : لو قلت ما في قومها أحد يفضلها لم تأثم فحذف المنعوت وهو أحد
وكسر حرف المضارعة من « أنم وأبدلت الهمزة ياء » بميسم من الوسامه والجمال .
وأما التفسير : فقيل أن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة
لا للدهء وكانوا أهل بيت من الله بمكان . وأنها كانت تحت شجرة فبصرت
بطائر ينق فرخاً فتحركت نفسها لذلك ودعت ربه أن يب لها ولها .

ونذرت إن ولدت أن تهمل ولدها محرراً أى عتقاً خالصاً لله .. « فلما
وضعت قالت ربى إنى وضعتها أنثى » يعنى أن الأنثى لا تصلح للخدمة . قيل ..
لما يصيبها من الحيض والأذى . وقيل لا تصلح لخالطة الرجال وكانت ترجو
أن تكون ذكراً فلذلك حررت (١) .

وفى قوله تعالى « ص » والقرآن ذى الذكر » استعرض آراء النحويين فى
جواب القسم وأرتضى بعضها . ورد بعضها الآخر . لضعفها وقبحها . فقال :
جواب القسم « بل الذين كفروا فى هزة وشقاق » لأن « بل » نفي لأمر سابق
وبإثبات لغيره ، قاله العنبي . فكأنه قال : والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى
هزة وشقاق » من قبول الحق ، وعداوة ل محمد ﷺ ، أو « والقرآن ذى الذكر »
ما الأمر كما يقولون من أنك ساحر كذاب لأنهم يعرفونك بالصدق والأمانة .
بل هم فى تكبر من قبول الحق . وهو كقوله « ق » والقرآن الجيد بل عجبوا »
وقيل : الجواب « كم أهلكتنا » كأنه قال والقرآن لكم أهلكتنا . فلما
تأخرت « كم » حذفت اللام منها كقوله تعالى « والشمس وضحاها » ثم قال

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٦٦ آ ٣٥ من سورة آل عمران .

« قد أفلح » أى لقد أفلح. قال المهدوى : وهذا مذهب الفراء. ابن الأنبارى :
فمن هذا الوجه لا يتم الوقف على قوله « فى عزة وشقاق » وقال الأخفش :
جواب القسم « إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب » وهو منه قوله تعالى
« تالله إن كنا لفي ضلال مبين » وقوله « والسماء والطارق إن كل نفس »
ابن الأنبارى : وهذا قبيح لأن الكلام قد طال فيها بينهما ، وكثرت الآيات
والقصص . وقال الكسائى : جواب القسم قوله « إن ذلك لخلق نخاص أهل
النار » ابن الأنبارى : وهذا أقبح من الأول . لأن الكلام أشد طولاً فيها
بين القسم وجوابه . وقيل : الجواب قوله « انى هذا لوزننا ما له من فساد »
وقال قتادة : الجواب مخوف تقديره . « والقرآن ذى الذكر لنبيمن » (١)

وهكذا يفسى القرطبي فى تفسيره مرتكراً على اللغة والنحو والإعراب
والشعر وبهذا وضع ألفاظ القرآن الكريم ، وألقى عليها كثيراً من الأضواء .

الاستشهاد بالشعر عند القرطبي :

استخدم القرطبي الشعر فى تفسيره كثيراً ولو أراد باحث أن يتنقى
ذلك وأن يحصره لضاق ذروعا وضاعت مجموعة من الرسائل من استيعابه . وفى
الكتاب ثروة كبيرة من الأسماء . ولا أكون مبالغاً إذا قلت إنه يوجد فى
كل آية عدد كبير من الأبيات الشعرية .

وكان القرطبي يذكر الشعر لأغراض مختلفة . فتارة يذكره لبيان معنى لغوى
وتارة يذكره للاستدلال على قاعدة نحوية أو بلاغية أو للاستدلال على توجيه
رأى فى الإعراب . أو غير ذلك .

ففي قوله تعالى : « لا ريب فيه » بين معاني « الريب » بالشعر فقال :

وفي الريب ثلاثة معان أحدها : الشك . قال هبة الله بن الزبيرى :

ليس فى الحق يا أميمة ريب إنما الريب ما يقول الجاهل

وثالثها : التهمة . قال جميل :

بئينة قالت يا جميل أرىنى قتلت كلانا يا بشين مرب

وثالثها : الحاجة . قال :

قضينا من هامة كل ريب وخير ثم أجمعنا السيوف (١)

وفي قوله تعالى : « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (٢) استدلل بالشعر على قاطعة بلاغية وهى : وضع المستقبل موضع الماضى . فقال :

« قوله تعالى « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل » رد من الله تعالى عليهم فى قولهم إنهم آمنوا بما أنزل عليهم ، وتكذيب منه لهم ، وتوبيخ . للمضى فكيف قتلتم وقد نهيتم عن ذلك . فالخطاب لمن حضر محمداً ﷺ وللراد أسلافهم وإنما توجه الخطاب لأنسائهم . لأنهم كانوا يقولون أولئك الذين قتلوا كما قال « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذونهم أولياء » (٣) فإذا تولوهم فهم بمنزلتهم وقيل : لأنهم رضوا فعلمهم فنسب ذلك إليهم . وجاء « تقتلون » . بلفظ الاستقبال وهو بمعنى الماضى لما ارتفع الإشكال بقوله « من

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٩

(٢) آة ٩١ من سورة البقرة .

(٣) آة ٨١ من سورة المائدة

قبل ، وإذا لم يشكل فجاز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضي . قال الخطيب :

شهد الخطيئة يوم يلتقي ربه أن الوليد أحق بالمنز
شهد بمعنى يشهد (١) .

وفي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » استدل بالشعر على تأهدة بلاغية أيضاً . وهي تقديم المفعول على الفعل للاهتمام . فقال في المسألة الرابعة والعشرين : « إن قيل لم قسم المفعول على الفعل ؟ قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أهرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال الساب . إياك أهني . فقال له الآخر : وهناك أعرض . فقدم الأهم ، وأيضاً لثلاث يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ولستعينك ، ولا نعبد إياك ولستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن وقال المجاج :

إياك أدعو فتقبل ملقى واغفر خطايى وكفر ورقى

وفي قوله تعالى « والموفون بهدم » بعد أن بين أن قوله « والموفون » عطف على « من » في قوله « ولكن البر من آمن » لأن « من » في موضع جهم وعمل رفع فكأنه قال ولكن البر المؤمنون والموفون . بعد أن بين ذلك قال : « والصابرين » نصب على المدح أو بإضمار فعل . والعرب تنصب على المدح وعلى القم . كأنهم يريدون بذلك أفراد المدوح والمنحوم ، ولا يتبعونه

أول الكلام ، وينصبوه . فأما المدح فقوله « والمقيمين الصلاة » (١) وأنشد
الكسائي :

وكل قوم أطاها أمر سيدهم إلا نجيلاً أطاها أمر غاويها
الفاهين ولما يظلموا أحداً والقاتلون لمن دار نجيلها
وأشد أبو هبيدة :

لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلين بكل مسترك والطيبون معاهد الأزر
وقال آخر :

نحن بنو ضبة أصحاب الجبل

فنصب على المدح . وأما الذم فقوله تعالى « مملوئين أيها تنفوا » (٢) الآية .
وقال هروة بن الورد :

سقوني الخمر ثم تكتفوني عداة الله من كعب وزور

وهذا مبيح (٣) — شائع — في النعوت لا مطن فيه من جهة الإهراء
موجود في كلام العرب (٤) : وسأشاهد هذا اللون من الاستشهاد وغيره من
الألوان السابقة في كثير من المواضع فلا داعي للإطالة في ذلك .

(١) آية ١٦٢ من سورة النساء .

(٢) آية ٦١ من سورة الأحزاب .

(٣) بفتح الهم وسكون الهاء وفتح الياء قال صاحب القاموس وهو الطريق الواسع الواضح .

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٩ آية ١٧٧ من سورة البقرة .

وإذا كان القرطبي قد استخدم الشعر في كثير من الأغراض فإن له حقاً في ذلك . فإن لغة العرب وأشعارها كانت أساساً اعتمد عليه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم في تفسير غريب القرآن . فأزالوا بذلك ما يعتريه من غموض وخفاء ولقد أشار إلى ذلك القرطبي في مقدمته ، وذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سألتوني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب . وأنه كثيراً ما أقدم على تفسير الغريب باللغة والشعر ، وهذا حذوه التابعون في ذلك . فقد روى عن ابن عباس في قوله تعالى « الحمد لله فاطر السموات والأرض » أنه قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أهرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي أنا ابتدأتها واخترتها ^(١) . ويقول في قوله تعالى « إنه ظن أن لن يمور » ما كنت أدري « ما يمور » حتى سمعت أهرابية تدهو بلية لها : حورى . أي أرجعى فالخور في كلام العرب الرجوع ^(٢) .

ولقد سأله يوماً رجل عن قول الله عز وجل : « وثيابك فطهر » فأجابه بقوله : لا تلبس ثيابك على خدر وتعمل بقول خيلان الثقفى :

فأنى بحمد الله لا ثوب غادر لبست ولا من سوءة أتقنع

وسأله نافع بن الأزرق ^(٣) عن معنى السنة في قوله تعالى « لا تأخذوا سنة ولا نوم » فقال : السنة الزمان ثم تمثل بقول زهير بن أبي سلمى :

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٣١٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١٩ ص ٢٧٣

(٣) ذكر الميوطي في الاتقان طالب الاسئلة التي وجهها نافع بن الأزرق إلى ابن عباس وأجوبة ابن عباس الشعرية . انظر الاتقان ج ١ ص ١٤٩ .

لا مسنة في طوال الليل تأخذه ولا ينام ولا في أمره فند (١)
وسأل رجل هكرمة عن الزنيم فقال : هو ولد الزنا . ويمثل ببيت شعر :
زنيم ليس بعرف من أبوه بفسى الأم ذو حسب لشم
وستل عن قوله تعالى « ذواتا أفنان » فقال ذواتا ظل وأفصان ألم تسمع
إلى قول الشاعر :

ما هاج شوقك من هدير حمامة تدهو على فن الفصون حماماً
تدهو أبا فرخين صادف طائراً ذا غلبين من الصقور قطاماً (٢)

ويوضح الرافعي في كتابه « إيجاز القرآن » معنى الغريب فيقول : « في القرآن ألفاظ اصطلاح العلماء على تسميتها بالفرائب ، وليس المراد بفرائبها أنها منكورة ، أو نادرة ، أو شاذة ، فإن القرآن منزّه عن هذا جميعه . وإنما اللفظة الغريبة هاهنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وصائر الناس » (٣) .

ولما تأسست المدارس النحوية . كان من مصادرها في تقعيد قواعد النحو لهجات القبائل وأشعار العرب . . . كما استندت هذه المدارس على غريب القرآن ومشكلة اللغة والشعر (٤) . ولقد أسكر فريق من العلماء على النحويين الاستدلال

(١) الفند . بالتعريك ضعف الرأي من الكبير وقد يستعمل في غير الكبير .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤ وما بعدها يتصرف

(٣) إيجاز القرآن ص ٧٤ وتتل هذا النص الدكتور عبدالمال سالم في كتابه « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » ص ٢٤٧ .

(٤) انظر « القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية » ص ٩٠ ، ٩١ .

على غريب القرآن ومشكله بالشعر بحجة أن الشعر في تلك الحالة يكون أصلاً للقرآن ، وهذا لا يصح ، وأبطل القرطبي هذا الرأي في مقدمته مستنداً بموقف الصحابة والتابعين ، وكأنه قد انتهى إلى صحة مذاهب النحويين في جعلهم الشعر أصلاً تؤخذ منه القواعد النحوية ويحتج به على الغريب وللشكل . ونقل القرطبي رأيه هذا عن « أبي بكر بن الأنباري » . ولكنه لم يشر إلى الحجة التي تمسك بها من أنكر على النحويين مذهبهم . فنقل كلام ابن الأنباري محتجراً ، ولكن السيوطي أشار إلى ما قاله ابن الأنباري بأوضح مما قاله القرطبي فقال : « قال أبو بكر بن الأنباري : قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيراً ، الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر . وأنكر جماعة ، لا علم لهم ، على النحويين ذلك وقالوا : إذا فُلتِم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن . قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن . وهو مذموم في القرآن والحديث . قال : وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن . بل أردنا تبين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » وقال : « بلسان عربي مبين » وقال ابن عباس : الشعر ديوان العرب . فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلسان العرب رجعنا إلى ديوانها فالتبسنا معرفة ذلك منه » (١) .

وإذا كان القرطبي قد ارتضى الشعر دليلاً على ألفة والنحو والإعراب وغير ذلك ، وأورد في كتابه ثروة هائلة من الشعر . فهل نزل في استشهاده إلى طبقات المولدين من الشعراء أم وقف على طبقات الاسلاميين منهم ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يستحسن أن نعرف موقف العلماء من طبقات الشعراء التي يجوز الاحتجاج بشعرها ؟

بين صاحب «خزانة الأدب» أنه الشعراء ينقسمون إلى طبقات أربع :
الطبقة الأولى : الشعراء الجاهليون وهم من كانوا قبل الإسلام كادريه
القيس والأهشي .

الطبقة الثانية : المخضرمون : وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام
كليبيد وحسان .

والطبقة الثالثة : المتقدمون ويقال لهم الإسلاميون : وهم الذين كانوا في
صدر الإسلام كجبرير والفرزق .

الطبقة الرابعة : الموفدون ويقال لهم المحدثون : وهم من بعدهم إلى زماننا
كبشار بن برد وأبي نواس . . . فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً
وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بهاء ووضح صاحب الخزانة أنه وإن كان
أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي اسحاق وغيرهما من النحاة يخطئون
للفرزدق والكميت وذا الرمة وإسراهم . فإن ذلك يرجع إلى أنهم كانوا في عصرهم
والمعاصرة حجاب .

وأما الرابعة فالصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً وقيل يستشهد
بكلام من يوثق به منهم كأبي تمام (حبيب بن أوس الطائي للتوفى
سنة ٢٣٩ هـ) فلقد استشهد الزمخشري في تفسيره أوائل البقرة بببيت
من شعره . (١)

ولقد استشهد القرطبي في تفسيره بشعر فحول شعراء الجاهلية وأعلامها

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٥ وما بعدها . وانظر آداب العرب لأراضي ج ١ ص ٣٦٩

كأمرىء القيس ، وهنتره بن شداد الميبي المتوفى سنة ٢٢ قبل الهجرة .
وزهير بن أبي سلى المتوفى سنة ٩٣١ هـ . وطفيل الغنوى . والحارث بن حلزة
اليشكرى المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة . وعدي بن زيد . وعمرو بن كلثوم
ابن زهير المتوفى سنة ٥٢ قبل الهجرة ، والحويدرة الذيباني .

كما استشهد بأشعار المخضرمين . مثل حسان بن ثابت ولبيد بن أبي
ربيعة والحطيئة جروول بن أوس الملقب بالحطيئة لقصره المتوفى سنة ٣٠ هـ .
وكعب بن سعد الغنوى . وهباص بن مرداس .

ولقد عهد بعض العلماء « لبيد بن ربيعة » من شعراء الجاهلية وقالوا :
هو وإن عاش في الإسلام طويلا ، وكانت وفاته سنة ٤٩ هـ إلا أنه أضرب من
قول الشعر بعد أن أسلم ^(١) .

ومن الشعراء الإسلاميين الذين استشهد القرطبي بشعرهم : جرير ، الفرزدق
والأخطل بن غياث بن خوثر المتوفى سنة ٩٢ هـ . وزيد بن الأعمى ، وابن
هرمة أبو اسحاق إبراهيم بن هلى المتوفى بين سنة ١٩٦ ، ١٩٨ هـ . وذو الرمة
وجميل بن معمر المتوفى سنة ٨٢ هـ ، وهيرم . وإليك بعض الأمثلة والنماذج التي
تؤيد ذلك :

في قوله تعالى : « ولو أن قرآنا سهرت به الجبال » ^(٢) بين القرطبي أن
جواب لو محذوف تقديره « لكان هذا القرآن » وأنه حذف لإيجاز المساق في
ظاهر الكلام من الدلالة عليه . ثم استدل على جواز حذف جواب لو بقول
أمرىء القيس :

(١) لمجلة الشعراء للأصمعي ص ٢٨ .

(٢) آية ٣٢١ من سورة الرعد

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تسقط أنفسا
وتقدير الجواب في البيت « لمان على » (١) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا » (٢) « بين أن الأمر
بالمصابرة منناه مصابرة الأهداء وصحيح هذا القول مستدلا بقول هنترة :
فلم أرحيا صابروا مثل صبرنا ولا كالخوا مثل الذين نكافح
ثم قال : فقوله « صابروا مثل صبرنا » أي صابروا العدو في الحرب ولم يبد
منهم جبن ولا خور (٣) .

وفي قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تسالوا إلى كلمة سواء » (٤) بين
أن من معاني « سواء » العدل ، واستشهد بقول زهير :

أروني خطة لاضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء (٥)

وفي قوله تعالى « فتوقوا بما نسيت لقاء يومكم هذا » (٦) يقول القرطبي :
« قد يسر بالنوق » . عما يطرأ على النفس . وإن لم يكن معلوما لإحساسها به
كإحساسها بذوق العطوم . واستشهد بقول امرئ القيس :
فندق هجرها إن كنت تزهم أنها فساد ألا ياربما كذب الزهم

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣١٩ :

(٢) آية ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٣) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٣٢٣

(٤) آية ٦٤ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١٠٦

(٦) آية ١٤ من سورة السجدة

ويقول طفيل الشاعر الجاهلي :

فذوقوا كما ذقنا غداة عجير من النيفلى أبادنا والتحوب (١)

وفي قوله تعالى « أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » (٢)
يقول : فراحمة والكسائي : وولداً « بضم الواو ، والباقون يفتحها واستدل
لقول من قال : إنها لعتان بمعنى واحد . يقول الحارث بن حنظلة :

ولقد رأيت معاشراً قد نمروا مالا وولداً

ويقول شاعر آخر :

فليت فلانا كان في بطن أمه وليت فلانا كان ولد حمار (٣)

وقوله تعالى « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (٤) يقول :
والقرين للمقارن . أي للمصاحب والخليل وهو فعيل من الإقارن . قال عدي
بن زيد :

هن للراء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى (٥)

وفي قوله تعالى « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » (٦) يقول
قرأ الكوفيون : لا يضركم بضم الراء وتشديدها من ضر يضر . ويجوز أن

(١) تفسير القرطبي ج ١٤ ص ٩٨ من وما بعدها

(٢) آية ٧٧ من سورة مريم

(٣) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٢٤٦

(٤) آية ٣٨ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٤

(٦) آية ١٢٠ من سورة آل عمران

يكون مرفوعاً على تقدير إظهار الفاء وللمعنى فلا يضركم ومنه قول الشاعر :

من يقل الحسنات الله يشكرها

وهذا صدر بيت لحسان بن ثابت وتماه

والشر بالشر عند الله ميان (١)

وفي قوله تعالى « وما زادكم غير تنبيي » (٢) استدل على أن لفظة « تنبيي » معناها الخسران بقول لبيد :

فقد بليت وكل صاحب جعدة ليليل يعود وذا كم التنبيي (٣)

وفي قوله تعالى « الذين استجابوا لله » (٤) استدل على أن استجاب بمعنى أجاب وأن السين والثاء زائدتان (كثرة المبني تدل على كثرة المعنى والسين والثاء من حروف اللطاعة والفرق بين أجاب واستجاب يدل على الاستجابة بمد الثمب والجهد) يقول كعب بن سعد الغنوي :

وداع دما يامن يجيب إلى النداء فلم يستجبه عند ذلك مجيب (٥)

وفي قوله تعالى « ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً » (٦) فرق بين الإسراف والسرف فقال : الإسراف في الآفة : الإفراط ومجاوزة الحد ٠٠٠٠ والسرف الخطأ في الإنفاق ومنه قول الشاعر :

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٨٤

(٢) آية من سورة هود

(٣) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٥

(٤) آية ١٧٢ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٧٧

(٦) آية ٦ من سورة النساء

أعطوا هنيئة يحسدوها ثمانية

ما في عطائهم من ولا مسرف

أى ليس يخطئون مواضع المطاء . والبيت لجريز . (١)

وفى قوله تعالى «ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى» (٢) استشهد بيت للأخطال
على أن المراد بالشقاق فى الآية المداورة فقال «والشقاق هنا بمعنى المداورة ومنه
قول الأخطال :

ألا من مبلغ عنى رسولا فكيف وجدتم طعم الشقاق (٣)

وفى قوله تعالى «ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن
يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم هند ريسكم» (٤) بين أن «أو» بمعنى
«حق» أو «إلا أن» واستدل بقول زياد بن الأعمى :

وكنت إذا غرزت قناة قوم كسرت كهوبها أو تستفيا (٥)

وفى قوله تعالى «قل من يكأؤكم بالليل والنهار» بين معنى يكأؤكم فقال :
أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ . كلاءه الله كلاءه بالكسر
أى حفظه وحرسه . يقال أذهب فى كلاءة الله ، وا كلات منهم أى احترست .
قال الشاعر :

(١) هنيئة اسم لكل مائة من الأبال . وانظر تفسير القرطبي ج ٥ ص ٤٠ .

(٢) آية ٨٩ من سورة هود

(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة . وانظر تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٠ .

(٤) آية ٧٣ من سورة آل عمران

(٥) تفسير القرطبي ج ٤ ص ١١٣ .

إن سليبي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزوها (١)

وفي قوله تعالى « فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً » (٢) قال :
السفيه المبهلألأ الرأى في المال . الذي لا يحسن الأخذ لنفسه ، ولا الإحطاء منها
مشبه بالثوب السفة وهو الخفيف النسيج ، والبذء اللسان يسمى سفيهاً لأنه
لا تكاد تنفق البذاعة إلا في جهال الناس ، وأصحاب العقول الخفيفة . والعرب
تطلق السفيه على ضعف العقل تارة ، وعلى ضعف البدين أخرى قال الشاعر :

نخاف أن تسفه أحلامنا ويجول الدهر مع الحالم
وقال ذو الرمة :

مشين كما اهتزت رماح تسفت أقالها من الرياح النواسم
أى استقصمها واستلانها فخر كما (٣)

وفي قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها » يقول : قال أبو حاتم : كنت
أقرأ غريب القرآن على أبي حبيدة . فلما أتيت على قوله « ولقد همت به وهم
بها » الآية قال أبو حبيدة : هذا على التقديم والتأخير . كأنه أراد ولقد همت
به ولولا أن رأى برهان ربه لم . وقال أحمد بن يحيى : أى همت زليخاء
بالمصيبة ، وكانت مصرة وم يوسف ولم يواقع ما م به . فبين المهمتين فرق .
ذكر هذين القولين المروى في كتابه . قال جميل :

(١) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٧٩١ . آية ٢٢ من سورة الانبياء .

(٢) آية ٧٨٢ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٨٥

همت بهم من بننيسة لوبدا شفيت خليات الهوى من فؤاديا^(١)
ولم يقع نظرى على أشعار لطيفة المحدثنة فى تفسير القرطبي اقمهم إلا فى
مواضع قليلة جداً لا تمدو أصابع اليد الواحدة .
ففى قوله تعالى : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاذ »^(٢) بين
القرطبي أن الأصفاذ هى الاغلال والقيود . ثم بين أن الصفاذ كما يستعمل فى القيد
يستعمل فى المطاء كما قال النابغة :

فلم أهرض أبيت العن بالصفاذ^(٣)

وكما قال أبو الطيب :

وقيدت نفسى فى ذراعى محبة ومن وجدنا لاسان قيدا تقيدا^(٤)

فسمى الإحسان هنا قيداً ، فكأنه استعمل الصفاذ فى المطاء والقيد .

وفى قوله تعالى « وللاآلئى تخافون شوزهن » يقول القرطبي : ويختلف الحال
فى أدب الرفيعة والادنيئة فأدب الرفيعة المنزل ، وأدب الادنيئة السوط ، ثم قال :

قال بشار :

والحر يلعى والمصا للعبد

والقرطبي كما نرى لم يستشهد بكلام بشار فى الفنة أو فى النحو وكل للواضع
الذى وقع نظرى عليها من هذا القبيل .

(١) تفسير القرطبي ح ٩ ص ١٦٦ آية ٢٤ من سورة يوسف

(٢) آية ٤٩ من سورة إبراهيم

(٣) هذا هجر بيت وسفره : هذا الثناء كان تسع به حسناً . وقوله أبيت العن نحيبة
كانوا يحبون بها الملوك ، والصفاذ المطاء ، معناه : أبيت أن تأتى من الأمور ما تلحن عليه وتذم
بتول : هذا الثناء الصريح الصادق فمن الحق أن تقبله فلم أمدحك متحسناً لمطالك لكن
أمدحك إقراراً بفضلك .

(٤) تفسير القرطبي ح ٩ ص ٣٨٤

كما أنه في المثال الأول لم يستشهد بشعر أبي الطيب وحده وإنما أتى به بعد شعر النابغة، وهو من تحول شعراء الجاهلية. فهو النابغة الذبياني للنفوس سنة ١٨ قبل الهجرة .

هلى أنه يجوز أن يكون ضمن الأبيات التي لم يذكر قائلها وهي كثيرة في تفسيره ، أبيات لشعراء آخرين من هذه الطبقة .

وأحب أن أقول أنه لو ثبت ذلك فقد يكون شعر هذه الطبقة مشفوعاً بشعر آخر من الطبقات التي يحتاج بها . وهنا لا حرج ولا عيب على القرطبي في ذلك . أو لعله إذا لم يفعل ذلك قد اقتصر على المجيدين منها ، وهو بهذا إذا خالف كثرة النحاة ، فقد وافق فريقاً منهم ، وفوق هذا فإن ابن قتيبة له رأى في الشعراء القدماء والمحدثين فقد قال في مقدسة كتابه « الشعر والشعراء » بعد أن وجد الكثرة لا يتقون بشعر اللولدين قال : « لم يقصر الله الشعر والمسلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم بل جعل الله ذلك مشركاً مقسوماً بين عبادته في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً في عصره » (١) .

ولقد احتج القرطبي في تفسيره بأبيات من الشعر لا يعرف قائلها : ففي قوله تعالى : « فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة » (٢) بين أن بعض الشعراء أدخل على « التي » حرف النداء فقال :

من أجلك يا التي تيمت قلبي وأنت بخيلة بالود عني

وعرض القرطبي في كلامه حجة الشاعر فقال : وحروف النداء لا تدخل على

(١) الشعر والشعراء ، طبع الخانجي ، واضر كتاب المدة لاس رشيد القرواي تحقيق محمد محي الدين ، طبع التجارية ح ١ ص ٧٢
(٢) آية ٢٤ من سورة البقرة

ما فيه الألف واللام إلا في قولنا : يا الله . فكأنه شبهها به من حيث كانت الألف واللام غير مفارقتين لها (١)

وفي قوله تعالى : « فأبنا تولوا قم وجه الله » (٢) استدل على أن من معاني الوجه المقصد بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل (٣)

وفي قوله تعالى : « واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » (٤) نقل عن سيبويه أن عطف الظاهر على المضمرة قبيح لا يجوز إلا في ضرورة الشعر ومنه قول القائل :

فاليوم قربت تهجونا وتشتبنا فاذهب إفا بك والأيام من هجب
فقد عطف « الأيام » على السكاف في « بك » بغير إعادة حرف الجر للضرورة (٥).

وهذه الأبيات كلها لا يعرف قائلها . فهل يوجه إلى القرطبي نقد أو لوم حيث لم يلبه على ذلك ، أو لأنه ذكر مثل هذه الأبيات في استشهاده ؟

لقد اختلف العلماء في جواز الاحتجاج بالشعر الذي لا يعرف قائله فمنع من ذلك « الكمال بن الأنباري » المتوفى سنة ٨٧ . وقال : « لا يحتج بالشعر الذي لا يعرف قائله خوفاً من أن يكون لمولد » ورد ابن الأنباري احتجاج

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٥ بتصرف

(٢) آية ١١٥ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٨٤

(٤) آية ١ من سورة النساء

(٥) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣ بتصرف

الكوفيين على البصريين إذا كان مستنده الشعر الذي لا يعرف قائله ، في كتاب
« الإنصاف في مسائل الخلاف » (١) .

وبعد أن منع « ابن هشام » ذلك باديء ذي بدء عاد فأجازه : بحجة أنه :
لو لم يجر ذلك لسقط الاحتجاج بخمسين بيتاً من الأبيات التي تضمنها « كتاب
سيبويه » وكلها ألف وخمسون . فالاحتجاج بالأبيات المجهولة جائز عند فريق
من النحاة فلا حرج على القرطبي إذا أورد بعضاً منها في استشهاده .

على أن هذه الأبيات الثلاثة التي ذكرتها والتي عثرت عليها في نفسه
مذكورة في كتاب سيبويه ، وأبياته كما يقول العلماء أصح الشواهد : اعتماد عليها
العلماء جيلاً بعد جيل ، ولم ينقدها أحد . رغم ما فيها من أبيات مجهولة القائل .
قال الجرجي : « نظرت في كتاب سيبويه فإذا فيه ألف وخمسون بيتاً فأما الألف
فقد هرقت أسماء قائلها فأثبتها وأما الخمسون فلم أهرق أسماء قائلها « فاعترف
بمجهزها ولم يعلن عليه بشيء . وقد روي مثل هذا عن أبي حنيفة للمازني
أيضاً (٢) .

كما نرى في احتجاج القرطبي وتوجيهاته أبياتاً مصنوعة :

ففي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كذب عليكم الصيام » بين القرطبي
أن الصوم مناه في اللغة ، الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال واستندل
بقوله النابغة :

(١) الزهر السيوطي ج ٨٥ . وانظر على سبيل المثال مسألة ٤٢ من كتاب
الإنصاف في مسائل الخلاف

(٢) خزائن الأدب ١ ص ١٦ وانظر كتاب « نشأة النعمون تاريخ أنهر النعامة » للشيخ
محمد ططاوي ، طبع وادى للوك م ٦٣ وما بعدها .

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت المجاز وخيل تملك القجا
أى خيل ثابتة ممسوكة عن العجى والحركة (١) .

وفى قوله تعالى « وإنا لجميع حنون » يقول القرطبي : « قرىء حاذرون »
ومناه معنى « حذرون » أى فرقون حاثقون . قال النحاس : أبو هبيدة يذهب
إلى أن معنى « حذرون » « وحاذرون » واحد وهو قول سيبويه وأجاز هو
حذر زيدا كما يقال : حاذر زيدا وأشد :

حذر أمورا لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الاقدار (٢)

والبيت الأول وإن كان مصنوعا إلا أنه صحيح المعنى : ولقد ذكر القرطبي
بجانبه مجموعة من الايات التى تدل على معنى الصيام فى اللغة . وعقب على
ذلك بقوله : والشعر فى هذا كثير (٣)

على أنه قد يكون لقرطبي حذر فى استشاده بمثل هذه الايات . فان الشعر
المصنوع وإن كان لا خير فيه ولا حجة فى غريبه كما يقول « ابن سلام » فى
طبقات الشعراء . إلا أنه قد أدرج فى الشعر ، وتناقله الشعراء ، وأثبت فى
دواوينهم . وقد خفى على بعض من له علم بالشعر الحكمة التى يرد بعض الناس
أبياتهم فى نظره جميلة رائعة . وسأهل بأى شيء ترد هذه الأشعار ؟ فأجابته
رجل : هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه . قال : نعم . قال : أفتعلم فى

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٢ آية ١٨٣ من سورة البقرة .

(٢) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٣ ص ١٠٠ ومعنى البيت أن الانسان جاهل
بمواقب الأمور يدير فيخونه التدبير .

(٣) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٣

الناس من هو أهل بالشعر منك ؟ قال : نعم . قال : فلا ينكر أن يعلموا من ذلك ما لا تعلمه أنت . (١)

ويقول صاحب كتاب «مراتب الذنوبين» كان «خلف الأحمر» يضرب به المثل في عمل الشعر، وكان يعمل على السنة الناس فيشبه كل شعر يقوله شعر الذي يضعه عليه . ولما تاب من ذلك في أخريات حياته خرج إلى أهل الكوفة وأراد أن يعرفهم الأسماء التي وضعها . فقالوا له : أنت كنت همدنا في ذلك الوقت أوثق منك الساحة ، فبقى في دواوينهم إلى اليوم . وهذا البيت من وضعه . يقول السيوطي في كتابه المزهر : قال أبو حاتم سمعت الأصمعي يقول سمعت خلف الأحمر يقول : أنا وضعت على النابغة هذه القصيدة التي فيها :

خيل صيام وخيل غير صامعة

نحت السجاج وأخرى تملك الجيا (٢)

أما البيت الثاني فقد استشهد به سيبويه على عمل «فعل» مع أبنية المبالغة لكن النقاد قالوا : يروى عن اللاحق أنه قال : إن سيبويه سألني شاهد في تعدى فعل . فصملت له هذا البيت .

فلا هيب على القرطبي إذا نقل عن سيبويه ، أو نقل عنه وهو من هو في فضله ومكانته . ولقد تصدى للرد عن سيبويه في الطعن أوارد على هذا

(١) طبقات الشعراء الجاهليين ، الإسلاميين لابي عبد الله محمد بن سلام الجعفي

(٢) للزهر للسيوطي ج ١ ص ١٠٤ ولقد توفي حلب بن حيان البصري الأحمر سنة

١٨٠ هـ وانظر آداب العرب للأصمعي ص ٢٧٩ وما بعدها.

البيت الكثير من العلماء . قال الأهل في شرحه لهذا الشاهد « وإن كان هذا صحيحاً — يقصد ما روى عن اللاحق — فلا يضر ذلك سيديوه ؛ لأن القياس يعضده » وقال ابن يعيش في شرح للفصل : إن سيديوه رواه عن بعض العرب وهو ثقة لا سبيل إلى إمارواه . وعقب الشيخ محمد الطنطاوى على هذا بقوله « وبعدئذ فلا مجال للمعن على سيديوه » (١) .

الاستشهاد بالحديث على الغريب والنحو في تفسير القرطبي :

استشهد القرطبي بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غريب القرآن وقد تقدم كثير من الشواهد على ذلك، ونكتفي هنا بهذا المثال في قوله تعالى « وبموتهن أحق بردهن » (٢) بين أن البعل معناه الزوج ، وأن البحال معناه الجاعل يقول رسول الله ﷺ في أيام التشريق « إنها أيام أكل وشرب وبغال » (٣) ويبدو أنه لاختلاف بين النحويين في هذا .

أما الاحتجاج بالحديث في النحو . فهو موضع خلاف بين العلماء فلقد منعه كثير من النحاة وأجازه بعضهم . ويذكر صاحب « خزانة الأدب » . أن من الذين منعوا ذلك أبو الحسن ابن الضائم ، وأبو حيان . ثم يرض حجتهم وهي حجة كل من ذهب إلى هنا فيقول « وقد منعه — أي الاحتجاج بالحديث — ابن الضائم ، وأبو حيان وسندنا أمران أحدهما : أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي ﷺ ، وإنما رويت بالمعنى ، وثانيهما : أن أئمة

(١) نشأة التجو وتاريخ أشهر النحاة ، ص ٢٥ وانظر آداب العرب لرافض ج ١

ص ٣٧١

(٢) آية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٢٥ والحديث أخرجه ابن ماجة وأبو داود في مصنفات الصيام .

النحو للقدمين من المصريين - يقصد الكوفة والبصرة - لم يمتنعوا بشيء منه « ثم يبطل هذا بقوله « ورد الأول على تقدير تسليمه بأن النقل بالمعنى إنما كان في الصدر الأول قبل تدوينه في المكتب ، وقبل فساد اللغة وغايتها تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق . على أن اليقين غير شرط بل الظن كاف . ورد الثاني بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به . والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحو في ضبط ألفاظه » (١)

ولقد بين القرطبي أن رواية الحديث بالمعنى جائزة ، وخالف في ذلك كثيراً من العلماء والفقهاء فقال في قوله تعالى « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » : « والقول بالجواز - أي جواز رواية الحديث بالمعنى - هو الصحيح إن شاء الله تعالى - وذلك أن للعلم من سيرة الصحابة رضي الله عنهم هو أنهم كانوا يروون الروايات المتعددة بألفاظ مختلفة ، وما ذاك إلا أنهم كانوا يصرفون عنايتهم للدعوى ولم يلتزموا التكرار على الأحاديث ولا كتبها . وروى عن واثقه ابن الأسقع أنه قال : « ليس كل ما أخبرنا به رسول الله ﷺ نقلناه إليكم ، حسبكم للمعنى » وساق القرطبي كثيراً من الآثار في التديل على ذلك . ثم قال : « فإن قيل فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « نضر الله امرأ سمع مقالتي فبلغها كما سمعها . » الحديث (٢) . وما ثبت عنه ﷺ أنه أمر رجلاً أن يقول هند

(١) خزنة الادب ص ٩ ج ١ وانظر كتاب المدارس النحوية ص ١٩ للدكتور عوف ضيف .

(٢) أخرجه الترمذي عن عمر بن سليمان في أبواب العلم انظر جامع الترمذي

مضجها في دهاء حله « آمنت بكتابك الذي أنزلت ونيك الذي أرسلت » (١)
ولما خالف الرجل وقال « ورسولك » بدل « ونيك » لم يقره الرسول على ذلك (٢) قالوا أفلا ترى أنه لم يسوغ لمن حله الدهاء مخالفة اللفظ. وقال « فأداها كما سمعها » قيل لهم : أما قوله « فأداها كما سمعها » فلراد حكمها لا لفظها ، لأن اللفظ غير معتد به ، وذلك على أن للراد من الخطاب حكمه قوله « قرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ثم إن هذا الحديث بعينه ، قد قل بالفاظ مختلفة والمعنى واحد . وإن أسكن أن يكون جميع الألفاظ قول النبي ﷺ في أوقات مختلفة لكن الأغلب أنه حديث واحد قل بالفاظ مختلفة ، وذلك أدل دليل على الجواز . وأما رده عليه السلام من قوله « ورسولك » إلى قوله « ونيك » لأن لفظ النبي ﷺ أمدح ولكل نعت من هذين النعتين وضع . ألا ترى إن اسم الرسول يقع على الكافة ، واسم النبي لا يستحقه إلا الأنبياء عليهم السلام . وإنما فضل للرسول من الأنبياء لأنهم جمعوا النبوة والرسالة . فلما قال « ونيك » جاء بالنعت الأمدح ثم قبله بالرسالة بقوله « الذي أرسلت » (٣) .

وإذا كان القرطبي قد ارتضى جواز الرواية بالمعنى وناسر من قال بها فإننا نراه فوق هذا يحتاج بالحديث في النحو وهو بهذا يوافق من ذهب إلى جواز الاحتجاج بالحديث بالنحو حتى ولو كان مرويا بالمعنى .

ففي قوله تعالى « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن البراء ابن عازب ج ٢ ص ٢٣١ ، وكتبه . اللهم أرسلت وجهي إليك ، وفوضت أمري لك ، وأجلبت ظهري إليك ، لا ملجأ ولا منجى إلا إليك

(٢) تصرف في النسخ هنا قليلا .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٤١٣ آيه ٥٨ من سورة البقرة .

ذرية طيبة « يقول القرطبي : وإنما أتت « طيبة » لتأنيث لفظ
الذرية كقوله :

أبوك خليفة ولده أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنت « ولده » لتأنيث لفظ « الخليفة » . وروى من حديث أس
قال : قال النبي ﷺ « أى رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله له مثل أجر
علمهم ولم ينقص من أجورهم شيئاً » (١) .

وفى قوله تعالى « فإب لم تفعلوا ولن تفعلوا » يقول : قوله تعالى
« ولن تفعلوا » نصب « بلن » . ومن العرب من يجزم بها ، ذكره أبو هبيدة
ومنه بيت النابغة :

فلن أهرض أبيت الهمن بالصمد

وفى حديث ابن عمر حين ذهب به إلى النار فى منامه فقيل له « لن
ترع » (٢) هنا على تلك اللفظة .

(١) أخرجه الترمذى بمناه عن أبى هريرة، تحفة الاحوذى ج ٦ ص ٢٦٤
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى باب تبير الرؤيا بلفظ لم ترع ج ٧ ص ٢٢٦ وأخرجه
البخارى بلفظ لن ترع إس ٢٤٦ وأخرجه أبو داود فى فضائل هداية ابن عمر بلفظ
لم ترع ج ٢ ص ١٤٩

الفصل الخامس

البلاغة في تفسير القرطبي

لم يتوسع القرطبي في الأسرار البلاغية أثناء شرحه للقرآن الكريم . ولعل السر في ذلك يرجع إلى أن الأندلسيين والمغاربة لم يعموا بعلوم البلاغة والبيان ولم يهتموا بها كثيراً . على عكس للشارقة الذين توفروا على دراستها وشرحها ، كما يرجع السر في ذلك أيضاً إلى أن القرطبي كان يميل إلى استعمال الحقيقة . فالحقيقة هي الأصل : والمجاز فرع عنها . فإذا أمكن حل اللفظ على الحقيقة فلا داع إلى استعمال المجاز . ففي قوله تعالى « وإن منها لما يهبط من خشية الله » (١) « يقول : قال مجاهد : ما تردى حجر من رأس جبل ، ولا تفجر نهر من حجر ، ولا خرج منه ماء إلا من خشية الله . نزل بذلك القرآن الكريم ، وقيل لفظة المبوط مجاز وذلك أن الحجارة لما كانت القلوب تعتبر بخلقها وتخشع بالنظر إليها ، أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت العرب : ناقة تاجرة . أى تبعث من يراها على شرائها ، وحكى الطبري عن فرقة أن الخشية للحجارة مستعارة كما استعملت الإرادة للجدار في قوله « يريد أن ينقض » (٢) « وكما قال زيد الخليل :

لم أتى خبر الزبير نواضعت سور للدينة والجبال الخشع
وذكر ابن بحر أن الضمير في قوله تعالى « وإن منها » راجع إلى القلوب
لا إلى الحجارة ، أى « من القلوب لما يخضع من خشية الله » . ثم قال القرطبي في

(١) آية ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٧٧ من سورة الكهف .

تمتبه على هذه الأقوال : « قلت : كل ما قيل يحتمله اللفظ ، والأول صحيح فإنه لا يمتنع أن يعطى بعض الجملات المعرفة فيمثل ، كالذى روى عن الجندب الذى كان يستند إليه رسول الله ﷺ إذا خطب ، فلما تحول عنه حن ، وثبت عنه أنه قال « إن حجرا كان يسلم على فى الجاهلية إنى لأعرفه الآن (١) » وفى التنزيل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض (٢) والجبال » الآية وقال « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشا ممتصدا من خشية الله (٣) » يعنى تدللا وخضوعا (٤) .

ولقد أشار القرطبي إلى ذلك فى قوله تعالى « ثم أوعا الصيام إلى الليل » (٥) حيث بين أن ظاهر قوله تعالى « إلى الليل » يفيد النهى عن الوصال ، وتفيد السنة ذلك أيضاً . فقد قال ﷺ « إياكم والوصال » . إياكم والوصال أخرجه البخارى وهذا ما عليه جمهور العلماء وذكر القرطبي أن فريقاً من العلماء أجاز الوصال وخصص النهى عنه بمبدأ الاسلام — حتى لا يضعف المسلمون عن الجهاد ومكافحة الأعداء . أما بعد أن ظهر الإسلام وارتفعت رايته . فقد راحل المسلمون وألزموا أنفسهم أعلى مقامات الطاعة .

رد القرطبي ذلك . وقال « ترك الوصال مع ظهور الاسلام ونهر الأعداء أولى وذلك أرفع الدرجات وأعلى للنازل وللقامات ، أما وصال رسول الله ﷺ الذى تمسك به هذا الفريق . فلما ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبر من نفسه قال « لست كيهنكم إني أيتى مطعم ، يعامى وساق يسقى »

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل عن جابر بن سمرة ج ١٥ ص ٣٦ .

(٢) آية ٧٥ من سورة الأعراف .

(٣) آية ٢١ من سورة الحجر .

(٤) فسر القرطبي ج ١ ص ٤٦٥ وما بعدها .

(٥) آية ١٨٧ من سورة البقرة .

وليس في هذا وصال والظاهر منه الحقيقة وأنه ﷺ كان يؤتى بطعام الجنة وشرايبها، ولاداعي لحله على ما يرد على القلب من الممانى والعلائم فاللفظ إذا تردد بين الحقيقة والحجاز فالأصل الحقيقة حتى يرد دليل يزيلها (١).

ورغم ذلك فلم يخل تفسير القرطبي من الصور البلاغية والبيانية.

ومن هذه الصور التشبيهية :

ففي قوله تعالى « لساؤكم حرث لكم فأنوا حرثكم أتى شتم (٢) » يقول القرطبي في السأفة الثانية . . حرث تشبيه لأنهم مزروع القوية . . فلفظ الحرث يعمل أن الاباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة ، إذهو للزدرع ، وأنشد ثعلب :

إنما الأرحل أوضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

ففرج المرأة كالأرض ، والنطقة كالبنجر ، والولد كالنبات ، فالحرث بمعنى المحترث (٣) وفي قوله تعالى « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » يقول :

أصل اللباس في الثياب ثم سمي أمزاج كل واحد من الزوجين بصاحبه لباساً لانضمام الجسد ، وأمزاجهما ، وتلازمهما « تشبيها بالشوب » وقال النابغة الجعدي :

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٩ وحديث لست كهيئتكم أخرجه البخاري

في كتاب الصوم من ابن سيد ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) آية ٦٢٣ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٩٧ .

إذا ما الضمير في جديدها تداخت فكانت عليه لباسا
وقال أيضا :
لبست أناسا فأفنيهم وأفنيت بعد أناس أناسا (١)

(*) الاستعارة

يقول القرطبي في قوله الله تعالى « في قلوبهم مرض » (٢). المرض ههنا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٦

(٢) آية ١٠ من سورة البقرة

(٥) الاستعارة : عند البيهقيين ومنهم الخطيب مجاز أقوى أي أنها لفظ استعمال في غير ما وضع له لعلالة للشبهة فالعريف في الاستعارة إنما هو في نقل اللفظ من معناه الموضوع له في اللغة إلى معنى آخر كما في قولك رأيت أسدا يقود جيشاً فلفظ أسد في اللغة موضوع للحيوان للفترس لا للرجل الجريء - أي أن اللفظ المستعار موضوع في اللغة للمشبه به لا للمشبه ولا للأهم من المشبه والمشبه بها معا .

أولئك الذين اشترو الضلالة

الضلالة الخروج عن القصد وفقد الافتداء فاستمير للذهاب عن العوالب في الدين .

أما قوله فاربحت تجارتهم ، فهذا من الإسناد المجازي وهو أن يستند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشتري . وإذا كان شراء الضلالة بالمسدى وقع في معنى الاستبدال فما معنى ذكر الربح والتجارة . وليس هناك مانع على الحقيقة ؟ هنا مما يقوى أنه المجاز وبمحضه =

مستعمارة الفساد الذي في مقامهم ، وذلك إيمان أن يكون شكواً نفاقاً ، وأما هذا جديداً
وتكديداً والمعنى قلوبهم مرضى غلوهم عن المعصية والتوفيق والرحاية والتأييد (١) .
شبه الفساد الموجود في قلوبهم بالمرض ثم حذف المشبهة وأقام المشبهة مقامه على
سبيل الاستمارة الأصلية لأن الأصلية ما كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس غير
مشتق والمراد به الماهية الصالحة لأن يصدق على كثيرين حقيقة أو تأويلاً .
فاجلس الحقيقى رأيت بمرآة يتحدث والحقيقة إنك تقول : رأيت اليوم سبحانه .
ويقول في قوله تعالى « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » (٢) اشترى
من الشراء والشراء هنا مستعار . والمعنى استحبوا الكفر على الإيمان كما قال :
« فاستحبوا العمى على الهدى » فغيره بالشراء لأن الشراء إنما يكون فيما يهجه
مشتريه . فأما أن يكون معنى شراء المماوضة فلا . لأن المنافقين لم يكونوا
مؤمنين فيبيعون إيمانهم (٣) .

وفي قوله تعالى : واركعوا مع الراكعين (٤) يقول الركوع في اللغة
الانحناء بالشخص ، وكل منحنا راكع . قال لبيد :

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كافي كلما قلت راكع

وقال ابن جرير « الركعة » المروة في الأرض لغة يمانية . وقيل الانحناء بهم

== فإله قد ذكر الشراء ثم أتبعه ما يشاكله ويؤاخيهِ تمثيلاً لتسايرهم وتصويراً
لحقيقته . شبه جهنم بالكفر بشراء الضلالة ثم حذف المشبهة وأقام المشبهة به مقامه
وهو شراء الضلالة على سبيل الاستمارة الأصلية .

(١) فسر القرطبي ج ١ ص ١٩٧

(٢) آية ١٦ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢١٠

(٤) آية ٤٣ من سورة البقرة ، وانظر فسر القرطبي ج ١ ص ٣٤٤

الركوع والسجود ويستمر أيضاً في الانحطاط في المنزلة قال :

ولا نناد الضميف هلك أن نركم يوماً والدمر قد رفعه

ولقد هجر القرطبي هن الاستمارة باسم الاستمرار والمجاز أي مجاز الاستمارة.

ففي قوله تعالى « صيغة الله ومن أحسن من الله صيغة » (١) فإنه قال : « الصيغة الدين وأصل ذلك أن النصاري كانوا يصيغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه المعمودية. ويقولون هذا تطهير لهم وقال ابن عباس هو أن النصاري كانوا إذا ولد لهم ولد فأقوا عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية فصبغوه بذلك ليظهر وجهه بـمكان الختان، لأن الختان تطهير فإذا فعلوا ذلك قالوا: الآن صار نصرانياً حقاً. فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال « صيغة الله » أي صيغة الله أحسن صيغة وهو الإسلام فسمى الدين صيغة استمارة ومجازاً . من حيث تظهر أعماله وممنه على المتدين . كما يظهر أثر الصيغ في الثوب وقال بعض شعراء ملوك حمدان :

وكل أناس لهم صيغة وصيغة حمدان خير الصيغ
صبقنا على ذاك أبناءنا فأكرم بصيغتنا في الصيغ (٢)

المجاز بالخلف :

في قوله تعالى « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار » (٣) يقول « من تحتها » أي من تحت أشجارها ،

(١) آية ١٣٨ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١٤٤ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣٩ .

ولم يجز لها ذكراً لأن الجنات دالة عليها « الأنهار » أى . ماء الأنهار ، فذهب
الجري إلى الأنهار توسعاً ، وإنما يجري الماء وحده خفيف اختصاراً كما قال
تمالى « واسأل القرية » أى أهلها . وقال الشاعر :

نبت أن النار بمدك أوقدت واستب بمدك يا كليب المجلس
أراد أهل المجلس تخفف .

المجاز العقلي . وهو إسناد الفعل إلى غير ما حوله :

قيل أن أصل الإسماعية مجاز لقوى :
وقيل أن أصلها مجاز عقلى وذلك أن من يقول :

رأيت أسداً مستقلاً ربحاً فإتما يريد أن يثبت معنى الأسدية لرجل جرى
مقدام وأن ينقل هذا من نوع الإنسان إلى جنس الأسد مدعيًا أنه فرد من
أفراده وهى هذا فاستعمال الأسد فى الرجل الجريء استعمال اللفظ فيها وضع له
فيكون مجازاً عقلياً معنى أن العقل أعتبر الرجل الجريء داخلًا فى جنس
الأسد حقيقة وفرداً من أفراده واعتبار ما ليس فى الواقع واقعاً مجاز عقلى ومن
هنا صح التمجيد فى قول ابن العميد يصف غلاماً جليلاً يظلمه من حر الشمس :

قامت تظلالى من الشمس نفسى أهرى على من نفسى
قامت تظلالى ومن هجب شمس تظلالى من الشمس

أى غلام مشرق الوجه كالشمس .

يقول القرطبي فى قوله تعالى « فسارحت تجارتهم » أسند تعالى
الريح إلى التجارة على عادة العرب فى قولهم : ربح بيعك ، وخسرت صفقتك ،

وقولهم ليل قائم ، ونهار صائم . والمعنى ديمت وخسرت في بيعك ، وقتت في ليلك ، وصمت في نهارك : أى فما ربحوا في تجارتهم ، وقال الشاعر :

نهارك هائم وليلك نائم كذلك في الدنيا تعيش البهائم

الإيجاز :

وهو جمع المعاني الكثيرة تحت اللفظ القليل مع الوفاء بالانفرض والإيضاح ومثال ذلك في تفسير القرطبي ما ذكره في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » الآية فقد قال « وهذه الآية مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام . فإنها تضمنت خمسة أحكام : الأول الأمر بالوفاء بالعقود . والثاني : تحليل بهيمة الأنعام والثالث استثناء ما يلى بعد ذلك . الرابع استثناء حال الإحرام فيها بصاد والخامس ما تقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم » وحكى النقاش أن أصحاب السكندى قالوا له : أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن . فقال : نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال : والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد ، إني فتحت للصحف فخرجت سورة اللائدة فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن التكث ، وحلل تحليلا عاما . ثم استثنى استثناء بعد استثناء . ثم أخبر عن قبرته وحكته في سطرين ، ولا يقدر أن يأتي أحد بهذا إلّا فى أجلاء (١) .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٣١ وما بعدها .

التعبير عن الماضي بالمستقبل أو العكس :

يقول القرطبي في قوله تعالى « قل فم تفتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (١) .

وجاء تفتلون بلفظ الاستقبال وهو بمعنى المضي لما ارتفع الإشكال بقوله « من قبل » وإذا لم يشكل فجاز أن يأتي الماضي بمعنى المستقبل ، والمستقبل بمعنى الماضي قال الخطيب :

شهد الخطيب يوم يلقى ربه أن الوليد أحق بالعذر
شهد بمعنى يشهد (٢) .

وفي قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس » يقول القرطبي « سيقول بمعنى قال . جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك أنهم يستمرون على ذلك القول » (٣) .

التكرير : وهو ذكر الشيء مرتين أو أكثر لأغراض ودواع . ومن هذه الأغراض والدواعي التأكيد ، وتقرير المعنى في النفس كقوله تعالى « كلا سوف تعلمون » ثم كلا سوف تعلمون « فقد أكد الإنذار بتكريره ليكون أشد تأثيراً . ويظهر هذا الغرض في الخطابة ، وفي مواطن الفخر والمجح والارشاد والإنذار .

ولقد أشار القرطبي إلى التكرير في قوله تعالى : « فبأي آلاء ربكما تكذبان »

(١) آية ٩١ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠ .

(٣) تفسير للقرطبي ج ٢ وما بعدها آية ١٤٢ من سورة البقرة .

فقد ذكر أن الله تبارك وتعالى كرر هذه الآية في هذه السورة لتأكيد
والبالغة في التثنية ثم قال القرطبي : « قال القتيبي : إن الله تعالى هدد في هذه
السورة نعماءه وذكر خلقه آلاءه ثم أتبع كل خلق وصفها ونعمة وضعها بهذه
وجملها فصلة بين كل نعمتين، لينبئهم على النعم ويقرروهم بها .. كما تقول لمن
تتابع فيه إحسانك وهو يكفره وينكره : ألم تكن فقيراً ؟ فأغنيتك أفنتكر
هذا ؟ ألم تكن خاملاً فمزنتك أفنتكر هذا ؟ ألم تكن صرورة فحجبت
بك أفنتكر هذا ؟ ألم تكن راجلاً فحملتك أفنتكر هذا ؟ ..

والتكرير حسن في مثل هذا . قال :

كم نعمة كانت لكم كم كم لكم .

وقال :

لا تقتل مسلماً إن كنت مسلماً إياك من دمه إياك إياك

وقال آخر :

لا تقطن الصدوق ما طرفت عينك من قول كاشع أشر

ولا تعلم من زيارته زره وزره وزره وزر

وقال الحسين بن الفضل - التكرير يكون طرقاً لفظة وتأكيداً
للحجة (١) .

التنبيه : في قوله تعالى « وآتى للال على حبه » يقول القرطبي :

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٥٩ وما بعدها ، وانظر مقاله القرطبي في سورة
الكافرون ج ٢٠ ص ٢٢٦

« اختلف في هود الضمير في « حبه » فقيل يعود على « للمعلى لال »
أى على حب المعلى لال وحذف المفعول . وهو المال وقيل : يعود على المال .
فيكون المصدر مضافاً إلى المفعول . قال ابن عطية : ويجوز قوله « على حبه »
اعتراضاً بليغاً أثناء القول . وعقب القرطبي فمهر عن رضاء بما قاله
ابن عطية فقال : قلت ، ونظيره قول الحق « ويمطمون الطعام على حبه
مكينة » . فإنه جمع بين للمنيين . الاعتراض وإضافة المصدر إلى المفعول .
أى على حب الطعام . ومن الاعتراض قوله الحق « ومن يعمل من الصالحات
من ذكر أو أنى وهو مؤمن فأولئك » ثم قال القرطبي : « وهذا هتدم
يسمى « التتميم » وهو نوع من البلاغة ، ويسمى أيضاً « الاحتراس »
و« الاحتياط » فتم بقوله « على حبه » وقوله « وهو مؤمن » ومنه
قول زهير :

من يلقى يوماً على هلاته هرما يلقى الساحة منه والندى خلفا
وقال امرؤ القيس

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كر ولا دان

فقوله على علاقته ، وقبل سؤاله تميم حسن ومنه قول هنترة .

اننى على بما علمت فزانى سمع مخالفتى إذا لم أعظم

فقوله : إذا لم أعظم تميم حسن . وقال طرفة :

فسق ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهسى

وقال الربيع بن ضبع الغزاري :

فتيت وما يفنى صنيعي ومنطقي وكل امرئ إلا أحاديثه فان

فقله : غير مفيدها « وإلا أحاديثه » تنميم واحتراس . وقال أبو هفان :

فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير مائب
فقله « غير ظالم وغير مائب » تنميم واحتياط وهو في الشعر كثير . (١)

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٤٧ ويلاحظ أن القرطبي قد استعمل « التنميم والاحتراس والاعتراض » بمعنى واحد ، مع أن الباحثين قد فرقوا بينهم فقالوا الاحتراس هو أن يؤتى في كلام يوم خلافت المقصود بما يدفع ذلك الوم ومثال ذلك قول طرفة وقول عنقرة اللذين ذكرهما القرطبي والتنميم هو أن يؤتى في كلام لا يوم خلافت المقصود بقضية لفائدة والفضيلة كالمفهوم والحال والتمييز والجار والمجرور والفائدة مثل المبالغة في المدح ومن أمثله قول زهير الذي ذكره القرطبي أى على أى حال يكون عليها من فقر أو غنى ويلقاء الانسان يلحق منه الكرم والجود، والاعتراض هو أن يؤتى في خلال الكلام أو بين كلامين متصلين في المعنى بجملة أو أكثر لامتثالها من الإعراب ، ومن أغراض الاعتراض الدعاء وذلك مثل قول الشاعر .

إن الثمانيين وبلغتها

قد أحوجت محمى إلى ترجمان

فجملة « وبلغتها » دعائية معترضة لاستمالة الممدوح واستجلاب عطفه . راجع البلاغة والادب للشيخ إبراهيم الصباغ ص ٦٢ وما بعدها .

الفصل السادس

موقف القرطبي من التفسير الرمزي

يحاول بعض الناس أن يصرف ألفاظ القرآن الكريم عن ظاهرها وأن يخرج بها عن مدلولاتها وما تحتها من معان. ثم يختار معنى غريباً يدهي أن اللفظ لا يدل عليه بطريق الظاهر. وإنما يدل عليه بطريق الرمز والإشارة ويسمى ذلك التفسير الرمزي أو الإشاري.

واشترط العلماء لقبول التفسير الرمزي شرطين : أحدهما أن يصح على مقتضى الظاهر للقرآن في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية .

وثانيهما أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض . فالشرط الأول وهو موافقة الفنة — لا بد منه — ضرورة أن القرآن عربي وكل تفسير لا تساعد عليه قواعد الفنة العربية يجب رده والحكم بطلانه .

والشرط الثاني وهو شهادة الشرع — لا بد منه كذلك — فلم يشهد لصحة هذا التفسير شاهد من الشرع أو كان له معارض صار هذا التفسير من جهة الدهاوي التي لا دليل عليها ، والدهوى المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء (١)

(١) رسالة « منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم » لزميل عبد الوهاب فايد نقلها عن الموافقات ح ٣٩٤ وذكر هذا النمى أستاذنا محمد حسين الذهبي في كتابه « التفسير والمفسرون » ح ٣ ص ٧٤ .

ولقد استعمل هذا اللون من التفسير ، الباطنية ، فقالوا في قوله تعالى « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »^(١) إن المراد بالبقرة عائشة . وقالوا في قوله تعالى « مرج البحرين يلتقيان »^(٢) إن المراد بالبحرين : علي ، وفاطمة . وقالوا في قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان »^(٣) إن المراد باللؤلؤ والمرجان : الحسن والحسين .^(٤)

والتفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية مرفوض من أساسه لا يقبله عقل ولا تساعد عليه اللغة والشريعة ، بل إنه قائم على الكفر والإلحاد . فكان الباطنية يهدفون من وراءه إلى هدم الإسلام وتقويض أركانه ، وتواصوا بذلك .

جاء في كتاب « الفرق بين الفرق » « لأبي منصور البغدادي » أن زهبا باطنياً كتب إلى آخر رسالة جاء فيها ٠٠ ٠٠ ٠٠ وإلى أوصيك بنشكرك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وتدهوم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد والنشر من القبور ، وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الأرض ، وأوصيك بأن تدهوم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فان ذلك هو لك علي القول بقدم العالم ...

ويعلق الأستاذ محمد حسين الذهبي على هذا النص فيقول « رأى هذا

(١) آية ٦٧ من سورة البقرة .

(٢) آية ١٩ من سورة الرحمن .

(٣) آية ٢٢ من سورة الرحمن .

(٤) انظر مفتاح السعادة . لطاش كبرى زادة . تحقيق كامل بكري هبة الوهاب أبوالتور . طبع دار الكتب الحديثة ، ح ٢ ص ٨٧

الزعم الباطني أن التشكيك في القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم، وراى رأيه أهل الباطن جميعا . فقالوا : لقرآن ظاهر وباطن والمراد منه باطنه دون ظاهره ، المعلوم من الفنة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الالب إلى اللشر . والمتمسك بظاهره ، منب بالشفقة في السكتاب . وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره .^(١) وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى في الآية « ١٣ » من سورة الحديد . « فضرِب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »^(٢)

كذلك استعمل الصوفية هذا اللون من التفسير . إلا أنهم لم يهملوا ظاهر القرآن كما فعل الباطنية بل اعترفوا به وفهموا من وراءه فوق ذلك رموزاً وإشارات . قالوا أن الباطن يدل عليها . يقول الإمام الغزالي وهو بصدد التعليل على مثال ذكره لتفسير الإشاري « لا تنظن من هذا النموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة من في رفع الظواهر واعتقاداً في إبطالها . حتى أقول مثلاً . لم يكن مع موسى فلان ولم يسمع الخطاب بقوله « اخلع نعليك » حاشا لله فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالمين الموراء إلى أحد الصالحين وجعلوا جهلاً بالموازنة بينهما فلم يفهموا وجهه ، كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية . فالتى يجرى الظاهر حشوى والتى يجرى الباطن باطنى والتى يجمع بينهما كامل . ولذلك قال عليه السلام « لقرآن ظاهر وباطن وحد ومطلع »^(٣) وربما نقل هذا عن علي موقوفاً عليه . بل أقول : « موسى فهم من الأمر

(١) يعني أن من وصل إلى علم الباطن انحط عنه التكليف .

(٢) للتفسير والمفسرون ج ٢ ص ٢٤٠ ، وانظر الله في بين الفرق ص ١٨٠ والمواقف ج ٨ ص ٣٨٨ والحشو يراد به التشبيه فالحشوية منهاها للشبهة .

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه . انظر المغني عن حسن الاسفار في تخريج مالى الاحياء من الاخبار ج ١ ص ١٣٦ .

بخلق النملين اطراح الكونين فانتحل الأمر ظاهرا بخلق نمليه وباطنا
بخلق الملين» (١)

موقف القرطبي من التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية :

لقد رفض القرطبي التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية . ولم يقبله .
من الأمثلة التي تؤيد هذا ما ذكره في قوله تعالى « يخرج من بطونها شراب
مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » يقول بعد أن بين أن الضمير للمسل في قول
الجمهور . . . « قال القاضي أبو بكر بن العربي : من قال إنه القرآن فبعيد ،
مأراه يصح عنهم . ولو صح نقلا لم يصح عقلا . لأن مساق الكلام كله
للمسل ليس للقرآن فيه ذكر . ثم قال : قال ابن عطية وذهب قوم من أهل
الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم وأنهم النمل
وأن الشراب للقرآن والحكمة وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس المنصور
أبي جعفر العباسي فقال له بعض من حضر : جعل الله طامك وشرابك مما
يخرج من بطون بني هاشم . فأضحك الحاضرين وبهت الآخر وظهرت سخافة
قوله » (٢)

وفي قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى
وعنا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » حاجم من يقول برجعة
الإمام على رضى الله عنه فقال : « وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس قال
له رجل : يا ابن عباس ، إن ناسا يزعمون أن عليا مبعوث بعد الموت قبل الساعة

(١) رسالة (منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم) ص ١٧٢ وانظر مفتاح السعادة

ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٣٦ آية ٦٩ من سورة النمل .

ويتأولون هذه الآية . فقال ابن هبار : كذب أولئك . إنما هذه الآية عامة
لناس . لو كان على مبعوثاً قبل القيامة مانكحنا نساءه ولا قسمنا
ميراثه « (١)

أما موقفه من التفسير الصوفي فإنه كان يقبله أحياناً ، ويرفضه أحياناً
أخرى . ففي قوله تعالى : « .. إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم السبل فتوبوا إلى
بارئكم فاقتلوا أنفسكم » يقول القرطبي . « قال بعض أرباب المعاني : هجـل
كل إنسان نفسه ، فمن أسقطه وخالف مراده فقد برى من ظله » وهاجم
القرطبي هذا الرأي ولم يرتضه لأن السياق والقرائن لا تدل عليه . فقال
« والصحيح أنه هنا هجـل على الحقيقة هيدوه كما نطق به التنزيل والحمد لله »
ثم قال في قوله تعالى « فاقتلوا أنفسكم » « قال أرباب العلو طر ذلوهـا بالطاعات
وكفوها عن الشبهات » ورد القرطبي ذلك . فقال « والصحيح أنه قتل على
الحقيقة هنا ، والقتل إماتة الحركات ، وقتلت الحركات كسرت شدتها بالماء » (٢)
وفي قوله تعالى « فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر »
الآية . يقول القرطبي : « وقال بعض من يتعاطى غوامض المعاني هذه
الآية مثل ضرب الله قلديا فشيها الله بالنهر والشارب منه بالمائل إليها .
والمستكثر منها ، والتارك لشربه بالمنصرف عنها والزاهد فيها . والمفتقر بيده
حرقه بالأخذ منها قمر الحاجة » وأحوال الثلاثة عند الله مختلفة » وهجـب
القرطبي بقوله . « قلت : ما أحسن هذا لولا ما فيه من التحريف في التأويل
والخروج عن الظاهر . ولكن مناه صحيح من غير هذا » (٣)

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٠٥ آية ٣٨ من سورة النحل

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠١ آية ٥٤ من سورة البقرة

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥١ آية ٢٤٩ من سورة البقرة

وفي قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى »
يقول : وقال بعض أهل المعاني « إنما أراد إبراهيم أن يريه كيف يحيي القلوب »
وهذا فاسد مردود بما تمقبه من البيان (١) — أى بما يحيط به من
أدلة وقرائن لا تشهد له — وفي قوله تعالى : « الذى خلقنى فهو يهدين
والذى هو يطمئنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمتننى
ثم يحين » يقول :

« وتجاوز بعض أهل الإشارات في غوامض المعاني فمدل من ظاهر
ما ذكرناه إلى ما تدفمه بدائه العقول من أنه ليس للراد من إبراهيم . فقال :
والذى هو يطمئنى ويسقين . أى يطمئنى لآلة الإيمان ويسقين حلوة القبول .
ولهم في قوله « وإذا مرضت فهو يشفين » وجهان . أحدهما : إذا مرضت
بمخالفتي شفقاني برحمته . الثاني : إذا مرضت بمقاساة الخلق شفقاني بمشاهدة
الحق . وقال جعفر بن محمد الصادق : إذا مرضت بالذنوب شفقاني بالتوبة .
ونزلوا قوله « والذى يمتننى ثم يحين » على ثلاثة أوجه : فالأول يمتننى بالمعاضى
ويحيينى بالطاعات : الثاني : يمتننى بالخلوف ويحيينى بالرجاء الثالث : يمتننى
بالطمع ويحيينى بالقناعة ، وقول رابع يمتننى بالمدل ويحيينى بالفضل ، وقول
خامس يمتننى بالفراق ويحيينى بالتلاق . وقول سادس يمتننى بالجليل ويحيينى بالعقل ،
إلى غير ذلك مما ليس بشيء منه مراد من الآية لأن هذه التأويلات الغامضة
والأمور الباطنة إنما تكون لمن حنق وعرف الحق ، وأما من كان في عي من
عن الحق ولا يعرف الحق فكيف ترمز له الأمور الباطنة ويترك الأمور
الظاهرة هذا محال . والله أعلم » (٢)

(١) انظر تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٩٩ آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٣ ص ١١١ آية ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ من سورة الضحراء .

ومن الأدلة التي تبين قبول القرطبي للتفسير الصوفي في بعض الأحيان ما ذكره في قوله تعالى : « في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » فقد قال : « قوله تعالى « فزادهم الله مرضاً » قيل : هو دهاء عليهم ويكون معنى الكلام زادهم الله شكاً وضاعاً . . . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم أى فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم ، كما قال في آية أخرى « فزادتهم رجساً إلى رجسهم » ثم قال : « وقال أرباب المعاني : في قلوبهم مرض أى يسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها » وقوله « فزادهم الله مرضاً » أى وكلمهم إلى أنفسهم وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين « ولهم هذاب أليم » بما يقى عما يبق . وقال الجنيد : هلل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن هلل الجوارح من مرض البدن . (١)

وفي قوله تعالى « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » يقول : « وقال أهل الإشارات : ذكرهم الله تعالى سفر الآخرة وحشهم على تزود التقوى فان التقوى زاد الآخرة قال الأدهى :

إذا أنت لم رحل بزاد من التقى ولا فئت بمد للوت من قد تزودا
ندمت هل إلا تكون كمثل وأنت لم ترصد كما كان أرضدا
وقال آخر :

للوت بحر طامح موجه تذهب فيه حيلة السابح
يانفس إلى قاتل ناصمى مقالة من مشفق ناصح

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٧ ب ١٠ من سورة البقرة.

لا يصحب الانسان في قبره

غير التقى والعمل الصالح (١)

وكان القرطبي ينقل عن النصوصة بعض تعريفاتهم واصطلاحاتهم . ويقبلها ولايرفضها ففي قوله تعالى « ثم هنونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون » يقول في المسألة الرابعة : « قال سهل بن عبد الله : الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والملاينة . وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاحتراف في تقصير الشكر للنعم . ولذلك قال تعالى : « اعلوا آل داود شكراً » فقال داود : كيف أشكرك يا رب والشكر منك . قال : الآن قد عرفتني وشكرتني إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة . قال يا رب فأرني أخشى نعمة على قال : يا داود تنفس فتنفس داود فقال الله تعالى : من يمضي هذه النعمة الليل والنهار ، وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأمنر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها على كله فأوحى الله اليه يا موسى الآن شكرتني . وقال الجنيد : حقيقة الشكر المعجز من الشكر وعنه . قال : كنت بين يدي السرى السعلى ألمب وأنا لسن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت ألا يمضي الله بنعمة . فقال لي : أخشى أن يكون حفظك من الله لسانك قل الجنيد فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السرى لي . وقال الشيلي : الشكر التواضع والحفاظة على الحسنات ومخالفة الشهوات وبذل الطاعات ومراقبة جبار الأرض والسماوات . وقال ذو النون المصري أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ولتظليهم بالمسكافة ولمن دونك بالإحسان والأفضال (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١٢ آية ١٩٢ من سورة البقرة

(٢) تفسير القرطبي ج ١ آية ٥٧٢ من سورة البقرة

ويبدو أن القرطبي كان يقبل التفسير الصوفي إذا لم يتناقض مع الشرع والافتة . وكان يرفضه إذا تناقض معها . وهذا موقف لأخبار هليلج . فقد بين الإمام الشاطبي أن من التفسير الصوفي مالا يقبله العقل ولا تشهد له الفتة والشرع . فقال : وقد حل بعضهم — يسمي الصوفية — قوله تعالى « ومن أعظم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » (١) على أن للساجد القلوب تمنع بالمعاصي من ذكر الله . ونقل في قوله « فاخلع نمليك » (٢) أن باطن النملين هما الكونان الدنيا والآخرة . فذكر من الشبل أن معنى « اخلع نمليك » اخلع السكل منك . تصل إلينا بالكليّة ، وعن ابن هطاء : اخلع نمليك من الكون فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب . وقال : النمل ، النفس . الوادى المقدس دين للرء أى حان وقت خلوك من نفسك والقيام بمعنا بدنك ، وقيل خير ذلك مما يرجع إلى معنى لا يوجد في النقل عن السلف .

وهذا كله ان صح نقله خارج عما تفهمه العرب ودعوى مادلل عليها في مراد الله بكلامه ولقد قال الصديق : أى سماء تظلمنى وأى أوض تظلمنى إذا قات في كتاب الله مالا أعلم . وفي الخبر : (٣) « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » وما أشبه ذلك من التحذيرات . (٤)

(١) آية ١٤ من سورة البقرة :

(٢) آية ١٢ من سورة طه .

(٣) أخرجه الترمذى عن جندب بن عبد الله في أبواب تفسير القرآن « باب ما جاء في الذى يفسر القرآن برأيه » ج ٢ ص ١٥٧

(٤) رسالة منبج ابن هليلج في تفسير القرآن الكريم ص ١٧٣ وانظر للرافعات

ج ٣ ص ٢٠٢/٤٠٣

أبرز مصادر القرطبي من التفسير الصوفي :

تفسير القرآن العظيم ، لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري (١) :

كان « القرطبي » ينقل عن « التستري » بعض الإشارات الواضحة التي لا تخالف الشرع والفتنة ومن أمثله ذلك ، ما ذكره في قوله تعالى « وإنها لسكبيرة إلا هلى اغشاهين » فقد قال « قال سهل بن عبد الله : لا يكون — أى الإنسان — خاشعاً حتى تخشم كل شجرة في جسده لقول الله تبارك وتعالى « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » وأيد القرطبي ذلك فقال : « قلت هذا هو الخشوع المحمود لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفنه فتراه مطرقة متأدباً متذللاً . وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من فلكه ، وأما للذموم ، فتكلفه والتباكى ومطاطأة الرأس كما يفعله الجهال ليرى بهمين البر والإجلال . وذلك خدع من الشيطان ونسويل من نفس الإنسان . روى الحسن أن رجلاً تنفس عند عمر بن الخطاب كأنه يتعازن . فذكره عمر : « قال لك . وكان عمر رضى الله عنه إذا تكلم أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع . وكان ناسكاً صديقاً وخاشعاً حقاً . (٢) »

وفي قوله تعالى « وإذا سألت عبادى هنى فابى قريب » الآية يقول : « وقال سهل بن عبد الله التستري شروط الهداء سبعة . أولها : التضرع . والخوف والرجاء وللداومة والخشوع والعموم ، وأكل الحلال . وقال ابن هطاء : إن الهداء أركاناً وأجنحة وأسياباً وأوقاتاً فإن وافق أركانه قوى . وإن وافق

(١) نسبة إلى تستر بضم التاء وسكون السين وفتح التاء الثانية يلد من الاهواز ولقد اختلف في سنة وفاة هذا المفسر فقيل سنة ٧٧٣ هـ وقيل ٧٨٣ راجع وفيات الأعيان

ج ١ ص ٣٨٩

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٧٥ آية ٤٥ من سورة البقرة .

أجنته طار في السماء وإن وافق موافقته فاز . وإن وافق أسبابه نجح . فأركانه
حضور القلب والرافة والاستكافة والخشوع ، وأجنته الصدق وموافقته
الأسرار . وأسبابه الصلاة على محمد ﷺ . (١)

حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي المتوفى
سنة ٤١٢ هـ . « المشهور بالسلي » :

نقل القرطبي كثيراً من تفسير « السلي » المعروف بحقائق التفسير
وجرى في قوله على نهجه السابق فلم ينقل ألتافاً أو رموزاً غامضة . وإنما
نقل الاشارات التي لاتناقض الفقه والشرح .

ففي قوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » يقول : « قال السلي في
حقيقته سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص
الفرغاني يقول : من أقر بإياك نعبد وإياك نستعين فقد برىء من الجبر
والقدر » (٢)

وكان القرطبي ينقل عن السلي ولا يشير إليه .

ففي قوله « الحمد لله رب العالمين » يقول : « ويذكر عن جعفر الصادق
في قوله « الحمد لله » من حمده بصفاته كما وصف نفسه فقد حمده . لأن الحمد
حماء وميم ودال . فالحاء من الوحدانية . والميم من الملك . والدال من القديسية .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٢ آية ١٧٦ من سورة البقرة .
(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٤٥ . وانظر حقائق السلي نسخة خطية بدار الكتب
رقم ١٥٠٠ تفسير ص ٦ .

فمن عرفه بالوحدانية والديونية والملك فقد عرفه . وهذا هو حقيقة الحمد لله . وقال شقيق بن ابراهيم في تفسير « الحمد لله » قال : هو على ثلاثة أوج : أولها إذا أهلك شيئا تعرف من أهلك . والثاني أن ترضى بما أعطاك . والثالث . ما دامت قوته في جسدك ألا تصيبه ، فهذه شرائط الحمد . ثم قال القرطبي . في المسألة السادسة : « أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه وافتتح كتابه بحمده . ولم يأذن في ذلك لغيره . بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه عليه السلام فقال : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى » (١) وقال عليه السلام « احتوا في وجوه المداحين التراب » (٢) . رواه المقداد . . . ففى الحمد لله رب العالمين : أى سبق الحمد منى لنفسى قبل أن يحمدى أحد من العالمين . وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة . وحمدى الخلق مشوب بالملل . قال هذاؤنا : فيستبجح من المخلوق الذى لم يعط السكال أن يحمده نفسه ليستجلب لها للنافع ويدفع عنها المضار . وقيل لما علم سبحانه هجر عباده عن حمد حمد نفسه بنفسه فى الأزل . فاستفراغ طرق عباده هو محل المعجز عن حمده ، ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر المعجز بقوله « لأحصى ثناء عليك » وأنشدوا :

إذا نحن أثنيّا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

قيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمة على عباده وهجرهم

(١) آية ٣٢ من سورة التجم .

(٢) الحديث أخرجه مسلم من المقداد ح ١٨ ص ١٢٨

انظر صحيح مسلم بشرح النووي .

عن القيام بواجب حمد . فحمد نفسه عنهم لتكون النعمة أهنأ لديهم حيث أسقط عنهم به فضل المنة « (١)

وفي قوله رب العالمين « بعد أن استعرض أقوال العلماء في معنى العالمين » قال : وقد ذكر أن رجلاً قال بين يدي الجنيد « الحمد لله » فقال له : أتمها كما قال الله . قل « رب العالمين » فقال الرجل : ومن العالمون حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخي فان المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ وانظر حقائق السلي ص . وما ذكره القرطبي من الإشارة في قوله تعالى « في قلوبهم مرض فرادهم الله مرضا » وفي قوله « إنكم ظالمتم أنفسكم بأخذكم المال » فقد نقله عن حقائق السلي وهم أنه هاجمه ورده . انظر حقائق السلي في الآيتين ص ١٠ وما بعدها .

الفصل السابع

الأحكام في تفسير القرطبي : منهجه وعدم تعصبه :-

لقد توسع القرطبي في ذكر الأحكام الفقهية ، وتعرض كثيراً لأراء الفقهاء وما دار بينهم من خلافات ، ولعل عنوان تفسيره يشير إلى هذا من أول وهلة فقد سماه « الجامع لأحكام القرآن » وللبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان «
والقرطبي منهج في ذكر الأحكام ينضج فيها يأتي :

الفقه المالكي :

كان القرطبي يقتصر أحياناً على آراء الإمام « مالك » وبعض فقهاء المالكية وتارة يكتب في المعرض والتوجيه لهذا الآراء دون التوقيف عليها أو مناقشتها واملح في تلك الحالة يكون قد ارتضاها .

ففي قوله تعالى « فلن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (١) يقول في للسئلة الحادثة هشة : « والعدو الحاصر لا يخلو أن يتيقن بقاؤه واستيظانه . لقوته وكثرته أولا . فإن كان الأول حل المحصر مكانه من ساعته ، وإن كان الثاني وهو مما يرجى زواله . فهذا لا يكون محصوراً حتى يبقى بينه وبين الحج مقدار ما يعلم أنه إن زال العدو لا يدرك فيه الحج ، فيحل حيث يشاء هناد ابن القاسم وابن الماجشون ، وقال أشهب : لا يحل من حصر عن الحج يمدو حتى يوم النحر ، ولا يقطع التلبية حتى يروح الناس إلى هرفة . وجه قول ابن القاسم : أنه هذا

وقت يأمن من إكمال حجه لعدوه غالب فجاز له أن يحل فيه . ووجه قول أنسب : أن عليه أن يأتي من حكم الإحرام بما يمكنه ، والتزامه إلى يوم النحر الوقت الذي يجوز التحلل بما يمكنه الإتيان به فكان ذلك عليه ^(١) .

وفي قوله تعالى « فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام » (٢) .

تحدث في المسألة الثانية عشرة من سفية الجمع بين المغرب والعشاء بالزدلفة بعد الدفع من عرفات ثم قال في المسألة الثالثة عشرة « ومن أسرع فأتى المزدلفة قبل مغيب الشفق . فقد قال ابن حبيب : لا صلاة لمن جعل إلى المزدلفة قبل مغيب الشفق . لا للإمام ولا غيره حتى يغيب الشفق . لقوله عليه السلام « الصلاة إمامك » (٣) ثم صلاها بالمزدلفة بعد مغيب الشفق ، ومن جهة المعنى أن وقت هذه الصلاة بعد مغيب الشفق . فلا يجوز أن يؤتى بها قبله ، ولو كان لها وقت قبل مغيب الشفق لما أخرت عنه »

ويقول في المسألة الثالثة عشرة « وأما من أتى هرة بعد دفع الإمام ، أو كان له هذر بمن وقف مع الإمام فقد قال ابن المواز : من وقف بعد الإمام فليصل كل صلاة لوقتها ، وقال مالك فيمن كان له هذر بمنعه أن يكون مع الإمام إنه يصل إذا غاب الشفق الصلواتين مجتمع بينهما جمع تأخير قبل أن يصل إلى المزدلفة ، وقال ابن القاسم فيمن وقف بعد الإمام : إن رجا أن يأتي المزدلفة

(١) تفسر القرطبي ج ٣ ص ٣٧٧ ، م سنه

(٢) آية ١٩٨ من سورة البقرة .

(٣) حديث حرجه البخاري في مصنفه . عرج عن سامه بن زيد . ج ١ ص ١٩٩

ثبت الليل فليؤخر الصلاة حتى يأتي المزدلفة ؛ وإلا صلى كل صلاة لوقتها . فجعل ابن المواز تأخير الصلاة إلى المزدلفة ، لمن وقف مع الإمام دون غيره ، وراعى مالك الوقت دون المكان واعتبر ابن القاسم الوقت المختار للصلاة والمكان فاذا خاف فوات الوقت المختار بطل اعتبار المكان وكان مراعاة المختار أولى . (١)

ومن الواضح في هذين النصين . أن القرطبي قد اقتصر على الفقه المالكي فنقل آراء الإمام مالك ، وآراء ابن المواز ، وابن الماجشون ، وأشب — وكل هؤلاء من فقهاء المالكية بل ومن كبارهم — ولم يعقب على هذه الآراء ولم يناقشها لأنه قد ارتضاها .

ونرى القرطبي أحيانا أخرى يفاضل بين آراء المالكية ويختار منها ففي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » — بين في المسألة الرابعة عشرة حكم التكبير في الصلاة ، وهو وقف بعض فقهاء المالكية منه . ثم اختار أقرب الآراء إلى رأى أئمة وقوى ذلك بما ذكره من الأحاديث . فقال : « وأما التكبير ما هنا تكبيرة الإحرام فسنون عند الجمهور . وكان ابن القاسم صاحب مالك يقول : من أسقط من التكبير في الصلاة ثلاث تكبيرات فما فوقها سجد للسجود قبل السلام ، وإن لم يسجد بطلت صلاته وأن نسي تكبيرة واحدة أو اثنتين سجدة أيضا للسجود . فإن لم يفعل فلا شيء عليه . وروى عنه أن التكبيرة الواحدة لا سهو على من سها فيها . وهذا يدل على أن عظم التكبير وجبته عند فرض ، وأن اليسير منه متجاوز عنه . وقال أصبح بن الفرج وعبد الله بن عبد الحكم . ليس على من يكبر في الصلاة من

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٢٢ .

أولها إلى آخرها شيء إذا كبر تكبيرة الإحرام . فإن تركها ماها سجد السهو . فإن لم يسجد ملام شيء عليه ، ولا ينبغي لأحد أن يترك التكبير عامداً لأنه سنة من سنن الصلاة . فإن فعل فقد أساء ولا شيء عليه وصلاته ماضية . ثم رجح القرطبي هذا الرأي . وبين أنه يتفق مع رأى الجمهور وساق بعض الأحاديث لتقويته . فقال : « قلت هذا هو الصحيح وهو الذى عليه جماعة فقهاء الأمصار من الشافعيين والكوفيين وجماعة أهل الحديث ولذا ليعين غير من ذهب مذهب ابن القاسم . وقد ترجم البخارى رحمه الله » باب إتمام التكبير فى الركوع والسجود « وساق حديث مطرف ابن عبد الله قال : صليت خلف هلى بن أبى طالب أنا وعمران بن حصين ، فكان إذا سجد كبر وإذا رفع رأسه كبر وإذا نهض من الركعتين كبر ، فلما قضى الصلاة أخذ بيدي عمران بن حصين فقال : لقد ذكرنى هذا صلاة محمد ﷺ . أو قال : لقد صلى بنا صلاة محمد ﷺ . وحديث هكرمة قال : رأيت رجلا هند المقام يكبر فى كل خفض ورفع وإذا وضع ، فأخبرت ابن عباس فقال : أو ليس صلاة النبى ﷺ لا أم لك . فدلل البخارى (١) رحمه الله بهذا الباب على أن التكبير لم يكن معمولا به عندهم . روى أبو إسحاق السبى عن يزيد بن أبى مريم عن أبى موسى الأشعرى قال : « صلى بنا هلى يوم الجمل صلاة أذكرنا بها صلاة رسول الله ﷺ كان يكبر فى كل خفض ، ورفع ، وقيام ، قال أبو موسى : فإمانسناها وإما تركناها عمدا » ثم علق هلى هذه الأحاديث بقوله : « قلت : أترام أعادوا الصلاة : فكيف يقال من ترك التكبير بطلت صلاته . ولو كان ذلك لم يكن فرق بين السنة والفرس . والشيء إذا لم يجب إفراده لم يجب جمعه . وبالله التوفيق » (٢) .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ح ٩٨ .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٧١ وما بعدها .

وفي قوله تعالى «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين» (١)
يقول في المسألة الحادية عشرة : « لما قال تعالى « اركعوا واسجدوا » قال بعض
هملانا وغيرهم : يكفي منها ما يسمى ركوعاً وسجوداً ، وكذلك من القيام ، ولم
يشترطوا الطمأنينة في ذلك . فأخذوا بأقل الاسم في ذلك . وكأنهم لم يسموا
الأحاديث الثابتة في إلغاء الصلاة (أي لا بالطمأنينة) قال ابن عبد البر : ولا يجزى
ركوع ولا سجود ولا وقوف بعد الركوع ولا جلوس بين السجدين حتى يتمثل
راكعاً ، وواقفاً ، وساجداً ، وجالساً ، وهو الصحيح في الأمر ، وعليه جمهور
الملاء ، وأهل النظر . وهي رواية ابن وهب وابن مصعب عن مالك . وقال
القاضي أبو بكر العربي : وقد تكررت الرواية عن ابن القاسم وغيره بوجود
الفصل وسقوط الطمأنينة وهو وهم عظيم . لأن النبي ﷺ فعلها وأمر بها ،
وهلها . فان كان لابن القاسم هنر إن كان لم يطلع عليها فما لكم أنتم وقد
انتهى العلم إليكم وقامت الحجة به عليكم . روى النسائي والدارقطني وعلي ابن
عبد الميزان عن رفاع بن رافع قال : كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ
جاءه رجل فنخل للسجد فصلى فلما قضى الصلاة جاء فسلم على رسول الله ﷺ
وعلى القوم فقال رسول الله ﷺ : ارجع فصل فإنك لم تصل . وجعل الرجل
يصلي وجعلنا نرمق صلاته لأنرى ما يصيب منها ، فلما جاء فسلم على النبي ﷺ
وعلى القوم فقال له النبي ﷺ : « وهليك ارجع فصل فإنك لم تصل » قال
هام (٢) فلا ندري أمره بذلك مرتين أو ثلاثاً فقال له الرجل : ما آتوت فلا
أدري ما هبت على من صلاتي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه لاتم صلاة أحدكم

(١) آية ٤٣ من سورة البقرة .

(٢) هام هذا هو أحد رجال سند الحديث . والحديث أخرجه النسائي في باب الرخصة
في ترك التكبير في السجود ح ٧ ص ٢٢٥ طبع التجارية .

حتى يسبح الوضوء كما أمره الله فيفعل وجهه ويديه إلى المرفقين ويمسح برأسه ورجليه ثم يكبر الله تعالى وينشئ عليه ثم يقرأ أم القرآن وما أُنزل فيه ويتيسر ثم يكبر فيركم فيضع كفيه على ركبتيه حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ثم يقول سمع الله لمن حمده ويستوى قائماً حتى يقيم صلبه ، ويأخذ كل عظم مأخذه ثم يكبر فيسجد فيمكن وجهه . قال مالك : وربما قال جبهته — من الأرض حتى تطمئن مفاصله ويسترخى ، ثم يكبر فيستوى قائماً على مقعده ، ويقيم صلبه ، فوصف الصلاة هكذا أربع ركعات حتى فرغ ثم قال : لا تتم صلاة أحدكم حتى يفعل ذلك . (١)

الفقه المقارن :

في كثير من الأحيان لم يكن الترطبي يقتصر على الفقه المالكي بل كان يضم إليه فقه المذاهب الأخرى ، ونستطيع أن نسمي ذلك بالفقه للمقارن ، ومنهجه في تلك الحالة يشبه منهجه السابق . فهو تارة يسلك مسلك العرض والتوجيه . ومثال ذلك ما ذكره في قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » (٢) فقد قال في المسألة الرابعة : « واختلف العلماء في الأفضل من المفطر أو الصوم في السفر فقال مالك والشافعي في بعض ما روى ههما : الصوم أفضل لمن قوى عليه » وجل مذهب مالك التخيير وكذلك ذهب الشافعي . قال الشافعي ومن أتبعه : وهو غير وام يهمل وكذلك « ابن ماجة » الحديث أنس قال : سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان فلم يصب الصائم على المفطر

(١) تفسير الترطبي ج ١ ص ٣٤٧ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة .

ولا المفطر على الصائم. (١) خرج مالك والبخاري ومسلم . وروى عن
 هنان بن أبي العاصي الثقفي وأنس بن مالك صاحبي رسول الله ﷺ : الصوم
 في السفر أفضل لمن قدر عليه ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه . وروى عن
 ابن عمر وابن عباس أن الرخصة أفضل ، وقال به سعيد بن المسيب ، والشعبي
 وعمر بن عبد العزيز ومجاهد ، وقتادة والأوزاعي وأحمد وإسحاق . وكل
 هؤلاء يقولون المفطر أفضل لقول الله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد
 بكم العسر » فالقرطبي في هذا النص قد استمرض آراء الفقهاء ووجه هذه
 الآراء واكتفى بذلك فلم يعلن معارضته لرأى من الآراء (٢) ولعله قد ارتضاها
 جميعا : وكذلك فعل في قوله تعالى « كتب عليكم إذا حضر أحدكم اللوت
 إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » (٣) .
 فإن القرطبي يقول في المسألة الرابعة عشرة « واختلفوا — أي العلماء — في رجوع
 الحيزين لوصية لوارث في حياة الموصى بعد وفاته . فقالت طائفة : ذلك جائز
 عليهم ، وليس لهم الرجوع فيه . هذا قول حماد بن أبي رباح وطاوس والحسن
 وابن سيرين وابن أبي ليلى والزهري وربيعة والأوزاعي . وقالت طائفة : لهم
 الرجوع في ذلك إن أحبوا . هذا قول ابن مسعود وشريح والحكم وطاوس
 والثوري والحسن بن صالح وأبي حنيفة والشافعي وأحمد وأبي ثور . واختاره
 ابن المنذر . وقرئ مالك فقال : إذا أذنوا في صحته فلمهم أن يرجعوا . وإن
 أذنوا له في مرضه حين يحجب عن ماله فذلك جائز عليهم . وهو قول إسحاق .
 احتج أهل الفتاة الأولى بأن المنع إنما وقع من أجل الورثة . فإذا أجازوا جاز
 وقد اتفقوا أنه إذا أوصى بأكثر من ثلثه لأجنبي جاز بإجازتهم ، فكذلك

(١) أخرجه التبتاوى في كتاب الصوم ج ١ ص ٢٧٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٠

(٣) آية ١٨٠ من سورة البقرة

ها هنا ، واحتج أهل القول الثاني بأنهم أجازوا شيئاً لم يملكوه في ذلك الوقت ، وإنما بملك المال بعد وفاته ، وقد يموت الوارث المستأذن قبـله ، ولا يكون وارثاً ، وقد يرثه غيره . فقد أجاز من لا يحق له فيه ، فلا يلزمه . واحتج مالك بأن قال : إن الرجل إذا كان صحيحاً فهو أحق بماله كله يصنع فيه ما شاء . فإذا أذنوا له في صحته . فقد تركوا شيئاً لم يجب لهم . وإذا أذنوا له في مرضه فقد تركوا ما وجب لهم من الحق . فليس لهم أن يرجعوا فيه إذا كان أتقده لأنه قد فات . . » ثم يقول في المسألة السادسة هـ « واختلفوا في الرجل يوصي لبعض ورثته بمال ، ويقول في وصيته : إن أجازها الورثة فهي له وإن لم يميزوه فهو في سبيل الله فلم يميزوه ، فقال مالك إن لم تميز الورثة ذلك رجع إليهم . وفي قول الشافعي وأبي حنيفة ومeyer صاحب عبد الرزاق بعض في سبيل الله » (١)

ونرى القرطبي تارة أخرى يسلك في الفقه المقارن مسلك المناقشة والتجريح ويؤيد ذلك بالحجة والدليل والأدلة كثيرة — وإليك بعضها :

في قوله تعالى « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى » (٢) يقول القرطبي في المسألة السادسة « قال مالك وأصحابه : لا ينفع المحرم إلا الاشتراط في الحج إذا خاف المحصر بمرض أو عذو . وهو قول الثوري وأبي حنيفة . وأصحابهم .

والاشتراط أن يقول إذا أهل : لبيك اللهم لبيك ومحل حيث حبست من الأرض . وقال أحمد ابن حنبل ، واسحاق ابن راهويه وأبو ثور :

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٦٥

(٢) آية ١٩٦ من سورة البقرة

لا بأس أن يشترطوه شرطه وقال غير واحد من الصحابة والتابعين - وحببتهم
حديث ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت:
يا رسول الله إني أردت الحج أأشترط؟ قال: نعم قالت: فكيف أقول قال:
« قولي ليك اللهم ليبيك وعلى من الأرض حيث حبستني » (١) أخرجه
أبو داود والدارقطني . قال الشافعي : لو ثبت حديث ضباعة لم أهدمه . وكان
محلّه حيث حبسه الله .

وهلق القرطبي على قول الشافعي بما يفيد تأييده للرأى الثاني فقال :
« قلت : قد صححه — أى الحديث — غير واحد منهم أبو حاتم البستي وابن
المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ قال لضباعة بنت الزبير « حجي واشترطي »
وبه قال الشافعي إذ هو بالمراق ثم وقف عنه بمصر . قال ابن المنذر ويقال قول
الأول — أى يقول الشافعي الأول — أقول ، وذكره عبد الرازق . أخبرنا
ابن جريج قال : أخبرني أبو الزبير أن طائفاً وعسكرمة . أخبرنا عن ابن
عباس قال : جاءت ضباعة بنت الزبير إلى رسول الله ﷺ فقالت إني امرأة
ثقيلة (٢) وإني أريد الحج فكيف تأمرني أن أهلك قال : أهلك واشترطي أن
أهلك حيث حبستني . قال فأدركت ، وهذا إسناد صحيح (٣) .

وفي قوله تعالى :

« فن تسجل في يومين فلا إثم عليه » (٤) ويقول في المسألة الزائدة عشرة

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عباس في كتاب الحج ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) أنقل للرض .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) آية ٢٠٢ من سورة البقرة .

واختلف في قدر الحمى . فقال الشافعي : يكون أصغر من الأنسلة طولا وعرضاً . وقال أبو نؤر وأصحاب الرأي : يمثل حمى الخلف . وروينا من ابن عمر أنه كان يرى الجرة يمثل بحر الغم ولا معنى لقول مالك أكبر من ذلك أحب إلى . لأن النبي صلى الله عليه وسلم من الرمي يمثل حمى الخلف ، ويجوز أن يرى بما وقع عليه اسم حصاة ، واتباع السنة أفضل . قاله ابن المنذر ، ثم قال : « قلت وهو الصحيح الذي لا يجوز خلافه لمن اهتمى واقتدى » روى النسائي عن ابن عباس قال قال لي رسول الله ﷺ خذوا العتبة وهو على راحلته « هات القط لي — فلقطت له حصيات من حمى الخلف فلما وضعتهن في يده قال : « مثال هؤلاء وإياكم والنلو في الدين فانما أهلك من كان قبلكم النلو في الدين » فدل قوله . « وإياكم والنلو في الدين » على كراهة الرمي بالجناد للكبار وأن ذلك من النلو والله أعلم (١) .

الفقه المقارن المبني على أحاديث الخلاف :

في كثير من الحالات تختلف أنظار الأئمة والفقهاء وآراؤهم في الأحكام الشرعية وكثيراً ما يقوم هذا الاختلاف على أساس أن كل واحد قد أخذ ما ذهب إليه بما روى في تلك الأحكام من الأحاديث ، فإذا ذهب بعض الأئمة مثلاً إلى إباحة حكم لأن هناك من الأحاديث ما يؤيد ذلك نرى بعضاً آخر يذهب إلى عدم إباحة ذلك الحكم بسببه لأن هناك أيضاً من الأحاديث

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١١ وما بعدها والحديث أخرجه النسائي في كتابه الحج ج ٥ ص ٢٦٨ طبع التجارية . والخلف رمى الانسان بحصاة وسوها من بين صباهية من باب ضرب .

ما يفيد ذلك ويثبت ، ومن هنا سميت هذه الأحاديث أحاديث الخلاف . ولقد استعرض القرطبي في تفسيره كثيراً من الفقه المقارن المبني على أحاديث الخلاف ، وكان منهجه في تلك الحالة أنه يحاول الجمع بين هذه الآراء بما يفعله من جمع بين الأحاديث من طريق تأويلها تأويلاً يبعد عنها التناقض والتعارض . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود » (١) . فقد قال في المسألة الرابعة استدلل الشافعي وأبو حنيفة والثوري وجماعة من السلف بهذه الآية على جواز الصلاة الفرض والنفل داخل البيت . قال الشافعي رحمه الله : إن صلى في جوفها مستقبلًا حائطا بين حيطانها فصلاته جائزة ، وإن صلى نحو الباب والباب مفتوح فصلاته باطلة ، وكذلك من صلى على ظهرها : لأنه لم يستقبل منها شيئاً وقال مالك لا يصلى فيه الفرض ولا السنن ويصلى فيه التطوع . غير أنه إن صلى فيه الفرض أعاد في الوقت وقال أصبغ : يعيد أبداً » ثم هب فقال : « قلت وهو الصحيح لما رواه مسلم عن ابن عباس قال : أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج منه فلما خرج ركع في قبل الكعبة وركعتين وقال « هذه القبلة » (٢) وهذا نص . واستعرض القرطبي بعض الأحاديث التي يخالف هذا الحديث والتي قد يستدل بها بعض الفقهاء على ما يخالف هذا الرأي الذي صححه ثم أولها حتى لا تعارض فقال : فإن قيل فقد روى البخاري عن ابن عمر قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) آية ٢٥ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه النسائي أيضاً عن أسامة بن زيد ح ٥ ص ٢٢٠

هو وأسامة ابن زيد وبلال وهنّان بن طلحة المحببى البيت . فألقوا عليهم الباب . فلما فتحوا كنت أول من ولج . فلقيت بلال فسألته : هل صلى فيه رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم بين المودين اليانين (١) . وأخرجه مسلم وفيه قال : جعل عمودين هن يساره وعموداً هن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه . وكانت البيت يومئذ على ستة أعمدة . قلنا : هذا يحتمل أن يكون صلى بمعنى دعا كما قال أسامة ، ويحتمل أن يكون صلى الصلاة المرفية . وإذا احتمل هذا وهذا سقط الاحتجاج به .

فان قيل : فقد روى ابن المنذر وغيره هن أسامة قال : رأى النبي ﷺ صوراً فى الكعبة فكنت آتية بماء فى الدلو يضرب به تلك الصور . يعنى أن الرسول ﷺ مسح الصور ولم يسل . وخرجه أبو داود الطيالسى قال حدثنا ابن أبي ذئب هن عبد الرحمن بن مهران قال حدثنا عمير مولى ابن عباس هن أسامة بن زيد قال دخلت على رسول الله ﷺ فى الكعبة ورأى صوراً قال : فدعا ببلو من الماء فأتيته به فجعل يحوها ويقول : « قال الله قوماً يصورون ما لا يخلقون » (٢) فيحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى حالة مضى أسامة فى طلب الماء . فشاهد بلال مالم يشاهده أسامة . فكان من أثبت أولى ممن نفى . وقد قال أسامة نفسه : فأخذ الناس بقول بلال وتركوا قولى ، وقد روى بمجاهد هن عبد الله بن صفوان قال قلت لعمر بن الخطاب . كيف صنع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة ؟ قال : صلى ركعتين . قلنا هذا محمول على الناقلة . ولا تعلم خلافاً بين العلماء فى صحة الناقلة فى الكعبة ، وأما الفرض فلا لأن الله تعالى حين الجبة بقوله تعالى (فولوا

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الحج ج ١ ص ١٩١ .

(٢) أخرجه البخارى بمناه هن ابن عباس ج ١ ص ١٩١ .

وجوهكم شعره» وقوله ﷺ لما خرج : « هذه القبلة » . فعينها كما عينها الله تعالى . ولو كان الغرض يصح داخلها لما قال : هذه القبلة . ثم قال القرطبي بعد ذلك : وهذا يصح الجمع بين الأحاديث وهو أولى من إسقاط بعضها فلا تعارض والحمد لله (١) .

وإذا كان بين الأحاديث عموم وخصوص أو إطلاق وتقييد جمع القرطبي بين الآراء . فأخرج من أفراد العام ما يتناوله التخصيص وحل المطلق على للتقيد : ومثال الأول ما ذكره في قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » (٢) فقد قال في المسألة الخامسة هشة « واختلفوا فيمن مات وعليه صوم من رمضان لم يقضه فقال مالك والشافعي والثوري : لا يصوم أحد من أحد . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور والليث وأبو هبيرة وأهل الظاهر : يصام منه إلا أنهم خصصوه بالنذر ، وروى مثله عن الشافعي وقال أحمد وإسحاق في قضاء رمضان : يطعم منه . احتج من قال بالصوم بما رواه مسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من مات وعليه صيام صام وليه » (٣)

إلا أن هذا عام في الصوم يخصمه ما رواه مسلم أيضاً عن ابن عباس قال : جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن أمي لقد ماتت وعليها صوم نذر — وفي رواية صوم شهر — أفأصوم عنها ؟ فقال : رأيته لو كان على أمك دين قضيته أكان يؤدي ذلك عنها . قالت : نعم ، قال :

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٤ من سورة البقرة

(٣) أخرجه مسلم في حكاية الصيام ، باب قضاء الصوم عن الميت ج ٨ ص ٢٣ .

« فصومي عن أمك »^(١). احتج مالك ومن وافقه بقوله سبحانه : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وقوله « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » وقوله « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » وبما خرجہ النسائي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : لا يصلي أحد على أحد ولا يصوم أحد عن أحد ولكن يعلم منه مكان كل يوم مدا من حنطة^(٢). ثم عقب على هذا الحديث بما يجمع بينه وبين الأحاديث التي تمارضه . فحمله على صوم رمضان دون صوم النذر فقال : قالت وهذا الحديث عام فيحتمل أن يكون المراد بقوله : لا يصوم أحد عن أحد صوم رمضان ، أما صوم النذر فيجوز بذليل حديث ابن عباس وغيره . فقد جاء في صحيح مسلم أيضاً من حديث بريدة نحو حديث ابن عباس ، وفي بعض طرقه : صوم شهرين أفاصوم منها ؟ قال « صومي منها » قالت : إنما لم تحج قط أفأحج منها ؟ قال : « حجي منها »^(٣) فقولها شهرين . يبعد أن يكون رمضان والله أعلم . وأقوى ما يحتاج به المالك أنه عمل أهل المدينة ، وبعبارة القياس الجلي ، وهو أنه عبادة بدنية لا تدخل للمال فيها . فلا تغفل عن وجوب عليه كالصلاة ، ولا ينقض هذا بالحج لأن المال فيه مدخلا .

ومثل الثاني ما ذكره في قوله تعالى « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام »^(٤). فقد قال : قيل هذا تأكيد للأمر باستقبال الكعبة وإهتمام

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيام ج ٨ ص ٢٣ و ٢٤ :

(٢) رواء الترمذي عن ابن عمر بلفظ : من مات وهاه سيام شهر فليطعم منه مكان كل يوم مكيثا . انظر التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لشيخ منصور ناصف ج ١ ص ٩٠ وما بعدها .

(٣) تفسير الترمذي ج ٢ ص ٢٨٥ وما بعدها وانظر طرق حديث ابن عباس في صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٤ و ٢٥ .

(٤) آية ١٤٩ من سورة البقرة

على أساس علمي ، فنناقش الأدلة وأبطل مالا يصلح منها واحتمد مارآه
صواباً ثم وقف بجانبه ينصر له ويدافع عنه. ففي قوله تعالى « ولا تشعروا بآياتي
ثمناً قليلاً (١) » يقول في المسألة الثانية :

وقد اختلف العلماء في أخذ الأجرة على تعليم القرآن والعلم — لهذه
الآية وما كان في معناها — فتح ذلك الزهري وأصحاب الرأي وقالوا : لا يجوز
أخذ الأجرة على تعليم القرآن. لأن تعليمه واجب من الواجبات التي يحتاج
فيها إلى نية التقرب والاخلاص. فلا يؤخذ عليها أجرة كالصلاة والصيام
وقد قال تعالى « ولا تشعروا بآياتي ثمناً قليلاً » وروى ابن عباس أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال : « معفو صبيانكم شراركم أقلام رحمة باليتيم وأهل الظلم
على المسكين (٢) » وروى أبو هريرة قال : قلت يا رسول الله ما تقول في للعلمين ؟
قال : درهمهم حرام وثوبهم صحت وكلامهم رياء » . وروى عبادة بن الصامت
قال : علمت ناساً من أهل الصفة القرآن والكتابة فأهدى إلى رجل منهم
قوساً فقلت ليست بمالك وأرى عنها في سبيل الله فسألت عنها رسول الله ﷺ
فقال « إن سرك أن تطوق بها طوقاً من ناز فافعلها » وأجاز أخذ الأجرة على
تعليم القرآن مالك والشافعي وأحمد وأبو ثور . وأكثرت العلماء لقوله عليه
السلام في حديث ابن عباس — حديث الرقية — : إن أحق ما أخذتم عليه

(١) آية ٤١ من سورة البقرة .

(٢) هذا الحديث أورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة وقال عنه إنه موضوع وتبين
سبب وضعه أن سعد ابن طريف — واضح هذا الحديث — كان له ابن فجاه يسكن
ذات يوم فقال له مالك ؟ قال : ضربي للعلم قال : والله لأجزيتك اليوم ثم وضع من فحوره
هذا الحديث ، وسيأتي بعد القرطبي لهذا الحديث وحديث أبي هريرة وابن الصامت .

أجرا كتاب الله « أخرجه البخارى (١) . وهو نص يرفع الخلاف فينبغي أن يقول » ثم قال القرطبي :

وأما ما احتج به المخالف من القياس على الصلاة والصيام ففاسد ، لأنه في مقابلة النص ، ثم إن بينهما فرقانا ، وهو أن الصلاة والصوم عبادات يختص به الفاعل ، وتعليم القرآن عبادة متعددة لنير المعلم . فتجوز الأجرة على محاولته النقل ، كتعليم كتابة القرآن . قال ابن للنذر وأبو حنيفة . يسكره تعليم القرآن بأجرة ويجوز أن يستأجر الرجل يكتب له لوحاً أو شعراً أو غناء معلوماً بأجر معلوم . فيجوز الإجارة فيما هو ممضية ويعطى فيها هو طاعة .

وأما الجواب عن الآية : فالمراد بها بنو إسرائيل وشرع من قبلنا هل هو شرع لنا ؟ فيه خلاف وهو — أى مالك — لا يقول به :

جواب ثان : وهو أن تكون الآية فيمن تبين عليه التعليم فأبى حتى يأخذ عليه أجراً . فأما إذا لم يتبين فيجوز له أخذ الأجرة بدليل السنة في ذلك . وقد تبين عليه إلا أنه ليس عنده ما ينفعه على نفسه ، ولا على غيره : فلا يجب عليه التعليم وله أن يقبل على صنعه وحرفته ، ويجب على الإمام أن يعين لإقامة الدين إطاقته والأفعال المسلمين لأن الصديق رضى الله عنه لما ولى الخلافة ، وهن لما لم يكن عنده ما يقدم به أهله فأخذ ثياباً ، وخرج إلى السوق فبيل له في ذلك ، فقال : ومن أين أنفق على عيالي ، فردوه ورفضوا له كفايته . وأما الأحاديث فليس شيء منها يقوم على ساق ولا يصح منها شيء عند أهل

العلم بالنقل . أما حديث ابن عباس فرواه سعيد بن طريف عن هكرمة عنه .
وسعيد متروك . أما حديث أبي هريرة فرواه علي بن عاصم عن حماد بن سلمة
عن أن جرم عنه . وأبو جرم مجهول لا يعرف ولم يرو حماد بن سلمة عن أحد .
يقال له أبو جرم . وإنما رواه عن أبي المهزم وهو متروك الحديث أيضاً .
وهو حديث لا أصل له ، وأما حديث عبادة بن الصامت فرواه أبو داود من
حديث المغيرة ابن زياد الموصلي عن عبادة بن نسي عن الأسود بن سلبه عنه ،
والمغيرة معروف عند أهل العلم ، ولكنه له مناكير هذا منها . قاله أبو عمر ،
ثم قال : « وأما حديث القوس فمرفوع عند أهل العلم لأن روى عن عبادة
من وجهين وروى عن أبي ابن كعب من حديث موسى ابن علي عن أبيه عن
أبي . وهو منقطع وليس في الباب حديث يجب العمل به وروى عن
الذي عليه السلام أنه قال : خير (١) الناس وغير من يخشى على وجهه
الأرض المعلمون كما خاف الدين جسدوه أهملوه ولا تستأجروهم
فتخرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال
الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبرادة له ولم وبرادة
لا يؤمن النار » (٢)

الترطبي قد رجع مذهب الإمام مالك ومن تابعه وبني ترجيعه على
أساس رد القياس لأنه في مقابلة النص : وله الحق في ذلك كما سيوضح في
بعد . ثم تأويل الآية . ويبين أن الأحاديث التي استدل بها المخالفون لاتصلح

(١) أخرجه ابن مردويه وأورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة ج ١ ص ١٩٨
ويبين أنه موضوع .

(٢) نسخة الترطبي ج ١ ص ٣٣٥ وما بعدها .

للتدليل لأن في سندهما من هو متروك لا يؤخذ منه . ومنه من هو مجهول لا يعرف ولأن فيها ما هو منقطع . وكل هذه لا تقوم على ساق ولا تصلح دليلا وحجة . وقد أجاد القرطبي إلى هنا ولكنه في النهاية قد استدل بحديث لا يصلح للتدليل . وهو ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خير الناس وخير من يمشى على الأرض الملمون » الحديث ، وهذا الحديث قد رواه ابن الجوزي بسنده إلى ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : للملمون خير الناس كلما خلق الله الذكر جدوده ، عظموم ولا تستأجروم فإن للملم إذا قال لصبي قل بسم الله الرحمن الرحيم فقال الصبي بسم الله الرحمن الرحيم كتب الله براءة للصبي وبراعة نواله فيه وبراعة للملم من النار .

وإذا كان القرطبي قد أورد هذا الحديث دليلا على جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن فإن ابن الجوزي قد أورد دليلا على عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن .

والحديث يصلح للرأيين . فرواية ابن الجوزي تقول « عظموم ولا تستأجروم » وهذه تفيد عدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن . ورواية القرطبي تقول « أعطوهم ولا تستأجروهم » وهذه تفيد الجواز . والحديث لا يصلح حجة ودليلا فكان الأولى بالقرطبي أن يقتصر على الأدلة القوية وأن يكتفي بها وخاصة أنه هاجم أدلة المخالفين وردّها . وإذا كان قد رد بعض الأحاديث لا قطعاً بها فإنه قد استدل بحديث موضوع قال منه ابن الجوزي : « لا يجوز الاحتجاج به لأنه من عمل أحد بن عبد الله الهروي الجوبيرى وكان كذاباً يضع » وقد أجمع أهل النقل على ذلك^(١) .

(١) رسالة ابن الجوزي ص ٢٣٦ تلافى التحقيق لابن الجوزي ١٨٧ وانظر التاليف المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٢٩٨ .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا ما يرى سبيل حتى تنشطوا (١) » . يقول في الصلاة الثالثة عشرة « نهى الله سبحانه وتعالى عن الصلاة إلا بعد الاغتسال ، والاغتسال معنى مقول ، ولفظه هند العرب معلوم . يعبر به عن إصرار اليد مع الماء على المستول وذلك فرقت العرب بين قولهم : غسلت الثوب وبين قولهم : أفضت عليه الماء وغسسته في الماء . وإذا تقرر هذا فاعلم أن العلماء اختلفوا في الجنب يصب على جسده الماء أو ينغمس فيه ولا يتدلك . فالمشهور من مذهب مالك أنه لا يجوز له حتى يتدلك لأن الله سبحانه وتعالى أمر الجنب بالاغتسال . كما أمر المتوضئ بنسل وجهه ويديه . وهذا قول المزني واختياره . قال أبو الفرج عرو بن محمد المالكي . وهذا هو المقول من لفظ النسل . لأن الاغتسال في الفنة هو الاغتسال ، ومن لم يمر يديه فلم يفعل غير صب الماء . لا يسيه أهل الشأن غاسلاً بل يسونه صاباً للماء . ومنغمساً فيه قال : وهى نحو هذا جاءت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « تحت كل شجرة جنابة فاعسلوا الشمر وأقوا البشرة » قال : وإقأوه — والله أعلم — لا يكون إلا بتيممه على حد ما ذكرنا .

ورد القرطبي هذا الرأي بعد أن ناقشه ، ثم انصر لرأى الجمهور ورجعه لقوة حجته ودليله فقال :

قلت : لا حجة فيها استدله من الحديث الوجهين : أحدهما — أنه قد خوفنا في تأويله . قال سفيان بن هينة : المراد بقوله عليه السلام « وأقوا البشرة »

أراد غسل الفرج وتنظيفه ، وأنه كفى بالبشرة من الفرج . قال ابن وهب :
ما رأيت أحداً أعمل بتفسير الأحاديث من ابن عينة .

الثاني : أن الحديث أخرجه أبو داود في سننه وقال فيه : وهذا الحديث
ضعيف كذا في رواية ابن داسه^(١) . وفي رواية الألباني عنه : الحارث بن وجيه
ضعيف . حديثه منكر . فسقط الاستدلال بالحديث . وبقى المولى على القسان
كما بينا ، ويعضده ما ثبت في صحيح الحديث أن النبي ﷺ أتى بصبي فبال عليه
فدعا بماء فأتبعه بوله ولم يسله ، روته عائشة ونحوه من أم قيس بنت محصن
أخرجهما مسلم^(٢) . وقال الجمهور من العلماء وجهه الفقهاء : يميز الجنب
صبي الماء والانتماش فيه ، إذا أسبغ وهم ، وإن لم يتدلك ، على مقتضى
حديث ميمونة وطائفة في غسل النبي ﷺ رواها الأئمة وأن النبي ﷺ كان
« يفيض الماء على جسده »^(٣) . وبه قال محمد بن عبد الحكم وإليه رجع
أبو الفرج ورواه من مالك : وإنما أصر بإمرار اليدين في الفسل لأنه لا يكاد
من لم يمر يده عليه يسلم من تنكب الماء عن بعض ما يجب عليه من جسده .
قال ابن العربي : لأبي الفرج القتي روى وحكي عن صاحب المذهب أن الفسل
دون ذلك (التدليك وإمرار اليد) يميزه . وما قاله مالك قط نسا ولا تخريجاً ،
وإنما هي من أوهامه . وره القرطبي على ابن العربي ، ثم ناقش بما نقله من
ابن عبد البر ما تمسك به المخالفون من الدلالة القنوية لفظ الفسل على
التدليك . فقال :

(١) ابن داسه هو أبو بكر محمد بن بكر الداسي البصري راوى سنن أبي داود .

(٢) أخرجهما مسلم في كتاب الطهارة باب حكم يول الطفل الرضيع ج ٣ ص ١٩٣

(٣) حديث ميمونة وطائفة أخرجهما مسلم في كتاب الحيض باب صفة غسل الجنابة ج ٣

« قلت قد روى هذا من مالك نصاً . قال مروان بن محمد الظاهري وهو ثقة ثقة الشاميين : سألت مالك بن أنس عن رجل انغمس في ماء وهو جنب ولم يتوضأ قال : مضت صلاته » . ثم قال القرطبي . « قال أبو عمر : فهذه الرواية فيها لم يتبدل ولا يتوضأ . وقد أجزأه عند مالك ، والمشهور من مذهبه أنه لا يميزه حتى يتبدل قياساً على غسل الوجه واليدين . وحجة الجماعة أن كل من صب عليه الماء فقد اغتسل . والعرب تقول غسلتني السماء وقد حكمت عائشة وميمونة صفة غسل رسول الله ﷺ ولم تذكر اندلصاً ، ولو كان واجباً ما تركه لأنه المبين عن الله ، وادعاه ، ولو ناله لنقل عنه كما نقل تغليل أصول شمره بالماء وغرفته على رأسه وغير ذلك من صفة غسله ووضوئه عليه السلام . قال أبو عمر : وغير ذلك أن يكون الغسل في لسان العرب مرة بالمرء (١) . ومرة بالصب والإضافة . وإذا كان هذا فلا يمنع أن يكون الله عز وجل تعبد عباده في الوضوء بإمرار أيديهم على وجوههم مع الماء ، وأن يكون ذلك غسلًا ، وأن يفيضوا بالماء على أنفسهم في غسل الجنابة والحيض ، ويكون ذلك غسلًا موافقاً لسنة غير خارج عن الأمة ، ويكون كل واحد من الأمرين أصلاً في نفسه . لا يجب أن يرد أحدهما إلى صاحبه لأن الأصول لا يرد بعضها إلى بعض قياساً — وهذا ما لا خلاف فيه بين علماء الأمة ، وإنما ترد الفروع قياساً على الأصول وبالله للتوفيق » (٢) .

القرطبي قد ناقش ما تمسك به المخالف من الأحاديث . وأسقط الاستدلال بها ثم بين أن دلالة اللفظ القنوية تؤيد ما ذهب إليه المخالف .

(١) المرء منهاها ذلك .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٠٩ وما بعدها .

وأن بعض الأحاديث يعضد هذه الدلالة . وبهذا عرض القرطبي حجة الخلع بدقة وأمانة وقواها حيث ذكر ما يؤيدها من الأحاديث . ثم عاد فبين بما قلناه من « ابن هبيل البر » أن اللفظ لا تناقض ما ذهب إليه الجمهور . وهى هذا فرأى الجمهور أقوى وأسلم .

وقد لاحظت أن القرطبي في قول الله تبارك وتعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم هذيك النكاحات في القتلى ^(١) » رجع بعض الآراء . واتصروا . وكان يمكنه أن يجمع بين الأحاديث وألا يسقط الاستدلال ببعضها . وبالتالي كان يمكنه أن يجمع بين الآراء بدون أن يلجأ إلى هذا الترجيح . يقول في المسألة الثالثة عشرة .

« روى الأئمة عن أبي شريح السلمي قال : قال رسول الله ﷺ : ألا إنكم معشر خزاعة قتلتم هذا القاتل من هذيل وإنى عاقله فمن قتل له — بعد مقاتل — هذه — قتل فأهله بين خيرتين . أن يأخذوا العقل أو يقتلوا ^(٢) » لفظ أبي داود . وقال الترمذى حديث حسن صحيح ^(٣) . وروى عن أبي شريح الخزاعى عن النبي ﷺ قال « من قتل له قاتل فسله أن يقتل أو ينفق أو يأخذ الهدية » وذهب إلى هذا بعض أهل العلم وهو قول أحمد وإسحاق . ثم قال في المسألة الرابعة عشرة . اختلف أهل العلم في أخذ الهدية من قاتل العمد فقالت طائفة : ولى المقتول بالخيار إن شاء اقتص ، وإن شاء أخذ الهدية ، وإن لم يرض المقاتل . يروى هذا عن سعيد بن المسيب وهطاء والحسن ورواه أشهب عن مالك وبه

(١) آية ١٨٢ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الدييات ج ١٥ ص ٢٥٥

(٣) أخرجه الترمذى بلفظ من قتل مؤمنا متعبدا دفع الى أولياء القاتل فان شاء قتلوه وان شاءوا أخذوا الهدية — انظر التاج ج ٣ ص ٦

قال الهيثم والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور . وحجتهم حديث أبي شريح وما كان في معناه وهو نص في موضع الخلاف ، وأيضاً من طريق النظر فإنما لزمته الهدية بغير رضاه (أى وإن لم يرض) . لأن فرضاً عليه إحياء نفسه . وقد قال الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وقال « فمن حنى له من أخيه شيئاً » أى ترك له دمه في أحد النوايا ، ورضى منه بالهدية « فاتباع بالمعروف » أى فعل صاحب الهم اتباعاً بالمعروف في اللطالبة بالدية ، وعلى القاتل أداء إليه بإحسان . أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت « ذلك تخفيف من ربكم ورحمة » أى إن من كان قبلنا لم يفرض الله عليهم خير النفس بالنفس ، فتفضل الله على هذه الأمة بالدية إذا رضى بها ولى الدم . . وقال آخرون : ليس لولى المقتول إلا القصاص ، ولا يأخذ الدية إلا إذا رضى القاتل ، رواه ابن القاسم عن مالك وهو المشهور عنه . وبه قال الثوري والكوفيون ، واحتجوا بحديث أس في قصة الربيع حين كسرت ثنية المرأة ، رواه الأئمة قالوا : « فلما حكم رسول الله ﷺ بالقصاص وقال : القصاص كتاب الله ولم يغير المحل عليه بين القصاص والدية ثبت بذلك أن الذى يجب بكتاب الله وصنقرسوه في العمدة هو القصاص » . ورجح القرطبي الرأى الأول فقال « والأول أصح لحديث أبي شريح المذكور » ثم اقتصم له فقال « وروى الربيع عن الشافعي قال : أخبرني أبو حنيفة عن ابن سنان بن الفضل الشهابي قال : حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح السلمي أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله الفداء » فقال أبو حنيفة : فقلت لابن أبي ذئب أتأخذ بهذا يا أبا الحارث ، فغضب صدى ، وصاح على صياحاً كثيراً ، وقال منى وقال : أحدكم عن رسول الله ﷺ ويقول : أتأخذ به ، نعم أخذ به وذلك الفرض على وعلى من سمعه . إن الله عز وجل تناؤه اختار محمداً ﷺ من

الناس فهداهم به وعلى يديه، واختار لهم ما اختاره له، وهى لسانه. فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا هرج لمسلم من ذلك. قال : وما سكنت هى حق تمنيت أن يسكت « (١) » .

فالقرطبي قد رجح الرأى الأول وانتصر له وقواه ، وإنى أرى أن الجمع بين الأحاديث ممكن . فلعل واقعة الربيع كانت قبل أن يعلم النبي ﷺ أن ولّى للقتول بغير النظرين إن شاء قتل . وإن شاء عقل، ويرشح لذلك أن أحاديث التخيير متأخرة . فحديث أبى شريح كان يوم فتح مكة وحديث أبى هريرة كذلك حيث أسلم قبل الفتح . فلقد روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال « من قتل له قتيل فهو بخير النظرين إما أن يفدى (أى بمطلى له الفدية وإما أن يقتل (٢) » .

على أن الحديث الذى تمسك به الفريق الآخر أصحاب الرأى الثانى . أخرجه البخارى وغيره من الأئمة . ولفظ البخارى :

روى أنس بن مالك بن النضر أن عمته الربيع لعلت جارية فسكسرت نذيتها فطلبوا العفو فأبوا والأرض فأبوا إلا القصاص . فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فأمر رسول الله ﷺ بالقصاص فقال أنس : يا رسول الله : أعكسر ثنية الربيع . لا والذى بعمك بالحق لا تنكسر نثيتها . فقال رسول الله ﷺ : « يا أنس كتاب الله القصاص » فرضى القوم فعفوا ، وقال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (٣) وهنا مما يؤيد الجمع لا الترجيح .

(١) تفسر القرطبي ج ٢ ص ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الديات باب من قتل له قتيل ٢٢٥/١ وانظر رسالة ابن الجوزى المحدث لأرميل أبو الملا على أبو الملا ص ٢١٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة البقرة الآية ١٧٠ « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » ج ٩ ص ٢٤٣ .

عدم تعصب القرطبي

لم يتعصب القرطبي لمذهب الإمام « مالك » فبرجحه وإن ضفت حجته ، ولكنه كان يرجح غيره من المذاهب . إذ رأى الحق بجانبه ، ويخرج على المذهب للمالك ، ويعلم معارضته له . كما لم يلتو القرطبي في عرض حجة الغلصم ، أو يأتي بها مبتورة مهلهلة . بل كان يعرضها بدقة وأمانة ، وكان يضيف عليها . كثيراً من الشرح والتوضيح ، ولقد مر بنا ما يؤيد ذلك . ونذكر هنا بعض الشواهد الأخرى :

في قوله تعالى « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم » الآية (١) يقول في للساعة الثانية عشرة : « قال مالك والشافعي وأبو نور وأصحاب الرأي : إذا أكل ناسياً فظن أن ذلك قد فطره فجامعاً ما كان عليه القضاء ولا كفارة عليه . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقيل في المذهب : عليه القضاء والكفارة . إن كان قاصداً لهلك حرمة صومه جرأة وتهاونا . قال أبو عمر : وقد كان يجب على أصل مالك ألا يكفر . لأن من أكل ناسياً فهو عنه مفطر بتضي يومه ذلك . فأى حرمة كُتلت وهو مفطر ، وعند غير مالك : ليس مفطر كل من أكل ناسياً الصوم » (ويلاحظ أن القرطبي قد انتقل بلا تمهيد إلى حكم آخر وهو حكم من أكل ناسياً في رمضان) ورجح القرطبي هذا الرأي مع أنه يخالف لمذهب مالك . ثم دلل على ذلك فقال : « قلت وهو الصحيح وبه قال الجمهور : إن من أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه وأن صومه تام لحديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإمّا هو رزق ساقه الله

تمالى إليه ولا قضاء عليه ، وفي رواية : ولستم صومه فان الله أطعمه وسقاه^(١) أخرجه الدارقطني وقال : إسناده صحيح ، وكلمة ثقات ، قال أبو بكر الأثرم : سمعت أبا عبد الله يسأل عن أكل ناسيا في رمضان قال : ليس عليه شيء على حديث أبي هريرة . ثم قال أبو عبد الله مالك : وزعموا أن مالكا يقول : عليه القضاء ، وضحك . وقال ابن للنفس لا شيء عليه لقول النبي ﷺ لمن أكل أو شرب ناسيا « يتم صومه » وإذا قال : « يتم صومه » فإنه فهو صوم تام كامل . ثم عرض القرطبي الأدلة التي تمسك بها المالكية في وجوب القضاء على من أفطر ناسيا وصححها ، ولكنه ما خرج عليها وبين أن هذه الأدلة لا تقف أمام النص الصريح فقال :

وإذا كان من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ، وصومه صوم تام . فعليه إذا جامع هاديا القضاء والكفارة — والله أعلم — كن لم يفطر ناسيا . (وعبارة القرطبي فيها تأييد لما ذهب إليه بعض فقهاء المالكية من أن من أفطر ناسيا ثم جامع هاديا عليه القضاء والكفارة . وفيها في الوقت نفسه رد لما ذهب إليه مالك من أن من أفطر ناسيا لا قضاء عليه ولا كفارة — فهو قد رجع بعد الانتقال من حكم إلى حكم رجع إلى الحكم الأول ثم هاد إلى الانتقال إلى الحكم الثاني) .

وقد احتج علماؤنا على إيجاب القضاء بأن قالوا : للطلوب منه صيام يوم تام لا يقع فيه حرّم لقوله تعالى « ثم أتموا الصيام إلى الليل » وهذا لم يأت به على التمام فهو باق عليه . ولعل الحديث في صوم التطوع

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة : بلفظ « من نسي وهو سائم فأكمل أو شرب فليتم صومه فانما أطعمه الله وسقاه » ورواية الترمذي : من أكل أو شرب ناسيا فلا يفطر فانما هو رزقه الله . انظر التاج الجامع للأصول في الأحاديث الرسول الشيخ منصور ناصف ج ٢ ص ٧٨ .

تلفته . وقد جاء في صحيح البخارى ومسلم : « من نسي وهو صائم فأكل أو شرب فليتم صومه » فلم يذكر قضاء ولا تمرض له . بل الذى تعرض له سقوط للواخذة ، والأمر بمغضيه على صومه ، وإتمامه . هذا إن كان واجبا فدل على ما ذكرناه من القضاء .

وأما صوم التطوع فلا قضاء فيه لمن أكل ناسيا لقوله ﷺ « لا قضاء عليه » ثم قال : قلت هذا ما احتج به هلمؤنا وهو صحيح . فولا ما صح من الشارع ما ذكرناه ، وقد جاء بالنص العرجم الصحيح . وهو ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ : « من أفطر في شهر رمضان ناسيا فلا قضاء عليه ولا كفارة » أخرجه الدارقطنى وقال : تفرد به ابن مرزوق ، وهو ثقة عن الأنصارى فزال الاحتمال وارتفع الإشكال والحمد لله ذى الجلال والإكمال (١) .

وفى قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » (٢) الآية . . يقول فى للسألة السابعة عشرة : « روى الدارقطنى عن ربيع بن رحرش عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بأنه لأهلا (٣) الهلال أمس عشية . فأمر رسول الله ﷺ للناس أن يفطروا ، وأن يقدموا إلى مصلاهم . قال الدارقطنى هذا إسناد حسن ثابت . قال أبو عمر : لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تسلي صلاة العيد فى غير يوم العيد ولا فى يوم العيد بعد الزوال . وحكى عن أبى حنيفة . واختلف قول الشافعى فى هذه المسألة . فمرة قال بقول مالك ، واختاره المزنى ،

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٢٢ وما بعدها .

(٢) آية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) أهل الرجل بالحلال وآه والحديث أخرجه أيضا ابو داود واحمد بسند صحيح انظر التاج الجامع للاصول فى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ج ٢ ص ٦٣ .

وقال إذا لم يحز أن تصلي في يوم العيد بعد الزوال . فالיום الثاني أبعد من وقتها ، وأحرى ألا تصلي فيه . وعن الشافعي رواية أخرى : أنها تصلي في اليوم الثاني ضحي . وقال البويطي : لا تصلي إلا أن يثبت في ذلك حديث قال أبو عمر : لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض ، وقد أجمعوا في سائر السنن أنها لا تقضى فهذه مثلها وقال الثوري والأوزاعي وأحمد بن حنبل يخرجون من الغد ، وقال أبو يوسف في الإملاء وقال الحسن بن صالح بن حي : لا يخرجون في الفطر ويخرجون في الأضحي قال أبو يوسف : وأما في الأضحي فيصليها بهم في اليوم الثالث . قال أبو عمر : لأن الأضحي أيام هيد ، وهي صلاة هيد ، وليس الفطر يوم هيد إلا يوم واحد . فإذا لم تصلي فيه لم تقض في غيره . لأنها ليست بفريضة فتقضى . وقال الليث بن سعد : يخرجون في الفطر والأضحي من الغد

وخرج القرطبي على مذهب مالك ، ورجح قول من ذهب إلى جواز الخروج فقال : « قلت : والقول بالخروج إن شاء الله أصبح السنة الثابتة في ذلك . ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء فيأمر بقضائه بعد خروج وقته . وقد روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يصل ركعتي الفجر فليصلها بعد ما تطلع الشمس (١) . صححه أبو محمد . قال الترمذي : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم وبه يقول سفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وابن المبارك . وروى عن ابن عمر أنه فعله .

قلت وقد قال علماؤنا : فمن ضاق عليه الوقت ، وصلى الصبح وتركه

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الصلاة انظر جامع الترمذي بشرح ابن العربي ويسى نسخة الاحوذى في شرح الترمذي لابن العربي ٣ : ٢ ص ٢١٧ .

ركعتي الفجر فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء ، وقيل : لا يصليهما حينئذ . ثم إذا قلنا يصليهما فهل ما يفعله قضاء أو ركعتان ينوب له ثوابهما هن ثواب ركعتي الفجر . قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب وذكر القضاء فجوز .

قلت ولا يبعد أن يكون حكم صلاة النطر في اليوم الثاني على هذا الأصل . لا سيما مع كونها مرة واحدة في السنة مع ما ثبت من السنة روى النسائي قال : أخبرني عمرو بن هلى قال حدثنا يحيى قال حدثنا شعبة قال حدثني أبو بشر عن أبي عمير بن أسد عن عروة له أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبي ﷺ فأمرهم أن يفتروا بعد ما ارتفع النهار وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . في رواية « يخرجوا للمصلاهم من الغد (١) » .

وإذا كان القرطبي يخرج عن المذهب المالكي لأنه لا يرى الحق بجانبه بعد النظر في أدلته ، وأدلة المخالفين له ، ومناقشة ذلك كله بأسلوب علمي . فإنه أيضاً لم يكن يبنى نقده للمخالفين له بما يشير حوله الاتهام بالتمصّب . بل كان يبنى نقده على هذا الأسلوب العلمي وهذا مثال يوضح ذلك .

في قوله تعالى : « ومن أوصافها وأوطارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين » يقول في المسألة السابقة :

« ذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء وإن دبغت . لأنها كدم الميتة ، والإخبار بالانتفاع بعد

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠٤ والحديث أخرجه النسائي في كشاف صلاة العيدين ج ٣ ص ١٨٠ .

الديباغ . ترد قوله ، واحتج بحديث عبد الله بن حكيم — رواه أبو داود — قال : قرىء علينا كتاب رسول الله ﷺ بأرض جبينة وأنا غلام شاب ، « ألا تستمعوا من الميتة بأهاب ولا هصب » وفي رواية : قبل موته بشهر . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن حكيم قال : حدثنا مشيخة لنا أن النبي ﷺ كتب إليهم . . . قال داود بن علي : سألت يحيى بن معين عن هذا الحديث . فضمعه ، وقال ليس بشيء . إنما يقول حدثني الأشياء . قال أبو عمر : ولو كان ثابتاً لا أحتمل أن يكون مخالفاً للحديث المروية عن ابن عباس ، وعائشة ، وسلمة بن الحبحق ، وغيرهم . لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن حكيم : ألا تلتفتوا من الميتة بأهاب قبل الديباغ وإذا احتمل ألا يكون مخالفاً . فليس لنا أن نجهله مخالفاً ، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن حكيم . وإن كان قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء في الخبر . فيمكن أن تكون قصة ميمونة وسماع ابن عباس منه « أيما إهاب ديبغ فقد تطهر » قبل موته بجمعة أو دون جمعة والله أعلم (١) .

فالإمام أحمد ابن حنبل . يرى أن جلد الميتة لا يطهر بالديباغ . وبالتالي لا يبيح الانتفاع به بعد ديبغه ، ودليله حديث : عبد الله بن حكيم : ولم يرتض القرطبي مذهب الإمام أحمد ابن حنبل وناقش دليله فضمعه ، ولكنه في النهاية عاد فجمع بين الأدلة . فهل قامت هذه المناقشة على أساس علمي .. أم على أساس التمسك بالحجاة ؟ . .

لقد ناقش الزميل : أبو الملا علي أبو الملا : ابن الجوزي . في رسالته هذه .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب لباس ٣٨٧/٢ والنسائي / ١٧٥ والترمذي في كتاب لباس ٣ / ٣٦ والبيهقي في كتاب الطهارة باب في جلد الميتة . ونقل عن يحيى ابن معين أنه ضف هذا الحديث وقال ليس بشيء إنما هو حدثني أشياء جبينة ورواه عنه داود بن علي .

ونقده تحت عنوان : سكوت ابن الجوزي عن بعض الأحاديث التي استدل بها الحنابلة : وأحب أن أستعرض موقف « ابن الجوزي » من هذه المسألة .
ونقد الزميل له رغم ما فيهما من طول — لأنهما يوضّحان لنا هدم نصب القرطبي . وأنه كان يقف بجانب الحق أيّنا كان .

يقول ابن الجوزي رحمه الله تعالى : مسألة جلود الميتة لا تطهر بالدباغ ، وقال أبو حنيفة والشافعي تطهر .

لنا أحاديث أشهرها حديث ابن هكيم . وهو ما رواه بسنده عن عبد الله بن هكيم قال : أتانا كتاب رسول الله ﷺ وأنا غلام شاب قبل موته بشهر أو شهرين ألا تاتفقوا من الميتة بإهاب ولا هصب . . . ثم قال ابن الجوزي :
استحجنا العظيم بأحاديث :

الحديث الأول : ما رواه بسنده عن ابن عباس قال : مر رسول الله ﷺ بشاة ميتة فقال : ألا استمتعتم بجلودها ؟ فقالوا يا رسول الله إنها ميتة . قال : إنما حرم أكلها (١) . ثم ذكر طرقاً أربعة . رواه الدارقطني بسنده زاد في الطريق الأول منها . أو ليس في الماء وللقرظ ما يطهرها : وفي الطريق الثاني : إن دباغها ذكاهما : وفي الثالث : دباغ إهابها يطهرها : وفي الرابع نحو الذي تقدم غير أنه قال : إنما حرم هليكم لحما ورخص لكم في مسكها (٢) .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطبايع والصيد باب جلود الميتة ج ١٢ من ٧٩ وأخرجه مسلم يرحم النووي ج ٤ ص ٥٦ .

(٢) المسك الجلود والجمع مسوك ، مثل فلس وفلوس .

قال الدارقطني هذه أسانيد صحاح .

والحديث الثاني بسنده عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أيما أهاب دبع فقد طهر .

الحديث الثالث بسنده عن سلمة بن الحقيق : أنه كان مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . فأتى على بيت قد أمه قربة معلقة قال : للشراب . قيل : أنها ميتة . فقال : ذكاتها دباؤها . قال أحمد بن حنبل — جون — أحذروا لا يعرف (١) .

الحديث الرابع بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «أيما إهاب دبع فقد طهر» .

الحديث الخامس بسنده عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ . قال : «طهروا كل أديم دباغه» . قال الدارقطني إسناده كلهم ثقات (٢) .

قال ابن الجوزي . ولهم حديث يرويه المغيرة بن شعبة وآخر ترويه أم سلمة كلاهما مطعون فيه فلم أر في ذكرهما قائمة . ثم قال ابن الجوزي : وأصحابنا يقولون : حديثنا متأخر . وهو خاطر والخطر مقدم .

ويقول الزميل : هذا ما ذكره ابن الجوزي في تلك المسألة ، ونلاحظ عليه أنه ذكر أحاديث مذهبه دون أن ينبه على ما فيها من ضعف ، وإهلال .

(١) سنن الدارقطني ٤٥/١ رقم ١٢ وسنن أبي داود ٣٨٧/٢ والسائي ١٧٣/٧

(٢) سنن الدارقطني ٤٨/١ ، ٤٩ ، رقم ٢٤ ، ٢٧ .

وإذا كانت مصاحبتنا لابن الجوزي وملازمته في الدراسة تقتضي الدفاع عنه فإن واجب الإنصاف والعلم يقتضينا أن نقول كلمة حق حق، وإن كانت في غير صالح ابن الجوزي . بل إن القى يهنا هو أن يسير بحسنا في طريقه العلمي السوي دون هوى أو ميل لهذا أو لذلك .

ويكفي هنا أن نبين وجوه الطعن فيما استدل به لأهل مذهبه ، وخصوصا ما يتعلق بالحديث الأول وهو حديث عبد الله بن حكيم وهي : —

الإرسال لمسم سمع عبد الله بن حكيم من النبي ﷺ .

الانقطاع لمسم سمع عبد الرحمن بن أبي ليلى من عبد الله بن حكيم .

الاضطراب في سنده فإنه تارة يقول : عن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وتارة : عن مشيخة من جبينة : وتارة عن قرأ الكتاب :

نعم إن قوله : قرىء علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بأرض جبينة وأنا غلام شاب . ما يدل على حضوره وسماعه إياه من كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن في غيره من الأحاديث : جاءنا كتاب رسول الله ، وكتب إلينا رسول الله فيحتمل أنه لم يحضره . ومنه ما كتب إلى قومنا وهذا جائز في كلامهم . وقد حققه ما روى عنه أنه قال : حدثني أشياخ بجبينة . قالوا : أتانا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو قرىء علينا كتاب رسول الله . فلم يتم حجة إذ لم يسم الأشخاص حتى نعلم أنهم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

قال الترمذي : سمعت أحمد بن الحسين يقول : كان أحمد بن حنبل يذهب إلى هذا الحديث لما ذكر فيه : قبل وفاته بشهرين : وكان يقول :

هذا آخر أمر رسول الله ﷺ . ثم ترك أحد هذا الحديث لما اضطربوا في إسناده حيث روى بعضهم فقال : هن عبد الله بن حكيم من أشياخ من جبهة .

قال الجلال لما رأى أبو عبد الله تزلزل الرواة فيه توقف .

الاضطراب في مننه . فرواه الأكثر من غير تقييد ، ومنهم من رواه بتقييد شهر أو شهرين أو أربعين يوماً أو ثلاثة أيام .

هذه بعض وجوه العطن في هذا الحديث . وقد قلل الحافظ « ابن حجر » في الفتوح : رد « ابن حبان » على من ادعى فيه الاضطراب وقال : سمع ابن حكيم الكتاب يقرأ ، وسمعه من أشياخ من جبهة عن النبي ﷺ فلا اضطراب .

أقول ولو سلم ذلك لزم أمران :

الأول : جهالة الشيوخ الذين سمع منهم وهل هم ممن يجوز الأخذ عنهم أم لا .

الثاني : الاضطراب في اللين كما سبق بيانه .

وقد رد الحافظ « ابن حجر » دعوى الاقطاع أيضاً . بمسند سماع ابن أبي ليلى من ابن حكيم محتجاً بما رواه أبو داود عنه أنه : انطلق وناس معه إلى عبد الله بن حكيم قال : فدخلوا وقمت على الباب فخرجوا إلى فأخبروني . . قال : فهذا يقتضى أن في السند من لم يسم ، ولكن صح تصريح عبد الرحمن بن أبي ليلى بسماعه من ابن حكيم فلا أثر لهذه العلة .

فتراه بعد أن يسلم بأن في السند من لم يسم . صرح بأنه لا أثر لهذه العلة وهؤلاء الذين قال ابن أبي ليلى بأنه سمعه منهم ، وأنهم ناس مجهولو العين ٢٣٢ - القرطبي

والحال ، لا تقبل روايتهم عند جماهير العلماء . والواقع أن في الحديث جهالة من جبهتين :

الأولى : في سماع عبد الله بن حكيم من أشياخه .

الثانية : في سماع عبد الرحمن بن أبي ليلى ممن دخلوا على عبد الله بن حكيم .

وعلى فرض هـ سم الانقطاع . فالحديث معلول بالإرسال ، وبالاضطراب وفي جهالة بعض روايته . وهو ماسكت عنه ابن الجوزى ، ولم يحاول إظهاره وتحقيقه كما فعل في بعض أدلة الخصم ، حتى قدحها . وهو ما نصيبه على مثله عندما يعرض لأحاديث الخلاف وتحقيقها ، ولعله لو فصل لمسالم لأصحابه قولهم : حديثنا متأخر وهو خاطر والحظر مقدم . ذلك أنه عند تقديم بعض أحاديث الحظر لابد أولاً من تحقيق صحتها ورجحانها على أحاديث الإباحة . والأمر ها هنا بالعكس . فقد ذهب الجمهور إلى ترجيح أحاديث الطهارة لصحتها ونحوها .

والقى أميل إليه في مثل هذه : الجعم بينها ذلك أن حديث ابن حكيم يمكن أن يحمل على أن معناه « لا تنتفعوا من اللينة بإهاب » . ما دام غير مدبوغ فإذا دبغت يجوز الانتفاع بها » . لأن « الإهاب » اسم الجلاء غير مدبوغ فإذا دبغ تغير ذاته ، واسمه ، أما تغير ذاته : فإنه يزول عنه تلك الرطوبة النجسة والبن والفساد ، وأما تغير اسمه : فإنه يسمى بعد الدبغ أدبجاً (١) .

وكان القرطبي فوق أنه يناقش مناقشة علمية ، ويعرض حجة القمطاء بدقة

(١) رسالة ابن الجوزى المحدث ص ٢٤٧ وما بعده .

وأمانة وبلا التواء أو تمصّب ، ويقف بجانب ما يراه حقاً وصواباً . كان فوق هذا كله هُفّ ألسان لم يتناول على مخالفته أو يجرحهم . وأشهد ما رأيت منه سوى هذا . في كل مجال ناقش فيه وجادل . وهذا مثال ينقسم بذلك .

فقد ناقش القرطبي فيه كثيراً من العلماء في مجال الهفة بأسلوب رصين متزن .

في قوله تعالى « وإن ختمت ألا تقسطوا في اليتامى »^(١) الآية : يقول في المسألة الثالثة عشرة « قوله تعالى « ذلك أدنى » ألا تمولوا » أى ذلك أقرب إلى ألا تمولوا عن الحق ، وتجهروا ، عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . يقال : مال الرجل يعمل إذا جار ومال . ومنه قولهم : مال السهم عن الهدف مال عنه . ثم نقل عن الشافعي أن معنى قوله تعالى « ألا تمولوا » ألا تكثر هيبكم ، وأن الثعلبي انتقد الشافعي فقال : وما قال هذا غيره وإنما يقال أعال يُعِيل إذا كثر هيبه . وانتقل إلى ما قاله ابن العربي فقال : وزعم ابن العربي أن عال على سبعة معان لا ثامن لها يقال : عال : مال . الثانى : زاد . الثالث : جار ، الرابع : افتقر . الخامس : أثقل حكاه ابن دريد قالت الخنساء :

ويكنى المشيرة ما هالها

السادس : عال . قام بمثونة العيال ، ومنه قوله عليه السلام « وأبدأ بمن تقول » .

السابع : عال غلب ومنه عيل صبره . أى غلب . ويقال أعال الرجل

(١) آية ٣ من سورة النساء .

كثر عياله ، وأما حال بمعنى كثر عياله فلا يصح ، وابتدأ القرطبي يناقش هذه الأقوال فقال : « قلت أما قول الثعلبي » « ما قاله غيره » فقد أسنده المارقل في سننه عن زيد ابن أسلم ، وهو قول جابر بن زيد . فهذان إمامان من علماء المسلمين ، وأئمتهم قد سبقا الشافعي إليه ، وأما ما ذكره ابن العربي من الحصر وعدم الصحة . فلا يصح وقد ذكرنا حال الأمر اشتد وتفاقم . حكاه الجوهري . وقال المروى في غريبه : وقال أبو بكر : يقال حال الرجل في الأرض يُعِيل فيها أى ضرب فيها . وقال الأحرر : يقال عالى الشيء يُعِيلِيهِ عَيْلًا وَيُعِيلًا إِذَا أَهْجَزَكَ ، وأما حال كثر عياله فذكره الكسائي وأبو عمرو الدوري وابن الأهرابي . قال الكسائي أبو الحسن علي بن حزمة : العرب تقول حال يعول ، وأعال يُعِيل أى كثر عياله . وقال أبو حاتم : كان الشافعي أهل بلغة العرب مناوله لغة : قال الثعلبي المفسر : سألت أبا عمر ، الدوري عن هذا وكان إماماً في اللغة غير مدافع فقال : هي لغة جدير وأنشد :
وأن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمشى وهالا

يعنى وإن كثرت ماشيت وحياله . وقال أبو عمر بن العلاء : لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحناً . وقرأ طلحة بن مصرف : « ألا تعيلوا » وحى حجة الشافعي رضى الله عنه . قال ابن عطية : وقدح الزجاج وغيره في تأويل حال من العيال بأن قال : إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى وفي ذلك تكثير العيال . فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثر العيال ؟ وهذا التذرع غير صحيح ، لأن السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما القادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وحكى ابن الأهرابي أن العرب تقول : حال الرجل إذا كثر عياله^(١) .

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٦ وما بعدها .

ولقد كان ابن العربي يتسو في أحيان كثيرة هلى من خالف مذهبه ، ويحمل عليهم فكان القرطبي يرد عن العلماء هذه الحملات ويبين أن هذا للسلك لا يليق بالعلماء . وفي الكتاب شواهد كثيرة تؤيد ذلك .

ففى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » (١) الآية . . يقول فى المسألة الثالثة :

قال ابن العربي : اعتقد قوم من الفاضلين تحريم أسئلة النوازل حتى تقع ، تعلقاً بهذه الآية وليس كذلك لأن هذه الآية مصرحة بأن السؤال المتهى عنه إنما كان فيما تقع للسادة فى جوابه . ولا مساءة فى جواب نوازل الوقت فافترقا ، ورحم أن القرطبي وافق ابن العربي فى رأيه . فإنه رد عليه قسوة هذا التعبير فقال : « قلت : قوله : اعتقد قوم من الفاضلين فيه قبح ، وإنما كان الأولى به أن يقول : ذهب قوم إلى تحريم أسئلة النوازل . لكنه جرى على عادته » (٢) . ثم بدأ القرطبي بمد أن انتقد هجوم ابن العربي . يصح ما ذهب إليه . فالقرطبي وإن ارتضى مذهب ابن العربي ورأيه إلا أنه لم يرتض هجومه وتماوله فانتقده ورد عن العلماء هذا التناول .

وفى قوله تعالى « ومن غرات النخيل والأعناب تتخفون منه سكرأ ورزقأ حسناً » (٣) يبين القرطبي لابن العربي . كيف تكون للنائشة وكيف تبقى هلى الإقناع لا هلى التورة والغضب ؟ ولا يمتنى أن أذكر هذه للنائشة العلمية الرائعة إلا اخوف التطويل فن أرادها فليراجعها (٤) .

(١) آية ١٠١ من سورة المائدة .

(٢) تفسير القرطبي .

(٣) آية ٦٧ من سورة النحل .

(٤) انظر القرطبي ج ١٠ ص ١٢٩ وما بعدها .

الفصل الثامن

أصول الفقه في تفسير القرطبي

لقد تعرض القرطبي لأصول الفقه في تفسيره فذكر كثيراً من أدلته وقواعده وبين أثناء عرضه للأحكام كيف تبني الفروع عليها ، وفي بعض الأحيان كان يتطرق إلى مدار من خلافت بين المذاهب حول هذه القواعد والأدلة ، والقرطبي وإن لم يتوسع في كل هذا التوسع المذكور في كتب الأصول فإن المقام يضيق عن ذكر كل ما جاء به . وسنقف على بعض ما عرضه من أصول الفقه فيما يأتي :

النص والظاهر :

قد يكون الدليل من قبيل النص وقد يكون من قبيل الطاهر ، وكل منهما طريق معترف به في استنباط الأحكام . ولقد فرق أ كثرية علماء الأصول بين النص والظاهر فقالوا : إن النص ما لا يحتمل التأويل ، أو هو الذي لا يقبل احتمالاً فيما يدل عليه . والظاهر ما يحتمل التأويل ، أو يقبل احتمالاً فيما يدل عليه ولهذا فن المقرر ، أن النص والظاهر ليسا مرتبة واحدة في الدلالة على الحكم . فالنص أقوى في الدلالة من الظاهر . فإذا تعارضا ، قسم النص على الظاهر .

ونرى القرطبي أثناء عرضه لبعض الأحكام يبرز كل ذلك لينتصر الأدلة التي بنى عليها الفقهاء مذاهبهم وأحكامهم ، ويشير إلى أنها من قبيل النص ،

أو من قبيل الظاهر . ثم نراه يرجح الأدلة التي هي من قبيل النص لأن دلالة النص على الأحكام أقوى من دلالة الظاهر .

ففي قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام »^(١) يقول القرطبي في السأله الثالثة :

من أخذ مال غيره لاهل وجه إذنت الشرع . فقد أكله بالباطل ، ومن الأكل بالباطل أن يقضى القاضي لك ، وأنت تعلم أنك مبطل . فالحرام لا يصير حلالا بقضاء القاضي . لأنه إنما يقضى بالظاهر ، وهذا إجماع في الأموال ، وإن كان هند أبي حنيفة فضاؤه ينقذ في الفروج باطنا ، وإذا كان قضاء القاضي لا يغير حكم الباطن في الأموال فهو في الفروج أولى ، وروى الأئمة عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو مما أسمع فمن قطعت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار » في رواية « فليحملها أو يذرها »^(٢) وعلى القول بهذا الحديث جمهور العلماء وأئمة الفقهاء . ثم قال القرطبي : « وهو نص في أن حكم الحاكم على الظاهر لا يغير حكم الباطن ، وسواء كان ذلك في الأموال والدماء والفروج : إلا ما حكى عن أبي حنيفة في الفروج (هنده أن قضاء القاضي ينقذ في الفروج باطنا بمعنى أنه لو شهد رجلان بطلاق رجل زوجته وحكم القاضي بشهادتهما فإن فرجها يحمل لأحد الشهود ممن يعلم أن القضية باطل) وزعم أنه لو شهد شاهدا زور على رجل بطلاق زوجته ، وحكم الحاكم بشهادتهما لعدتهما عنده . فإن فرجها يحمل لزوجها — ممن يعلم أن القضية باطل —

(١) آية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم في مكنات الأفضية ج ١٢ ص ٢ :

بعد العنة ، وكذلك لو تزوجها أحد الشاهدين جاز عنده ، لأنه لما حلت للأزواج في الظاهر كان الشاهد وغيره سواء . لأن قضاء القاضي قطع عصمتها ، وأحدث في ذلك التحليل والتحرير في الظاهر والباطن جميعاً ، ولولا ذلك ما حلت للأزواج ، واحتج بحكم الهان وقال : معلوم أن الزوجة إنما وصلت إلى فراق زوجها بالهان الكاذب الذي لو علم الحاكم كذبها فيه ، لحدها ، وما فرق بينهما . فلم يسخل هذا في عموم قوله عليه السلام « فن قضيت له من حق أخيه فلا يأخذه » الحديث (١) .

فالقرطبي قد بين أن الدليل الذي استدله الجمهور على أن حكم الحاكم على الظاهر لا يتبرم حكم الباطن ، من قبيل النص ، أي لا يحتمل تأويله ، ولا يصح أن يمارض بدليل آخر . ولهذا رجح مذهب إليه الجمهور على مذهب إليه أبو حنيفة كما يفهم من كلامه .

وفي قوله تعالى (ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) (٢) رد على الحنفية منذهبهم في النبيذ ، وبين أن ما دل على تحريمه من قبيل النص فلا يمارض . يقول القرطبي في المسألة الأولى :

« قال ابن عباس والبراء بن عازب وأبي بن مالك : إنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة : كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل اليسر ؟ — ونحو هذا — فنزلت الآية . روى البخاري عن أبي بن مالك : كنت ساق القوم في منزل أبي طلحة فنزل تحريم الخمر فأمر — أي النبي ﷺ — منادياً ينادي فقال أبو طلحة : أخرج فانظر ما هذا الصوت ، قال فخرجت فقلت هذا

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٣٨ وما بعدها .

(٢) آية ٩٣ من سورة المائدة .

مناد ينادى : ألا إن الحر قد حرمت . فقال اذهب فأهرقها . وكان الحر من
الفضيخ^(١) — قال : فجرت في سكك المدينة . فقال بعض القوم : قتل قوم
وهي في بطونهم فانزل الله عز وجل « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات
جناح فيما طعموا » الآية . ثم قال في المسألة الثالثة « هذا الحديث في نزول
الآية فيه دليل واضح : على أن نبينا التمر إذا أسكر خمر ، وهو نص لا يجوز
الاعتراض عليه . لأن الصحابة وجمعهم الله هم أهل اللسان ، وقد هفلوا أن
شرابهم ذلك خمر . إذ لم يكن لهم شراب ذلك الوقت بالمدينة خمر » وقد
قال الحكيم :

لنا خمر وليست خمر كرم ولكن من تساج الباسقات
كرام في السماء ذهبن طولاً وطلت نهارها أيدي العجزة

ومن الدليل الواضح على ذلك ما رواه النسائي : أخبرنا القاسم بن زكريا
أخبرنا عبيد الله عن شيبان عن الأعشى عن محارب بن دثار عن جابر عن
النبي ﷺ قال « الذيب والتمر هو الحر »^(٢) . وثبت بالنقل الصحيح أن
عمر بن الخطاب رضي الله عنه — وحسبك به طالما باللسان والشرح — خطب
على منبر النبي ﷺ قديماً : يا أيها الناس ألا إنه قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي
من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير . والتمر ما خمر المقل^(٣) .
وهذا أبين ما يكون في معنى الحر ، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بحضور جماعة

(١) الفضيق شراب يشخذ من البسر للفضوخ وجده من هير أن تسمه النار ، والفضوخ
للتدوخ . والحديث أخرجه البخاري في مسكتب الأثرية ج ٣ ص ٢١٣ .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الأثرية ج ٨ ص ٢٨٨ .

(٣) أخرجه البخاري في مسكتب الأثرية ج ٣ ص ٢١٣ .

من الصحابة ، وهم أهل اللسان ، ولم يفهموا من الحُر إلا ما ذكرناه . ثم قال :
وإذا ثبت هذا بطل مذهب أبي حنيفة والكوفيين القائلين بأن الحُر لا تكون
إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خرا ، ولا يتناوله اسم الحُر وإنما
يسمى نبينا وقال الشاعر :

تركت النبيذ لأهل النبيذ وصرت حليفا لمن طابه
شراب يدنس هرض الفتى ويفتح للشر أبوابه (١)

وفي قوله تعالى « فن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم »
بعد أن بين القرطبي أن العلماء أجمعوا على التمتع للراد بقوله تعالى « فن تمتع
بالعمرة إلى الحج » هو أن يحرم الرجل بمرة في أشهر الحج . وبعد فراغه
من أعمالها يحرم بالحج ، وأن عليه في تلك الحالة هديا . فإن لم يجد صام ثلاثة
أيام اختاف العلماء في مبدئها فقليل : له أن يصوم من وقت إحرامه بالحج إلى
يوم النحر . وقيل : غير هذا . وسبعة أيام إذا رجع إلى بلده وهذا مذهب مالك
والشافعي . بعد هذا كله هرض القرطبي في للسأنة الخامسة آراء كثير من العلماء
مكان صوم هذه الأيام السبعة فقال :

« قال قتادة والربيع : هذه رخصة من الله تعالى فلا يجب على أحد صوم
السبعة إلا إذا وصل إلى وطنه . إلا أن ينشدد أحد كما يفعل من يصوم في السفر
في رمضان . وقال أحمد وإسحاق : يجزيه الصوم في الطريق . وروى عن مجاهد
وهطاء . قال مجاهد : فإن شاء صامها في الطريق ، إنما هي رخصة . وكذلك قال

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ٢٩٣ وما بعدها .

عكرمة والحسن . والتقدير هند بض أهل الفة : إذا رجعت من الحج أى إذا رجعت إلى ما كنتم عليه قبل الإحرام من الحل . . وقال ابن العربي : « إن كان تخفيفاً ورخصة فيجوز تقديم الرخص وترك الرفق فيها إلى المزمة لإجماعاً ، وإن كان ذلك توقفاً فليس فيه نص ولا ظاهر أنه أراد البلاد وأنها للراد في الأغلب » . وناقش القرطبي ابن العربي وبين له أن هناك دليلاً من قبيل الظاهر يدل على أن للراد البلاد فقال : « قلت : بل فيه ظاهرة رب إلى النص بينه ما رواه مسلم عن ابن عمر قال : تمتع رسول الله ﷺ في حجة الوداع (١) بالعمرة إلى الحج وأهدى . فساق معه الهدى من ذى الحليفة ، وبدأ رسول الله ﷺ فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج ، وتمتع الناس مع رسول الله ﷺ بالعمرة إلى الحج . فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ، ومنهم من لم يهد . فلما قدم رسول الله ﷺ مكة ، قال للناس « من كان منكم أهدى فإيه لا يحمل من شيء حرم منه حتى يقضى حجه . ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمرورة وليقصر وليحلل ثم ليل بالحج وليهد . فمن لم يجد هدفاً فليهم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » الحديث . وهذا كالنص في أنه لا يجوز صوم السبعة الأيام إلا في أهله وبلده والله أعلم (٢) .

الدلالات :

قسم العلماء دلالات الألفاظ إلى أقسام كثيرة منها :

دلالة العبارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بعبارة . فإذا قال الله تعالى

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب وجوب الدم على للتمتع ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤٦٠ وما بعدها آية ٢٣٣ من سورة البقرة .

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » فإن عبارة النص تفيد أن شهادة الزور جريمة يستحق صاحبها العقاب الشديد . وإذا قال الرسول ﷺ « إن من أكبر الكبائر الإشراك بالله وهتق الوالدين وشهادة الزور » فإن هذا الحديث يفهم منه أيضاً بدلالة العبارة مقدار إثم شهادة الزور (١) .

ودلالة العبارة من أقوى الدلالات في استنباط الأحكام . ونرى القرطبي في آيات كثيرة يبرز دلالة العبارة فيقول : هذه الآية تدل على كذا ويؤخذ منها كذا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وهى المولود له رزقهن وكسوتهن » فقد قال في للسألة الثامنة : « الرزق فى هذا الحكم . العلم الكافى ، وفى هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد . لضمه وهجزه وسماء الله سبحانه للآم لأن النذاء يصل إليه بواسطتها فى الرضاع كما قال « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن » لأن النذاء لا يصل إلا بسببها ، وأجمع العلماء على أن على المرء نفقة ولده الأطفال الذين لا مال لهم . وقال ﷺ « لهند بنت عتبة وقد قالت له : إن أباً سفيان رجل شحيح وأنه لا يعطينى من النفقة ما يكفينى ويكفى بى إلا ما أخذت من ماله بغير علمه فهل على فى ذلك جناح ؟ فقال « خذى ما يكفيك وولدك بالمسروف » (٢) .

دلالة الإشارة : وهى ما يدل عليه اللفظ بغير عبارته ، ولكنه يجيء

(١) انظر الاصول لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٣ . وأصول الفقه للمرحوم الشيخ محمد الحضرى ص ١٢١ .

(٢) أخرجه مسلم عن عائشة فى كتاب الأئمة ح ١٢ ص ٧ .

نتيجة لهذه العبارة ، فهو يفهم من الكلام ولكنه لا يستفاد من العبارة ذاتها .
ومثال ذلك قوله تعالى في سياق إباحة تعدد الزوجات « فإن ختم ألا تعملوا
فواحدة » فإن ما يفهم من هذا النص بدلالة العبارة ، أن الإنسان لا يحل له
دينياً لا قضائياً أن يتزوج أكثر من واحدة . إذا تأكد أنه لا يبدل بين
أزواجه ، ويفهم منه بالإشارة أن العدل مع الزوجة واجب سواء كان متزوجاً
واحدة أم كان متزوجاً أكثر من واحدة ، وأن ظلم الزوجة حرام (١) .

ودلالة الإشارة حجة عند الفقهاء يؤخذ بها استنباط الأحكام .

ولقد أشار القرطبي إلى هذه الدلالة أثناء حديثه عن الأحكام الفقهية في
قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » فقد
علق في للسنة الثامنة والثلاثين على قوله تعالى « ولا ياب الشهداء إذا ما دهموا »
فقال : قلت : وقد يستلوح من هذه الآية دليل على أن جائزاً للإمام أن يقيم
للناس شهوداً ، ويجعل لهم من بيت المال كفايتهم . فلا يكون لهم شغل إلا بحمل
حقوق الناس حفظاً لها ، وإن لم يكن ذلك ضاعت الحقوق وبطلت . فيكون
للنبي : ولا ياب الشهداء إذا أخذوا حقوقهم أن يجيبوا والله أعلم . فإن قيل :
هذه شهادة بالأجرة . قلنا : إنما هي شهادة خالصة من قوم استوفوا حقوقهم من
بيت المال وذلك كآرأاق القضاة والولاة وجميع الصالح التي تمنى للمسلمين وهذا
من جعلها والله أعلم . وقد قال تعالى « والماملين عليها » ففرض لهم (٢) .

فحوى الخطاب : وهي إثبات حكم المنطوق به للسكوت عنه بطريق.

(١) الأصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٣ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٨٩ آية ٢٨٢ من سورة البقرة .

الأولى . وكان للمالكية يأخذون بها ويمترونها حجة . أما غير المالكية فقد اختلفوا فيها فبعضهم قد اعتبرها طريقاً من طرق معرفة الأحكام وبعضهم قد رفض ذلك . ونرى القرطبي يأخذ بها وينتصر للمالكية ومن وافقهم ويستدل ببعض الآيات على صحة العمل بها . ففي قوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه ظمناً » يقول في المسألة الثانية : « أخبر تعالى أن في أهل الكتاب المؤمنين والأمنين ، والمؤمنون لا يميزون ذلك فينبغي اجتناب جميعهم ، وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان المؤمنون كذلك ، لأن التليانة فيهم أكثر فخرج الكلام على الغالب . » ثم قال ومن حفظ الكثير وأداءه القليل أولى ، ومن خان في اليسير أو منه ، فذلك في الكثير أكثر ، وهذا أول دليل على القول بفهم الخطاب . وفيه بين العلماء خلاف كثير مذکور في أصول الفقه (١) .

ولقد قسم الأصوليون دلالة فحوى الخطاب إلى قسمين :

أحدهما : إثبات الحكم في الأكثر إذا ثبت في الأقل . لأن الكثرة تزيد الحكم قوة . ثانيهما : إثبات الحكم في الأقل ، لأن القلة تقتضي قوة في الحكم لا تكون في الكثرة ، والآية التي معنا تصلح للقسمين ، ولعل قول القرطبي يوضح ذلك . فقد قال مشيراً إلى القسم الأول : « ومن حفظ الكثير وأداءه القليل أولى ، وقال مشيراً إلى القسم الثاني : « ومن خان في اليسير أو منه فذلك في الكثير أكثر . »

ويعلق أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة على هذه الآية وهو يتحدث عن

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ، ص ١١٦ آية ٧٥ من سورة آل عمران .

غوى الخطاب فيقول « وهذا المثال يشمل النوعين ، لأن القسم الأول من الآية الكريمة يثبت حكم الأكثر في الأقل بالأولى ، والقسم الثاني منها اعتبر النفي الأكثر لأنه نفي الأقل إذ من لا يؤمن على دينار بالأولى لا يؤمن على قنطار » (١) .

مفهوم المخالفة : وهي : إثبات نقيض حكم المنطوق به للسكوت عنه . كقوله ﷺ « في سائة الفم الزكاة » فهذا يدل بمنطوقه ، على وجوب الزكاة في الفم السائة ، وبمفهومه على أن الزكاة لا تجب في غير السائة . ولم يأخذ الحنفية بمفهوم المخالفة كمطريق من طرق فهم الأحكام . هل عكس المالكية الذين أخذوا به في ذلك ويسى هندم « دليل الخطاب » (٢) .

ولقد رد القرطبي على من أنكر القول بمفهوم المخالفة أو بدليل الخطاب مستدلاً بقوله تعالى « وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به » . قل : « لا حجة في هذه الآية لمن يمنع القول بدليل الخطاب وم الكوفيون ومن وافقهم . لأن المقصود من الكلام : النهي عن الكفر أولاً وآخرأ ، وخص الأول بالذكر ، لأن التقدم فيه أهمل . فكان حكمه للذكور ولاسكوت عنه واحداً وهذا واضح » (٣) .

وينقسم مفهوم المخالفة إلى أقسام كثيرة باعتبار القيد الذي يقيد الكلام فإن أساس مفهوم المخالفة أن يكون الكلام مقيداً بقيد ، فيثبت الحكم في الحال التي اشتمل عليه القيد بمنطوقه ، ويثبت النقيض في الحال التي خلت

(١) مالك من ٣٠٠ .

(٢) راجع الأصول ، ومالك للشيخ عبد أبو زهرة من ١٣٩ ، ٢٧٠ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٣٤ آية ٤٢ من سورة البقرة .

من القيد بمفهومه . ومن القيود قيد الصفة . فن أقسام مفهوم المخالفة مفهوم الصفة نحو الحديث السابق في الزكاة (١) .

ومفهوم الصفة حجة هند للمالكية والشافعية ، وطريق من طرق استنباط الأحكام عندهم . ولقد بين القرطبي كيف بُني عليه بعض الأحكام فقال في قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن مالمسكت أيمانكم من فتيانكم للمؤمنات » : قوله تعالى : « المؤمنات » بين بهذا أنه لا يجوز التزوج بالأمة الكتابية . فهذه الصفة مشتركة عند مالك وأصحابه ، والشافعي وأصحابه ، والثوري والأوزاعي والحنبل والبصري والزهرى ومكحول ومجاهد . وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأى : نكاح الأمة الكتابية جائز . قال أبو عمر : ولا أعلم لهم سلفاً في قولهم إلا أبا ميسرة عمرو بن شرحبيل فإنه قال : إمام أهل الكتاب بمنزلة الحرائر ممن قالوا : وقوله « المؤمنات » على جهة الوصف للفاضل ، وليس بشرط ألا يجوز غيرها ، وهذا بمنزلة قوله تعالى « فإن ختم ألا تعدلوا فواحدة » فإن خاف ألا يعدل فتزوج أكثر من واحدة جاز ، ولكن الأفضل ألا يتزوج إلا مؤمنة : ولو تزوج غير المؤمنة جاز ، واحتجوا بالقياس على الحرائر ، وذلك أنه لما منع قوله « المؤمنات » في الحرائر ، من نكاح الكتابيات فكذلك لا يمنع قوله « المؤمنات » في الإمامة من نكاح إماء الكتابيات . وقال أشهب في المدونة : جائز لعبد المسلم أن يتزوج أمة كتابية . فلتع منه أنه يفضل الزوج في الحرية والدين معاً (٢) .

(١) مالك من ٢٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ من ١٤٠ آية ٢٥ من سورة النساء .

ولقد حَرَفَ الأصوليون مفهوم الوصف فقالوا « هو أن يثبت الحكم في المنطوق المقيد بوصف وأن يثبت النقيض إذا تخلف الوصف ، فالآية قد قِيدَتْ حِلَّ الإمام بأن تكون مؤمنات فلا تحل الإمام غير المؤمنات . وبهذا النظر أخذ مالك والشافعي وبعض الفقهاء (١) . واشترط المالكية للأخذ بمفهوم الصفة : ألا يخرج الصفة مخرج الغالب والمادة كقوله تعالى في آية تحريم النساء « وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » فترى هنا صفتين إحداهما : ذكرت هل يجري المادة والغالب فذكرها لا يدل هل إثبات نقيض الحكم عند عدمها وهو الحل وهو وصفين يكونان في المحجور . والأخرى : لم تكن هل هذا النحو فذكرها يُثبت نقيض الحكم وهو الحل عند عدمها ، وهو كون الأمهات قد دخلتم بهن . ولقد أشار القرطبي إلى هنا الشرط في الأخذ بمفهوم الصفة ، وناقش الظاهرية على ضوئه فقال في قوله تعالى « وربائكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن » : « الريبة بنت امرأة الرجل من غيره سميت بذلك لأنه يربيهما في حجره . فهي ربيوة . فعيلة بمعنى مفعولة ، وانفق الفقهاء على أن الريبة تحرم على زوج أمها إذا دخل بالأم . وإن لم تكن الريبة في حجره . وشذ بعض المتقدمين وأهل الظاهر فقالوا لا نهزم عليه الريبة إلا أن تكون في حجر المتزوج بأمها . فلو كانت في بلد آخر وطلق الأم بعد الفخول . فله أن يتزوج بها واحتجوا بالآية فقالوا : حَرَّمَ الله تعالى الريبة بشرطين أحدهما : أن تكون في حجر المتزوج بأمها ، والثاني : الفخول بالأم . فإذا عدم أحد الشرطين لم يوجد التحريم ، ثم قال القرطبي في رد هذا : قال الطحاوي : وإضافتهن إلى

(١) راجع الأصول للشيخ أبو زهرة ص ١٤٦ .

الحجور إنما ذلك على الأغلب مما يكون عليه الراتب ؛ لأنهم لا يجرمن إذا لم يكن كذلك » (١) .

العام والخاص

يعرف « القراني » وهو من علماء المالكية اللفظ العام بأنه الموضوع لمعنى كلى بحيث يشمل الحكم كل أحاده . فكل ما ينطلق عليه اسم العام يكون داخلاً في عموم الحكم الذي أسند إليه . فإذا قلت الإنسان البالغ مكاف بالصلاة والزكاة والحج : فكل ما ينطبق عليه اسم الإنسان داخل في هذا الحكم ، وإذا قال الشارع : السارق تقطع يده فكل من يتحقق فيه الوصف وهو السرقة يستحق ذلك الحكم . وهكذا فالعام يدل على قدر مشترك يتحقق في كل أحاده فينطبق عليه اللفظ ، وينطبق بمقتضاه الحكم ، وإذا كان اللفظ لا يطلب فيه الحكم لقدر المشترك . بل يطلب فيه البعض فهو خاص كقوله تعالى « فحرير رقبة مؤمنة » أو قوله تعالى « فحرير رقبة من قبل أن يتأصا » فاللفظ خاص فيهما لأنه لم يطلب فيه كل ما يتحقق فيه هذا الوصف بل واحد منه . وإن كان في الأول مقيداً بوصف وكان في الثاني مطلقاً عن المقيد » (٢) .

ولقد اختلف العلماء في تخصيص عام القرآن بالسنة وتضييق دائرة الخلاف أمام تخصيص النصوص العامة من القرآن ، بالأحاديث المتواترة والمشهورة ، فأغلبية العلماء تميز ذلك . ومن أمثلة الأول تخصيص قوله تعالى « يوصيكم

(١) تفسير القرطبي ج ٥ ص ١١٢ .

(٢) مائت ص ٢٨٤ .

الله في أولادكم» بقوله عليه الصلاة والسلام «القاتل لا يرث» (١) ، وبقوله ﷺ «لا يتوارث أهل القبلتين وأهل اللتين» (٢) ، ومن أمثلة الثاني تخصيص قوله تعالى «وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين» ببقوله ﷺ «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها لكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم» (٣) .

وتتسع دائرة الخلاف حول تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد فنع من ذلك الإمام أبو حنيفة . لأن دلالة العام عنده قطعية لا تحتاج إلى بيان فلا يجوز أن تخصص إلا بما هو في درجتها ، وأخبار الأحاد ليست لها هذه القوة . أما الإمام مالك فإن دلالة العام عنده ظنية ، ورغم هذا أجاز ذلك مرة ومنعه أخرى ، ولقد استنبط المالكية من فقه الإمام مالك أنه كان لا يميز تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد . إلا إذا رفع من شأنها وقواها قياس أو إجماع أو عمل أهل المدينة (٤) .

ولقد أشار القرطبي إلى اختلاف العلماء في تخصيص الكتاب بالسنة

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وانتقد بعض رواه وهو إسحاق بن هبة ، وقال عنه قد تركه بعض أهل العلم منهم أحمد بن حنبل ويقول صاحب تحفة الأحوذى : أخرجه ابن ماجه والنسائي في السنن الكبرى وقال : إسحاق متروك ثم بين أن العمل رغم هذا النقد عليه عند أهل العلم انظر تحفة الأحوذى ٦ ص ٢٩٠ .

(٢) أخرجه الترمذي عن جابر وانظر شرح تنقيح الفصول للتراث ٦٨٤ ص ٩٢ .

(٣) الأصول للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٥٣ والحديث أخرجه البخاري في كتاب النكاح عن أبي هريرة ج ٤ ص ١٦٠ .

(٤) انظر مالك ص ٣٠٨ والأصول ص ١٥٢ وانظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٣ .

إشارة عابرة في قوله تعالى « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير »^(١) الآية وبين أنه لا يجوز تخصيص الكتاب بحديث ضعيف باتفاق العلماء ، ثم أشار إلى أن الآية قد دخلها التخصيص ببعض الأحاديث فقال في المسألة الخامسة « وقد اختلف الناس في تخصيص كتاب الله تعالى بالسنة ، ومع اختلافهم في ذلك اختلفوا على أنه لا يجوز تخصيصه بحديث ضعيف قاله ابن العربي ، وقد يستدل على تخصيص هذه الآية أيضاً بما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : « غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات كنا نأكل الجراد معه »^(٢) ، وظاهره أكله كيف ما مات بهلج . أو حتف أنفه . وهذا قال ابن نافع وابن عبد الحكم وأكثر العلماء وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما . ومنهم مالك وجهور أصحابه من أكله إن مات حتف أنفه . لأنه من صيد البر ألا ترى أن الحرم يميزه إذا قتله فأشبه الغزال . وقال أشهب : إن مات من قطع رجل أو جناح لم يؤكل ، لأنها حالة قد يعيش بها وينسل^(٣) .

وفي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل يقول في المسألة السابعة : « والجهور أيضاً على أنه « لا يقتل مسلم بكافر »^(٤) أخرجه البخاري عن علي بن أبي طالب ولا يصح لهم — أي المخالفين — مما رووه من حديث ربيعة أن النبي ﷺ قتل يوم خيبر مسلماً بكافر ، لأنه منقطع ومن حديث ابن البيلماني وهو ضعيف عن ابن عمر عن النبي ﷺ مرفوعاً قال الدار قطني : « لم يسند غير إبراهيم بن أبي يحيى وهو متروك الحديث

(١) آية ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم في حكاية الصيد والذبائح ج ١٣ ص ١٠٣ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢١٧ .

(٤) أخرجه البخاري عن علي رضي الله عنه ج ٤ ص ١٣١ .

والصواب من ربيعة عن ابن البيلماني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيلماني ضعيف الحديث لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث فكيف بما يرسله .

قلت — والفائز القرطبي — فلا يصح في الباب إلا حديث البخاري وهو يخصص عموم قوله تعالى « كتب عليكم القصاص في القتلى » الآية وعموم قوله « النفس بالنفس » (١) .

ويبدو أن القرطبي كان يميل إلى تخصيص عام القرآن بأخبار الأحاد مطلقاً مثل الشافعية وكثير من المالكية ويؤيد هذا ما ذكره في قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم » فقد قال في المسألة الرابعة : قوله تعالى « إلا ما يتلى عليكم » أي يقرأ عليكم في القرآن والسنة من قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة » وقوله عليه الصلاة والسلام « وكل ذى ناب من السباع حرام » ثم قال « فلأن قيل ألقى يتلى علينا الكتاب ليست سنة . قلنا : كل سنة لرسول الله ﷺ فهي من كتاب الله . فسمم القرطبي كل ما نقل عن رسول الله ﷺ ولم يستثن أخبار الأحاد ، وبين أن كل ما نقل فهو من كتاب الله . ثم قال والدليل عليه أمران أحدهما : حديث السيف « لأقضي بينكما بكتاب الله » (٢) والرجم ليس منصوصاً بكتاب الله . الثاني : حديث ابن مسعود « وما لي إلا أن من لمن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله » (٣) . الحديث . على أن استاذنا الشيخ محمد أبو زهرة قد هلك

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٤٧ آية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ج ١٣ ص ٨٣

(٣) حديث السيف أخرجه البخاري عن أبي هريرة ج ٤ ص ١١٠

(٤) أخرجه مسلم في كتاب القصاص ج ١٤ ص ١٠٥ .

على حديث الرجم بأنه حديث آحاد فقال وهو يتحدث عن موقف الحنفية والشافعية حول تخصيص الكتاب بأحاديث الآحاد . وإذا كانت دلالة العام في القرآن قطعية — أى عند الحنفية — فأحاديث الآحاد لا تخصص هام الكتاب وقد خالف في ذلك الشافعي ومن تبعه فإتهم يخصمون عام القرآن ، بالأحاديث ويضربون لذلك مثلاً بقوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » فإنها بعمدتها عام تشمل المحصنة وغير المحصنة . ولكنها خصصت بغير المحصن ، وخصصها حديث الرجم وهو خبر آحاد وليس بمحدث عامة — أى ليس متواتراً — « (١) .

وإذا كانت الآيات العامة في القرآن تخصص بالأحاديث فإنها تخصص أيضاً بآيات أخرى وذلك مثل قوله تعالى « وللمطلقات يتربص بأنفسهن ثلاثة قروء » فإنها قد خصصت بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فإلكم عليهن من هدة تمتدونها » وبقوله « وأولات الأحال أجلهن أن يضعن حملهن » ويسمى كل هذا مخصصاً مستقلاً . وذهب العلماء إلى أن عام القرآن يخص أيضاً بمخصص متصل ، والمخصصات المتصلة كثيرة منها : الاستثناء نحو قوله تعالى « والشراء ينهمم الفالوون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ونحو قوله « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً » (٢) وإذا جاء الاستثناء بعد جمل متماطة بالواو أو نحوها قبل يصرف إلى الجملة الأخيرة وحدها أو إلى جميع الجمل . وبعبارة أخرى هل يخصص الاستثناء الجملة الأخيرة أو جميع الجمل ؟ .

(١) أبو حنيفة للشيخ أبو زهرة ص ٧٧٥ .

(٢) الاقان للسيوطي ج ٢ ص ١٦ بصرف .

اختلاف العلماء في ذلك فذهب قوم إلى أن الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة ، إلا إذا دل الدليل على خلاف ذلك وقال آخرون : يرجع إلى الجميع إلا أن يدل الدليل على خلاف ذلك . وقال قوم : يتوقف في الجميع إلا أن يدل الدليل . ولكل فريق أدلة وحجج . فمن حجج المميين أنها قالوا : لا فرق بين أن يقول : عاقب من قتل وسرق وزنى إلا من تاب في رجوع الاستثناء إلى الجميع . وبجواب عن هذا الدليل بأن هذا قياس في اللغة .

ومن حجج المحصبين بالجملة الأخيرة قولهم : إطلاق الكلام الأول معلوم ودخوله تحت الاستثناء مشكوك فيه ، فلا ينبغي أن يخرج منه ما دخل فيه إلا ييقن ، وهذا الكلام فاسد . لأنه غير مسلم إطلاق الأول قبل تمام الكلام ، وما تم الكلام حتى أوقف باستثناء يرجع إليه عند المميين ، ويحتمل الرجوع إليه عند للتوقف وقال أرباب الوقف : إذا بطل التميم والتخصيص . لأن كل واحد منهما محكم . فيجب التوقف لأحدهما . قال النزالي : وهذا هو الحق ، وإن لم يكن بد فذهب المميين أولى ، لأن الواو ظاهرة في العطف وذلك يوجب الاتحاد بين للمعطوف والمعطوف عليه ، ومذهب المميين هو الاختار هندا لأن المتبادر من الإطلاق في حرف التنخاطب ، فإذا دل دليل على غير ذلك يميل به ، (١) .

ولقد بين القرطبي موقف العلماء من الاستثناء ورجح للتوقف ، ثم عاد فرجح موقف المميين ، لأن كثيراً من القرائن تشهد له ، وذكر القرطبي كل هذا في قوله تعالى « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم

(١) أصول الفقه للرحوم ، الشيخ محمد الحنفى ، ص ١٩٨ وما بعدها يتصرف .

ثمانين جلة ولا تنبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » يقول القرطبي في المسألة الرابعة والعشرين : الاستثناء إذا تقب جلامطوفة صاد إلى جميعها عند مالك والشافعي وأصحابهما ، وعند أبي حنيفة وجل أصحابه ، يرجع الاستثناء إلى أقرب مذكور وهو الفسق . ولهذا تقبل شهادته ، فإن الاستثناء راجع إلى الفسق خاصة لا إلى قبول الشهادة . وسبب الخلاف في هذا الأصل سببان أحدهما : هل هذه الجمل في حكم الجملة الواحدة للمطف الذي فيها أو لكل جملة حكم نفسها في الاستقلال ، وحرف المطف محسن لا مشرك ، وهو الصحيح في مطف الجمل ، لجواز عطف الجمل المختلفة بعضها على بعض على ما يعرف من النحو . السبب الثاني : يشبه الاستثناء بالشرط^(١) في هوده إلى الجمل المتقدمة فإنه يعود إلى جميعها عند الفقهاء . أولا يشبه به لأنه من باب القياس في اللغة وهو قاصد على ما يعرف في أصول الفقه .

والسببان اللذان ذكرهما القرطبي - وهما على ما أعتقد من أدلة كل فريق - فمن قال إن الجمل في حكم الجملة الواحدة للمطف الذي فيها عَمَمَ . ومن قال إن لكل جملة حكما مستقلا أعاد الاستثناء إلى الجملة الأخيرة . ومن قال إن الشرط يشبه الاستثناء أعاد الاستثناء إلى الجميع . ومن قال إن هذا قياس والقياس لا يجوز في اللغة أرجعه إلى الجملة الأخيرة .

ثم بين القرطبي أن هذه الحجج عملة ولا ترجيح لبعضها فالأصل التوقف.

(١) اتفق الفقهاء على أنه لو قال قائل : والله لا أكلم ولا شريت إن شاء الله تلقى الشرط بالثنتين ، وإذا ألحق الاستثناء بالشرط كان قياساً في اللغة وهو قاصد ويسمى الشرط استثناء تجوزاً لأنه يقوم مقام « إلا » في الإخراج ، انظر للمصدر السابق وانظر شرح تنقيح الأصول ص ١٠٥ .

يقول القرطبي : « والأصل أن كل ذلك محتمل ولا نرجح . فتمن ما قاله
القاضي من الوقف ، ويتأيد الإشكال بأنه قد جاء في كتاب الله عز وجل كلا
الاصرين . . فإن آية المحاربة « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ... » إلخ
فيها هود الضمير إلى الجميع باتفاق ، وآية قتل المؤمن خطأ « وما كان لمؤمن
أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » فيها رد الاستثناء إلى الأخيرة باتفاق .. وآية القذف
محتملة الوجهين ، فتمن الوقف من غير من . قال علماؤنا : وهذا نظر كلي
أصولي » ثم قال : « ويترجح قول مالك والشافعي ورحمهما الله من جهة نظر
الفقه الجزئي بأن يقال : الاستثناء راجع إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة
جميعاً . إلا أن يفرق بين ذلك بخبر يجب التسليم له . وأجمعت الأمة على أن
التوبة تمحو الكفر فيجب أن يكون ما دون ذلك أولى والله أعلم . قال
أبو هيب : الاستثناء يرجع إلى الجمل السابقة قال : وليس من نسب إلى اصنا
بأعظم جرماً من مرتكب الزنا . ثم الزاني إذا تاب قبلت شهادته لأن التائب
من الذنب كمن لا ذنب له . وإذا قبل الله التوبة من العبد كان العباد بالقبول
أولى ، مع أن مثل هذا الاستثناء موجود في مواضع من القرآن منها قوله تعالى
« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله — إلى قوله — إلا الذين تابوا »
ولاشك أن هذا الاستثناء إلى الجميع . وقال الزجاج : وليس القاذف بأشد جرماً
من الكافر ، فحقه إذا تاب وأصلح أن تقبل شهادته ، قال وقوله « أبداً » أي
ما دام قاذفاً كما يقال : لا تقبل شهادة الكافر أبداً فإن مناه ما دام كافراً .
وقال الشعبي للمخالف في هذه المسألة : يقبل الله توبته ولا تقبلون شهادته . ثم إن
كان الاستثناء يرجع إلى الجملة الأخيرة هند أقوام من الاصوليين فقوله
« وأولئك هم الفاسقون » تحليل لاجلة مستقاة بنفسها . أي لا تقبلوا شهادتهم
لفسقهم . فإذا زال الفسق فلم لا تقبل شهادتهم ؟ ثم توبة القاذف ، إكنا به

نفسه ، كما قال عمر لقد ذقت المنيعة بمحضرة الصحابة من غير نكير مع إشاعة القضية وشهرتها من البصرة إلى الحجاز وغير ذلك من الأقطار ، ولو كان تأويل الآية ما تأوله الكوفيون لم يجوز أن يذهب علم ذلك عن الصحابة ولقالوا لعمر : لا يجوز قبول توبة القاذف ، ولم يسمهم السكوت عن القضاء بتحريف تأويل الكتاب . فسقط قولهم والله المستعان ^(١) .

تخصيص العام بالعرف والمادة :

العرف إما قولى وإما حلى . فالعرف القولى : أن يكون الناس قد تعارفوا إطلاق اللفظ العام على بعض أفرادها كما تعارفوا إطلاق الدابة على الحمار . ويسمى هذا العرف : عادة المخاطبين في الاستعمال أو المادة القولية . ولقد اتفق الأصوليون على جواز تخصيص النصوص العامة به . لأن الشارع إنما يخاطب الناس بما تعارفوه من الاطلاقات .

ولقد أبرز القرطبي ذلك وبين ما ذهب إليه الأصوليون . ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة » الآية ، يقول في المسألة السابعة والعشرين : قوله تعالى « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط » تقدم في النساء مستوفى ونزيد هنا مسألة أصولية أغفلناها هناك . وهي تخصيص الميموم بالمادة الثالبة . فإن الغائط كناية عن الأحداث الخارجة من المخرجين فهو عام . غير أن جل هوائنا خصصوا ذلك بالأحداث المعتادة

(١) تفسير القرطبي ج ١٢ ص ١٨٠ وما بعدها آية ٤ ، هـ من سورة النور . وحديث ما قاله عمر لقد ذقت المنيعة ورد في أسد الغابة ج ٤ ص ٤٠٧ أن للنيعة جن شعبة ولله عمر البصرة ولم يزل عنها حتى شهد عليه بالزنى فعزل ثم ولاه الكوفة فلم يزل عنها حتى قتل عمر .

الخارجة على الوجه المعتاد . فلو خرج غير المعتاد كالخفى والحدود ، أو خرج المعتاد على وجه السلس والمرض ، لم يكن شيء من ذلك ناقضا ، وإنما صاروا إلى اللفظ لأن اللفظ مهما تقرر لمدلوله عرف غالب في الاستعمال ، سبق ذلك الغالب لفهم السامع حالة الإطلاق ، وصار غيره مما وضع له اللفظ بعيداً عن الذهن . فصار غير مدلول له وصار الحال فيه كالحال في الدابة فإنها إذا أطلقت سبق فيها الذهن إلى ذوات الأربع ، ولم تخطر النملة ببال السامع . فصارت غير مرادة ولا مدلوله لذلك اللفظ ظاهراً . والمخالف يقول : لا يلزم من سبقية الغالب ، أن يكون للنادر غير مراد فإن تناول اللفظ لهما واحد وضعاً ، وذلك يدل على شعور المتكلم بهما قصداً . والأول أصح وتتمته في كتب الأصول (١) .

أما العرف المعلى (٢) فقد أجاز الامام مالك تخصيص العام به ومنع ذلك الجمهور . ولقد امتدح القرطبي وجهة نظر الامام مالك هذه ، ويبدو من كلام القرطبي أن أحداً من الأئمة لم يقل به ولم يفتن إليه . على عكس ما ذهب إليه بعض الباحثين من القدامى والمحدثين (٣) .

يقول القرطبي في قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » : قوله تعالى « وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم » أى لأولادكم غير الواحدة قاله الزجاج .

(١) تفسير القرطبي ج ٦ ص ١٠٤ آية ٦ من سورة المائدة

(٢) مناه قصر اللفظ العام على ما جرت عادة المخاطبين الفعلية عليه وذلك كلفظ الطعام فإنه عام فإذا جرت عادة بعض المخاطبين ألا يأكل إلا نوهاً مبيتاً ثم حلف ألا يأكل طعاماً فهل يحسن إذا أكل أى طعام أو لا يحسن إلا إذا أكل ما جرت طادته بأكله قال الجمهور : يحسن بأكل أى نوع من أنواع الطعام . وقال مالك : لا يحسن إلا إذا أكل ما جرت طادته بأكله انظر شرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

(٣) أنظر الأصول للشيخ الحنفرى ص ٢٠٣ وشرح تنقيح الفصول ص ٩٤ .

قال النحاس: التقدير في العربية أن تسترضوا أجنبية لأولادكم مثل «كلوم أو روزنوم»، أي كلوا لهم أو وزنوا لهم . وحذفت اللام لأنه يتمدى إلى مغولين أحدهما بحرف، وأشد سيوييه .

أمرُك الخَيْرَ فافضل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نَسَب

ولا يجوز دهوت زيدا . أي دهوت يزيد . لأنه يؤدي إلى التلبيس فيعتبر في هذا النوع ، السباع . ثم عقب القرطبي بقوله ؟ قلت : وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز انتهاذ الظئر ، إذا انفق الآباء والأمهات على ذلك ، وقد قال حكيمه في قوله تعالى « لا تضار المرأة » معناه الظئر حكاه ابن عطية ، والأصل أن كل أم يلزمها رضاع ولدها كما أخبر الله عز وجل ، فأمر الزوجات بإرضاع أولادهن وأوجب لهن على الأزواج النفقة والسكوة . والزوجية قائمة . فلو كان الرضاع على الأب لذكره مع ما ذكره من رزقهن وكسوتهن . إلا أن مالكا رحمه الله دون فقهاء الأمصار استثنى الحسيبة فقال : لا يلزمها رضاعة فأخرجها من الآية ، وخصصها بأصل من أصول الفقه وهو العمل بالعادة . وهذا أصل لم يغفلن له ابن مالك والأصل البديع فيه أن هذا أمر كان في الجاهلية في ذوى الحسب وجاء الإسلام فلم يغيره ، وعادى ذوو الثروة والأحساب على تفرغ الأمهات للتمتع بدفع الرضاعة للمواضع إلى زمانه . فقال به ، وإلى زماننا فتحققنا ، شره (١) .

صفة الأمر ومذاهب العلماء في حقيقتها :

إذا تجمعت صيغة الأمر عن القرائن فهل تدل على طلب الفضل على جهة

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٧٢ آية ٢٢٣ من سورة البقرة .

الرجوب أو اللنب ؟ ذهب جمهور العلماء إلى أنها في تلك الحالة تدل على طلب الفعل على جهة الرجوب . فآله تبارك وتعالى قد قال ثلاثاً : « اسجدوا لآدم » فاستلوا ، وأبى إبليس السجود . فقال الله له « ما منعك من ألا تسجد إذ أمرتك » ولم يأمر إلا بقوله « اسجدوا » وكذلك ذم الله قوفاً بعدم امتثال ما أمروا به فقال « وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون » ولم يأمرهم إلا بقوله « اركعوا » وهو صيغة لا قرينة معها .

وذهب جماعة من العلماء إلى أنها في تلك الحالة للنب . وهناك أقوال وراء أخرى لا داعي لتفصيلها . ويقول أستاذنا الشيخ محمد الحضرى مؤيداً رأى الجمهور ، والقى يظهر لنا من استقراء الأدلة ، أن وضع صيغة « أفعل » إنما هو لطلب الفعل طلباً حتماً ، ويلزم من ذلك إذا كان لطلب سيادة على المطلوب منه ، أن يكون بالفعل مستحقاً للرضا والثواب ، وبالكف مستحقاً للعقوبة والعقاب . وهذا هو الذى يلزم أن يكون قاعدة لفهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لو فرضنا أن تأتى فيهما هذه الصيغة مجردة عن القرائن . فأمّا إن احتفت بالصيغة قرينة تبين المراد فقد خرجت عن موضوع النزاع بين المصوم . وهذا معقلم ما ورد فى التفسير كما يدل عليه الاستقراء (١) .

ولقد أشار القرطبي إلى هذا هندياً بين على النزاع بين العلماء فى «اللمعة» وذلك فى قوله تعالى « وتموهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره » ورجح قول من قال بوجوب اللعة مسكاً بمقتضى الأمر ، وغير ذلك من القرائن والأدلة فقال : قوله تعالى « وتموهن » معناه أعطوهن شيئاً يكون منها

لهن . وحله ابن عمرو على بن أبي طالب والحسن بن أبي الحسن وسعيد بن عمير وأبو قلابة والزهرى وقتادة والضحاك بن مزاحم — على الوجوب ، وحله أبو هيب ومالك بن أنس وأصحابه والقاضى شريح وغيرهم — على الذنب . تمسك أهل القول الأول ، بمقتضى الامر ، وتمسك أهل القول الثانى ، بقوله تعالى « حقاً على المحسنين » « حقاً على المتقين » ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . ثم قال : والقول الاول أولى . لأن عموماً الامر بالامتناع في قوله « متموهن » وإضافة الامتناع إليهن بلام التملك في قوله « والمطلقات متاع » أظهر في الوجوب منه في الذنب . وقوله « على المتقين » تأكيد لإيجابها لان كل واحد يجب عليه أن يتقى الله في الاشراك به ومماصيه . وقد قال تعالى في القرآن « هدى للمتقين » (١) .

خبر الواحد :

ذهب أكثر العلماء من المحدثين والفقهاء والأصوليين، إلى أن خبر الواحد حجة يلزم العمل بها ومع هذا فهو لا يفيد إلا الظن ولا يفيد اليقين ولا يقطع ذلك في حجيته لأنه يعتمد على أصل قطعى وهو القرآن . فالحمد لله تعالى أمرنا أن نلقب الرسول ﷺ في كل ما جاء به يقول سبحانه « وما آتاناكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ويقول « من يطع الرسول فقد أطاع الله » (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٠٠ وانظر ما قاله في قول الله « فأنزلوا ما تؤمرون »

ج ١ ص ٤٤٩ .

(٢) راجع ما قاله ص ٣١١ والوافقات للشطبي ج ٣ ص ١٧ والحديث والمحدثون

للشيخ محمد أبو زهرة ص ٢٦ .

ولقد هاجم الإمام الشافعي من ينسك الاحتجاج بخبر الواحد وناقشه في رسالته مناقشة طويلة فليراجعها من أرادها (١).

ولقد أشار القرطبي أثناء تفسيره لبعض الآيات إلى أن خبر الواحد حجة وأنه يلزم قبوله . ففي قوله تعالى « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم من قبلتهم التي كانوا عليها » يقول في المسألة الثامنة : وفيها — أى في الآية — دليل على جواز القطع بخبر الواحد ، وذلك أن استقبال بيت للقدس كان مقطوعا به من الشريعة هندم . ثم إن أهل قباء لما أتاهم الآتي وأخبرهم أن القبلة قد حولت إلى للمسجد الحرام قبلوا قوله واستداروا نحو الكعبة (٢) فتركوا للنواظر بخبر الواحد وهو مظهر . ثم بين القرطبي أن هناك من يمنع ذلك ، لأن المقطوع لا يرفع بالمظنون . أما قصة أهل قباء ، وما كان عليه السلام ينفذه من الولاية ، فمحمول على قرآن تفيد العلم إما قللا وتحقيقا وإما احتمالا وتقديرا . ثم قال أخيرا : « وتسمي هذا مسألة وجوابا في أصول الفقه » (٣) .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى » يقول في المسألة الثالثة : قوله تعالى « من البينات والهدى » فيه دليل على وجوب العمل بقول الواحد ؛ لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب قبول قوله ، وقال « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا » فحكم بوقوع البيان بخبرهم . فان قبا ، فإنه يجوز أن يكون كل واحد منهم منها من السكان ومأمورا بالبيان ، ليكثر المخبرون ويتواتر خبرهم اعطبر . قلنا : هذا غلط . لأنهم لم ينهوا عن السكان

(١) انظر الإمام الشافعي ج ٧ ص ٢٥٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ج ٣ ص ٦٧ .

(٣) تفسر القرطبي ج ٢ ص ١٥١ آية ١٤٧ من سورة البقرة .

إلا وهم ممن يجوز عليهم التراطؤ عليه ، ومن جاز منهم التواطؤ على الكتان ،
فلا يكون خيرهم موجبا لهم والله تعالى أعلم (١) .

فتوى الصحابي :

نقل القرطبي كثيرا من فتاوى الصحابة وأقضيهم أثناء عرضه للاحكام
وكان من منهجه في ذلك أنه يرد قول الصحابي إذا خالف الكتاب والسنة .

ففي قوله تعالى « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار
والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس » يقول في المسألة الرابعة :

« هذه الآية وما كان مثلها دليل على جواز ركوب البحر مطلقا لتجارة
كان أو عبادة كالخج والجهاد . ثم استدلل القرطبي لذلك من السنة ، بمحدث أبي
هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنا نركب
البحر ونحمل معنا القليل من الماء . الحديث (٢) . . . ثم قال القرطبي « ففيه
دليل واضح على ركوب البحر في الجهاد للرجال والنساء وإذا جاز ركوبه للجهاد
فركوبه للحج المفترض أولى وأوجب ، وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن
عبد العزيز رضي الله عنهما . المنع من ركوبه ، والقرآن والسنة يرد هذا القول ،
ولو كان ركوبه يكره أو لا يجوز لنهى عنه النبي ﷺ الذين قالوا له :
إنا نركب البحر ، وهذه الآية وما كان مثلها نص في الفرض واليهما المذرع .
وقد تؤول ما روى عن العبرين في ذلك ، بأن ذلك محمول على الاحتياط

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٥ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه بمعناه ج ٢ ص ١٥٥ .

وترك التفرير بالمهج في طلب الدنيا والاستكثار منها . وأما في أداء الفرائض فلا ^(١) .

أما فتوى الصحابة إذا عارضها القياس . فقد اختلفت فيها أنظار العلماء وتباينت ، ولا داعي أن نخوض عمار هذا المترك ، فلذلك يحوٲ مستقلة في أصول الفقه ^(٢) . ويكفي أن نشير إلى أن القرطبي قد ذكر هن علماء المالكية أن أقوال الصحابة قد يحتج بها إذا خالفت القياس .

ففي قوله تعالى « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » يقول في المسألة الحادية عشرة : « فإن تمادى به المرض فلم يصح حتى جاء رمضان أخرى فروى الدار قطنى هن ابن عمر أنه يطعم مكان كل يوم مسكيناً مداً من حنطة ثم ليس عليه قضاء . وروى أيضاً هن أبى هريرة أنه قال : إذا لم يصح بين الرمضانين ، صام هن هذا وأطعم هن الثانى ولا قضاء عليه . وإذا صح فلم يصم حتى أدركه رمضان آخر صام هن هذا وأطعم هن الماضى . فإذا أفطر قضاء . إسناده صحيح . ثم قال القرطبي : قال علماؤنا : وأقوال الصحابة على خلاف القياس قد يحتج بها ^(٣) .

ورد لكيا الطبرى — وهو شافى — ما ذكره القرطبي فقال : قوله تعالى « فعدة من أيام أخر » يدل على جواز التأخير من غير أن يتحدد بوقت وهو كالأمر للطلق الذى لا ينقيد بوقت ويموز مفرطاً ومجموعاً . والشافى رأى تقييد

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٩٥ .

(٢) راجع أصول الرخسى للإمام أبى بكر محمد بن أحمد بن أبى سهل الرخسى للتوفى

سنة ٤٩٠ تحقيق أبو الوفا الافغانى ج ٢ ص ١٠٥ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٨٣ آية ١٨٤ هن سورة البقرة .

القضاء . بالسنة قبل دخول رمضان آخر : وقال : إذا دخل رمضان آخر فدى
 من كل يوم بعد ، ورواه عن ابن عباس وابن عمر ، فأما ما رواه عن ابن عباس
 أن رجلاً جاء إليه فقال مرضت رمضانين فقال ابن عباس : استمر بك للرض
 أو صححت فيها بينهما ؟ قال : بل صححت . قال : صم رمضانين وأطعم ستين
 مسكينا . وعن ابن عمر في رجل فرط في قضاء رمضان حتى أدركه رمضان آخر
 قال : يصوم القى أدركه ويطعم من الأول كل يوم مداً من تمر ولا قضاء عليه .
 وهذا تشبيه منه في الحامل والرضع أنهما يطمان ولا قضاء عليهما . وأقوال
 الصحابة على خلاف القياس قد يحتاج بها ، فقبل لهم : فالقضاء بعد الصوم الآخر
 مأخوذ من قوله تعالى « فعدة من أيام أخر » واللفظ قد تناول الأوقات فلا يجوز
 أن يكون قد أوجب القضاء على قوم والفدية على قوم آخرين . (معنى ذلك
 أن الفتوى التي تقول إنه لا يصوم إلا رمضان الأخير ويطلع من الأول تخالف
 القياس ثم إننا لا نترك كتاب الله لفتوى يتوهم فيها توقيف) . بل يقتضى أن
 يكون الحكم في الكل واحداً : غاية قول الصحابي على خلاف القياس أن
 يتوهم فيه توقيف ، مع احتمال كون وجه احتجاجة بالتوقيف فاسداً وهلهما فظهر
 هذا من كتاب الله تعالى أولى بالاعتبار والاتباع (١) .

ولا يهنا أن نناقش الرأيين . وإنما يهنا أن نقول : لعل لسكيا الطبري
 قد هرض وجهة نظر الشافعيين في فتوى الصحابي ، إذا كانت على خلاف
 القياس كما هرض القرطبي وجهة نظر المالكية في ذلك . ولاداعي أن نفتن
 المعترك بأكثر من هذا .

(١) أحكام القرآن لسكيا الطبري ورفه ٣٨ .

الاستحسان والمصلحة :

لقد اعتبر المالكية الاستحسان دليلاً من الأدلة التي تستنبط بها الأحكام، وخالفهم في ذلك الشافعية، فلم يأخذوا به واعتبروه حكماً بالهوى والتشهي، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي « من استحسن فقد شرع » .

وإذا كان المالكية يأخذون بالاستحسان ويعتبرونه طريقاً من طرق استنباط الأحكام فما حقيقة هندم ؟ .

عرف بعض المالكية الاستحسان بأنه : استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي . وذكر أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة كثيراً من تعريفات الاستحسان عند المالكية في كتابه « مالك » وبين أن من هذه التعريفات ما يتفق مع تعريفات الحنفية للاستحسان . ثم بين أن تعريفات المالكية تتجه كلها إلى قصر الاستحسان على أمر واحد، وهو ترك مقتضى القياس لمصلحة في موضع معين — أي في مسألة جزئية — ويدخل في المصلحة رفع الحرج والتوسعة ودفع المشقة (١) .

وبهذا يتضح أن الاستحسان استثناء من القياس أو من القاعدة العامة، لأن أطراف القياس أو القاعدة يقتضي الوقوع في المشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة ومثال ذلك : الإطلاع على حورات الناس للتداوى . فإن القياس يحرم رؤيتها ولكن استحسنتم لدفع الضرر .

ولقد بين القرطبي أثناء شرحه لبعض الآيات أن الاستحسان لا يكون

(١) مالك ص ٣٧٩ .

حيث يكون هناك نص . ففي قوله تعالى « قال رب اجعل لى آية قال آتيناك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا » يقول فى المسألة الثالثة :

« فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام ، وذلك موجود فى كثير من السنة . وأكد الإشارات ما حكم به النبى ﷺ من أمر السوداء حين قال لها : أين الله ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : أعتقها فإنها مؤمنة . فأجاز الاسلام بالإشارة القى هو أصل القيانة القى يحرز الدم والمال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمانها كما حكم بنطق من يقول ذلك فيجب أن تكون الإشارة عامة فى سائر القيانة وهو قول عامة الفقهاء . وروى ابن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق : أنه يلزمه . وقال الشافعى فى الرجل يمرض فيحتل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف وإن شك فيها فهى باطل وليس ذلك بقياس وإنما هو استحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل لأنه لا يتكلم ولا تمثل إشارته . ثم قال القرطبي : قال أبو الحسن بن بطلال : وإنما حل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جازت بمجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى القيانة (١) .

والفرق بين الاستحسان والمصلحة للرسالة : أن المصلحة تكون حيث لا يكون هناك دليل سواها . أما الاستحسان فإنه يكون إذا أدى القياس إلى حرج أو مشقة . وعلى هذا فلفظ المصلحة مطلقا ، يشمل للمصلحة للرسالة ، وذلك حيث لا يكون دليل سواها ، والاستحسان ، وذلك حيث يؤدى القياس إلى حرج أو مشقة أو دفع مصلحة وجلب مفسدة .

(١) تفسير القرطبي ج ٤ ص ٨٠ آية ٢٩ من سورة آل عمران

ولقد اعتبر للدالكية للمصلحة أصلاً قائماً بذاته ، تبنى عليه بعض الفروع
الفقهية واشترطوا ألا يمارضها نص .

ولقد أبرز القرطبي الاستدلال بالمصلحة في بعض الأحكام وناقش بها
الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ، وضعف ما ذهب إليه بواسطة .

ففي قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى »
يقول في المصنف الثانية عشرة . « وقد استدلل الإمام أحمد بن حنبل بهذه الآية
على قوله : لا تقتل الجماعة بالواحد قال : لأن الله سبحانه شرط للمساواة
ولا مساواة بين الجماعة والواحد . وقد قال تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس والدين بالدين » والجواب أن المراد بالقصاص في الآية : قتل من قتل
كائناً من كان رداً على العرب التي كانت تريد أن تقتل بمن قتل من لم يقتل
وتقتل في مقابلة الواحد مائة ، افتخاراً واستظهاراً بالجاء وللقدرة فأمر الله
سبحانه بالعدل والمساواة ، وذلك بأن يقتل من قتل . وقد قتل عمر رضى الله
عنه سبعة برجل بصنعاء وقال : لو نملأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً .
وقتل على رضى الله عنه الحرورية (١) بعبد الله بن خباب فإنه توقف عن قتالهم
حتى يحدثوا . فلما ذبحوا عبد الله بن خباب كما تذيب الشاة وأخبر على بذلك
قال : الله أكبر ، نادوم أن أخرجوا إلينا قاتل عبد الله بن خباب . فقالوا :
كلنا قتله ثلاث مرات . فقال على لأصحابه : دونكم القوم ، فإني أرى قتلهم على
وأصحابه . خرج الحديثين الدارقطني في سننه وفي الترمذي عن أبي سعيد وأبي
هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا

(١) الحرورية فرقة من الخوارج نسبة إلى حروراء موضع قريب من الكوفة لأن
أول مجتهدهم وتحكيمهم فيها .

في دم مؤمن لأجهم الله في النار » وقال فيه : حديث غريب . ثم قال القرطبي :
وأيضاً فلو علم الجماعة أنهم إذا قتلوا لتعاون الأعداء على قتل أهدائهم
بالاشتراك في قتلهم وبلغوا الأمل من التشفى . ومراعاة هذه القاعدة أولى من
مراعاة الألفاظ والله أعلم^(١) .

سد القرائع :

لقد تحدث القرطبي في تفسيره عن سد القرائع وذكر ما يشهد لها من
الأدلة وما بنى عليها من الفروع فقال في المسألة الثانية في قوله تعالى « يا أيها
الذين آمنوا لا تقولوا واعنا وقولوا انظرنا واسمعوا » .

في هذه الآية دليلان أحدهما : على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض
للتشقيص والغضب . ويخرج من هذا فهم القنف بالتعريض وذلك يوجب الحد
هنا ، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي وأصحابهما حين قالوا : التعريض محتمل
للقنف وغيره ، والحد مما يسقط بالشبهة .

الدليل الثاني : التمسك بسد القرائع وحمايتها . وهذا مذهب مالك وأصحابه
وأحمد بن حنبل في رواية عنه . وقد دل على هذا الأصل : الكتاب والسنة .
والزريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع .
أما الكتاب فهذه الآية ، ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك ،
وهي سب بلغتهم ، فلما علم الله ذلك منهم . منع من إطلاق ذلك اللفظ لأنه
ذريعة للسب ، وقوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدهون من دون الله فيسبوا

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٢٥٩ آية ١٧٨ من سورة البقرة ، وحديث لو أن أهل
السوء . أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري في باب الحكم في السماء ج ٤ ص ٦٥٤
تحفة الاحوذى

الله هدوا بغير علم» (١) . فنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك ، وقوله تعالى « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر » (٢) الآية فخرم عليهم تبارك وتعالى الصيد في يوم السبت . فكانت الحيتان تأتهم يوم السبت شُرَّها . أي ظاهرة . فسموا عليها يوم السبت وأخذوها يوم الأحد ، وكان السد ذوبية للاصطياد فسخم الله قردة وخنزير ، وذكر الله لنا ذلك في معنى التحذير من ذلك ، وقوله تعالى لأدم وحواء « ولا تقربا هذه الشجرة » (٣) .

ثم استدل القرطبي من الاسنة بأحاديث كثيرة منها قوله عليه الصلاة والسلام « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعى يرهى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » فنع الرسول صلى الله عليه وسلم من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات . وذلك سدا للذريعة . ومنها قوله عليه الصلاة والسلام « إن من الكبائر شتم الرجل والديه » قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال « نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » (٤) . . . ثم عقب القرطبي بعد الأحاديث التي ذكرها وبعد أن فرغ من سرد كثير من الأدلة بقوله ، قلت : فهذه هي الأدلة التي لنا على سد القرائن ، وعليه بنى المالكية كتاب الآجال وغيره من للسائل في البيوع وغيرها . وليس عند الشافعية كتاب الآجال ، لأن ذلك عندهم

(١) آية ١٠٨ من سورة الانعام ،

(٢) آية ١٦٣ من سورة الاحراف .

(٣) آية ٣٥ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في كتاب الكبائر ج ٢ ص ٥٨ .

عقود مختلفة مستقلة . قالوا : وأصل الأشياء على الظواهر ، لا على الظنون .
وللأشياء جمالها السليمة محمّلة ليتوصل بها إلى درام بأكثر منها وهذا هو الربا
ببينة فاهله (١) .

وقبل أن أترك هذا القام أحب أن أعقب على نظرة الإمام مالك ونظرة
المخالفين له في بيع الأجل ، بما ذكره أسناذنا للشيخ محمد أبو زهرة فقد
قال في تعقيبه على ذلك « لقد تمارض جانبان قويان من النظر أحدهما : النظر
إلى أصل الإذن ، وأصل الإذن كان لمصلحة راجحة للفاعل ولذا أجازه
الشارع منه . والثاني : للمفسدة التي كثرت وإن لم تكن غالبية . فنظر
أبو حنيفة والشافعي إلى أصل الإذن ، ولذلك كان التصرف عندهم جائزا
لا مجال لمنعه . . . وأيضاً فإنه لا سبيل لأن نحمل عمل العامل وزر المفسدة
لأنه لم يقصدها ولم يكن مقصراً في الاحتياط لتجنبها . لأنها ليست غالبية
وإن كانت كثيرة ، فإنها لم تصل إلى درجة الأمر الغالب حتى يعد هدم
الاحتياط تقصيراً .

هذا نظر أبي حنيفة والشافعي فرجحا جانب الإذن لأنه الأصل ، وأما
مالك رضي الله عنه فقد نظر إلى الجانب الآخر ، وهو جانب قوى أيضاً وهو
كثرة للمفسد المترتبة على الفعل وإن لم تكن غالبية . ورجح مالك رضي الله
عنه ذلك الجانب . لأن الفعل وإن كان الأصل فيه الإذن إلا أنه هارضة
أصل ثان . وهو أن الأصل صيانة الإنسان عن الإضرار بغيره وإيلامه .
ويرجح الأصل الثاني لكثرة للمفسد المترتبة . فيكون المنع للزجر ويخرج

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٥٧ وما بعدها

بذلك الفعل من أصله وهو الإذن إلى العمل بالأصل الثاني وهو المنع . سدا
لقدرائم الشر (١) .

وهن هرض القرطبي للأدلة التي تمسك بها المالكية في سد القرائم يتبين
لنا أن القرائم التي تؤدي إلى الفساد ممنوعة . سواء كان ذلك الفساد قد نُص
عليه بنص خاص به أو كان داخلا في النهي العام عن الضرر والضرار
وهن كل فساد . ولسكنفي وجدت القرطبي يذكر في تفسير قوله تعالى
« ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم »
ما يستفاد منه أن القرائم لا يلزم سدها أو الابتعاد عنها إلا إذا كانت تؤدي
إلى محذور منصوص عليه ، وإليك ما قاله القرطبي في ذلك : بعد أن بين رأى
مالك في جواز شراء ولي اليتيم من مال اليتيم قال : فإن قيل يلزم تركه مالك
أصله في التهمة والقرائم إذ جَوِّزَ له الشراء من يتيم . فالجواب : أن ذلك
لا يلزم وإنما يكون ذلك ذريعة — أى أمرا ممنوها — فيما يؤدي من الأفعال
المحظورة إلى محظورة منصوص عليها . وأما ما هنا فقد أذن الله سبحانه في
صورة الحاجة ووكّل الخاضعين في ذلك إلى أمانتهم بقوله « والله يعلم الفساد
من المصلح » وكل أمر مخوف وكل الله سبحانه المكلف إلى أمانته لا يقال
فيه إنه يتدرع به إلى محذور فيمنع منه . كما جعل الله النساء مؤتمنات على
فروجهن مع عظيم ما يترتب على قولهن في ذلك من الأحكام ويرتبط به من
الحيل والحكمة والأنساب . وإن جاز أن يكذبن . وكان طاموس إذا سئل
عن شيء من أمر اليتامى قرأ « والله يعلم الفساد من المصلح » وكان ابن
سيرين أحب الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع نصحاؤه فينظرون الذي

(١) مالك ص ٤٣٩ وما بعدها بعض تصرف .

هو خير له ، ذكره البخارى . وفي هذا دلالة على جواز الشراء منه لنفسه كما ذكرنا (١) .

والقرطبي قد نقل هذا النص عن « ابن العربي » ، ولم يصرح بذلك . ويبدو أن ابن العربي كان له موقف بخالف موقف المالكية في سد القرائع . ولقد أشار إلى هذا أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة فقد قال بعد أن ذكر النص السابق « ونرى من هذا أنه — أى ابن العربي — يقرر أن القديرة تُسد إذا كانت تؤدي إلى محظور منصوص عليه ولكن المتتبع لكتب المالكية في الأصول والفروع يرى أنهم يتجهون في سد القرائع ، إلى سد وسائل الفساد . فكل ما يؤدي إلى فساد غالباً فهو ممنوع من غير تقييد يكون ذلك الفساد قد نص عليه بنص خاص به أو كان داخلاً في التمهى العام عن الضرر والضرار وعن كل فساد » (٢) .

ولا أدري هل تابع القرطبي ابن العربي أم وقف مع المالكية ؟ لم أهنر على نص يجيب على هذا التساؤل . ولعله قد وقف مع ابن العربي حيث أنه قد اوتضى ما نقله عنه .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) مالك ص ٤٤١ وانظر أحكام القرآن لابن العربي .

الفصل التاسع

موقف القرطبي من الأحاديث التي ذكرها في تفسيره

أورد القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث وأضافها إلى من خرجها من الأئمة : كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبي داود وغيرهم . لكن القرطبي ما كان يذكر سند هذه الأحاديث في الغالب ، ولعله فعل ذلك اختصاراً . وأبرز القرطبي في مقدمة تفسيره القيمة العلمية لتخريج الأحاديث فقال : « وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنفها . فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيراً ما يبيح الحديث في كتب الفقه والتفسير بهما لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائر لا يعرف الصحيح من السقيم . ومعرفة ذلك علم جسيم ، فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من أخرجه من الأئمة الأعلام والثقات للشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جل من فلك في هذا الكتاب ، والله للوفق للصواب (١) » .

وإذا كان القرطبي قد سار على هذا النهج كثيراً فأضاف الأحاديث إلى من خرجها من الأئمة ، وأورد للحديث في كثير من الأحيان أكثر من طريق . وقد مر بنا في فصول الرسالة ما يؤيد كل ذلك . فإننا نراه في أحيان أخرى لا يلتزم هذا الشرط ، فيأتي بالأحاديث ولا يذكر من خرجها وقد مر بنا أيضاً ما يؤيد ذلك ولكتفي بهذا للثال :

في قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » يقول : قال مجاهد والضحاك : « اليسر » القطر في السفر « والعسر » الصوم في السفر والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين ، كما قال تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم « دين الله يسر » « يسروا ولا تعسروا » (١) .

القرطبي بين تصحيح الأحاديث وتضعيفها :

لم يكن القرطبي حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره فقط . بل كان يتقدمها نقداً هلياً فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتعديل فيها من جهة سندها أو من جهة محتواها ، وقد مر بنا كثير من الأمثلة التي تؤيد هذا ونسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التي تؤكد هذه الحقيقة :

في قوله تعالى « والله للشرق والغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » بين أن العلماء اختلفوا في المعنى الذي نزلت فيه الآية على أقوال كثيرة وأن من جملة الأقوال ما قاله عبد الله بن عامر بن ربيعة أنها : نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة ، ثم قال : أخرجه الترمذي عن أبيه قال : كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة فلم ندر أين القبلة فصلى كل واحد منا على خياله فلما أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ فنزلت فأينما تولوا فثم وجه الله « قال أبو عيسى

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٠١ آية ١٨٥ من سورة البقرة . والحديث أخرجه مسلم ج ١٢ ص ٤٠ . والحديث الاول أخرجه البخاري في باب الاقتصاد في العسا عن أبي هريرة انظر التاج ج ١ ص ٤١ ولفظه إن الدين يسر — فأربوا — أي إن لم تزدوا على العمل بالأكل فاعملوا بما يقرب منه — الندوة من الفجر إلى طلوع الشمس أي : الزايل أو أوله .

هذا حديث ليس إسناده بذلك لانه في إسناده حديث أشعث السمان وأشعث ابن سميد أبو الربيع يضعف في الحديث (١) .

وفي قوله تعالى « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن » يقول في المسألة السادسة هشرة : وخرج مسلم عن أنس قال : وقت لنا في قص الشارب وتقليم الأظفار وثف الإبط وحلق العانة ألا تترك أكثر من أربعين ليلة (٢) . ثم قال القرطبي قال علماؤنا : هنا تهديد في أكثر المدة والمستحب تفقد ذلك من الجملة إلى الجملة . وهذا الحديث يرويه جعفر بن سليمان . قال العقيلي في حديثه نظر ، وقال أبو عمر فيه : ليس بحجة لسوء حفظه وكثرة غلطه وهذا الحديث ليس بالقوي من جهة النقل ولكنه قد قال به قوم . وأكثرهم على أن لا توقيت في ذلك والله الذوفيق (٣) .

وفي قوله تعالى « ومن لم يعلمه فإنه مني » فرق القرطبي بين السكر (٤) والشراب . بما ذكره ابن ماجة في سننه . حدثنا وأصل بن عبد الأعلى حدثنا ابن فضيل عن ليث عن سعيد بن عمر عن ابن عمر قال : مررنا على بركة فجعلنا نسكر فيها فقال رسول الله ﷺ : « لا تسكروا ولكن اغسلوا أيديكم ثم اشربوا فيها فإنه ليس إناؤه أطيب من اليد » ثم قال القرطبي : وليث بن أبي

(١) تفسر القرطبي ح ٢ ص ٧٩ وما بعدها آية ١١٥ من سورة البقرة . والحديث أخرجه الترمذي انظر حقه الاحودى ح ٨ ص ٢٩٢
(٢) أخرجه مسلم في باب حلق العانة ح ٣ ص ١٠٦
(٣) تفسر القرطبي ح ٢ ص ٢٠٦ آ ١٢٤ من سورة البقرة .
(٤) السكر : الغرغرة بالماء

سليم خرج له مسلم وقد ضعف (١) .

وفي قوله تعالى «الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم» (٢)
بين أن السنة معناها فتور يتعثر الإنسان ولا يفقد معه عقله . وأن المراد
بالآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال ثم قال :
« والناس يذكرون في هذا الباب عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ
يحكى عن موسى على المنبر قال : وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه
فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً ثم أعطاه ثاروريتين في كل يد قارورة وأمره
أن يحتفظ بهما قال فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فينحي إحداهما
عن الأخرى حتى نام نوماً فاصطقت يداه فانكسرت القارورتان — قال --
ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تمسك السماء والأرض ، ولا يصح هذا
الحديث ، ضعفه خير واحد منهم البيهقي (٣) . »

وفي قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو وللائكة وأولوا العلم قائماً
بالقسط» ، يقول في للسألة الثالثة :

« روى غالب القطان قال أتيت السكوفة في فجيرة فترلت قريباً من الأعمش
فكنت أختلف إليه فلما كان ليلة أردت أن أنمجد إلى البصرة . قام فتهجد
من الليل فقرأ بهذه الآية «شهد الله أنه لا إله إلا هو وللائكة وأولوا العلم
قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام » قال

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٥٢ وقد سبق تفريج الحديث للذكور في هذا النص
من أحكام القرطبي إلى الفتنة .

· (٢) آية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٧٢ وما بعدها .

الأعمش : وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله
 وديمة وإن البرين عند الله الإسلام — قلما مراراً — ، فندوت إليه وودعته
 ثم قلت : إني سمعتك تقرأ هذه الآية فما بلك فيها ؟ أنا هندك منذ سنة
 لم تحدثني به قال : والله لأحدثك به سنة . قال فأقمت وكنت على بابك ذلك
 اليوم . فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل
 عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : يجاء بصاحبها يوم القيامة
 فيقول الله تعالى هدى هدى إلى وأنا أحق من وفي أدخلوا عبدي الجنة ^(١)
 قال أبو الفرج الجوزي : غالب القطن يروي عن الأعمش حديث شهد الله .
 وهو حديث مفضل ^(٢) . قال ابن هدي : الضعف على حديثه بين . وقال أحمد
 ابن حنبل : غالب بن خثاف القطن ثقة وقال ابن معين : ثقة . وقال أبو حاتم
 صدوق صالح . ثم عقب بقوله « قلت ويكفيك من عدالته وثقته أن خرج له
 البخاري ومسلم في كتابيهما وحسبك » ^(٣)

فالفرطبي قد انتقد ما تقدم من الأحاديث . ونراه في نقده يقتصر أحياناً
 على ما قاله بعض أئمة الجرح والتعديل ، وأحياناً أخرى يقابل أقوالهم ويرجع
 منها أقوالها .

ونرى الفرطبي إلى جانب ذلك يرتضى بعض الأحاديث رغم أن هده
 الجرح والتعديل قد انتقدوها وذلك لأن لها طرقة أخرى تقويها وتشهد لصحتها
 أو لأن معناها لا يناقض ما جاءت به الأحاديث الصحيحة .

(١) الحديث قال عنه ابن كثير 'حرجه الطبراني في المعجم الكبير .

(٢) المفضل ما سبق من إسناده اثنان فصاعداً هي موضع واحد .

(٣) عصره الق. طبع ح ٤ ص ١٠ و١١ يدها .

ففي قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » .

يقول في المسألة الرابعة : قال هداؤنا رحة الله عليهم : المؤمن ضربان : مؤمن يحب الله ويواليه ومؤمن لا يحب الله ولا يواليه بل يبغضه الله ويماديه فكل من علم الله أنه يوافق بالإيمان ، فله حب له موال له راض عنه ، وكل من علم الله أنه يوافق بالكفر فله مبغض له ساخط عليه معاد له . لا لأجل إيمانه ولكن لكفره وخلافه الذي يوافق به ، والكافر ضربان : كافر يعاقب لا محالة . وكافر لا يعاقب ، فالذي يعاقب هو الذي يوافق بالكفر ، فله ساخط عليه معاد له ، والذي لا يعاقب هو الموافق بالإيمان فله غير ساخط على هذا ولا يباغض له بل يحب له موال . لا لكفره لكن لإيمانه الموافق به فلا يجوز أن يطلق القول وحى :

الخلاصة — بأن المؤمن يستحق الثواب والكافر يستحق العقاب بل يجب تقييده بالموافقة ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام ويريد لشوابه ودخوله الجنة لا لعبادته الصنم لكن لإيمانه الموافق به وأن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته لكفره الموافق به ، ثم قال القرطبي :

وخالفه القدرية في هذا وقالت : إن الله لم يكن ساخطاً على إبليس وقت عبادته ، ولا راضياً عن عمر وقت عبادته الصنم وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه حام بما يوافق به إبليس لعنه الله وبما يوافق به عمر رضى الله عنه فيما لم

يزل ، فثبت أنه كان ساخطاً على إبليس محباً لعمو ، ويدل عليه إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل الجنة ، وقد قال رسول الله ﷺ « ولما الأعمال بالخواتيم »^(١) ولهذا قال علماء الصوفية « ليس الإيمان ما يتزبن به العبد قولاً وفعلًا لكن الإيمان جرى السعادة في سوابق الأزل ، وأما ظهوره على الهياكل فرمما يكون طارياً وربما يكون حقيقة » وعلق القرطبي فقال : قلت هذا كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق للصدوق : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك هلكة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضفة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وثقى أو سعيد . فوالله لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينهم إلا ذراع (فيما يبدو للناس) فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة »^(٢) وإن قيل وهي السادسة فقد خرج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن سميع المصري من حديث محمد ابن سميع الشامي المصنوع في الزندقة وهو محمد ابن أبي قيس عن سليمان بن موسى وهو الأستق عن مجاهد بن جبر عن ابن عباس أخبرنا أبو رزين العقيلي قال : قال لي رسول الله ﷺ « لأشربن أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه » . قال : قلت : كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : « أما مررت بأرض لك مجدبة ثم مررت بها مخضبة ثم مررت بها مجدبة ثم مررت بها مخضبة » قلت : بلى قال : « كذلك النشور » قال قلت

(١) الحديث أخرجه البحارى في كتاب القدر ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر ج ١٦ ص ١٩٠ .

كيف لي أن أأهل أنى مؤمن ؟ قال « ليس أحد من هذه الأمة — قال ابن أبي قيس —
أو قال من أتى — عمل حسنة وهم أنها حسنة وأن الله جازي بها خيراً أو عمل
سيئة وأن الله جازي بها شراً أو يفرها إلا مؤمن » .

قال القرطبي : وهذا الحديث وإن كان سنده ليس بالقوى فإن معناه
صحيح ، وليس بعارض لحديث ابن مسعود فإن ذلك موقوف على الجماعة كما
قال عليه السلام « وإنا الأعمال بالظواهر » وهذا إنما يدل على أنه مؤمن في
الحال والله أعلم (١) .

وفى قوله تعالى « فأمرؤن الناس بالبر وتنسون أنفسكم » (٢) يقول
القرطبي فى المسألة الثانية : « فى شدة هذاب من هذه صفته روى حاد بن سلمة
عن على ابن زيد عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : ليلة أسرى بي مررت
على ناس أقرض شفاهم بمقاريض من نار فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ قال
هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون
الكتاب أفلا يعقلون » وروى أبو أمامة قال قال رسول الله ﷺ « إن
الذين يأمرؤن الناس بالبر وينسون أنفسهم يجرؤن قصبهم فى نار جهنم . فيقال
لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الذين كنا نأمر الناس بالظهور وننسى أنفسنا » .

وانتقد القرطبي هذا الحديث ثم صححه فقال : قلت : وهذا الحديث
وإن كان فيه لين لأن فى سنده الخصب ابن جحدر ، كان الإمام أحمد
يستضعفه وكذلك ابن معين يرويه عن أبى غالب عن أبى أمامة صدى
ابن عجلان الباهلى وأبو غالب هو — فيما حكى يحيى بن معين — زور القروش .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) آية ٤٤ من سورة البقرة .

مولى خاله بن عبد الله بن أسيد . وقيل : مولى باهلة . وقيل : مولى عبد الرحمن الحضرمي . كان يختلف إلى الشام في تجارته . قال يحيى بن معين هو صالح الحديث . فقد رواه مسلم في صحيحه بمعناه عن أسامة بن زيد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى ، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بل قد كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر وآتية (١) . ثم قال للقصب يضم القاف — المي وجمعه أقصاب ، والأفتاب الأماء وأحدها قتب ، ومعنى فتندلق : تخرج بسرعة (٢) .

وفي قوله تعالى « وآتى المال على حبه » (٣) يقول استدلل به من قال إن في المال حقا سوى الزكاة . . . وقيل : إن المراد الزكاة المفروضة ، والاول أصح . لما روى الدارقطني عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ « إن في المال حقا سوى الزكاة ، ثم تلا هذه الآية : « ليس البر أن تولوا وجوهكم » إلى آخر الآية ، وأخرجه بن ماجه في سننه والترمذي في جامعه وقال . هذا حديث ليس لإسناده بذلك وأبو حمزة ميمون الأهوازي يضيف ، وروى بيان وإسماعيل بن سالم عن الشعبي هذا الحديث وهو أصح . ثم عقب القرطبي بقوله قلت : والحديث وإن كان فيه مقال فقد دل على صحته معنى ما في الآية نفسها من قوله تعالى « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » فذكر الزكاة

(١) أخرجه مسلم عن أسامة بن زيد في كتاب (له) ج ١٨ ص ١١٨ .

(٢) صحيح القسطنطيني ج ١ ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٣) آية ١٧٧ من سورة البقرة

مع الصلاة وذلك دليل على أن المراد بقوله « وآتى المال على حبه » ليس الزكاة المفروضة ، فإن ذلك كان يكون تكراراً والله أعلم (١) .

ولو تساعل مسائل وقال : هل هذا النقد الذى وجهه القرطبي للأحاديث السابقة صحيح ؟ فإننى أقول : لقد تقبعت القرطبي فى بعض الأحاديث التى انتقدها بكلمات مختصرة ولم يذكر فيها رأى أئمة الجرح والتعديل فوجدته صحيحاً . فثلاً يقول القرطبي فى الحديث الأول « قال أبو هبى هذا حديث ليس لإسناده بذلك لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان ، وأشعث ابن سعيد أبو الربيع يضعف فى الحديث » هذا ما قاله القرطبي وهو بهذا النقد يوافق أئمة الجرح والتعديل ولا يخالفهم . فلقد قال ابن الجوزى « قلت كان هشيم يقول : أشعث السمان كذاب . وقال أحمد بن حنبل : حديث مضطرب ليس بذلك وقال يحيى والنسائي وأبو زرعة : ضعيف . وفى لفظ عن يحيى ليس بشئ » وقال الفلاس والدارقطنى : ضعيف متروك . وقال أبو حاتم بن حبان : يروى عن الأئمة الأحاديث الموضوعات وخصوصاً عن هشام بن هروة . وقال المعزى : لا يروى من هذا الحديث من وجه يثبت وفى سنده هاشم بن هبدا الله ، قال ابن معين : هو ضعيف لا يخرج بمحدثه . وقال ابن حبان : كان سبب الحفظ كثير اليوم فأحسن الخطأ فترك (٢) .

وفى المثال الثالث يقول القرطبي « وليث بن أبى سليم خرج له مسلم وقد ضعف » ولم يذكر القرطبي ما قاله أئمة الجرح والتعديل . ولقد جمع

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٤١ وما بعدها ، والحديث أخرجه الترمذى فى باب ما جاء أن فى المال حقاً سوى الزكاة — انظر صحيح الترمذى بفتح ابن العربى ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) ابن الجوزى المحدث رسالة دكتوراه للزميل أبو الملا هبى أبو الملا ص ٢٤٠

«الذهبي» أقوالا كثيرة تبين موقف علماء الجرح والتعديل من «ليث بن أبي سليم» يقول الذهبي في ميزان الاعتدال : «قال أحمد : مضطرب الحديث ولكن حدث عنه الناس . وقال يحيى والنسائي : ضعيف . وقال ابن معين أيضاً : لا بأس به» وقال ابن حبان : اختلط في آخر عمره . وقال الدارقطني : كان صاحب سنة ، إنما أنكروا عليه الجرح بين عطاء وطاوس ومجاهد حسب . وقال هبة الوارث : كان من أوعية العلم . قال أبو بكر بن عباس : كان ليث من أكثر الناس صلاة وصياما ، وإذا وقع على شيء لم يردده وقال ابن إدريس : ما جلست إلى ليث إلا سمعت منه ما لم أسمع منه أبدا . وقال هبة الله ابن أحمد حدثنا أبي قال : ما رأيت يحيى بن سعيد أسوأ رأيا في أحد منه في ليث ، وعبد بن إسحاق ، وهمام . لا يستطيع أحد أن يراجعهم فيهم . وقال ابن معين : ليث أضعف من عطاء بن السائب . وقال مؤمل بن الفضل : سألت هبسي ابن يونس عن ليث بن أبي سليم فقال : رأيتُه وكان قد اختلط ، وكنت رعا مررت به ارتفاع النهار وهو على المنارة يؤذن (١) .

وهن «ليث بن أبي سليم» يقول «ابن سعد» : «وكان ليث رجلا صالحا هابدا ، وكان ضعيفا في الحديث . يقال كان يسأل عطاء وطاوسا ، ومجاهدا عن الشيء فيختلفون فيه ، فيروى أنهم اتفقوا من غير تمتد ذلك» (٢) .

بما تقدم يتبين لنا أنه أكثر علماء الجرح والتعديل يصفون (ليث بن أبي سليم) ولا يرتضون روايته ، ولقد وافق القرطبي هذه الأثرية وأفصح

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال لمصنفه الذهبي ج ٧ ص ٣٦٠ طبع السادسة

(٢) طبقات ابن سعد ج ٦ ص ٢٤٣ طبع ليدن .

من ذلك في عبارته الموجزة التي قال فيها « وليث بن أبي سليم خرج له مسلم وقد ضعف » .

وإذا كان القرطبي في المثال الأخير قد ارتضى « غالب بن القطان » وبين أنه عدل ثقة وناصر فريقاً على فريق فيبدو أن الحق معه . فلقد قال الذهبي في ميزان الاعتدال : « غالب بن خطاف القطان البصري صدوق مشهور . روى عن الحسن وابن سيرين ، وهنه . بشر بن الفضل وابن عُليّة . قال أحمد : ثقة ثقة . . . ثم قال الذهبي : ساق ابن هديّ له أحاديث وقال : الضعف على أحاديثه بين . . . وقد روى عن الأعمش عن أبي وائل عن هبدي الله حديث « شهد الله » وهو حديث مفضل . روى هذا الحديث عنه عمر بن مختار البصري ورواه عنه ولده عمار بن عمر ثم عقب « الذهبي » بقوله : قلت الآفة من عمر ، فإنه متهم بالوضع ، فأنصف ابن هديّ في إحضاره هذا الحديث في ترجمة غالب وغالب من رجال الصحيحين ، وقد قال فيه أحمد ابن حنبل كما قدسنا : ثقة ثقة .

أما موقف القرطبي من تصحيح بعض الأحاديث التي اتفق علماء الجرح على تضعيفها فإنه موقف يبدو أنه سليم . حيث أن القرطبي قد سلم لعلاء الجرح ما قالوه وكشف عن ذلك أولاً . ثم هاد فتوى هذه الأحاديث بقرائن أخرى تشهد لصحتها .

القرطبي يورد بعض الأحاديث الضعيفة وللأوضوحة في تفسيره :

رغم أن القرطبي كانت له وقفات كثيرة جداً في نقد الأحاديث كما كانت له وقفات في تصحيح بعضها مع ما وجه إليها من نقد . رغم هذا وذاك . فقد

أورد القرطبي في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ولم يعقب عليها أو يذكر ما وجه إلها من نقد .

ومن أمثلة ذلك . ما ذكره في قوله تعالى « وإن تصبروا خير لكم » فقد قال : « وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : أيما حر تزوج بأمة فقد أرقى نصفه — يعني يصير ولده رقيقاً . فالصبر من ذلك أفضل لكيلا يرق الولد . وقال صعيد بن جبير : ما نكح الأمة من الزنى إلا قريب . قال الله تعالى « وإن تصبروا خير لكم » أي من نكاح الإمام ، وفي سنن ابن ماجه عن الضحاك بن مزاحم قال : سمعت أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر » (١) .

ولم يتحدث القرطبي عما وجّه إلى هذا الحديث من طعن . مع أن ابن الجوزي أخرجه من حديث أنس وقال فيه : سلام بن سوار منكر الحديث عن كثير بن سليم كذاب . ومن حديث هلى ، وقال فيه : عمرو بن جميع وجوبير كذابان .

وهلى هذا فلا يشفع للحديث أن « ابن ماجه » أخرجه في سننه بل إن إخراج « ابن ماجه » لمثل هذا الحديث عن طريق الكنايين — كما يقول الدكتور « أبو العلا » أنزل بمكافأة كتابه العلمية إذا قيست بالصحيحين أو بقية السنن (٢) .

وفي قوله تعالى « كلا لا تطعه واسجد واقترب » يقول القرطبي : « وقد رويناه من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن

(١) ضمة القاطن ج ٥ ص ١٤٧ به ٧٥ من سورة النساء . واحتج أخرجه ابن ماجة في سننه ٩٨ / ١ رقم ١٨٦٢ .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص ٨٤ وانظر الموسوعات لابن حورى ١ / ٢٦١

ابن هر قال : لما أنزل الله تعالى « اقرأ باسم ربك الذي خلق » قال رسول الله ﷺ لماذ « اكتبها يا معاذ » فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون — وهي اللواة — فكتبها معاذ فلما بلغ « كلا لا تطعه واسجد واقترب » سجد اللوح وسجد القلم وسجدت النون وهم يقولون : اللهم ارفع به ذكراً اللهم احطط به وزراً اللهم اخفر به ذنباً ، قال معاذ : سجدت وأخبرت رسول الله ﷺ (١) وسكت القرطبي فلم يعقب على هذا الحديث ولم يبين ما وجه إليه من نقد .

ولقد انتقده ابن الجوزي وحكم عليه بالوضع . فقال : « هذا حديث موضوع لا شك وأنا أنتم به إسماعيل الأجرى وما أبرد هذا الوضع وما أبعد واضحه من العلم فإن هذه السورة نزلت بمكة . ومعاذ إنما أسلم بالمدينة » ، وناقش الدكتور « أبو العلا » ابن الجوزي ، فقال في تعقيبه على كلام « ابن الجوزي » : « والواقع أن ابن الجوزي قد وفق غاية التوفيق في حكمه على هذا الحديث بالوضع واستدلله على ذلك بتاريخ نزول القرآن وأن هذه السورة من أول ما نزل بمكة من القرآن الكريم . ومعاذ رضى الله عنه لم يعرف رسول الله ﷺ إلا بعد هجرته إلى المدينة . فإنه مع هذا التوفيق قد جانبه للصواب حين زعم أن الواضع له إسماعيل بن أحمد بن محمد الأجرى والحق أن إسماعيل ثقة وإنما اتهم به شيخه كما قال الذهبي في « الميزان » وأكده في « ترتيبه للموضوعات حيث يقول : والواضع له إبراهيم بن محمد الخواص . لا كما قال « ابن الجوزي » (٢) .

وفي قوله تعالى « فصل لربك وانحر » يقول القرطبي : « وعن علي رضى

(١) تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ١٢٩ آية ١٩ من سورة الطق .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص ١٦٩ وانظر اللان . المصنوعة في الأحاديث الموضوعة

الله عنه قال : لما نزلت « فصل لربك وانحر » قال النبي ﷺ للجبريل « ما هذه النحيرة التي أمرني الله بها ؟ » قال ليست بنحيرة ولكنه يأمره إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين هند كل تكبيرة ، (١) .

ولقد حكم « ابن الجوزي » هل هذا الحديث بالوضع فقال : « هذا حديث موضوع وضعه من يريد مقاومة من يكره الوضع وهو في نصرة مذهبه ، إلا أنه ليس بصحيح وفي الصحيح غُنية عن الاستعانة بالباطل وهو يكتفي وفيه أصحح بن نباتة . قال يحيى : لا يساوى شيئاً ، وقال أبو حاتم بن حبان : عمر بن صحيح وضع هذا الحديث على مقاتل . فظفر به إسرائيل لحدث به .

أما السيوطي فقد بين أن هذا الحديث ضعيف ولا يصل إلى درجة الموضوع فقال في الآلاء : « الحديث أخرجه الحاكم في المستدرک والبيهقي في سننه وقال إنه ضعيف . وقال الحافظ ابن حجر في تخرجه إسناداه ضعيف جداً » (٢) .

(١) تفسير الثرطلي ج ٢٠ ص ٢٩٩ آية ٢ من سورة الكوثر .

(٢) ابن الجوزي المحدث ص ١٨٤ وانظر الموضوعات ٢-٩٨ ، ٩٩ واللائل ١٠-٢٠ .

والزميل أبو الملا دفاع عن رأى ابن الجوزي في هذا الحديث وتقد السيوطي فارجع إليه .

الفصل العاشر

الاسرائيليات في تفسير القرطبي

لم يحل تفسير القرطبي من الاسرائيليات بل حوى كثيراً منها . وكان القرطبي يرفضها ويهاجمها أحيانا . ومن أمثلة ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وما أنزل على للملكين يبابل هاروت وماروت » فقد قال : « وقد روى عن علي بن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والسكبي ما معناه : أنه لما كثرت الفساد من أولاد آدم عليه السلام — وذلك في زمن إدريس فيكم ماركبت فيهم لعلهم مثل أعمالهم فقالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ذلك قال : فاختاروا ملكين من خياركم فاختاروا هاروت وماروت فأنزلهما إلى الأرض فركب فيهما الشهوة . فامر بهما شهر حتى فتنا بإمرأة اسمها بالنبطية « بيدخت » وبالفارسية « ناهيل » وبالمرية « الزهرة » اخنصت إليهما . وراوداها عن نفسها فأبت إلا أن يدخل في دينها ويشربا الخمر ويقنلا النفس التي حرم الله فأجاباها وشربا الخمر وألما بها ، فرآهما رجل فقتله وسألهما عن الاسم الذي يصعدان به إلى السماء فعلمها ، فتكلمت به فمرجت فسخت كوكبا . وقال سالم بن أبيه عن عبد الله غديثي كعب الخير أنهما لم يستكلا يومها حتى عملا بما حرم الله عليهما ، وفي غير هذا الحديث فغيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا ، فهما يعذبان ببابل في سرب من الأرض ، قيل : ببابل بالعراق وقيل ببابل نهاوند . وكان ابن عمر فيما يروى عن هؤلاء . أنه كان إذا رأى الزهرة وسهيلاً سبهما وشتمهما ويقول إن

سهيلاً كان هشاراً باليمن . يظلم الناس وأن الزهرة كانت صاحبة هاروت
وماروت .

ولم يرتض القرطبي هذه الروايات والأخبار فرفضها وهجب عليها بقوله :

« قلنا هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن جرير وغيره فإنه قول تدفعه الأصول
في الملائكة الذين هم أنشاء الله على وحيه ، وسفراؤه إلى رسله « لا يصحون الله
ما أمرهم ويفعلون ^(١) ما يؤمرون ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه ^(٢) بالقول
وم بأمره يعملون ، يسبحون الليل والنهار ^(٣) لا يفترون » وأما العقل فلا ينكر
وقوع للعصية من الملائكة ويوجد منهم خلاف ما كلفوه ويخلق فيهم السموات
إذ في قدرة الله تعالى كل موهوم . ومن هذا خوف الأنبياء والاولياء الفضلاء
للعلماء . لكن وقوع هذا الجائز لا يدرك إلا بالسمع ولم يصح .

ثم بين القرطبي أن الزهرة كانت مخلوقة قبل آدم عليه السلام ، لأنها
كوكب من جملة الكواكب وأن قول الملائكة لله سبحانه وتعالى « ما كان
ينبغي لنا » كفر لأن معناه لا تقدر على فتنتنا وهذا لا يصح لسببه إلى
للملائكة ^(٤) .

وفي قوله تعالى « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان
بنصب وهذا » ذكر أخباراً خيالية طويلة ، ثم أطال في تقديمها أيضاً . وأخيراً
قال : « قال ابن العربي القاضي أبو بكر رضى الله عنه : ولم يصح عن أيوب في

(١) آية ٦ من سورة التحريم

(٢) آية ٢٦ ، ٢٧ من سورة الانبياء

(٣) آية ٢٠ من سورة الانبياء

(٤) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٥١ آية ١٠٢ من سورة البقرة .

أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين الأولى قوله تعالى « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر »^(١) والثانية في ص « نى مسنى الشيطان بنصب وهذاب » وأما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله « بينا أيوب ينتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب »^(٢) الحديث ، وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه فنأخذى يوصل السامع إلى أيوب خبره أم على أى لسان محم ؟ والاسرائيليات مرفوعة عند العلماء على البينات فأعرض عن سطورها بعرك واصمم عن سماعها أذنك فإتها لاتعطي فكرك إلا خبالا ، وفي الصحيح واللفظ البخارى أن ابن عباس قال : يامشر المسلمين^(٣) تسألون أهل الكتاب وكتابتكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الأخبار بالله تفرؤونه محضا لم يشب وقد حدثكم أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتب الله وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتب فقالوا « هذا من عند الله ليشتروا به منا قليلا » ولا ينهكم ما جاءكم من العلم من مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألهم عن الذى أنزل عليهم . وقد أنكر النبي ﷺ في حديث الموطأ على عمر قراءة التوراة^(٤) . وأحيانا أخرى نرى « القرطبي » يذكر الاسرائيليات ويسكت عنها ولا يتعقبها بكلمة فى قوله تعالى « قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين » حدد طول « هوج بن هنى » وذكر طرفا من أخباره فقال : « وكان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين ذراعا قاله ابن عمر .

(١) آية ٨٢ من سورة الانبياء .

(٢) الحديث أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب الفضل ج ١ ص ٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام باب قول النبي : لاسألوا أهل الكتاب من

شئ ج ١٧ ص ١٠٢ .

(٤) تفسر القرطبي ج ١٥ ص ٢١٠ آية ٤١ من سورة ص والحديث أخرجه أيضا

الإمام أحمد فى مسنده ٣٨٧/٣

وكان يجتنب السحاب أى يجنبه بمحجنه ويشرب منه ويتناول الحوت من قاع البحر فيشويه بعين الشمس يرفعه إليها ثم يأكله . وحضر طوفان نوح عليه الصلاة والسلام ولم يجاوز ركبتيه وكان عمره ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة وأنه قلع صخرة على قدر عسكر موسى عليه السلام ليرضخهم بها فبث الله طائرا ففقرها ووقعت في عنقه فصرخته ، وأقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وعصاه عشرة أذرع وترقى في السماء عشرة أذرع فما أصاب إلا كعبه وهو مصروع فقتله « (١) . ولم يعقب القرطبي بشيء على هذه الأخبار الخرافية ولقد انتقد « ابن كثير » هذه الخرافات فقال وهو يتحدث عن صفة الجبارين في كتابه « البداية والنهاية » وقد ذكر كثير من المفسرين ها هنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل الدليل والنقل على خلافها . من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جدا حتى أنهم ذكروا أن رسل بني إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا ويلتهم في أكامه وحجزة سراويله ، وكل هذه هذيانات وخرافات لاحقة لها . وأن للآل بشت عنبا كل عنبة تسقى الرجل . وشيئا من ثمارهم ليملوا ضخامة أشكلهم . وهذا ليس صحيحا . ثم قال « ابن كثير » : « يروى هذا عن نوف البكالى ونقله ابن عباس وفي إسناده إليه نظر ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات . فإن الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم ولا يميز لهم بين صحيحها وباطلها . ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معدورين في التناول عن قتالهم ، وقد ذمهم الله على التناول وعاقبهم بالنار على ترك جهادهم ومخالفتهم رسولهم » (٢) .

(١) ضبح القرطبي ج ٦ ص ١٢٦ وما بعدها آية ٢٢ من سورة المائدة

(٢) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٧٨ .

وكذلك تعقب ابن كثير هذه الأخبار في تفسيره فقال « وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا — أى في الآية التي معنا — أخباراً من وضع بنى إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين وأن منهم « هوج ابن حنق » بنت آدم عليه السلام وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلاث ذراع تحوير الحساب ، وهذا شيء يستحي من ذكره ، ثم هو يخالف لما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ثم لم يزل المخلق ينقص حتى الآن ^(١) » ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً وأنه كان ولد زنية ، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح ، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبتيه . وهذا كذب واقتراء فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين . فقال : « رب لا تدحلى الأرض من الكافرين دياراً » ^(٢) وقال تعالى « فأنجيناها ومن معه في الفلك المشحون ^(٣) » . ثم أفرقنا بعد الباقيين « وقال تعالى « لا عامم اليوم من أمر الله ^(٤) » إلا من رحم » وإذا كان ابن نوح الكافر فحق فكيف يبق « هوج بن حنق » وهو كافر وولد زنية ؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع . ثم في وجود رجل يقال له : هوج ابن حنق نظر والله أعلم ^(٥) .

ومن أغرب ما أورده القرطبي من الإسرائيليات ما ذكره في قوله تعالى

(١) أخرجه البخارى في كتاب أماديث الانبياء باب خلق آدم وذريته ١٥٩
وأخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نبيها وأهلها .

(٢) آية ٢٦ من سورة نوح .

(٣) آية ١١٩ ، ١٢٠ من سورة الشعراء .

(٤) آية ٤٣ من سورة هود .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٣٨ .

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فقد ذكر « أن حلة العرش أرجلهم في الأرض السفلى ورؤوسهم قد خرفت العرش » ، ثم نقل عن كعب الأخبار أنه قال : لما خلق الله تعالى العرش قال : لن يخلق الله خلقاً أعظم مني فاهتز فطوقه الله تعالى بحية ، للحية سبعون ألف جناح في الجناح سبعون ألف ريشة في كل ريشة سبعون ألف وحة ، في كل وحة سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف لسان ، يخرج من أفواهها في كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد الحصى والثرى وعدد أيام الدنيا وعدد الملائكة أجمعين فالتوت الحية بالعرش فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به (١) .

ومن العجيب أن « القرطبي » يمر على هذه الأخبار وأمثالها دون تعليق أو تعقيب . وليت « القرطبي » حين ذكر هذه الأخبار انظرافية التي لا يقيها عقل ولا يقرها منطق تعقبها وكشف ما فيها من فساد وبطلان ، أو ليت صان كتابه عنها جملة واحدة . فلم يشغل نفسه بها فإن في البعد عنها خيراً كثيراً . حيث أسامت إلى سمعة الإسلام وفنحت المستشرقين وأذئابهم مجالا لظلم في الإسلام وتشويه جماله ووصفه بأنه دين خرافة وجبل .

ولا يشغف « القرطبي » أن رسول الله ﷺ قد أباح التحدث عن أهل الكتاب فقال « بلغوا حتى ولو آية » وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » « فإن هذا الحديث مفيد

(١) فخر القرطبي ج ١٥ ص ٢٩٤ آية ٧ من سورة هاجر .

بما لا يعلم كذبه ، أو بما يحتمل الصدق والكذب لأن رسول الله ﷺ لا يجوز
التحدث بالكذب (١) ، والأخبار التي ذكرها « القرطبي » والتي تقدمت
يبدو عليها الكذب والبطلان . وحتى لو كانت هذه الأخبار أو غيرها
مما ذكره « القرطبي » من الأخبار الاسرائيلية التي تحتمل الصدق والكذب
وذكرها القرطبي في مقام التفسير للاستئناس بها أو هبرة وحيلة فإن ذلك
بخلاف قول رسول الله ﷺ « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم
وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا (٢) » لأن ذكر هذا النوع من الاسرائيليات في
مقام التفسير تصديق بها مطلقا والحديث يأمر بالنوقف .

وفي ذلك يقول أستاذنا الشيخ « أحد شاكر » إن إباحة التحدث عنهم
— أي عن أهل الكتاب — فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه
شيء وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات أو في
تعيين ما لم يبين فيها أو في تفصيل ما أجل فيها شيء آخر ، لأن في إثبات
مثل ذلك يجوار كلام الله ما يوم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه
مبين لقول الله سبحانه ومفصل لما أجل فيه وحاشا لله ولكتابه من ذلك .

وإن رسول الله ﷺ — إذ اذن بالتحدث عنهم — أمرنا ألا نصدقهم
ولا نكذبهم ، فأى تصديق لروايتهم وأقوالهم أقوى من أن نقرنها بكتاب

(١) انظر التفسير والمفسرون للشيخ محمد حسين الذهبي ج ١ ص ١٧٢ والحديث أخرجه
البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكره من بني إسرائيل ج ٧ ص ٣٠٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب قولوا آمنا بالله ج ٩ ص ٢٢٧ .

الله وانتم بها . منه موضع التفسير والبيان اللهم خذ آء (١) .

(١) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٦٦ نقلا عن عمدة التفسير
عن الحافظ ابن كثير ح ١ ص ١٥ وانظر وجهة نظر بعض المدافعين عن المفسرين
في رسالة «الإسرائيليات» للدكتور رمزي نفاعه ص ٣٦١ والحديث والمحدثون
لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة .
وانظر في معنى الإسرائيليات . كيف أسرت إلى الثقافة الإسلامية وأقسامها
وحكم روايتها ومدى خطورتها . مقدسة ابن خلدون ح ١ ص ٤٨١ وما بعدها .
ورسالة الإسرائيليات للدكتور رمزي نفاعه ص ٥٣ ونشأة التفسير في الكتب
المقدسة والقرآن للدكتور أحمد خليل ص ٣٧ والإسرائيليات في التفسير والحديث
للشيخ محمد حسين القهبي ص ١٩ ، ٤٨ ، ٥٧ ، ٦٨ والتفسير والمفسرون
ح ١ ص ١٦٥ ، ١٧٩ وما بعدها .

الفصل الحادي عشر

القيمة العلمية لتفسير القرطبي وتأثير المفسرين به

لقد أثنى المؤرخون والعلماء على تفسير القرطبي وأبرزوا قيمته العلمية . فقال « الذهبي » في تاريخ الاسلام « وقد سارت بتفسيره — أى بتفسير القرطبي — العظيم الشأن الركبان ، وهو كامل في معناه » وقال ابن فرحون وهو يتحدث عن مؤلفاته « جمع القرطبي في تفسير القرآن كتاباً كبيراً . . . وهو من أجل التفسير وأعطى نفعاً » وكذلك قال « الداودي » في طبقاته . وبين « ابن الماد » في شذراته : إن تفسير القرطبي يحكى مذاهب السلف كلهم وأن فوائده كثيرة . وأوضح « ابن خلدون » في مقدمته أن تفسير القرطبي له شهرة عريضة بالشرق^(١) وإذا كان تفسير القرطبي له تلك للسكافة والشهرة . فلا عجب أن يتأثر للمفسرون الذين جاءوا بعده بكتابه فينتفعوا به ويعيدوا منه . ومن أشهر هؤلاء : الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عروين كثير للتوفى سنة ٧٧٤ هـ فلقد تأثر ابن كثير في تفسيره بالقرطبي ونقل عنه . وكان ابن كثير ينقل عن القرطبي أقواله غالباً . بالمعنى لا بالنص . ومن الأمثلة التي توضح تأثر ابن كثير بالقرطبي ما ذكره في فضل سورة الفاتحة فإنه بعد أن ذكر مجموعة من الأحاديث تدل على ذلك قال : وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن هبيل حدثنا هاشم بن عمار بن البريد . حدثنا عبد الله بن محمد ابن عقيل عن جابر قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقد أحرق للماء فقلت

(١) انظر تاريخ الاسلام للذهبي ج ٢٧ ص ١٦٦ والدبياج ص ٣١٧ وطبقات الداودي

ص ٢١٣ ، ومقدمة ابن خلدون طبع التقدم ص ٤٨٢ .

السلام عليك يا رسول الله فلم يرد على قال : فانطلق رسول الله ﷺ يعني
وأنا خلفه حتى دخل رحله ، ودخلت أنا المسجد كثيراً حزينا فخرج على
رسول الله ﷺ وقد تطهر فقال : « عليك السلام ورحمة الله وعليك السلام
ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله » ثم قال : « ألا أخبرك يا عبد الله ابن
جابر بأخبر سورة في القرآن » قلت : بلى يا رسول الله قال : اقرأ الحمد لله رب
العالمين حتى تختمها ، هذا إسناد جيد وابن عقيل يحتاج به الأئمة السكبار ،
وعبد الله بن جابر هذا هو الصحابي . ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى والله
أعلم . ويقال : أنه عبد الله بن جابر الأنصاري البياضي في ذكره الحافظ بن
هشام . ثم قال ابن كثير : « واستدلوا بهذا الحديث على تفاضل بعض
الآيات والسور على بعض كما هو المحكي من كثير من العلماء منهم إسماعيل بن
راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحصار من المالكية . وذهبت طائفة أخرى
إلى أنه لا تفاضل في ذلك . لأن الجميع كلام الله ، وثلاث يوم التفضيل قص
المفضل عليه وإن كان الجميع فاضلا . نقله القرطبي عن الأشعري وأبي بكر
الباقلاني وأبي حاتم بن حبان البستي ويحيى بن يحيى ورواية عن الإمام
مالك (١) . ولقد تصرف ابن كثير في هذا النص ونقله عن القرطبي
مختصراً .

وفي قوله تعالى « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » يقول
ابن كثير : يقول تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما
السلام البيت ورفعهما القواعد منه وما يقولان « ربنا تقبل منا إنك أنت
السميع العليم » وحكى القرطبي وغيره عن أبي وابن مسعود أنهما كانا يقرآن

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٩ وانظر تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠٩

« وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » قلت : - والقائل ابن كثير - ويدل على هذا قولهما بعده « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » الآية فهما في عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما . كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكي عن وهيب بن الورد أنه قرأ « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا » ثم يبكي ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك (١) .

وفي قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » يقول « يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والحرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا . كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صئير « ابنك هذا ؟ » قال قال : نعم يا رسول الله أشهد به . قال « أما أنه لا يخفى عليه » (٢) ثم قال ابن كثير قال القرطبي : ويروى عن عمر أنه قال لمبد الله بن سلام : أعترف عداً كما تعترف ولك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأبي في الأرض بنعته فمرقته ، وأبني لا أدرى ما كان من أمه (٣) .

ولقد ناقش ابن كثير القرطبي ونعقبه ومن الأئمة على ذلك ما ذكره في قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » فقد قال : وليس المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المنسرين

(١) تفسر ابن كثير ج ١ ص ١٧٥ آية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٥ ص ٨١ .

(٣) تفسر ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ آية ١٤٦ من سورة البقرة .

وهذا القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل . وفي ذلك نظر ، بل الخلاف في ذلك كثير حكاه البرازي في تفسيره وغيره . (١) .

وفي قوله تعالى « ولا تسأل من أصحاب الجحيم » يقول : قوله ولا تسأل من أصحاب الجحيم « قراءة أكثرهم » ولا تسأل بضم التاء على الخبر وفي قراءة أبي بن كعب « وما تسأل » وفي قراءة ابن مسعود « ولن تسأل » فتلها ابن جرير أى لا تسألك من كفر من كفر بك كقوله « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (٢) وكقوله تعالى « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » (٣) الآية . وكقوله تعالى « نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » (٤) . وأشبه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل من أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهى أى لا تسأل من حالهم كما قال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن موسى بن هبيرة عن محمد ابن كعب القرظي قال قال رسول الله ﷺ « ليت شرى ما فعل أبوإى ، ليت شرى ما فعل أبوإى ، ليت شرى ما فعل أبوإى ؟ » . فنزلت « ولا تسأل من أصحاب الجحيم » فاذا ذكرها حتى توفاه الله عز وجل ، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن هبيرة — وقد تكلموا فيه — عن محمد بن كعب بمثله ، وقد حكاه القرطبي عن ابن عباس ومحمد بن كعب . قال القرطبي ، وهذا كما يقال : لا تسأل من فلان ، أى قد بلغ فوق ما نحسب . وقد ذكرنا في «التذكرة» أن الله أحياه أبويه حتى آمنآ به وأجينا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٩ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٠ من سورة الزهد .

(٣) آية ٢٦ من سورة الفاشية .

(٤) آية ٤٥ من سورة ق .

من قوله « إن أبى وأباك في النار » وعلق ابن كثير بقوله قلت : « والحديث للروى في حديث أبيه عليه السلام ليس في شيء من السكتب السنة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم ^(١) » . وفي هذا القدر كفاية ، وأحب أن أقول : إن الطبعة الأخيرة لتفسير ابن كثير والتي يقوم بتحقيقها الأستاذة هبة العزيز غنيم ، محمد أحمد عاشور ، محمد إبراهيم البنا . لم تثبت في بعض النصوص السابقة أقوال القرطبي التي نقلها ابن كثير عنه ، ويمل ذلك الأستاذة المحققون فيقولون « وقد كان مستمدا الأول في إخراج هذه الطبعة الجديدة على المخطوطة رقم ١٦٨ تفسير والمخطوطة بمكتبة الجامع الأزهر . وتمتاز هذه المخطوطة بأنها أقدم النسخ التي نعلمها لهذا الكتاب . فقد فرغ ناسخها وهو : محمد ابن هلى الصفوى . من كتابتها في المائى من جادى الأول سنة ٨٢٥ هجرية أى بعد وفاة ابن كثير بخمسين سنة . كما تمتاز بأنها أصح وأدق ما رأينا من النسخ وسوف يبدو — إن شاء الله — مدى صحتها بمقارنة هذه الطبعة بمساجها من طبعات . وامتياز ثالث . وهى أنها تمثل النسخة الأولى للمؤلف . وأما ما عداها بما طبع من قبل فيمثل مرحلة متأخرة أضاف فيها ابن كثير زيادات أغلبها من الزمخشرى والقرطبى والفخر الرازى . ثم ينفى المحققون توهم أن ابن كثير لم يعتمد في تصنيفه الأول على هذه التفاسير فيقولون : ولا يعنى هذا أن ابن كثير لم يكن قد اعتمد في تصنيفه الأول على هذه التفاسير فسوف يبدو للدارس أنه قد رجع إلى بعضها ^(٢) » . وإنى أقول إن من هذا البعض ظهر لى « تفسير القرطبى » .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٢ آية ١١٩ من سورة البقرة وانظر تفسير القرطبى

ج ٢ ص ٩٢ والتذكرة بالقرطبى ج ١ ص ١٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧ كتاب الشعب .

كذلك من أشهر المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي :

الشوكاني : وهو القاضي العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني للتوفي سنة ١٣٥٠ هـ . فاقه أئاد الشوكاني من القرطبي ونقل عنه ، ومن الأمثلة التي توضح ذلك : قوله تعالى في سورة الفاتحة « الرحمن الرحيم » فقد قال الشوكاني في كتابه « فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير » قال القرطبي : « وصف نفسه تعالى بمد « رب العالمين » بأنه « الرحمن الرحيم » لأنه لما كان في انصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحن الرحيم لما تضمن من الترغيب . ليجتمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أهون على طاعته وأمنح كما قال « نبي هبأدي أني أنا المغفور الرحيم ، وأن هذا بي هو العذاب الأليم »^(١) . وقال « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب »^(٢) وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لو يعلم اللؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد . ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قط من جنته أحد »^(٣) انتهى^(٤) وفي قوله تعالى « الذين يؤمنون بالغييب » يقول الشوكاني : « قال القرطبي « اختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا فقالت فرقة : الغيب في هذه الآية هو الله سبحانه ، وضعفه ابن العربي . وقال آخرون : القضاء والقدر . وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب . وقال آخرون : الغيب كل ما أخبر به الرسول مما لا تهتدى إليه العقول من أشراف الساحة وهذاب القبر والحشر والنشر والعصا والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية : وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها »^(٥) .

(١) آية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .

(٢) آية ٣ من سورة مافر .

(٣) رواه الشيخان والترمذي انظر التاج ح ٥ ص ١٦٥ .

(٤) فتح القدير ح ١ ص ١١ .

(٥) فتح القدير ح ١ ص ٢٢ .

وفي قوله تعالى : « فإن لم تكونوا دخلتم بين » يقول الشوكاني :
واختلف أهل العلم في معنى الدخول للوجوب لتحريم الرائب . فروى عن
ابن عباس أنه قال : الدخول هو الجماع وهو قول طاوس وعمر بن دينار وغيرهما .
وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والأوزاعي والليث والزيدي : أن الزوج إذا
لمس الأم بشهوة حرمت عليه ابنتها ، وهو أحد قولي الشافعي . قال
ابن جرير الطبري . وفي إجماع الجميع أن خلوة الرجل بأمر أنه لا تحرم ابنتها
عليه إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها ، وقبل النظر إلى فرجها بشهوة .
ما يدل على أن معنى ذلك هو الوصول إليها بالجماع . انتهى . وهكذا حكى
الإجماع القرطبي فقال : وأجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقها
أو ماتت قبل أن يدخل بها حل له لمسكح ابنتها . واختلفوا في النظر . فقال
مالك : إذا نظر إلى شعرها أو صدرها أو شيء من محاسنها فله حرمت عليه
أمها وابنتها . وقال الكوفيون : إذا نظر إلى فرجها للشهوة كان بمنزلة لمس
للشهوة وكذا قال الثوري ولم يذكر الشهوة . وقال ابن أبي ليلى لا نهزم بالنظر
حتى يلمس . وهو قول الشافعي . والذي ينبغي التحويل عليه في مثل هذا الخلاف
هو النظر في معنى الدخول شرعاً أوله فإن كان خاصاً بالجماع فلا وجه لإلحاق
غيره به من لمس أو نظر أو غيرهما . وإن كان معناه أوسع من الجماع بحيث
يصدق على ما حصل فيه نوع استمتاع كان مناط التحريم هو ذلك ، (١) .

وفي كثير من الآيات ألمع تشابهاً كبيراً بين قصير للشوكاني وتفسير
القرطبي فأحس بمدى تأثير تأنيده بالتوازي . ومن الأمثلة على ذلك قوله
القرطبي : « فلو كان قصير للشوكاني » .

فليس شيء من لم يظن به فإنه متى أتى من اغترف غرفة بيده « ففسد قال
الشوتاني : والاغتراف الأخذ من الشيء باليد أو بآلة ، والغرف مثل الاغتراف
والغرفة للرة الواحدة ، وقد قرئ به بفتح الغين وضمها . فالفتح للمرة ، والضم
اسم الشيء المغترف . وقيل بالفتح : الغرف بالكف الواحدة وبالضم الغرفة
بالكفين . وقيل : هما لغتان بمعنى واحد ومنه قول الشاعر :

لا يدلغون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح^(١)

وهذه عبارة القرطبي . يقول القرطبي : قوله تعالى « إلا من اغترف
غرفة بيده » ، الاغتراف الأخذ من الشيء باليد أو بآلة . ومنه للغرفة ، والغرف
مثل الاغتراف وقرئ « غرفة » بفتح الغين وهي مصدر ، ولم يقل اغترافا .
لأن معنى الغرف والاغتراف واحد . والغرفة للرة الواحدة . وقرئ « غرفة »
بضم الغين وهي الشيء المغترف . وقال بعض المفسرين : الغرفة بالكف
الواحد ، والغرفة بالكفين وقال بعضهم « كلاهما لغتان بمعنى واحد » وقال علي
رضي الله عنه : الأكف أنظف الآنية . ومنه قول الحسن :

لا يدلغون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغدران بالراح

الدليل : المشي الرويد^(٢) .

وفي قوله تعالى « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه » الآية
يقول الشوتاني : والحدس^٣ : الاستدلال بالقتل ، قاله أبو حنيفة . يقال جراد
يسر ، وإذا قتله القبيد ، فأنزل الله عليه . أي استدل به فأكل كل شيء . قيل :

وأمله من الحيس الذي هو الإدراك بالحاسة . فمضى حَسَةً : اذهب حسه بالقتل ،
وتَحْصُونَهُمْ تَقْتُلُونَهُمْ وتستأصلونهم . قال الشاعر :

حسنانهم بالسيف حسا فأصبحت بقتيلهم قد شردوا وتبددوا

ثم يقول الشوكاني « يأذنه » أى بعمله وقضائه « حتى إذا مثلتم » أى
جبنتم وضمتم . قيل جواب حتى محذوف تقديره : امتحنتم وقال الفراء :
جواب حتى قوله « وتنازهتم » والواو مقحمة زائدة كقوله « فلما أسلما وتلاه
للجيين (١) » . وقال أبو هلى : يجوز أن يكون الجواب « صرفكم عنهم » .
وقيل : فيه تقديم وتأخير أى حتى إذا تنازهتم وهصيتهم فشلتم . وقيل : إن
الجواب « هصيتهم » والواو مقحمة ، وقد جوز الأخفش مثله فى قوله تعالى
« حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم » (٢) وقيل :
بمعنى إلى حيثئذ لا جواب لها . والتنازع المذكور هو ما وقع من الزمعة حين
قال بمضمون : نلحق النائم وقال بمضمون : ثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول
الله ﷺ (٣) . ولقد نقل الشوكاني ما ذكره فى هذه الآية عن القرطبي .

(١) سورة الصافات آية ١٠٣ .

(٢) سورة التوبة آية ١١٨ .

(٣) فتح القدير ج ١ ص ٣٥٦ . وانظر تفسير القرطبي ج ٤ ص ٢٣٥ وما بعدها .

الباب الثالث

مدى تأثر القرطبي بإبن عطية
ومناقشة ما أثير حول هذه القضية

مدى تأثير القرطبي وابن عطية

وهو القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية صاحب كتاب
« الوجيز في التفسير »

لقد أفاد القرطبي من ابن عطية وتأثر به ونقل عنه في مجالات كثيرة .
فنقل عنه في مجال التفسير المأثور . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » الآية . يقول
القرطبي في المسألة التاسعة : واختلاف أهل التأويل في تعيين هذه الشجرة التي
نهى عنها فأكل منها فقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وجمعة
بن هبيرة : هي الكرم . ولذلك حرمت علينا الحر . وقال ابن عباس أيضاً
وأبو مالك وقتادة : هي السنبلة ، والحبة منها ككلى البقر أحل من الدسل
وألين من الزبد ، قال وهب بن منبه . ولما تاب الله على آدم جعلها غذاء لبنيه .
وقال ابن جريج عن بعض الصحابة : هي شجرة التين . وكذا روى سعيد
عن قتادة ولذلك تميز في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل لدم آدم عليه السلام
على أكلها ، قال السبيل قال ابن عطية : وليس في شيء من هذا التمين ما يعضده
خير وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة تخالف هو إليها
وعسى في الأكل منها (١) .

وفي قوله تعالى « إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى »

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٠٥ آية ٣٥ من سورة البقرة .

الآية يقول القرطبي في للسألة السابعة : قوله تعالى « ويلمعنهم اللاهون » قال قتادة والربيع : للراد « باللاهون » لللائكة وللؤمنون . وقال ابن عطية : وهذا واضح جار على مقتضى الكلام . وقال مجاهد وهكرمة : هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب هلاء السوء الكافرين ، فيلمعنونهم . قال الزجاج : والصواب قول من قال « اللاعنون » لللائكة والمؤمنون فأما أن يكون ذلك لدواب الأرض فلا يوقف على حقيقة إلا بنص أو خبر لازم ولم نجد من ذلك شيئاً (١) .

وفي قوله تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم « الآية . يقول في للسألة الخامسة : قوله تعالى « وابتغوا ما كتب الله لكم » قال ابن عباس ومجاهد والحكم بن هبنة وهكرمة والحسن والسدي والربيع والضحاك : معناه وابتغوا الولد . يدل عليه أنه هقيب قوله « فالآن بأشروهن » وقال ابن عباس ما كتب الله لنا هو القرآن . الزجاج : أى ابتغوا القرآن بما أبيح لكم فيه وأمرتم به . وروى عن ابن عباس ومعاذ بن جبل : أن المعنى وابتغوا ليلة الفدر . وقيل للمعنى : اطلبوا الرخصة والتوسعة ، قاله قتادة . قال ابن عطية وهو قول حسن (٢) .

وأفاد القرطبي من ابن عطية في مجال القراءات . ومن الأمثلة على ذلك :

قوله تعالى : « فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان » . فقد قال القرطبي :

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٨٦ آية ١٥٩ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٨ آية ١٨٧ من سورة البقرة .

هذه الآية حفز من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب . وحسن
النضاء على المؤدّي ، وهل ذلك على الوجوب أو التنب . قراءة الرفع تدل
على الوجوب لأن المعنى فعلية اتباع بالمعروف . قال النحاس : « فمن هني له »
شروط والجواب « فاتباع » وهو رفع بالابتداء والتقدير فعلية اتباع بالمعروف ،
ويجوز في غير القرآن « فاتباعها وأداء » يحملها مصدرين . قال ابن عطية :
« فاتباعا » بالنصب ، والرفع سبيل الواجبات كقوله تعالى « فامسكه
بمروء » (١) وأما المندوب إليه فيأتى منصوبا كقوله « فضرب (٢)
الرقاب (٣) » .

وفي قوله تعالى « وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة » يقول القرطبي : قرأ
أبو علي « واعدنا » بغير ألف واختاره أبو عبيدة ورجحه ، وأنكر « واعدنا »
لأن المواعدة إنما تكون من البشر فأما الله عز وجل فإنما هو للنفرد بالوعد
والوعيد . على هذا وجدنا القرآن كقوله عز وجل « وهدمكم وعد الحق (٤) »
وقوله « وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم » (٥) . . . قال النحاس :
وقراءة « واعدنا » بالألف أجود وأحسن وهي قراءة مجاهد والأخرج وابن
كثير ونافع والأعشى وحمزة والكسائي . وليس قوله عز وجل « وهد الله
الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » (٦) من هذا في شيء . لأن واعدنا
موسى إنما هو من باب المواعدة وليس هذا من الوعد والوعيد في شيء ، وإنما

(١) آية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤ من سورة القتال .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) آية ٢٢ من سورة إبراهيم .

(٥) آية ٧ من سورة الأنفال .

(٦) آية ٥٥ من سورة النور .

هو من قولك : موعده يوم الجمعة وموعده موضع كذا ، والنصيح في هذا أن يقال : واعده . قال أبو إسحاق الزجاج : « واحدنا » هاهنا بالالف جيد . لأن الطاعة في القبول بمنزلة المواعدة فمن الله جل وهز وعسد ، ومن موسى قبول والتابع مجرى مجرى المواعدة . ثم قال القرطبي قال ابن عطية : ورجح أبو هبة « واحدنا » وليس يصح . لأن قبول موسى لوعد الله والتزامه وارتقاؤه يشبه المواعدة (١) .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية في مجال الألف والنحو . ومن الأمثلة على ذلك : قوله تعالى « كان الله على كل شيء مقبلاً » فقد قال القرطبي « مقبلاً » معناه مقتدر . ومنه قول الزبير بن عبد المطلب :

وذى ضغن كفت النفس عنه وكنت على مساهة مقبلاً

أى قديراً . فالمنى أن الله تعالى بسط على كل إنسان قوته ومنه قوله عليه السلام « كفى بالمرء إمناً أن يضع من يمينه » على من رواه هكذا أى من هو تحت قدرته وفى قبضته من هيال وغيره . ذكره ابن عطية . يقول منه : قُتِبَ أَوْتُهُ قَوْثًا وَأَتَتْهُ أَقْبِيْنُهُ إِقَاتَةً فَأَنَا قَامْتُ وَمَقِيْتُ (٢) .

وفى قوله تعالى « يسألوك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير » الآية . يقول القرطبي فى المسألة الخامسة .

قوله تعالى « وصد عن سبيل الله » ابتداء « وكفر به » حلف على

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٩٤ آية ٥١ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٥ ص ٢٩٦ آية ٨٥ من سورة النساء .

« صد » و « المسجد الحرام » عطف على سبيل الله « وإخراج أهله منه » عطف على « صد » وخبر الابتداء « أكبر عند الله » أى أعظم إيماناً من القتال في الشهر الحرام قاله المبرد وغيره . وهو الصحيح ، لطول منع الناس عن الكعبة أن يطاف بها « وكفر به » أى بالله . وقيل : « وكفر به » أى بالحج والمسجد الحرام « وإخراج أهله منه أكبر » أى أعظم عقوبة عند الله من القتال في الشهر الحرام . وقال الفراء : « صد » عطف على « كبير » و « المسجد » عطف على الماء في « به » فيكون الكلام لسقا متصلاً غير منقطع . قال ابن عطية : وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله « وكفر به » أى بالله عطف أيضاً على « كبير » ويبيىء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله . وهذا بين فساد ، ومعنى الآية على قول الجمهور : إنكم يا كفار قريش تستمعظون ههنا القتال في الشهر الحرام . وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن كفر فكم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه كما فعلتم برسول الله ﷺ وأصحابه أكثر جرماً عند الله (١) .

كذلك أفاد القرطبي من ابن عطية في مجال البلاغة . بل إن أغلب نصوص القرطبي في هذا المجال منقولة عنه كما تقدم (٢) .

وأفاد القرطبي من ابن عطية في مجال الفقه والأحكام . ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى « ولا جناح عليكم فيها هرمضهم به من خطبة النساء » الآية فقد قال القرطبي في المسألة الثانية :

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٤٥ وما بعدها آية ٢١٧ من سورة البقرة .

(٢) راجع فصل البلاغة في هذه الرسالة .

١ قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع اللعنة بما هو نص في تزوجها وتنبه عليه لا يجوز ، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو وثق وذكر جماع أو تمريض عليه لا يجوز ، وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك . ومن أخطئه قريباً إلى التصريح قول النبي ﷺ لعاطلة بنت قيس « كوني هنداً أم شريك ولا تسبقيني بنفسك » (١) ولا يجوز التمريض لخطبة الرجعية إجماعاً لأنها كالزوجة . وأما من كانت في هذه البينونة ، «الصحيح جواز التمريض لخطبتها والله أعلم .»

وروى في تفسير التمريض ألفاظ كثيرة جاعها يرجع إلى قسمين : الأول أن يذكرها لوليها يقول لا تسبقيني بها ، والثاني : أن يشير بذلك إليها دون واسطة فيقول لها : إني أريد التزويج أو إنك جليلة . إنك لصالحة . إن الله لبائني إليك خيراً . إني فيك لأرغب . ومن يرغب منك ، إنك لنا فية . وإن جابقي في النساء . وإن يقدر الله أمراً يكن . هذا هو بمثل مالك وابن شهاب . وقال ابن عباس : لا بأس أن يقول لا تسبقيني بنفسك ، ولا بأس أن يهدي إليها ، وأن يقوم بشغلها في العدة ، إذا كانت من شأنه ، قاله إبراهيم : وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التمريض بالزواج . وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن حسين . قالت سكينه بنت حنظلة : استأذن علي محمد بن علي . ولم تنقض عدتي من مهلك زوجي فقال : قد عرفت قرابتي من رسول الله ﷺ وقرابتي من علي . وموضي في العرب : قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر ، إنك رجل يؤخذ منك ، فخطبني في عدتي . قال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ ومن علي . وقد دخل رسول الله ﷺ على أم مسلمة وهي متأمة من

(١) الحديث أخرجه أبو داود الطيالسي في كتابه العدة عن أبي بكر بن أبي الجهم .

أبى سلمة فقال « لقد علمت أنى رسول الله وخيرته وموضى فى قومي . . . »
كانت تلك خطبة . أخرجه المارقلطى .

والهدية إلى للعتة جائزة . وهى من التحريض : قال سحنون
وكثير من العلماء وقاه إبراهيم . وكره مجاهد أن يقول لها لا تسبقنى
بنفسك ورآه من اللواحدة سرآ . قال القاضى أبو محمد بن عطية : وهذا هندى
على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة ، إنه على جبه الرأى لما فىمن يتروجهاء
الا أنه أرادها لنفسه ، وإلا فهو خلاف لقول النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وكان القرطبى ينقل عن ابن عطية ولا يشير إليه . ومن أمثلة ذلك . قوله
تعالى « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » فقد قال القرطبى : « واختلف
الناس فى تعيين هذا العهد فتيل : هو الذى أخسده الله على بنى آدم حين
استخرجهم من ظلمه . وقيل : هو وصية الله تعالى إلى خلقه وأمره بإمام بما
أمرهم به من طاعته ونهيه بإمام عما نهىهم عنه من تمصيته فى كتبه على ألسنة
رسله وقضهم « ذلك ترك العمل به » وقيل : بل نصب الأداة على وحدانيته
بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد . وقضهم ، ترك النظر فى
ذلك . وقيل : هو ما عهد به إلى من أوتى الكتاب أن يبينوا نبوة محمد ﷺ
ولا يكتسوا أمره .

ثم قال القرطبى : قلت : وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها فى الكفار (٢)

ويقول ابن عطية فى نفس الآية :

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٨٨ آية ٢٢٥ وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٤٦ آية ٢٧ من سورة البقرة .

واختلف في تعيين هذا العهد فقال بعض للتأولين : هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهر أبيهم آدم كالقدر . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على عباده بواسطة رسله أن يوحدهوا وألا يعبدوا غيره . وقال آخرون : بل هذا العهد هو الذي أخذه الله على أتباع الرسل والكتب المنزلة أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وألا يكتنوا أمره . قاله القاضي هبذ الحق رضى الله عنه . فلاية على هذا في أهل الكتاب . وظاهر ما قيل وما يمد أنه في جمع الكفار (١) .

وفي قوله تعالى « يسألوك عن الحمر ولايسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإنيهما أكبر من نفعهما » يقول القرطبي في للسألة الثامنة :

« وقرأ حَزَنَةُ والكسائي « كثير » بالثاء للثلاثة وحجتهما أن النبي صلى الله عليه وسلم « لمن الحمر ولمن معها حشرة : بائنها ومبتاعها وللشراة له واطمرها وللمصورة له وساقبها وشاربها وحاملها والمحمولة له وأكل منها » (٢) . وأيضاً فجمع المنافع يحسن منه جمع الآثام ، وكثير — بالثاء المثناة — يعلى ذلك . وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء الموحدة ، وحجبتهم : أنه الذنب في التمار وشرب الحمر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق : وأيضاً فاتفقهم على « أكبر » حجة لكبير بالباء للوحدة وأجمعوا على رفض أكثر — بالثاء المثناة — إلا في مصحف هبذ الله بن مسعود فإن فيه « قل فيها إثم كبير » وإنيهما أكثر « بالثاء مثناة في الحرفين » (٣) .

(١) تفسير ابن عطية ج ١ ص ٢٥ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

(٢) أخرجه الامام أحمد عن ابن عمر باختلاف يسير ج ٨ ص ١٠ وأخرجه أيضاً عن ابن عمر بلفظ . لست الحمر على هجرة وجوه . لست الحمر بيننا ، وشاربها الخ ج ٧ ص ١٦ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٦٠ آيه ٢١٩ من سورة البقرة .

ويقول ابن عطية : وقرأ حمزة والكسائي : « كثير » بالثاء للثلاثة — وحبتهما أن النبي عليه السلام « لمن أحرز ولمن معها هشة : باتها ومبتاعها وللشترأة له وعاصرها وللمصورة له وساقبها وشاربها وحاملها والمحمولة له وآكل غناها . فهذه آثام كثيرة ، وأيضاً فجمع للنافع يحسن معه جمع الأثام . وكثير — بالثاء المثلثة — يعطى ذلك ، وقرأ باقي القراء وجمهور الناس « كبير » بالباء بواحدة . وحبتهما أن الذنب في النار وشرب الخمر من الكبائر . فوصفه بالكبير أليق . وأيضاً فاتفقوا على « أكبر » حجة لكبير بالباء بواحدة ، وأجمعوا على رفض « أكثر » — بالثاء للثلاثة — إلا في مصحف ابن مسعود فإن فيه قل فيهما إثم كثير وإثما أكثر « بالثاء مثلية في الحرفين » (١) .

وكان القرطبي ينقل أيضاً عن ابن عطية بعض آرائه الخاصة وينسبها إلى نفسه ، والمثال الأول يكشف هذه الحقيقة ، وفي قوله « إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثمناً قليلاً » الآية يقول القرطبي : « ويشترُونَ به » أى بالسكوتوم « ثمناً قليلاً » يعنى أخذ الرشا وسماء قليلاً . لانقطاع مدته وسوء عاقبته وقيل : لأن ما كانوا يأخذونه من الرشا كان قليلاً . وعقب القرطبي بقوله : قلت : وهذه الآية وإن كانت في الأجبار فإنها تتناول من هداه المسلمين من كتم الحق مختاراً كذلك ، بسبب دنيا يصيبها (٢) .

وهذه عبارة ابن عطية في نفس الآية يقول ابن عطية : « والنحن القليل :

(١) تفسير ابن عطية نقلنا عن رسالة منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ٢٤٩ للدكتور عبد الوهاب فايد .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٣٤ آية ١٧٤ من سورة البقرة .

الدنيا والمكاسب . ووصف بالقلّة لا تقضائه ونفاذه — قال الفقيه أبو محمد :
وهذه الآية وإن كانت نزلت في الأخبار فإتباعها تناول من علماء المسلمين من
كتم الحق مختاراً كذلك بسبب دنيا يصيبها (١) .

ولقد ناقش القرطبي ابن عطية وتعقبه في أحيان كثيرة . ومن أمثلة ذلك
قوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » الآية
فقد قال القرطبي : قوله تعالى « وتقدس لك » أى تعظمك وتعجبك ونظير
ذكرك عما لا يليق بك مما نسبك إليه الملحدون . وقال الضحاك وغيره :
المعنى تطهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك . وقال قوم منهم قتادة : « تقدس لك »
معناه نصلى ، والتقدّيس الصلاة . قال ابن عطية : وهذا ضعيف ، وتعقب
القرطبي ابن عطية فقال « : قلت : بل معناه صحيح ، فإن الصلاة تستلزم
على التعميم والتقدّيس والتسبيح ، وكان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه
وسجوده « سبح قدوس رب الملائكة والروح » (٢) روته عائشة أخرجه
مسلم ، وبناء قدس كيفما تصرف فإن معناه التطهير ، ومنه قوله تعالى « ادخلوا
الأرض المقدسة » (٣) أى المطهرة . وقال « الملك القدوس » (٤) « يعنى الطاهر
ومثله « بالواد المقدس طوى » (٥) وبيت المقدس سمي به . لأنه المكان الذى
يتقدس فيه من الذنوب أى يتطهر . ومنه قيل لفلان : قدس لأنه يتوضأ فيه

(١) منهج ابن عطية في تفسير القرآن ص ٢٥١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ج ٣ ص ١٣١

(٣) آية ٢١ من سورة المائدة .

(٤) آية ٢٤ من سورة الحشر .

(٥) آية ١٧ من سورة طه .

ويطهر . ثم قال القرطبي : فالصلاة طهرة للعبد من الذنوب ، والمصل يسلها على أكل الأحوال لتكونها أفضل الأعمال والله أعلم ^(١) .

وفي قوله تعالى « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً » الآية ، يقول في المسألة التاسعة : قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » قال ابن عطية : وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها فتنزل النار على ما يتقبل ، ولا تنزل على ما لا يتقبل ، ولم تكن كزكاة أمة محمد صلى الله عليه وسلم « وتعقب القرطبي هذا القول فقال : قلت : وهذا يحتاج إلى نقل كما ثبت ذلك في الغنائم ، وقد روى ابن عباس أنه قال : الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص ^(٢) .

وفي قوله تعالى « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » . يقول القرطبي : للفق أي من الشاكين والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته . يقال : امتري فلان في كذا إذا اهترضه اليقين مرة والشك أخرى فدافع إحداها بالأخرى . ومنه المراء لأن كل واحد منهما يشك في قول صاحبه ، والامتراء في الشيء : الشك فيه وكذا التمارى ، وأنشد الطبري شاهداً على أن الممترين الشاكرون قول الأحمسي :

تُدر على أسوق المتمرين ركضاً إذا ما السراب ارجعن

قال ابن عطية : ووم في هذا لأن أبا عبيدة وقيره قال : للممترون هم الذين يَمُرُّون الخليل بأرجلهم همرّاً لتجري كأنهم يحتلبون الجري منها ، وليس في

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٧٧ آية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٧ آية ٨٣ من سورة البقرة .

البيت معنى الشك كما قال الطبري . ولم يرتض القرطبي قول ابن عطية : فقال :
وقلت : معنى الشك فيه موجود لأنه يحتمل أن يختبر الفرس صاحبه هل هو
على ما عهد منه من الجرى أم لا لئلا يكون أصابه شيء أو يكون هذا عند أول
شرائه فيجربه ليعلم مقدار جريه . قال الجوهري ومريت الفرس إذا امتحنت
ما عنده من الجرى بسوط أو غيره ، والاسم المربة بالكسر ، وقد تضم
ومريت الناقة مريباً إذا مسحت خربها لندير وأمرت هي إذا در لبنها
والاسم اللرية بالكسر والضم غلط . والمربة الشك وقد تضم وقرى
بهما (١) .

وفي قوله تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » بين القرطبي أن قول
الله « وتزودوا » أمر باتخاذ الزاد . ثم قال . . . وقال بعض الناس « وتزودوا
الرفيق الصالح » وقال ابن عطية : وهذا تخصيص ضعيف . والأولى في معنى
الآية : وتزودوا لمادكم من الأعمال الصالحة . ولم يرتض القرطبي هذا الرأي
فقال : « قلت : القول الأول أصح فإن للراد : الزاد للتخذ في سفر الحج
لما كؤل حقيقه كما ذكرنا . وكأروى البخارى عن ابن عباس قال : كان أهل
اليمين يجحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المنوكلون . فإذا قدموا مكة سألوا
الناس ، فأنزل الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » وهذا نص فيما
ذكرناه وعليه أكثر المفسرين . وأخذ القرطبي يسرد من الأدلة ما يتناقض
مع ما ذكره ابن عطية (٢) .

وإلى جانب تأثير القرطبي بابن عطية في هذه المجالات كلها ، فإننا نرى

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣ آية ١٤٧ من سورة البقرة وما بعدها .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٤١١ آية ١٦٧ من سورة البقرة .

القرطبي يتوسع فيذكر أكثر مما ذكره ابن عطية في كثير من المجالات ، في مجال القراءات وفي مجال اللغة والنحو ، وفي توجيه التفسير المأثور . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى « وعما رزقناهم ينفقون » فقد قال ابن عطية : « قال ابن عباس : ينفقون . يؤتون الزكاة احتساباً لها . قال غيره : الآية في النفقة في الجهاد . وقال الضحاك : هي نفقات كالموا يتقربون بها إلى الله تعالى على قدر يسرهم . قال ابن مسعود وابن عباس أيضاً : هي نفقة الرجل على أهله . قال أبو محمد والآية نعم الجميع » (١) .

ويقول القرطبي : « واختلف العلماء في المراد بالنفقة ما هنا . وقيل : الزكاة المفروضة . روى عن ابن عباس : لمقارنتها الصلاة وقيل : نفقة الرجل على أهله . روى عن ابن مسعود لأن ذلك أفضل النفقة . روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « دينار أنفقته في سبيل الله ودينار أنفقته في رقة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار أنفقته على أهلك أعظم أجراً الذي أنفقته على أهلك » (٢) وروى عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ « أفضل دينار ينفقة الرجل دينار ينفقة على أصحابه في سبيل الله » (٣) قال أبو قلابة . وبدأ بالميال . ثم قال أبو قلابة : وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على حيال صغار يُمنهم أو ينفعهم الله به وينفعهم . وقيل : المراد صدقة التطوع — روى عن الضحاك — نظرا إلى أن الزكاة لا تأتي إلا بلفظها المحض بها وهو الزكاة ، فإذا جاءت بلفظ غير الزكاة ، احتملت الفرض والتطوع . . وقيل

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية مكتبة الأزهر آية ٣ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ج ٧ ص ٨٢ .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في كتاب الزكاة ج ٧ ص ٨١ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٧٩ .

إنه الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ما عدا الزكاة ، لأن الله تعالى لما قرنه بالصلاة كان فرضاً . ولما عدل عن لفظها كان فرضاً سواها . وقيل : هو عام وهو الصحيح لأنه خرج مخرج المباح في الإنفاق مما رزقوا وذلك لا يكون إلا من الحلال أى يؤتون ما أؤمهم الشرع من زكاة وغيرها مما يمين في بعض الأحوال مع ما تدبهم إليه .

فالقرطبي وإن لم يخرج عما ظهّر ابن عطية ، إلا أنه كان أكثر منه توجيهاً لهذه الآراء . وأحب أن أقول في هذا المكان : إن العلماء والمؤرخين إذا كانوا قد هدوا تفسير ابن عطية من جملة ما كُتِب في التفسير المأثور . فإن القرطبي كان يميل في هذا اللون من التفسير ولم يكن يوجز فيه ، ولقد لاحظت أنه كان يميل في توجيه الآراء المأثورة أكثر من ابن عطية . وقد تقدم ما يشهد لذلك .

وفي قوله تعالى « أجهلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام » الآية تظهر أيضاً هذه الحقيقة . فقد قال ابن عطية :

« واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية . فقيل : إن كفار قريش ظلموا اليهود : إما نسق الحجيج ونصر البيت أفتحن أفضل أم محمد ودينه ؟ فقالت لهم أجبوا اليهود : بل أنتم . فزلت الآية في ذلك . وقيل : إن الكفار اقتضوا بهذه الأشياء فزلت الآية في ذلك . وأسند الطبري إلى الثعلبي بن بشير أنه قال : كنت عند منير النبي ﷺ في قمر من أصحابه فقال أحدهم : ما أنعمي بعد الإسلام إلا أن أكون ساقى الحاج . وقال الآخر : إلا أن أكون خادم البيت ومارسه . وقال الثالث : إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله ، فسمهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : اسكتوا حتى أدخل على النبي

ﷺ فاستفتيه . فدخل عليه فاستفتاه . فنزلت الآية في ذلك . وقال ابن عباس . والضحاك : إن للمسلمين عيروا أسرى بدر . فقال العباس : بل نحن سقاء الحاج . وعمار البيت فنزلت الآية في ذلك . وقال مجاهد : أمروا بالمعجزة فقال العباس : أنا أسقى الحاج وقال عثمان بن طلحة : أنا حاجب السكينة فلا أهاجر : فنزلت « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة للمسجد الحرام » إلى قوله « حتى يأتي الله بأمره » وذكر ابن هطية غير هذا من الآراء التي لا تخرج عن مضمون ما تقدم (١) .

أما القرطبي فإنه بعد أن ذكر بعض سبب نزول الآية . قال : ويقال إن للشركيين سألوا اليهود وقالوا : نحن سقاء الحاج وعمار للمسجد الحرام . فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ . فقالت لهم اليهود عنادا لرسول الله ﷺ : أنتم أفضل . وقد اترض هنا إشكال وهو ما جاء في تصحيح مسلم عن النعمان بن بشير قال . كنت عند منبر رسول الله ﷺ فقال رجل ما أبالي ألا أحمل بعد الاسلام إلا أن أسقى الحاج . وقال آخر : ما أبالي ألا أحمل بعد الاسلام إلا أن أعمار المسجد الحرام . وقال آخر : الجهاد في سبيل الله أفضل مما قتلتم . فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ — وهو يوم الجمعة — ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته فيما اختلفتم فيه . فأنزل الله عز وجل « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كن آمن بالله واليوم الآخر (١) » إلى آخر الآية . وهذا المساق يقتضى أنها إنما نزلت عند اختلاف المسلمين في الأفضل من هذه الأعمال . وحينئذ لا يليق أن يقال لهم

(١) تفسير ابن هطية ج ٥ ص ٨١ نسخة خطية بدار الكتب .

(٢) الحديث أخرجه مسلم « باب فضل الشهادة في سبيل الله » ج ١٣ ص ٢٥٠ ، ٢٦٠

في آخر الآية « والله لا يهدي القوم الظالمين » فتعين الإشكال ، وإزالته بأن يقال : إن بعض الرواة تسامح في قوله ، فأنزل الله الآية . وإنما قرأ النبي ﷺ الآية على عمر حين سأله . فظن الراوي أنها نزلت حينئذ . واستدل بها النبي ﷺ ، على أن الجهاد أفضل مما قال أولئك الذين سمعهم عمر فاستنقوا لهم ، فتلا عليه ما قد كان أنزل عليه لأنها نزلت في هؤلاء والله أعلم .

فإن قيل معنى هذا أنه يجوز الاستدلال على المسلمين بما أنزل في الكافرين . ومعلوم أن أحكامهم مختلفة . قيل له : لا يستبعد أن ينتزع مما أنزل الله في المشركين أحكام تليق بالمسلمين . وقد قال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا ملاحق (١) وشواء ، وتوضع صحيفة وترفع أخرى ولكننا سمعنا قول الله تعالى « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » (٢) . وهذه الآية نص في الكفار ، ومع ذلك فقد فهم منها عمر الزجر عما يناسب أحوالهم بعض المناسبة . ولم ينكر عليه أحد من الصحابة . فيمكن أن تكون هذه الآية من هذا النوع . وهذا نفيس وبه يزول الإشكال ويرتفع الإبهام والله أعلم (٣) .

وفي قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » يتعرض ابن عطية لقراءات فيقول : وأجمع السبعة وجمهور الناس على رفع الدال من « الحمد لله » وقال ابن عطية هذا أثناء تأييده لرأى من يقول « إن الحمد يخالف الشكر » ولم

(١) ثلاثي الملاحق للشونة ويروى بالصاد .

(٢) سورة الاحقاف .

(٣) تفسير القرطبي ج ٨ ص ٩١ وما بعدها آية ١٩ من سورة التوبة . وانظر قوله الله تعالى « ومنهم من طاهد الله لئن آتانا من فضله .. الآية » في تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٤٦ . وتفسير القرطبي ج ٨ ص ٢٠٨ آية ٧٥ من سورة التوبة .

يتعرض ابن عطية لقراءات التي في لفظة « الحمد » بأكثر من هذا^(١) ولكن القرطبي يطيل في ذكر ما ورد في هذه اللفظة من قراءات ويطلب في توجيهها فيقول « وأجمع القراء السبعة وجمهور الناس على رفع الهال من « الحمد لله » وروى عن سفيان بن عيينة ورؤية بن المساج « الحمد لله » بنصب الهال وهذا على إضمار فعل . ويقال « الحمد لله » بالرفع . مبتدأ وخبر ، وسبيل الخبر أن يفيد ما القائمة في هذا ؟ فالجواب أن سيبويه قال : إذا قال الرجل « الحمد لله » بالرفع ففيه من المعنى مثل ما في قولك : حمدت الله حمداً . إلا أن الذي يرفع « الحمد » يخبر أن الحمد منه ومن جميع الخلق لله . والذي ينصب « الحمد » يخبر أن الحمد منه وحده لله . وقال غير سيبويه . إنما يتكلم بهذا تعرضاً لمعنى الله ومغفرته وتعظيمه وتمجيده ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . ثم قال القرطبي . . . « وروى عن ابن أبي عبيدة » الحمد لله بضم الهال واللام على إتباع الثاني للأول ، ولينجانس اللفظ ، وطلب التجانس في اللفظ كثير نحو : أجودك وهو منحدر من الجبل بضم الهال والجيم قال :

« اضرب الساقين أمك هابل »

بضم النون لأجل ضم الهمزة ، وفي قراءة لأهل مكة « مردفين » بضم الراء إمباها للميم . وذكر القرطبي أيضاً غير هذا من القراءات^(٢) .

وفي قوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » يتوسع القرطبي عن ابن عطية في مجال اللغة ، بل إن ابن عطية لا يكاد يذكر شيئاً . إذ يقول : « قوله ومما رزقناهم ينفقون » كتبت « مما متصلة » وما بمعنى الذي لحقها أن تكون منفصلة .

(١) تفسير ابن عطية ح ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر سورة الفاتحة .

(٢) تفسير القرطبي ح ١ ص ١٣٥ وما بعد ها .

لأن الجار والمجرور كثر واحد ، وأيضا فلما خفيت نون « من » في اللفظ حذفت في الخط . وبعد أن ذكر ابن عطية معنى الرزق عند أهل السنة والعقيدة انتقل إلى بيان للراد من قوله « ينفقون » عند علماء السلف . وقد تقدم ذكر ذلك في اللثال الأول .

أما القرطبي فإنه يقول : قوله تعالى « وما رزقناهم » الرزق مصدر رزق يرزق رزقا ورزقا . فالرزق بالفتح : المصدر وبالكسر : الاسم . وجهه أرزاق . والرزق المعطاء . والرازقية : ثياب كتان بيض . وارتزق الجند : أخذوا أرزاقهم . والرزقة : المرة الواحدة . هكذا قال أهل اللغة . وقال ابن السكيت : الرزق بلفظة أزد شئونة : الشكر . وهو قوله عز وجل « ويحملون رزقكم أنكم تكذبون » (١) « أي شكركم للتكذيب ويقول : « رزقني أي شكرني » ثم بين القرطبي أن معنى قوله « ينفقون » يخرجون . وقال : « والإنفاق » إخراج المال من اليد ، ومنه نفق البعير أي خرج من يد البائع إلى المشتري . ونفقت الغاية خرجت روحها . ومنه الإنفاق لجهر البر بوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى ، ومنه المنافق لأنه يخرج من الإيمان . أو يخرج الإيمان من قلبه . وينفق السراويل معروفة . وهو يخرج الرجل منها . ونفق الزاد : فني وأنفقه صاحبه . وأفق القوم فني زادم . ومنه قوله تعالى « إذا لأمسكم » (٢) خشية الإنفاق (٣) « ومنه قوله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » يقول ابن عطية : « والزكاة في هذه الآية هي المفروضة ، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها . والزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما

(١) - سورة الواقعة .

(٢) - سورة الاسراء .

(٣) - تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة لآذر آية ٤٧ من سورة البقرة .

وزاد، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه ، من حيث ينمو بالبركة والأجر الذي ينسب الله به المزكى . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكى فلان أى طهر من دنس الجرحه أو الإفعال ، فكأن الإخراج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للساكنين . ألا ترى أن النبي ﷺ مسمى ما يخرج فى الزكاة أو ساخن الناس (١) .

أما القرطبي فإنه يقول فى المسألة الثالثة من المسائل التى ههنا لشرح هذه الآية « الزكاة » مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد يقال : زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد ، ورجل زكى : أى زائد الخير ، وسمى الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى ينسب به المزكى . يقال : زرع زاك بين الزكاة ، وزكأت الناقة بولدها تركاً به : إذا رمت به من بين رجلها . وزكا الفرد إذا صار زوجاً بزيادة الزائد عليه حتى صار شفعاً قال الشاعر :

كانوا خمساً أو زكاً من دون أربعة لم يخلقوا وجدود الناس تمنلج
جمع جد ، وهو الحظ والبخت . تمنلج أى ترتفع . اهتبلج الأرض :
طال نباتها . نخسا : الفرد ، وزكا : الزوج .

وقيل : أصلها الشاء الجميل ، ومنه : زكى للقاضى الشاهد . فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الشاء الجميل . وقيل : الزكاة مأخوذة من التطهير كما يقال : زكا فلان أى طهر من دنس الجرحه والإفعال . فكأن الإخراج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعل الله فيه للساكنين ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم مسمى ما يخرج من الزكاة أو ساخن الناس ، وقد قال تعالى

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر آية ٤٣ من سورة البقرة .

« خذ^(١) من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها^(٢) » .

وفي قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنفسون أنفسكم » الآية . يقول ابن عطية « والبر يجمع وجوه الخير والطاعات ، ويقع على كل واحد منها اسم بر . « وتنفسون » بمعنى تتركون كما قال الله تعالى « نسوا^(٣) الله ففسهم » ثم انتقل ابن عطية إلى بيان المقصود بهذه الآية ثم قال : وقوله « وأنتم تتلون الكتاب » معناه تدرسون وتقرأون . ويحتمل أن يكون المعنى : تتبعون أى فى الاقتداء بها ، « والكتاب » التوراة ، وهى تهام مما هم عليه من هذه الصفة الذميمة ، وقوله « أفلا تعقلون » معناه : أفلا تمنعون أنفسكم من موازنة هذه الحال المرذية لكم . والعقل : الإدراك المانع من الخطأ مأخوذ منه هقال البعير لأنه ينمته من التصرف ، ومنه العقل أى موضع الامتناع^(٤) .

أما القرطبي فيقول فى تفسير قوله تعالى « بالبر » البر هنا الطاعة والعمل الصالح . والبر : الصدق . والبر : ولد الثعلب . والبر سوق الغنم ومنه قولهم : لا يعرف هراً من بر أى لا يعرف دماء الغنم من سوقها . فهو مشترك . وقال الشاعر :

لا م رب إن بكرا دونك يبرك الناس ويفجرونك

أراد بقوله « يبرك الناس » أى يطعمونك ويقال : إن البر الفؤاد فى قوله :

(١) آية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٤٣ .

(٣) آية ٦٧ من سورة التوبة .

(٤) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الازهر آية ٤٤ من سورة البقرة .

أكون مكان البر منه ودونه وأجعل مالى دونه وأوامره

والبر بضم الباء معروف ، وفتحها الإجلال والتعظيم ، ومنه ولد بر وبار أى
يعظم والديه ويكرهما . وفى قوله « وتذنون أنفسكم » . ذكر القرطبي كثيراً
من للمائى اللغوية لكلمة « النفس » واستشهد بكثير من الأشعار : ثم قال
فى قوله « وأنتم تتلون الكتاب » وأصل التلاوة الاتباع . ولذلك استعمل
فى القراءة لأنه يتبع بعض الكلام ببعض فى حروفه حتى يأتى على نسقه يقال
تلوته إذا تبعته تلوا . وتلوت القرآن تلاوة وتلوت الرجل تلوا إذا خذله ،
والتلية والتلاوة بضم التاء : البقية . يقال : تليت لى من حتى تلاوة وتلية
أى بقيت . وأنليت : أبقيت . وتلتيت حتى إذا تتبعته حتى تستوفيه قال
أبو زيد : لى الرجل إذا كان بآخر رمق . وفى قوله « أفلا تمقلون » يقول
القرطبي والمقل : للنم ومنه هقال البعير لأنه يمنع من الحركة . ومنه العقول القديمة
لأنه يمنع لى للقتول من قتل الجانى . ومنه اعتقال البطن والسان . ومنه يقال
للمحصن : معقل . والمعقل : تقيض الجهل . والمعقل : ثوب أحمر تتخذ له
العرب نقش به الموادج . قال حلقمة :

هقلا ورقا تسكاد الطير تحفظه كأنه من دم الأجواف مدموم

المدوم بالذال المهملة : الأحمر وهو المراد هنا . والمدوم الممتلئ شحماً
من البعير وغيره . ويقال : هما ضربان من البرود . قال ابن فارس : والمعقل
من شيات الثياب ما كان نقشه طولا . وما كان نقشه مستديراً فهو الرقم .
وقال الزجاج المائل من هما ، بما أوجب الله عليه فمن لم يعمل فهو جاهل (١) .

(١) يفسر القرطبي ج ١ ص ٣٦٨ وما بعدها

وفي قوله تعالى « والحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم » كتاب الله عليكم » تعرض ابن عطية للقراءات في قوله « كتاب الله عليكم » وبين أن قراءة الجمهور « كتاب الله » على المصدر المؤكد . ثم قال : وقرأ أبو حمزة ومحمد بن المسيقع اليماني : « كتب الله عليكم » على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى (١) . ولم يذكر ابن عطية ما قيل من أوجه الإحزاب في قوله تعالى « كتاب الله عليكم » أما القرطبي فذكر ما ذكره ابن عطية من القراءات ، وذكر ما قيل من أوجه الإحزاب في قوله تعالى « كتاب الله عليكم » وناقش بعضها . وقد تقدم لنا في فصل « النحو والإحزاب » ما قاله القرطبي فلا داعي لآخذه .

أما في مجال الفقه فما لاشك فيه أن القرطبي قد توسع فذكر أضاف أضاف ما ذكره ابن عطية في هذا المجال . وللتناظر في الكتابين يدرك من أول وهلة هذه الحقيقة . بل إن تسمية القرطبي لكتابه « الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان » يكشف هذه الحقيقة ويوضحها فالقرطبي قد بين بهذه التسمية أنه سيمضي بأى الأحكام وسيطيل في شرحها . أما ابن عطية فإنه — كما يقول الدكتور « عبد الوهاب فايد » في رسالة هذه ليس الغرض من تفسيره استنباط الأحكام المقهية كما هو الشأن في كتب أحكام القرآن — لهذا نجد ابن عطية لا يسرف في ذكر الأحكام الفقهية ولا يشغل نفسه بها كثيراً (٢) .

(١) تفسير ابن عطية ج ٥ ص ١٣٨ نسخة خطية بدار الكتب آية ٢٤ من سورة النساء .

(٢) منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص ١٦١ بتصرف .

وفي مجال الحديث نرى القرطبي يعنى بتخريج الأحاديث التي يذكرها غالباً، على عكس ابن عطية فإنه في كثير من الأحيان كان يذكر الأحاديث دون تخريج لها . ومن الأدلة التي توضح هذه الحقيقة ما ذكره ابن عطية في مسائل البسمة . فقد قال « وروى أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ : تعس الشيطان . فقال رسول الله ﷺ : لا تقل ذلك فإنه يتعاظم عنده ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم فإنه يصغر حتى يصير أقل من ذباب » (١) .

أما القرطبي فيقول في المسألة الثانية من مسائل البسمة :

وروى النسائي عن أبي المليح عن ردف رسول الله ﷺ قال : إن رسول الله ﷺ قال « إذا حثرت بك الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاظم حتى يصير مثل البيت . ويقول يوقى صنعته ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم . فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذئب » (٢) .

وهندما ذكر ابن عطية بعض الأحاديث التي تفيد أن البسمة آية من الفاتحة تعقبها بأن ذلك مردود بالحديث الصحيح الذي يقول الله فيه « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين (٣) » .

أما القرطبي فيقول « والأخبار الصحاح التي لا مطمئن فيها دالة على أن البسمة ليست بآية من الفاتحة ولا غيرها إلا النفل في وحدها . روى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله عز وجل قسمت الصلاة

(١) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٩١ وما بعدها .

(٣) تفسير ابن عطية ج ١ نسخة خطية بمكتبة الأزهر .

بين وبين عبيد نصفين ، ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد « الحمد لله رب العالمين » قال الله : حمدني عبيدى وإذا قال العبد « الرحمن الرحيم » قال الله تعالى أني على عبيدى ، وإذا قال العبد « مالك يوم الدين » قال بحمدني عبيدى — وقال مرة فوض إلى عبيدى — فإذا قال « إياك نعبد وإياك نستعين » قال هذا بين وبين عبيدى ولعبدى ما سأل. فإذا قال « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المنضوب عليهم ولا الضالين » قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل (١) .

والأمثلة على هذا كثيرة ونسكتفي بهذا القدر .

كما كان القرطبي في نقد الأحاديث وقفات ، ووقفة وقد مر بنا ما يؤيد هذه الحقيقة . صحيح أن القرطبي أورد في تفسيره بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، لكن ذلك كان في أحيان قليلة لا ينقص كثيراً من دقة القرطبي وتفوقه في هذا الميدان . ويبدو أن ابن عطية لم تكن له دقة القرطبي في هذا المجال

ولقد أبدى كل ما ذهبت إليه الدكتور « عبد الوهاب فايد » في رسالته عن ابن عطية فقد قال وهو يتحدث عن منهجه في الحديث : « وكان منهج ابن عطية في ذكر الأحاديث النبوية أنه لا يلتزم دائماً بتخريج هذه الأحاديث ونسبتها إلى مصادرهما من مصنفات الحديث بل ينجد — أحياناً — يُخرِّج الأحاديث ويذكر روايتها ونجده كذلك — في كثير من الأحيان — يذكر

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٩٤ والحديث أخرجه مسلم والسنائي وأبو داود والترمذي انظر التاج ج ٤ ص ٢٦ .

الأحاديث دون تخريج لها ، أو ذكر لرواتها فيقول مثلا : وفي الحديث كذا
أو روى عن رسول الله ﷺ أنه قال كذا .

ومن ناحية أخرى لاحظت أن ابن عطية - في مجال الحديث من تفسيره -
لا يلتزم كذلك ذكر الصحيح من الأحاديث ، بل كان إلى جانب ما أورده
في تفسيره من الأحاديث الصحيحة والكثيرة - يذكر في بعض الأحيان
أحاديث في غاية الضعف ، ثم أخذ الباحث يذكر بعض الأمثلة على ذلك .
وأحب أن أسعرض هذه الأمثلة وأبين موقف القرطبي منها حتى يظهر لنا
الفرق بين اللوقفين . . يقول الباحث :

فتلا يذكر ابن عطية عند تفسير قوله تعالى « الله لا إله إلا هو الحي
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » هذا الحديث فيقول « روى أبو هريرة
. قال سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى هل للنبر قال : وقع في نفس
موسى هل ينام الله عز وجل فأرسل الله إليه ملكا ، فأرّفه ثلاثا . فأعطاه
قارورتين في كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وتكاد
يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس إحداها عن الأخرى حتى نام نومة اصطفت
يداه فانكسرت القارورتان . قال : ضرب الله له مثلا أن لو كان ينام
لم تستمسك السماء والأرض » .

وإذا كان ابن عطية لم يعقب على هذا الحديث بكلمة فقد فإن القرطبي
قد تعقبه وبين فساد وطلانه وقد تقدم لنا ذلك .

ولقد استدلل الباحث في تقديمه لابن عطية هنا . بما قاله القرطبي فقال :

والحق أن هذا الحديث غير صحيح بل هو ضعيف أو منكر . ومن ثم يقول القرطبي عنه « ولا يصح هذا الحديث ، ضعفه غير واحد منهم البهقي » .

ولم يخالف القرطبي في تقديمه هذا علماء الحديث فقد قال ابن كثير عن هذا الحديث « هذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع والله أعلم » ووصف الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال هذا الحديث بأنه منكر فقال « أمية بن شبل يما في له حديث منكر رواه عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبي هريرة مرفوعاً قال : وقع في نفس موسى هل ينال الله ، الحديث . ويقول الحافظ ابن حجر عن هذا الحديث « ذكره ابن الجوزي في العلل للتنبيه وقال : يشبه أن يكون عكرمة تلقاه عن كذب أهل الكتاب » ثم يقول الباحث : كما أنه عند تفسير قوله تعالى « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » .

يذكر ابن عطية هذا الحديث فيقول « وروى في ذلك أن النبي ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ قال له نعم . أعطاني ذلك الرجل الذي يصلي خائفاً من فضة وهو راكع فنظر النبي ﷺ فإذا الرجل الذي أشار إليه هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه . فقال النبي ﷺ : الله أكبر وتلا الآية على الناس » .

وذكر القرطبي أن الآية نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم بين أن من قال هذا استدلال بما ورد أن سائلاً سأل في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطه أحد شيئاً . وكان علي في الصلاة في الركوع وفي بينة خاتم فأشار إلى السائل بيده حتى أخذه .

ولم ينفذ القرطبي هذا الحديث وسكت عنه كما سكت عنه ابن عطية .

ولقد تعقب هذا الحديث كثير من العلماء ، فقال ابن تيمية عنه : أنه موضوع بانفاق أهل العلم » وقال ابن كثير : « هذا الحديث رواه ابن مردويه عن ابن عباس من طريق محمد بن السائب الكلبي وهو متروك ثم ذكر ابن كثير كذلك أن ابن مردويه رواه من حديث علي ابن طالب نفسه وعمار ابن ياسر وأبي رافع . قال ابن كثير : وليس يصح شيء منها بالسكينة لضعف أسانيدها وجهاة رجالها (١) » .

لكن القرطبي لم يرفع هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ كما فعل ابن عطية بل أتى به موقوفاً على بعض الصحابة والتابعين .

وبعد أن اتضح أماننا أن القرطبي تأثر بابن عطية في مجالات كثيرة . وبعد أن اتضح أماننا أن القرطبي توسع عن ابن عطية في كثير من المجالات أيضاً ، بعد هذا نقسأل ما معنى قول ابن خلدون : « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحصيل وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفاسير كلها — أي تفاسير المنقول — وتجرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنهج . وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق (٢) »

نقسأل ماذا معنى عبارة ابن خلدون ؟ .. قد تفيد عبارة ابن خلدون أن القرطبي قد تأثر بابن عطية من حيث المنهج . ولقد استدلل بعض الباحثين بكلام « ابن خلدون » على هذا . ثم قال الباحث : « أستطيع أن أقول إن القرطبي في تفسيره

(١) مسج ابن عطية ص ١١٩ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٨ .

تأثر تأزراً كبيراً — من حيث المنهج — بتفسير ابن عطية في أمور كثيرة منها العناية بالمأثور والرأى . . إلا أن القرطبي قد تفوق على ابن عطية في ناحية هامة ، وهي أنه كانت له جهود موفقة كبيرة في تخريج الأحاديث النبوية التي أوردتها في تفسيره بخلاف ابن عطية فإنه كانت له جهود قليلة في هذا الميدان . وأيضاً ينضح لمن يطالع كتاب « الجامع لأحكام القرآن » أن القرطبي تأثر منهجياً بابن عطية في أمور أخرى كجمع القراءات وتوجيهها والاكثار من اللفظة والنحو والإفلال من القصص الاسرائيلى . وهذا هو القرطبي في مجال القصص يقول « وأضرب عن كثير من قصص المفسرين وأخبار المؤرخين إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للبينين » وهذا كلام يشبه إلى حد كبير ما يقوله ابن عطية في مقدمة تفسيره فإنه يقول « لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به » (١) .

وتأثر القرطبي بابن عطية من حيث المنهج سلم به . ولا عيب على القرطبي إذا تخير تفسيراً حسن المنحى . فاعتنى مثل ما اعتنى صاحبه بالمأثور وأكثر مثل ما أكثر من القراءات واللفظة والنحو . وأضرب كما أضرب عن كثير من القصص الاسرائيلى . وتساءل أيضاً ماذا تعنى عبارة الدكتور « آرتور جفرى » التي يقول فيها « وقد صنف — أى ابن عطية — تفسيره المسمى « الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير القرآن العزيز » فى الأندلس وصدره بنسخة فى علوم القرآن وكل تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلاً لكثير مما اشتهر به القرطبي فى كتابه « الجامع لأحكام القرآن » . التي طبع فى مصر فى شهرين مجلداً سنة ١٩٣٣ — ١٩٥٠ . ثم استدلل بذلك على القيمة العلمية

لتفسير ابن عطية ، وعلى ضرورة نشر مقدمته التي قام بتحقيقها فقال : « هذا نفسه دليل داخ على الأهمية المظلمة لهذا المؤلف وعلى ضرورة نشر رسالته هذه (١) » ماذا تعنى هذه العبارة ؟ إن كان الدكتور « آرثر جفرى » يريد أن القرطبي تأثر بابن عطية في مجالات كثيرة فهذا ما نسلمه له ، وإن كان يريد أن القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية فجعله أصلاً يبنى عليه كلامه في أغلب تفسيره ، فهذا ما نقف عنده لنرى مدى صحته .

لقد تقدم لنا أن القرطبي توسع عن ابن عطية في كثير من المجالات ... وليس معنى هذا أن القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية ثم توسع فيه وزاد عليه بل كما رأينا في كثير من النواحي السابقة أن ابن عطية لم يذكر ما قاله القرطبي ولم يتعرض له . وهل معنى هذا أن ما قاله « آرثر جفرى » غير صحيح ؟ ... قد يكون القرطبي أخذ ما قاله ابن عطية في بعض الأحيان فجعله أصلاً ثم زاد عليه . . ففي قوله تعالى « إياك نعبد » يقول ابن عطية : وقوله تعالى « إياك نعبد » نطق المؤمن به إقرار بالربوبية وتذلل وتحقيق لعبادة الله إذ سائر الناس يعبدون سواء من الأصنام وغير ذلك . وقدم المفعول على الفعل اهتماماً وشأن العرب تقديم الأسماء ، ويذكر أن أهراًياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب إياك أعنى . فقال له الآخر : وهناك أعرض . فندما الأم . و « نعبد » نقيم الشرع والأوامر مع تذلل واستكانة ، والطريق المذلل يقال له مصيد وكذلك البعير . . وتكررت إياك بحسب اختلاف الفضلين فاحتاج كل واحد منهما إلى تأكيد واهتمام (٢) .

(١) مقدمتان في علوم القرآن للدكتور « آرثر جفرى » ، ص ٤

(٢) تفسير ابن عطية نسخة خطية بمكتبة الأزهر سورة الفاتحة .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « إياك نعبد » رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلويح ، لأن من أول السورة إلى هاهنا ، خبراً عن الله تعالى وثناء عليه كقوله « وسقاهم دهم شرباً طهوراً » ثم قال « إن هذا كان لكم جزاء » وهكسه « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم » . « نعبد » معناه نطيع والعبادة الطاعة والتذلل . وطريق معبد إذا كان مدلاً لساكنين قاله الهروي . ونطق المسكاف به إقرار بالربوبية وتحقيق لعبادة الله تعالى إذ سائر الناس يعبدون سواء من أصنام وغير ذلك » .

ثم قال في المسألة الرابعة والعشرين : إن قيل لم قدم المفعول على الفعل ؟ . . . قيل له قدم اهتماماً وشأن العرب تقديم الأهم ، يذكر أن أهراًياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه فقال له الساب : إياك أحنى فقال له الآخر : وهناك أحرص ، فقدم الأهم . وأيضاً لثلاث ينقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ولا نعبد إياك ونستعين إياك ، فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن . قال المجاج :

إياك أدهو فتقبل ملقى واغفر خطاياي وكثر ورقى

ويروى « ونمر » وأما قول الشاعر :

إليك حتى بلغت إياكا

فشاذ لا يقاس عليه ، والورق بكسر الراء من الدراهم وبفتحها المال . وكرر الاسم لثلاث يتوهم « إياك نعبد ونستعين به » (١) .

(١) نفس القرطبي ج ١ ص ١٤٥ وما بعدها .

وفي قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » يقول ابن عطية « التقدير : حب العجل ، والمعنى جمعت قلوبهم تشربه وهذا تشبيه ومجاز هبارة من تمكن أسر العجل في قلوبهم » (١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » أى حب العجل والمعنى جمعت قلوبهم تشربه وهو تشبيه ومجاز هبارة من تمكن أسر العجل في قلوبهم « وفي الحديث تعرض الفتن على القلوب كالحصير هوذا هوداً فأى قلب أشربها نكت فيه فكنته سوداء » الحديث خرجه مسلم ، يقال أشرب قلبه حب كذا . قال زهير :

فصحوت منها بمد حب داخل والحب تشربه فؤادك داء

وإنما هير من حب العجل بالشرب دون الأكل ، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها والطعام مجاور لها خير متغلغل فيها ، وقد زاد على هذا المعنى أحد التابعين فقال في زوجته هثمة وكان عتب عليها في بعض الأمر فطلقها وكان محبا لها (٢) :

تغلغل حب هثمة في فؤادى فباديه مع الخفافى يسير

تغلغل حيث لم يبلغ شراب ولا حزن ولم يبلغ سرور

أكاد إذا ذكرت العهد منها أطير لو أن إنساناً يعطير (٣)

وفي قوله تعالى « بل من كسب سيئة » يقول ابن عطية « وبلى رد بمد

(١) تفسير ابن عطية ج ١ مسحة مصورة ص ١٧٧ آية ٩٤ من سورة البقرة .

(٢) الحديث أخرجه مسلم من حديثه ج ٢ ص ١٧١ .

(٣) تفسر القرطبي ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

التي بمنزلة نعم بعد الإيجاب « وقال الكوفيون أصله : بل التي للاضراب من الأول ، وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها وضمنت الياء . معنى الإيجاب والإنعام بما يأتي بعدها ..

وقال سيبويه : هي حرف مثل بل وغيره . وهي في هذه الآية رد لقول بني إسرائيل « لن نمسنا النار » فرد الله تعالى عليهم وبين الخلود في النار والجنة بحسب الكفر والإيمان « (١) .

ويقول القرطبي : قوله تعالى « بل » أي ليس الأمر كما ذكرتم . قال سيبويه : ليس « بل » و « د نعم » اسمين ، وإنما هما حرفان مثل بل وغيره . وهي رد لقولهم : لن نمسنا النار . وقال الكوفيون : أصلها . بل التي للاضراب من الأول زيدت عليها الياء ليحسن الوقف، وضمنت الياء معنى الإيجاب والإنعام . قبل تدل على رد الجحد والياء تدل على الإيجاب لما بعد قالوا : ولو قال قائل : ألم تأخذ دينارا ؟ فقلت : نعم لكان للمعنى لا ، لم آخذ ، لأنك حققت النفي وما بعده فإذا قلت : بل ، صار المعنى قد أخذت . قال الفراء : إذا قال الرجل لصاحبه : مالك على شيء فقال الآخر : نعم كان ذلك تصديقا ، لأن لا شيء له عليه ، ولو قال « بل » كان رداً لقوله وتقديره : بل لي هليك . وفي التنزيل « ألسنت بربكم قالوا بل » (١) « ولو قالوا نعم لكانوا (٢) .

وفي كثير من الأحيان بل وفي أغلبها كانت تظهر شخصية القرطبي قوية

(١) تفسير ابن عطية نسخة مصورة بدار الكتب من ١١٧ آية ٨٢ من سورة الققرة .

(١) آية ١٧٢ من سورة الاحراف .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١١ .

مستقلة وقد تقدم لنا في أول الفصل ما يؤيد ذلك . ونسوق هنا بعض الشواهد الأخرى التي توضح هذه الحقيقة .

في قوله تعالى « إياك نعبد » ذكر القرطبي كثيراً من القراءات وناقش بعضها ولم يذكرها ابن عطية ، بل لم يتعرض للقراءات في قوله « إياك » أصلاً (١) .

وفي قوله تعالى « إنما نحن مصلحون » يقول ابن عطية :

« ونحن اسم من ضمائر المرفوع مبيهاً على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم والاثني والجماعة ، فأعطي أسنى الحركات وأيضاً فلما كان في الأقلب ضمير جماعة وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطى الضمة إذ هي أخت الواو (٢) .

ويقول القرطبي : قوله « نحن » أصل « نحن » نحن قابت حركة الحاء على النون وأسكنت الحاء قتله هشام بن ماوية النحوي . وقد الزجاج « نحن جماعة » ومن علامة الجماعة الواو . والضمة من جنس الواو . فلما اضطروا إلى حركة « نحن » لابقاء الساكنين حركوها بما يكون للجماعة قال : لهذا ضموا واو الجماعة في قوله عز وجل « أولئك الذين اشتروا الضلالة » وقال محمد بن يزيد : « نحن » مثل قبل وبعد لأنها متعلقة بالإخبار عن اثنين وأكثر . فأننا لا واحد . « ونحن » للثنية والجمع . وقد يخبر به المتكلم عن نفسه في قوله : نحن قنا . قال الله تعالى « نحن قسمنا بينهم مدينتهم (٣) »

(١) هــ. الق. ط. ج ١ ص ١٢٦ وقد تقدم ذلك في فصل القراءات .

(٢) عسر ابن عطية نسخة مصورة بدار الكتب ص ٢٥ .

(٣) آية ٢٧ من سورة الزحرف .

« والمؤث في هنا إذا كانت مشكلة بمنزلة المذكور . تقول المرأة : قت
وذبت وقتنا وذعبنا . وأنا فلت ذلك ونحن فعلنا ، هذا كلام العرب
طالع (١) » .

فإذا كان الدكتور « آثر جفرى » يريد بعبارة أن تفرق ابن هانية كان
أصلاً لأغلب تفسير القرطبي في هذه العبارة شيء من المبالغة .

على أن شخصية القرطبي تظهر قوية في أنه كان — أحياناً — يمزج أقوال
المفسرين ويعرضها في صورة متماسكة لا خلل فيها ولا اضطراب . ففي قوله
تعالى « يا بني إسرائيل » يقول القرطبي « قوله تعالى « يا بني إسرائيل » نداء
مضاف علامة النصب فيه الياء وحذفت منه النون ، للإضافة . الواحد : ابن
والأصل فيه بنى . وقيل : بنو : فن قال المحذوف منه واو . احتج بقولهم البنوة
وهنا لاحجة فيه لأنهم قالوا : الفتوة . وأصله الياء . وقال الزجاج : المحذوف
منه هدى ياء كأنه من بنيت . الأخفش : أختار أن يكون المحذوف منه الواو
لأنه حذفها أكثر لثقلها . ويقال : ابن بين البنوة . والتنصير بنى ، قال الفراء
يقال : يا بني ويا بني لفتان مثل يا أبتَ ويا أبتَ وقرىء بهما . وهو مشتق من البناء
وهو وضع الشيء على الشيء . والابن فرع الأب وهو موضوع عليه (٢) .

وهذا النص قد نقله القرطبي عن النحاس والمهدوى .

يقول النحاس في إعراب القرآن :

« يا بني » نداء مضاف علامة النصب فيه الياء . وحذفت منه النون للإضافة .

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٠٣ .

(٢) إعراب القرآن ورقة ٦ .

الواحد : ابن والأصل منه بنى وقيل فيه : بنو ولو لم يحذف منه لقبيل بنا .
كما يقال عصا . فمن قال المحذوف منه أو احتج بقولهم البنوة وهذا لاحجة فيه ،
لأنهم قد قالوا : الفتوة ، قال أبو جعفر : سمعت أبا إسحاق يقول : المحذوف منه
هندي ياء . كأنه من بنيت (١) .

ويقول المهدوي : في نفس الآية : « الابن مشتق من البناء وهو وضع الشيء »
هل الشيء فالابن فرع الأب وهو موضوع عليه . وأصل ابن قيل : بنى وقيل :
بنو : وقيل : بنى . وقيل : بنو . واختيار الأخفش أن يكون المحذوف منه
الواو لأن حذفها أكثر لتقلها (٢) .

فلم لا يقال إن القرطبي قد مزج أقوال ابن عطية — في بعض الأحيان —
بأقوال غير من المفسرين . بدل أن يقال : القرطبي قد أخذ تفسيرا ابن عطية
وارتكز عليه وجعله أصلا لأغلب تفسيره أو أكثره . فالقرطبي قد مزج قول
ابن عطية في قوله تعالى « وأشربوا في قلوبهم العجل » يقول الماوردي (٣) .
وفي قوله تعالى « بلى من كسب سيئة » مزج ما قاله ابن عطية بما قاله المنحاس .
في إهراب القرآن (٤) .

وهل كل في عبارة الدكتور « آرتور جفري » مبالغة إن كان يريد بها
ما ذكرنا . فإن كان يريد أن القرطبي تأثر بابن عطية فهذا ما سلم له .

(١) أهراب القرآن ورقة ٦ .

(٢) التتصيل ورقة ٥ نسخة خطية بدار الكتب رقم ٨٧ .

(٣) انظر فسر الماوردي ورقة ١٣ .

(٤) انظر أهراب القرآن ورقة ٩ .

ويمجبنى ما قاله أستاذنا الشيخ « محمد حسين الذهبي » فقد ختم حديثه
عن القرطبي بقوله « وعلى الجملة فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا حر في
بعثه ، نزيه في نقده ، هف في مناقشته وجدله . لم بالتفسير من جميع نواحيه .
بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه (١) .

(١) التفسير والفصول ج ٣ ص ١٣٠ .

الخاتمة

لقد، صاحبت « أباعبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي » أكثر من أربع سنوات حاولت خلالها أن أتعرف على حياته ، وعلى نشأته ، والبيئة التي أحاطت به . كما حاولت ، في هذه المدة أن أكتشف من منهجه في التفسير من خلال كتابه الكبير « الجامع لأحكام القرآن » وكان من نتيجة هذه المصاحبة وهذه الدراسة الطويلة كتابة هذا البحث المتواضع الذي جاء في ثلاثة أبواب ولقد كان الباب الأول دراسة تاريخية لقرطبي ، ويثبت التي أحاطت به — ورغم أن المراجع التاريخية أهملت حياة القرطبي الأولى وأسرة التي عاش فيها ، كذلك أهملت هذه المراجع ، حياة القرطبي في شبابه وموقفه من أحداث عصره ، وحياته عندما قدم إلى مصر واستقر بالصعيد . رغم كل هذا — فإني حاولت أن أقدم للقارئ شيئاً من حياة هذا الشيخ الجليل ، وعن أبيه — وعن نشأته الأولى ، وعن قدومه إلى مصر . وهنا الشيء وإن لم يكن كثيراً فإنه قد يكشف بعض الغموض الذي أحاط بالقرطبي .

وعندما تحدثت عن أخلاقه وثقافته ، توصلت إلى أن زهد القرطبي الذي أجمع المؤرخون عليه لم يكن زهداً في حلال الله ، وإنما كان بمعنى أنه لم يعمل الدنيا هدفاً له وغاية ، وناقشت ما يتصل بذلك من بعض القضايا .

أما التلمذة على القرطبي ، فهي سجل مطوي لم أستطع أن أنض غلافه . حتى التلميذ الوحيد الذي ذكره المؤرخون وهو « شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن فرج » لم أستطع أن أجزم هل هو « شهاب الدين أبو العباس أحمد »
« ٣٠٤ - القرطبي »

ابن فرح الأشبيلي ، الذى ترجم له كثير من المؤرخين أم لا . ولكننى أثرت
احتمالاً مؤيداً بعض القرائن فقلت على ضوئها : قد يكون « ابن فرح » الذى
ذكره للؤرخون تلميذاً للقرطبي وولداً له هو « ابن فرح الاشبيلي المحدث »
ولقد حاولت أن أكشف عن عدد مؤلفات القرطبي ، وأن أحدد أماكن
وجودها فتوصلت إلى أغلب ذلك . ولما تناولت حقيقة القرطبي وبيئت أنها
كانت سنية أشعرية ناقشت بعض المؤرخين والباحثين الذين يزعمون أن
الأندلس ، كانت قبل ظهور « ابن تومرت » سنية سلفية .

أما الباب الثانى : فقد كان دراسة لمصادر للقرطبي ، وبيان منهجه الذى
سار عليه فى تفسيره ، وأبرز القيمة العلمية لهذا التفسير ومن تأثيره من
للفسرين . ولقد كانت مصادر القرطبي كثيرة ولكننى حاولت أن أبرز
مدى تأثير القرطبي بأهم هذه المصادر . ولقد اقتضى ذلك منى أن أفشى طويلاً
فى بطون المخطوطات للمقارنة وللرجعة وأن أبحث عن كل مصدر أشار إليه
لأعرف هل هو مطبوع أو مخطوط أو عدت عليه يد الزمن فافتقده الباحثون
والدارسون . وخرجت من هذه الدراسة ، بأن القرطبي كانت له شخصية
مستقلة يلتقى بها ما لا يرتضيه ، ويقر ما يراء الحق والصواب . غير أنى قد
أخنت على القرطبي — إذا جاز لئلى أن يلتقى مثله — أنه ينقل أحياناً عن
العلماء ويأخذ أقوالهم التى قالوها من قبل أن يعرف القرطبي نفسه ، ولا يشير
إلى ذلك ، وأنه لم يوف بما شرطه على نفسه فى مقدمة كتابه حيث قال
« وشرطى فى هذا الكتاب إضافة القول إلى قائله . . . فإنه يقال من بركة
العلم أن يضاف القول إلى قائله » .

أما عن منهجه : فإننى قد بينت موقف القرطبي من قضية التفسير المأثور
والتفسير بالرأى وأنه سلك مسلكاً محموداً حيث دما إلى التفسير بالرأى ولم

يحمل التفسير المأثور بل بين أنه الأساس الذي يرتكز عليه المفسر . ثم بينت أنه ألزم منهم موقفاً في التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ . أما من موقفه من التفسير المأثور عن الصحابة فبينت أنه كان لا ينتقل إليه بعد التفسير المأثور عن رسول الله ﷺ ، بل كان يجمع بين أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم من المفسرين ، ويقارن بين هذه الأقوال جميعاً ويختار منها ما تؤيده الأدلة والقرائن . ثم ناقشت ما يمكن أن يوجه إلى القرطبي من نقد حول هذا المسلك . وعندما تناول موقف القرطبي من القراءات الشاذة والمتواترة ، بينت أن القرطبي قد استخدم القراءات الشاذة في كثير من الأغراض وأنه قد انتقد مسلك من يرد القراءات المتواترة ، لأنها لا توازي قواعد النحويين وآراءهم ، ولقد أجاد القرطبي في دفاعه ووفى هذا النقد حقّه .

وفي مجال اللغة بينت أن القرطبي استخدم كثيراً من المباحث اللغوية في توضيح الآيات ، وكان من هذه المباحث : الاشتقاق ، والاشتراك والاطلاق والتقييد . وأنه قد احتكم إلى اللغة في كثير من المجالات ، فاحتكم إليها في مهاجمة للمنزلة ، وفي مناصرته لبعض المذاهب الفقهية ، ولترجيح بعض القراءات . كما أجه في تفسيره إلى النحو ، فذكر مذاهب النحويين وآراءهم ، وحاول من خلال ذلك أن يكشف المعنى وأن يوضحه . ولقد توصلت إلى أنه قد رد بعض المذاهب والآراء النحوية ؛ لضعفها أو لإخلالها بالمعنى . وأنه استشهد بالشعر في كثير من الأغراض ورغم هذا لم ينزل في استشهاده إلى طبقة الشعراء المحدثين اللهم إلا في مواضع قليلة . ثم بينت أن مسلك القرطبي في ذلك مسلك لا ينتقد فيه ولا يلام عليه ، كذلك توصلت إلى موقف القرطبي من الشعر للصنوع والجهول الذي لا يعرف قائله وبينت أن موقفه لا يختلف مع ما قاله علماء اللغة والنحو ، ولقد تبين لي أن القرطبي يحجز

الاستشهاد بالحديث في مجال الغريب والنحو وإن كان الحديث مروياً بالمعنى .

وهندما تناولت البلاغة في تفسير القرطبي . بينت أنه كان لا يتوسع في الأسرار البلاغية ، لأن الأندلسيين لم يهتموا بهذه الدراسة . ورغم أن القرطبي قد انتقل إلى مصر ، وكانت مصر كغيرها من بلاد المشرق موطناً خصيباً لدراسة البلاغة . إلا أن القرطبي لم تهتم هذه الدراسة ، بل ظل على طبيعته الأندلسية لا يميل إليها ولا يهتم بها .

أما منهج القرطبي في التفسير الرمزي الذي استعملته الباطنية ، فقد كان يرفضه لأنه لا يوافق الشرع ولا اللغة . أما التفسير الرمزي الذي استعملته الصوفية فقد كان يقبله أحياناً ويرفضه أحياناً أخرى . كان يقبله إذا لم يتناقض مع الشرع واللغة . وكان يرفضه إذا تناقض معها . ومن أشهر مصادر هذه التفسير الصوفي : تفسير القرآن العظيم لأبي محمد سهل بن عبد الله التستري . حقائق التفسير لأبي عبد الرحمن السلمي .

ولقد توسع القرطبي في الأحكام الفقهية وذكر كثيراً من الغلطات المنهجية . وبعد أن استعرضت منهجه في ذلك ، توصلت إلى أنه كان لا يتعمد لمذهبه المالكي ، وأنه كان هدفه اللسان في مناقشاته ، وأنه كثيراً ما ردد هجوم ابن العربي وتطاوله على العلماء . ولقد تعرض القرطبي لأصول الفقه في تفسيره ، فذكر كثيراً من أدلته وقواعده وبين أثناء عرضه للأحكام كيف تبقى الفروع عليها . ومن هذه الأدلة والقواعد : النهي والظاهر ، العام والخاص ، تخصيص عام القرآن بالسنة المشهورة والمتواترة ، تخصيص عام القرآن بخبر الأحاد ، تخصيص عام القرآن بالمعروف والمأثور ، فتوى الصواب ، الاستحسان والمصلحة ، سد الفراغ . ورغم أن القرطبي أقر من ذكر

قواعد الأصول وأدلت ، إلا أنه لم يتوسع فيها توسع الأصوليين ، بل عرض لها في صورة تساعد على فهم الأحكام وتبين طريقة استنباطها :

ولقد ذكر القرطبي في تفسيره كثيراً من الأحاديث ، وكان يضيفها غالباً إلى من خرجها من المحدثين ، ولم يكن القرطبي حاطب ليل يجمع الأحاديث ويذكرها في تفسيره فقط ، بل كان ينتقدها قدماً حليماً فيذكر ما قاله أئمة الجرح والتمديد فيها من جهة سندها أو من جهة متنها . غير أني أخنت عليه أنه كان — رغم وقفاؤه الموقفة التي تشهد بطول باعه في علم الحديث رواية ودراية — يورد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ويسكت عنها ولا يعقب عليها . كما كان يورد بعض الإسرائيليات والأخبار الخرافية التي لا يقبلها عقل ، ولا يليق بمثله أن يوردها في تفسيره . ولقد كان لتفسير القرطبي أثر فيمن جاء بعده من المفسرين الذين تأثروا بالقرطبي «ابن كثير ، والشوكاني» ولقد بينت ذلك وبينت القيمة العلمية لتفسيره .

وفي الباب الثالث : توصلت إلى أن القرطبي تأثر بابن عطية في كثير من المجالات ولكنه توسع عنه أيضاً في هذه المجالات التي تأثر فيها بابن عطية . ولقد اقتضى ذلك أن أقوم بمقارنة بين التفسيرين ، وأن أقول في النهاية : إن عبارة ابن خلدون التي يقول فيها « فلما رجع الناس إلى التحقيق والتحريص ، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلخص تلك التفاسير كلها — يعني تفاسير المنقول — ونحصر ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى ، وتبناه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر بالشرق » وعبارة الدكتور آرثر جفرى التي يقول فيها « وقد صنف — أي ابن عطية —

تفسيره المسمى «الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير القرآن العزيز» في الأندلس،
وصدوره بمقدمة في علوم القرآن . وكان تفسيره هذا كما هو معلوم ، أصلاً
للكثير ممن اشتهر به القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» إن هاتين
العبارتين لا يفهم منهما ، إلا أن القرطبي تأثر بابن عطية ، أما أن القرطبي
نقل تفسير ابن عطية أو توسع في أصوله التي نقلها عنه ولم يأت بأكثر من
ذلك . فهذا مردود من أساسه .

وأخيراً فهذه رسالتى هن «القرطبي ومنهجه في التفسير» أرجو من الله
تبارك وتعالى أن تنال القبول وأن ينفع بها ، إنه جميع الدعاء . والحمد لله
رب العالمين ، والعلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف النبيين والمرسلين .

المراجع والمصادر

- (١) القرآن الكريم .
- (٢) ابن حزم : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٣) ابن تيمية : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٤) ابن تيمية : الدكتور محمد يوسف موسى — سلسلة أهلام العرب .
- (٥) أبو حنيفة : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (٦) أبو هلى الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية وآثاره في النحو والقراءات : الدكتور هبد الفتاح شابي — مطبعة نهضة مصر بالقجالة .
- (٧) الاتقان في علوم القرآن : السيوطى — مطبعة الحلبي .
- (٨) أثر القراءات القرآنية في الدراسات النحوية : الدكتور هبد الامال سالم طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- (٩) أحكام القرآن : ابن العربي تحقيق الأستاذ محمد البجاوى طبع عيسى الحلبي .
- (١٠) الاحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب — تحقيق الأستاذ محمد هبدالله هنان — دار المعارف .
- (١١) الأدب الأندلسى : الدكتور أحمد هبكل — دار المعارف .
- (١٢) الادب في العصر الايوبي : الدكتور محمد زغلول سلام — دار المعارف .
- (١٣) أسد الغابة في معرفة الصحابة : ابن الأثير — جمعية المعارف سنة ١٢٨٦ .

(١٤) الاسرائيليات فى التفسير والحديث : الشيخ محمد حنين الذهبي . مجمع البحوث الإسلامية .

(١٥) الاستقصا فى أخبار دول المغرب الاقصى : أحمد بن خالد السلاوى — طبع المصرية .

(١٦) الإسلام والحضارة العربية : الأستاذ محمد كرد على — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١٧) أصول الفقه : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربى .

(١٨) أصول الفقه : الشيخ محمد الخطيرى — المكتبة التجارية الكبرى .

(١٩) أصول السرخسى : بتحقيق الأستاذ أبو الوفا الافغانى .

(٢٠) إعجاز القرآن : الأستاذ مصطفى صادق الرافعى — طبع الاستقامة .

(٢١) الإلهام : خير الدين الزركلى — طبع الظاهجى .

(٢٢) أهلام الإسكندرية : الدكتور جمال الدين الشيال — دار المعارف .

(٢٣) الانصاف فى مسائل الخلاف : الكمال بن الانبارى — تحقيق الأستاذ محمد محى الدين هبى الحميد — طبع السعادة .

(٢٤) الانصار بواسطة عقد الامصار : ابن دقاق — طبع بولاق .

(٢٥) الاماع : القاضى هياض اليعصبى تحقيق الأستاذ سيد صقر — دار التراث .

(٢٦) الأم : الإمام الشافعى — طبع الحلبى .

(٢٧) بين الدين والفلسفة : الدكتور محمد يوسف موسى — دار المعارف .

- (٦٨) البداية والنهاية : الحافظ ابن كثير — طبع بيروت .
- (٦٩) البلاغة والأدب : الشيخ إبراهيم الصباغ — دار التأليف .
- (٧٠) الناجع الجامع للأصول في أحاديث الرسول : الشيخ منصور علي ناصف — طبع عيسى الحلبي .
- (٧١) تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر الجوهري — طبع سنة ١٢٨٢ هـ .
- (٧٢) تاريخ المرابطين والموحدين : المستشرق يوسف أشياخ — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- (٧٣) تاريخ مصر : ابن إياس — الاميرية .
- (٧٤) تاريخ القرآن : الدكتور عبد الصبور شاهين — طبع دار القلم .
- (٧٥) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية : الدكتور أحمد شلبي .
- (٧٦) تاريخ علماء الأندلس : ابن الغرضي — دار التراث .
- (٧٧) تاريخ آداب العرب : الرافعي — طبع سنة ١٩٤٠ م .
- (٧٨) تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان — دار العلم للملايين ببيروت .
- (٧٩) تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة تحقيق الأستاذ سيد صقر — طبع الحلبي .
- (٨٠) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : محمد بن عبد الرحمن المباركفوري — طبع العلمية بالمدينة المنورة .
- (٨١) تدريب الراوى : السيوطي ، تحقيق الأستاذ عبد الوهاب عبد العلي — طبع العلمية بالمدينة المنورة .
- تدريب الراوى : السيوطي — طبع الخيرية .

(٤٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة — القرطبي : مطابع
مذكور وأولاده .

(٤٣) تذكرة الحفاظ : الحافظ شمس الدين محمد الذهبي — طبع الهند .

(٤٤) التذكار في أفضل الأذكار : القرطبي — طبع الخانجي .

(٤٥) التفسير والمفسرون : الشيخ محمد حسين الذهبي — طبع دار الكتب
الحديثة .

(٤٦) تفسير التحرير : العلامة الطاهر بن عاشور .

(٤٧) تفسير القرآن العظيم : الحافظ ابن كثير — طبع هدى الحلبي .

د د د : د د د — طبع الشعب

(٤٨) التكملة : ابن الأبار للقضاي — طبع مجريط .

(٤٩) التعريب والاشتقاق : الأستاذ عبد القادر بن مصطفى المغربي — مطبعة
لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٥٠) جامع البيان في تفسير القرآن : ابن جرير الطبري تحقيق الأستاذين
محمود شاكر وأحمد شاكر — دار المعارف .

(٥١) الجامع لأحكام القرآن : القرطبي — دار الكتب الحديثة .

(٥٢) الحجة في علل القراءات السبع : أبو هلى الفارسي تحقيق الدكتور
عبد الحليم النجار وزملائه — نشر دار الكتب العربي .

(٥٣) حسن المحاضرة : السيوطي — مطبعة إدارة الوطن .

- (٥٤) الحركة الفكرية في مصر في العهدين الأيوبي والمملوكي : الدكتور
عبد الطيف حمزة .
- (٥٥) خزانة الأدب : البغدادي تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون طبع السلفية .
- (٥٦) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : المستشرق آدم ماز :
تعريب محمد عبد الهادي أبو ريده — مطبعة لجنة التأليف والترجمة
والنشر .
- (٥٧) الحديث والمحدثون : الشيخ محمد أبو زهرة — مطبعة مصر .
- (٥٨) الخصائص : ابن جني — دار الكتب .
- (٥٩) الخطط التوفيقية : علي مبارك — الأميرية .
- (٦٠) خطط الشام : الاستاذ محمد كرد علي — المطبعة الحديثة بدمشق .
- (٦١) الخطط : المقرئزي — طبع بولاق .
- (٦٢) دائرة المعارف الاسلامية : ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه —
طبع بيروت .
- (٦٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية : ابن حجر العسقلاني — طبع الهند .
- (٦٤) الدهوة الموحدية : الدكتور عبد الله حلام .
- (٦٥) دول الاسلام : الذهبي .
- (٦٦) الديباج المذهب : ابن فوحن — طبع السعادة .
- (٦٧) الروضتين في أخبار الدولتين : أبو شامة المقدسي — وادي النيل .
- (٦٨) زهر الربى هل يجتبي النساء : السيوطي .
- (٦٩) سنن ابن ماجه بحاشية السندي — طبع العناية .

- (٧٠) سيرة ابن هشام : تحقيق مصطفى السقا وزلائه - طبع مصطفى الحلبي .
- (٧١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : ابن العماد - نشر القدسي .
- (٧٢) الشعر والشعراء : ابن قتيبة - طبع الخانجي .
- (٧٣) شرح تنقيح الفصول : التراقي .
- (٧٤) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية : العلامة محمد بن محمد بن مخلوف طبع السلفية .
- (٧٥) صحيح البخاري بمحاشية السندی - طبع العثمانية .
- (٧٦) صحيح مسلم بشرح النووي - طبع محمود توفيق .
- (٧٧) صحيح الترمذي بشرح ابن العربي - المطبعة المصرية .
- (٧٨) الصاحب في فقه اللغة : أحمد بن فارس - طبع السلفية .
- (٧٩) طبقات الشافعية : السبكي - طبع الحسينية .
- (٨٠) الطبقات الكبرى : ابن سعد - طبع لبنان .
- (٨١) طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : ابن سلام - نشر المكتبة الحمودية للتجارة .
- (٨٢) طبقات المفسرين : السيوطي طبع لبنان .
- (٨٣) المطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : كمال الدين الادنوي - طبع الجمالية .
- (٨٤) ظهر الاسلام : الدكتور أحمد أمين - لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- (٨٥) العصر المالكي في مصر والشام : الدكتور حسن ابراهيم حسن - دار النهضة المصرية .

(٨٦) هصر الرباطين والموحدين في المغرب والاندلس : الاستاذ محمد عبد الله
حنان - لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٨٧) هصر سلاطين الماليك : الدكتور محمد رزق سليم - مكتبة الآداب
بالجاميز .

(٨٨) العمدة : ابن رشيق القيرواني - تحقيق الاستاذ محمد محي الدين .

(٨٩) في الأدب الأندلسي : الدكتور جودت الركابي - طبع دار المعارف .

(٩٠) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني : الامتاز
المساهاتي - مطابع الاخوان .

(٩١) فتح القدير : الشوكاني - طبع مصطفى الحلبي .

(٩٢) غرلة الشعراء : الاصمعي - تحقيق الاستاذ محمد عبد للزعم خفاجي .

(٩٣) الفخر الرازي ومنهجه في التفسير : الشيخ علي العمادي - طبع
المجلس الأهل .

(٩٤) الفرق بين الفرق : عبد القاهر البندادي - تحقيق الامتاز محمد محي الدين
عبد الحميد - طبع مصطفى الحلبي .

(٩٥) في فلسفة ابن رشد : الدكتور عبد الرحمن بيسار - دار الكتاب
العربي .

(٩٦) فقه اللغة - الدكتور علي عبد الواحد وافي - لجنة البيان العربي .

(٩٧) فهرسة ابن خير : ابن خير الاشبيلي - طبع سرقةطة .

- (٩٨) فوات الوفیات : ابن شاکر الکتبی — الأمیریة .
- (٩٩) القرآن الکریم وأثره فی الدراسات النحویة : الدكتور عبد العال سالم طباعة دار المعارف .
- (١٠٠) القراءات القرآنیة : الدكتور عبد المصبور شاهین .
- (١٠١) قرطبة فی التاریخ الإسلامی : الدكتور جودة هلال — المكتبة الثقافية .
- (١٠٢) المقاموس المحیط : الفیروزآبادی — للمکتبة التجارية الكبرى .
- (١٠٣) الکامل : ابن الاثیر .
- (١٠٤) الکافی الشاف فی تفزیج أحادیث الکشاف : ابن حجر المسقلائی . مطبوع علی هامش الکشاف .
- (١٠٥) الکشاف : الزخشری — طبع الاستقامة .
- (١٠٦) کشف الظنون : حاجی خليفة — طبع أستنبول .
- (١٠٧) الآلء للممنوعة فی الأحادیث الموضوعة : السیوطی — طبع التجارية .
- (١٠٨) لسان العرب : ابن منظور — طبع الأمیریة .
- (١٠٩) المهجات العربیة : الدكتور عبده الراجحی — طبع دار المعارف .
- (١١٠) منحة للمعبود فی ترتیب مسند العلیالی أبی داود : الأستاذ الساعاوی مطابع الأخوان .
- (١١١) مجلة الرسالة حدد رقم ٨٥٨ لسنة ١٩٤٩ م .
- (١١٢) مجلة المجتمع العلمی العربی — المجلد المشرون سنأ ١٩٤٥ م .
- (١١٣) مختار الصحاح : الرازی — طبع الأمیریة .

- (١١٤) مرآة الجنان : الياضي .
- (١١٥) مصر في عصر الايوبيين : الدكتور السيد الباز العربي .
- (١١٦) الموجب في تلخيص أخبار المغرب : المراكشي ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد المرين — طبع المجلس الأهل .
- (١١٧) معجم المؤلفين : حرر رضا كحالة — طبع الترقى بدمشق .
- (١١٨) معجم البلدان : ياقوت الحموي — مطبعة السعادة .
- (١١٩) معرفة السنن والآثار : البيهقي تحقيق الأستاذ سعيد صقر — طبع المجلس الأهل .
- (١٢٠) المنى من حل الاسفار في الاسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار الحافظ العراقي . مطبوع على هامش الإحياء للغزالي — طبع الاستقامة .
- (١٢١) مفتاح السعادة : طاش كبرى زادة تحقيق كمال بكري — طبع دار الكتب اخديثة .
- (١٢٢) مفرج السكروب في أخبار بني أيوب : ابن واصل — تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال — لجنة التراث .
- (١٢٣) مقدمة في أصول التفسير : ابن تيمية — طبع الترقى .
- (١٢٤) المقدمة : ابن خلدون — طبع للتقدم .
- (١٢٥) مقدمتان في علوم القرآن : الدكتور آرثر جفري : نشر الخلفاء .
- (١٢٦) الزهر : السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل وزملاته — طبع الحلبي .
- (١٢٧) المدارس النحوية : الدكتور شوقي ضيف — طبع دار المعارف .

- (١٢٨) مالك : الشيخ محمد أبو زهرة — دار الفكر العربي .
- (١٢٩) مناهل العرفان : الشيخ عبدالمعظم الزرقاني — طبع عيسى الحلبي .
- (١٣٠) مقاييس القنة — ابن فارس — تحقيق عبد السلام هارون — طبع عيسى الحلبي .
- (١٣١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إيجازه : الدكتور مصطفى الصادق الجويى — طبع دار المعارف .
- (١٣٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال : الذهبي — طبع السعادة .
- (١٣٣) نزعة الألباء في طبقات اللغويين والأدباء — أى النحويين — عبد الرحمن ابن محمد الانبارى — طبع سنة ١٢٩٤ هـ .
- (١٣٤) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة : الشيخ محمد الطنطاوى — وادى الملوك .
- (١٣٥) نيل الابتهاج بتطريز الديباج : لبابا التنبكي « وهو مطبوع على هاشم الديباج » .
- (١٣٦) نشأة الفكر الفلسفى : الدكتور على سامى النشار — طبع دار المعارف .
- (١٣٧) نشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقرآن — نشر الوكالة الشرقية لثقافة الإسكندرية .
- (١٣٨) نفح الطيب : المقرئ — طبع الأزهرية .
- (١٣٩) هدية المارفين : البغدادي .
- (١٤٠) وفيات الأعيان : ابن خلدكان ، تحقيق محمد محي الدين — نشر مكتبة النهضة المصرية .

المخطوطات

- (١٤١) منهج ابن عطية المفسر : الدكتور هيد الوهاب : يد : نسخة خطية
بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٢) ابن الجوزي المحدث : الدكتور أبو العلاء أبي العلاء : يد : نسخة خطية
بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٣) الأسرار النبوية في كتب التفسير : الدكتور رمزي نفاع : نسخة
خطية بمكتبة أصول الدين .
- (١٤٤) المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز : ابن عطية : نسخة خطية غير
كاملة بمكتبة الأزهر رقم ١٦٨ تفسير . ونسخة خطية غير كاملة بدار
الكتب برقم ٩٠ تفسير .
- (١٤٥) أحكام القرآن : لكيا الطبري — نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم
٩٨ تفسير .
- (١٤٦) الاستذكار : ابن عبد البر — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٢٤ حديث .
- (١٤٧) التمهيد : ابن عبد البر — نسخة خطية بدار الكتب رقم ٣١٥ حديث .
- (١٤٨) الأحكام الصغرى : ابن عبد الحق الاشبيلي — نسخة خطية بدار
الكتب برقم ١٣١٤ حديث .
- (١٤٩) حقائق التفسير : السلي — نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٥٠ تفسير .
- (١٥٠) سير أعلام النبلاء : الذهبي — نسخة مصورة بدار الكتب رقم
١٣١٩٥ تاريخ .

- (١٥١) تاريخ الإسلام : الذهبي — نسخة خطية برقم ٤٢ تاريخ .
- (١٥٢) إهراب القرآن : النحاس — نسخة خطية بدار السكتب رقم ٤٨ تفسير .
- (١٥٣) التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لموم التنزيل : المهدوي —
نسخة خطية بدار السكتب رقم ٧٨ وأخرى برقم ٧٩ تفسير .
- (١٥٤) تفسير الماوردي : نسخة خطية رقم ١٩٦٩٣ تفسير .
- (١٥٥) طبقات المفسرين : الداودي — نسخة خطية برقم ١٦٨ تاريخ :
- (١٥٦) فهرسة شيوخ ابن عطية — نسخة مصورة بدار السكتب رقم ٤٦٤٩١ .

مراجع أجنبية

(157) C. Brockelmann,

Geschichte der arabischen Litteratur, Bd I.III, Leiden
1943 — 1946 und Suppl. I.III, Leiden 1937 — 1942

(158) Encyclopaedia Britannica vol. 25, Atlas, map No. 47.

(Andalusia)

(159) Grand dictionnaire de Geographie universelle ancienne et
moderne. Paris, vol. 3.P. 890.

الفهرست

الموضوع	صفحة
مقدمة	١
الباب الأول — القرطبي وبيئته	٥
الفصل الأول — نشأة القرطبي	٦
الفصل الثاني — أخلاقه وثقافته	٣٣
الفصل الثالث — عقيدة القرطبي	٥١
الفصل الرابع — الحركة العلمية في عصر القرطبي	٦٥
الفصل الخامس — الأصول السياسية في عصر الموحدين والأيوبيين	١٠٥
الباب الثاني — المصادر التي اعتمد عليها القرطبي	١٢١
الفصل الأول — مصادر القرطبي	١٢٣
الفصل الثاني — موقف القرطبي من التفسير والتفسير بالرأى	١٨٥
الفصل الثالث — منهج القرطبي في القراءات الشاذة والمتواترة وموقفه منها	٢١٣
الفصل الرابع — اللغة في تفسير القرطبي	٢٣٧
الفصل الخامس — البلاغة في تفسير القرطبي	٢٩٣
الفصل السادس — موقف القرطبي من التفسير الرمزي	٣٠٥

الموضوع	صفحة
الفصل السابع — الأحكام في تفسير القرطبي	٣١٩
— عدم تمصّب القرطبي	٣٤٤
الفصل الثامن — أصول الفقه في تفسير القرطبي	٣٥٨
— المام والغاص	٣٧٠
الفصل التاسع — موقف القرطبي من الأحاديث التي ذكرها في تفسيره	٣٩٥
الفصل العاشر — الاسرائيليات في تفسير القرطبي	٤١٠
الفصل الحادي عشر — القيمة العلمية لتفسير القرطبي	٤١٨
الاب الثالث - مدى تأثير القرطبي بآين عطية	٤٢٧
الخاتمة	٤٦٥
المراجع	٤٧١

رقم الايداع ٥٣٥٠ / ١٩٧٨

الترقيم الدولي ١ - ٣٦ - ٧٣٠٨ - ٩٧٧

Bibliothèque Alexandrine



0528467